

أنتوني مكجوان و ربيكا كامبل

# كيف تعلم كلبك الاقتصاد؟



مقدمة غير تقليدية

مكتبة جرير  
JARIR BOOKSTORE  
All Rights Reserved

# الغلاف الامامي



أنتوني مكجوان و ريبكا كامبل

# كيف تعلم كلبك الاقتصاد؟



مقدمة غير تقليدية

مكتبة جرير  
JARIR BOOKSTORE  
...فكر في كتابك...





# حقوق الطبع والنشر



# كيف تعلم كلبك الاقتصاد؟

مقدمة غير تقليدية





تحديد مسؤولية / إخلاء مسؤولية من أي ضمان  
هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية. لقد بذلنا قصارى جهدنا في ترجمة هذا الكتاب، ولكن بسبب القيود المتأصلة في طبيعة الترجمة، والنتيجة عن تعقيدات اللغة، واحتمال وجود عدد من الترجمات والتفسيرات المختلفة لكلمات وعبارات معينة، فإننا نعلن وبكل وضوح أننا لا نتحمل أي مسؤولية ونخلي مسئوليتنا بخاصة عن أي ضمانات ضمنية متعلقة بملاءمة الكتاب لأغراض شرائه العادية أو ملاءمته لغرض معين. كما أننا لن نتحمل أي مسؤولية عن أي خسائر في الأرباح أو أي خسائر تجارية أخرى، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر، الخسائر العرضية، أو المترتبة، أو غيرها من الخسائر.

### حقوق النشر

- لا يجوز إعادة إنتاج أو تخزين هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي نظام لتخزين المعلومات أو استرجاعها أو نقله بأية وسيلة إلكترونية أو آلية أو من خلال التصوير أو التسجيل أو بأية وسيلة أخرى .
- إن المسح الضوئي أو التحميل أو التوزيع لهذا الكتاب من خلال الإنترنت أو أية وسيلة أخرى بدون موافقة صريحة من الناشر هو عمل غير قانوني. رجاء شراء النسخ الإلكترونية المعتمدة فقط لهذا العمل، وعدم المشاركة في قرصنة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف سواء بوسيلة إلكترونية أو بأية وسيلة أخرى أو التشجيع على ذلك. ونحن نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.
- رجاء عدم المشاركة في سرقة المواد المحمية بموجب حقوق النشر والتأليف أو التشجيع على ذلك. نقدر دعمك لحقوق المؤلفين والناشرين.

### الطبعة الأولى 2025

حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير  
ARABIC edition published by JARIR BOOKSTORE.  
Copyright © 2025. All rights reserved.

Copyright © Rebecca Campbell and Anthony McGowan, 2022  
This translation of How to Teach Economics to Your Dog: A Quirky Introduction  
is published by Jarir Bookstore by arrangement with Oneworld Publications  
All rights reserved.

للتعرف على فروعنا نرجو زيارة [www.jarir.com](http://www.jarir.com)  
إذا كانت لديكم أي ملاحظات حول الترجمة أو الكتاب، أو اقتراحات لترجمة كتب أخرى، فالرجاء مراسلتنا على:  
[jbpublishments@jarirbookstore.com](mailto:jbpublishments@jarirbookstore.com)





# How to Teach Economics to Your Dog

A Quirky Introduction





## إشادات النقاد بهذا الكتاب

"كانت رحلة استكشاف أنتوني ماجوان للفلسفة في كتابه السابق تجربة موسّعة للآفاق وممتعة لأبعد الحدود، ولا يخطر ببالي أي محادثات ممتعة مبنية على أسس فلسفية لسقراط، سوى محادثات ماجوان، مع رفيق دربه مونتي، ذلك الكلب المألوف، باعث البهجة في القلوب".

توم هولاند، لمجلة نيو ستيتسمان، عن أفضل كتاب في العام

"أرشح كتاب أنتوني ماجوان، لكل من في حاجة ماسة للقراءة المتعمقة عن مفاهيم الحياة المختلفة، وكيفية التعامل مع الكلاب، الكتاب عبارة عن مجموعة من المحادثات التي خاضها الكاتب مع كلبه "مونتي" أثناء تنزههما، إن الفصل الأخير من الكتاب، أشبه بجلسة مؤثرة من التأمل العميق تتناول الكثير من المفاهيم مثل الموت والوجود والعدم، ويظهر فيه الإلهام من فلاسفة مثل أرسطو، وشوبنهاور، وبعد الانتهاء من القراءة، سيخالجك شعور غريب، ويجعلك تعتقد بأن الكلاب لطالما احتفظت بأجوبة للعديد من الأسئلة المحيرة في الحياة، وهذا يؤكد محدودية المعرفة عند الإنسان كما تناولها شكسبير في مسرحية هامليت حينما قال: هنالك الكثير من الأشياء التي لم تسمع بها أذنك، ولم ترها عينك في هذا العالم يا هوراشيو، أشياء يستحيل تخيلها على أكثر العقول جموحًا".

صحيفة ذا جارديان

"يتسم الكتاب باحتوائه على العديد من الأفكار الثاقبة، كما أنه بمثابة رحلة مبهجة من بدايته لنهايته، يشرح فيه ماجوان لكلبه مونتي موضوعًا واحدًا فقط، ألا وهو الحياة وما تمثله لنا، تناول الكاتب هذا الموضوع بأسلوب تنوعت نغماته بين الطرافة والتألق والسخرية، ليتنا محظوظون بما يكفي مثل مونتي، حتى يتسنى لنا التنزه لأوقات طويلة مع المؤلف".

بيتر فرانكوبان، مؤلف كتاب *The Silk Roads*

"الكتاب يتناول موضوعات عميقة حقًا، ولكنه فكا هي في الوقت ذاته".

أليكس بريستون

"إنه لدليل مُسلّ وسهل المنال، إنه يرشدنا إلى أهم الأسئلة الفلسفية التي تجول بخاطرنا، واختيار مثالي بالنسبة للمبتدئين في بحر الفلسفة".

مجلة آيدلر

"هذا الكتاب سهل القراءة وطريف، وبمثابة منارة إرشاد للعقل".

صحيفة تشيرش أوف إنجلاند

"لا يوجد حاليًا في بريطانيا أي مثيل للكاتب في المستوى نفسه من براعته وفطنته وطاقته ونظرته الثاقبة".

روبرت تويجر، مؤلف كتاب *Micromastery*

"كتاب أنتوني ماجوان يستحق امتلاك قاعدة كبيرة من القراء، واحتمالية حدوث ذلك قوية، بفضل أسلوب الكاتب البارع والممتع، والذي استطاع أن ينغمس في موضوعات فلسفية مهمة بسلاسة، مع الإبقاء على تلك النبذة المرححة حتى النهاية".

نايجل ووربرتون، من موقع فايف بوكس

"هذا الكتاب أخذ وغني بالكثير من المعلومات المفيدة، ويعد مدخلًا مهمًا لفهم الفلسفة الغربية".

مجلة كيركس



"يستعرض ماجوان، في كتابه، مفاهيم فلسفية بنبرة مرحة من خلال مجموعة من المحادثات المتخيلة، أجراها مع كلبه مونتي، وهو أمر سيقدره القراء الذين لم يبحروا في بحر الفلسفة من قبل، أو من يشعرون بحاجتهم للعودة إلى هذه الرحلة الشيقة بصحبة أستاذ ودود مع كلبه المخلص".

مجلة بابلشرز ويكلي

# إهداء

لكل من: جابريال، وروزي، وبلا شك لمونتي

## مقدمة

عزيزي القارئ، دعني أعرفك بمونتي، الذي سيلعب دورًا في هذا الكتاب، ربما لن يلعب دور البطل، لكنه بكل تأكيد سيكون أفضل ممثل مساعد، مونتي، وهو كلب من السلالة المالطية، أحيانًا أصفه - عن غير قصد - بأنه كلب صيد مالطي، وهذه بلا شك فكرة خاطئة تمامًا، مع أنه يشبه كلاب الصيد كثيرًا في عناده وعدوانيته، الذي لا ينصبُّ على شيء بعينه. يتميز مونتي باختلاف شخصيته عن الكلاب الآخرين، فهو أليف، ويحب أن يحتويه مالكة في حضنه، لا أن يُترك هائمًا في الشوارع، وتحت الأنفاق يصيد الجرذان.

لطالما اعتبرت الإشارة للسلالة المالطية، بأنها "كلاب مالطية"، أمرًا غريبًا بالنسبة لي، وهو أمر غير ضروري أيضًا، فلن يخلط أحد بين مونتي وأرنب مالطي، أو بينه وبين حيوان مالطي آخر. يتميز مونتي بلون أبيض، وشعر ناعم كثيف، وعندما يتحمم ويجف، يشبه مظهره زهرة الهندباء البيضاء التي تعج بالبذور، وفي أحيانٍ أخرى، يكون مونتي ذا مظهر فوضوي وضامر تمامًا، كمظهر شخص قد عطس للتو بعنف، علاوة على ذلك فإن كلاب هذه السلالة تميل إلى أن تظهر تحت أعينها هالات داكنة، تشبه في مظهرها الماسكرا التي تضعها النساء في رموشهن، وهي تجعل مونتي كأنه شخص قوطي مصاب بالمهق وفي خضم أزمة عاطفية.

ومع كون الكلاب المالطية غير مشهورة بالذكاء، فإن مونتي دائمًا تعتلي وجهه نظرة تهكمية وفضولية في الوقت ذاته، وكثيرًا ما يميل برأسه في مظهر ينم عن الانتباه، ما يجعله يبدو - على الأقل - كأنه ينصت جيدًا لما أقوله.

أعتقد أنني أسهبت في وصف مظهر مونتي، فدعونا الآن نتحدث قليلًا عن الأهم وهي شخصيته، إذا كنت تمتلك كلبًا، فأنا أتصور أنك تتحدث إليه بشكل اعتيادي، فتلك طريقة للتعبير عن الحب والعاطفة تجاهه، وأيضًا هو تشجيع يتخلله بعض الأوامر له، كأن يأتي



إليك، أو يجلس إلى جانبك، أو يتوقف عن مطاردة ساعي البريد أيضًا، يخالجنني شعور قوي بأن بعضًا من كلابكم تبادلكم أطراف الحديث بالطرق التقليدية الخاصة بالكلاب، كالنباح، أو العواء، أو تحريك الذيل، ولعل الأمر يذهب بك لمذاهب أكثر بلاغة، حيث تظهر الكلمات وتأخذ شكلاً في باطن عقلك، حتى يمكنك فهمها ونطقها بوضوح فتقول: "ماذا تريد؟، أتريد بعضًا من البسكويت؟، أتريده الآن؟".

يمكننا القول إن مونتي كلب استثنائي، فيما يتعلق بالطريقة التي يعبر بها عما يجول في خاطره، وهذه المهارة أصقلها أثناء سلسلة من النزعات التي قُمنّا بها معاً، وجميعها مسجلة في كتاب *How to Teach Philosophy to Your Dog*، وهذا ما عرّف مونتي على أساسيات وتقنيات المحادثة، وجعله يتعلم مختلف الأشياء في خضم الحديث، أنا أتفهم أن هناك درجة صغيرة من الشك تحوم في ذهن القارئ في هذه اللحظة (ولقد تناولت مفهوم الشك بالتفصيل الدقيق في الكتاب المذكور آنفاً) عن مدى قدرة أي كلب بسيط ذي قدرات محدودة في أن يشارك نقاشات فكرية معقدة، وسأضرب لكم مثلاً يبرهن صحة قلبي، ويخفف عنكم الشكوك: في كتاب *The Third Policeman* يصف الروائي الأيرلندي العظيم والفكاهي، فلان أوبراين، العملية التي من خلالها تمكن رجل ودراجة، بالاندماج في كيان واحد، عن طريق الاستعانة ببعض الحقائق العلمية كالحركة البراونية - وهي الحركة العشوائية للجزيئات الصغيرة داخل مائع - وكانت العملية ناجحة لدرجة قللت قدرة الآخرين على وصف أي شيء يفرق بين الرجل والدراجة، ونَجَمَ عن هذا العديد من الحالات المشابهة التي رُصدت، حيث شعر الآخرون بأن الدراجات تتصرف كالبشر، وكأن الروح نُفخت فيها - على سبيل المثال، نزعة الدراجات إلى الاستقرار والاتكاء بجانب جهاز التدفئة خلال الطقس العاصف.

هناك شيء مشابه يحدث مع الكلب ومالكه، من دون أدنى شك - تلك الساعات الطويلة من المداعبة والجلوس على الحجر. على ذكر هذا، فإن مونتي مستغرق في النوم على حجري في هذه اللحظة، وهو معتاد أخذ قيلولة بعد تناول طعام العشاء - ومثل هذه اللحظة جعلتني أنا ومونتي كياناً واحداً، وغير قابلين للتفرقة، لدرجة جعلتني لا أستطيع تحديدها،

لذا وخلال النزعات المقبلة، لك مطلق الحرية في أن تتخيل، إما أن مونتي متأثرًا بماجوان، أو أن ماجوان هو المتأثر بمونتي، وفي كلتا الحالتين، سيكون مونتي دائمًا هو الطرف المبتدئ الشغوف للتعلم من خلال هذه النقاشات.

وبعدما خضنا رحلاتنا في بحار الفلسفة، كان من الواضح جدًا أن مونتي، لم يكتفِ بعد، فالفلسفة علم واسع، يدخل في العديد من الأشياء بحياتنا، ويمكن تعريف الفلسفة على أنها "حُب الحكمة"، وهي دراسة للأسئلة العامة والأساسية التي تدور في عقلنا عن الوجود والمعرفة وتُرشدنا إلى أسلوب حياة تتخلله الأخلاقيات الحميدة والقيم العقلانية - لكن مع ذلك يمكن القول إن بعض العقائد الدينية تُحذر من الإفراط في البحوث الفلسفية، خاصة تلك التي تتعلق بحقيقة الوجود الالهي، وهذا لن يغير شيئًا من إدراكنا نحو صراعنا اليومي لكسب لقمة العيش - ويشمل الطريقة التي تنظم بها المجتمعات أعمالها حتى تحقق أقصى استفادة ممكنة لأكبر عدد من الناس، وهذا يمثل فجوة تصعب فهم أي نفس بشرية (وغير بشرية أيضًا)، وهنا يأتي دور الاقتصاد ليساعدنا على سد تلك الفجوة، ومن هنا جاءت تسمية كتاب "روبرت هايلبرونر" الكلاسيكي *The Worldly Philosophers*<sup>1</sup> والذي يتناول تاريخ الاقتصاد، والاقتصاد هو القوة التي تخرجنا نحن الفلاسفة من عالمنا الصغير الذي صنعناه بمخيلاتنا، وتعيد توجيه انتباهنا إلى الواقع الذي نعيش فيه.

نحن محاصرون في هذه الحياة، داخل تروس تحركها قوى اقتصادية، تأتي بدورها من خلال عمليات تصنيع وتجارة وبيع المنتجات الاستهلاكية، وهذه القوى هي التي تحدد نهج حياتنا. لا يزال هناك جانب إنساني يكمن تحت ظل هذه الظروف، وهو يربطنا جميعًا ببعضنا البعض، ولكن النهج الحديث والمعقد لحياتنا، والذي يستمر إلى أبد الدهر أيضًا، والمتمثل في كيف نقضي أيام العمل، مكان معيشتنا، نوعية طعامنا، أسلوب ارتداء ملابسنا ونوعيتها، وكيف نقضي أيامنا بعد التقاعد، كل ذلك يتم تحديده ورسم نمطه بواسطة تلك القوى الهائلة غير البشرية. إن الاقتصاد أعظم أداة نمتلكها في الوقت الحالي (وبصفتي فيلسوفًا، فهذا يحطم قلبي بصدق)، فهو الذي يساعدنا على فهم طبيعة تلك القوى.

وسنستعرض سلسلة من النزعات، تحاول فيها دكتور ريبكا كامبيل - التي شاركت في الكثير من المواضيع بكتابي السابق، ولكن بشكل محدود - أن تشرح مفهوم الاقتصاد لمونتي، ومن خلاله سنفهمه نحن أيضًا بدورنا، ومع أن هذا الكتاب مُعد ليكون تمهيدًا لطيفًا مرحًا يُعلم الاقتصاد، إلا أنه يشبه في هيكله أي دورة تمهيدية يدرسها الطلبة عن علم الاقتصاد خلال عامهم الأول، لذلك وبطبيعة الأمر تنقسم الدورة إلى نصفين، يتناول النصف الأول، مفهوم الاقتصاد الجزئي، و النصف الثاني، يتناول مفهوم الاقتصاد الكلي. وأعدكم بأن هذه المصطلحات سيتم شرحها بعد قليل، ولكن في الوقت الراهن، يمكننا فهم الاقتصاد الجزئي، على أنه المختص بدراسة الأشياء على نطاق صغير، مثل التبعات الاقتصادية المترتبة على القرارات التي يتخذها الفرد، أما الاقتصاد الكلي، فهو على العكس من ذلك، فهو يختص بدراسة الأشياء على نطاق أكبر، مثل سياسات الحكومات، والبنوك الدولية وأثرها على الاقتصاد، وأسعار الفائدة، ومعدل الإنفاق الحكومي.

إن السياسة والاقتصاد جزءان لا يتجزآن من بعضهما البعض على نحو جلي، فالقرارات السياسية لها عواقب اقتصادية، والعكس صحيح بكل تأكيد، ويجدر بي الإشارة إلى أن كل زواج ناجح قائم على الاختلاف، وهذه هي حالي مع دكتور كامبيل، فهي معجبة كبيرة بمفهوم الرأسمالية والأسواق الحرة، ومن دون أي دليل عملي ملموس، تعتقد أن هذا النظام غير حياة المليارات من الناس إلى الأفضل، أما أنا فشخص لديه نزعة ماركسية وميول لا سلطوية اتحادية. في احتفالات رأس السنة الماضية، وددت أن أهدى قبعة "لتشي جيفارا" وملصقًا مكتوبًا عليه "هذه الآلة تقتل الفاشيين" لأضعه على جيتاري (من المؤكد أنكم تتساءلون عما أُهديت به فيما بعد، لم يكن سوى مشروب صودا ستريم وزوج سراويل داخلية من ماركة إم آند إس)، بما أن هناك بعضًا من جزيئات ماجوان تجري في عروق مونتي، فإنه لن يقبل بسهولة بأيديولوجيات دكتور كامبيل المؤيدة لنظام السوق، ولكن هذا لا يمنع أن علم الاقتصاد وضعت أسسه على دراسة مفهوم السوق وطريقة عمله، وهذا هو الموضوع الأساسي الذي سيتناوله الكتاب.

في خلدي بعض كلماتٍ أخرى أريد البوح بها عن الاقتصاد المحلي الخاص بعائلة ماجوان/ كامبيل، إذ يميل خبراء الاقتصاد إلى تطبيق أمثلة واقعية تساعد في شرح بعض المفاهيم الصعبة، واحد من تلك الأمثلة - وهو مثال مشهور للغاية حتى إن غير الخبراء بالاقتصاد مثلي قد سمعوا به - استخدمه آدم سميث في مقدمة تحفته الفنية *The Wealth of Nations* التي صدرت عام (1776) يتضمن شيئاً عن صناعة الدبابيس، وسيكون من الخاطئ الاعتقاد بأنها عملية سهلة وبسيطة حتى لو بشكل نسبي. في صناعة الدبابيس: "يقوم رجل ما بسحب سلك رفيع، ثم يقوم رجل ثانٍ بفردّه، وثالث يقطعه، ورابع يدبّه إلخ..." وتستمر هذه العمليات حتى نصل إلى ناتج ثماني عشرة عملية تختلف عن بعضها البعض، وكل منها يؤديّ بواسطة عامل كادح مسكين، لا يفعل شيئاً في حياته سوى هذا".

ومع أن تخصص كل فرد في مهمة وظيفية محددة يمكن اعتباره شيئاً مضجراً ويحرم العامل من المتعة الطبيعية التي تأتي من القيام بعملية التصنيع، إلا أنه يزيد معدلات الإنتاج بشكل كبير، فعندما يجتمع عشرة رجال ليعملوا معاً، يمكن ذلك شركة سميث ريكونز، من إنتاج ما يزيد على 48 ألف دبوس يوميّاً، ولكن إذا عمل رجل بمفرده، فلن يزيد إنتاجه على 20 دبوساً، فمن سيجرؤ على الوقوف بوجه هذا التقدم؟

مارجريت تاتشر (كما يَصوّر لك على الأرجح، نمتلك عنها آراء مختلفة أنا ودكتور كامبيل)، كانت مولعة بمقارنة النهج المُتبع في إدارة اقتصاد الأمم المختلفة بالنهج المُتبع لإدارة الميزانية المنزلية، وكانت تُوازن بين الدخل والنفقات، وتحاول أن توفر في شيء ما، حتى تنفق على شيء آخر أكثر أهمية، ولكن دعوني أخبركم بأمر: إن هذا لمحض هراء، فإدارة اقتصاد الدول لا تشبه إدارة ميزانية أسرة صغيرة على الإطلاق، ولكن تتفق إدارة الشئئين في أمر، ألا وهو التخصص.

يتخصص كل فرد من أفراد أسرتنا في أدوار محددة، وهي جميعاً تتساوى في الأهمية، فعلى سبيل المثال، ابنتنا روزي تملأ البيت بالفرحة والحيوية والحماس، أما ابنتنا جابريال، فهو يتميز باقتضاب كلماته ومواجهة الأمور برباطة جأش قوية، أما عن ربيكا (المعروفة

بدكتور كامبيل) فهي مسئولة عن إدارة المنظومة بأكملها، وهذا يشمل: إنجاز المهام، ودفع الفواتير، والتأكد من أن كل شيء على ما يرام حتى لا تقع الأسرة في منحدر من فوضى عارمة، ثم يأتي دور مونتي، الذي يطغى حبه على كل شيء من حوله بطريقته المميزة التي لا يفعلها أحد سواه.

أما عن دوري في هذه الأسرة، فهو التجوال بالمنزل وإطفاء الأنوار التي تركت مضاءة من قبل الآخرين، وإصلاح غسالة الأطباق بطريقة مبنية على أسس علمية دقيقة، أو على نظريات غريبة الأطوار من ابتكاري، ولقد نسيت أهم شيء: وهو الخروج مع مونتي في نزهات طويلة بشكل لا يمكن أن يتصوره الآخرون، وهذا ما بُنيت عليه أسس كتاب *How to Teach Philosophy to Your Dog* لكنني سأستقيل من هذه الواجبات، فريبكا، ستتولاها من الآن فصاعدًا، ولك مطلق الحرية في أن تتخيلني أجوب في عقل مونتي بطريقة غامضة من حين لآخر، وكما قال - أو ربما لم يقل - الكوميديان جروتشو ماركس: "نعم الصديق كتاب يشدك، وخير من ذلك كلبٌ يُحبك، ولكن الأخير تستحيل قراءة صفحاته".

# النزهة ١: محمصة الخبز

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: كيف بإمكاننا أن نفهم الأسواق والاقتصاد عمومًا، من خلال الاستعانة بمحاولة رجل صنع محمصة خبز بنفسه.

كان يومًا من تلك الأيام التي يغلب فيها على وجبة الإفطار التوتر الشديد، حيث ساد الجميع مزاج متعكر وعصبي، إن للفيلسوف طريقة مميزة في افتعال الفوضى، ليس هذا فحسب، بل واصطحابها معه إلى أي مكان يحل فيه، كالحلزون الذي لا يستغنى عن صدفته أينما ذهب، فهو يعتقد أن الفوضى التي يتسبب بها غرضها الأول هو الإبداع والاستفادة، تمامًا مثل من يزعم أن باستطاعته صنع كعكة إذا رمى قنبلة يدوية في المطبخ! روزي وجاب تشاجرا حول من سيضطر إلى الجلوس على كرسي المطبخ المكسور، وكالعادة، فازت روزي بالشجار كما تفوز بكل المعارك التي تعقد عزمها عليها، واتجه جاب، والغضب يعتريه نحو المحمصة، وأدخل فيها شرائح سميكة من الخبز، تصاعد الدخان من المحمصة خلال بضع ثوان، ثم دوت منفجرة وانقطعت الكهرباء.

صرخ الفيلسوف بفزع "لا تفزعوا!"، إنه يمتلك بعض المواهب الخاصة بالإصلاح والصناعة اليدوية، وإحداها هي قدرته على إصلاح صمام كهربائي معطوب (أو أيًا كان ما يطلق عليه)، تضمنت هذه العملية: التفتيش بدقة داخل الخزانة، والزمجرة، وكثيرًا من السباب! لكن المشكلة اليوم لم تكن تتعلق بالكهرباء وحدها.

إذ قال الفيلسوف: تكمن المشكلة برمتها في المحمصة، حيث تلوث بداخلها بلورات الديليشيوم، بفعل بعض من شظايا متفحمة من السكريات المتأينة، أو قال شيئًا مشابهًا لذلك، فأنا لم أكن حقًا منصتة بدقة لما قاله، بعدها، نطق بالكلمات التي يرتعد جميع أفراد العائلة خوفًا منها، قال: "سأحضر صندوق الأدوات"، تنهد جاب، ونحبت روزي، وهرع مونتي نحو غرفة النوم وخبأ نفسه تحت وسادة ما، أما أنا فوضعت وجهي بين يدي يائسة.

بعد نصف ساعة، تحول المطبخ إلى ما يشبه إحدى مكبات النفايات بفيلم *Mad Max*، ووجدت المحمصة مفككة لأجزاء صغيرة متناثرة، ثم قلت "هيا بنا يا مونتي، لنخرج من هنا".

لم تكن هذه المرة إحدى نزهاتنا الطويلة بالحديقة، بل مجرد نزهة مسلية في شوارع ويست هامبستيد، التي يخيم عليها الهدوء تحت ضوء شمس الخريف المشرقة، وابتكر الفيلسوف لعبة لعبناها في هذا الوقت من كل عام، أطلق عليها "الروليت الروسي بطابع نباتي" (الروليت الروسي هي لعبة مميتة تعتمد على الحظ نشأت في روسيا، يقوم اللاعبون فيها بوضع رصاصة واحدة في المسدس، ثم يقومون بتدوير الأسطوانة لمرات عديدة بحيث لا يعرف إذا كانت ستُطلق الرصاصة أم لا)، تضمنت الروليت النباتية، قطف مختلف أنواع الفاكهة والتوت من أسوار الحدائق العامة، وقطف الفيلسوف جميع الأنواع، حتى هذه التي لم يعرفها من قبل، حيث إنه يتعامل دائماً بمنطق أن قضة واحدة من فاكهة ذات سلالة غير معروفة لن تتسبب في موتك، وحتى إن احتوت على سم ما، فستميز مذاق السم على الفور وتلفظها من فمك! مر الفيلسوف بأسوأ تجربة له في تلك اللعبة عندما قضم ما تبين فيما بعد أنه اللب الخارجي لثمرة جوز، ولكنه أقنع نفسه بأنها ثمرة خوخ لم تنضج بعد، فدخل حينها في نوبة من التشنجات، وبصقها على الفور، قائلاً: إن مذاقها كريه إلى حد لا يوصف، والتجربة بأكملها شنيعة للغاية، ولكنه لم يصب بأي مكروه على كل حال، أنا لم أشارك في هذه اللعبة بطبيعة الأمر، ولكني أتحسس وجود بعض الدروس المستفادة من هذه القصة التي تعبر عن مدى تفوق مجال الاقتصاد على الفلسفة.

بدأت بالحديث مع مونتي: "حسناً يا مونتي، لننتحدث عما حدث اليوم بشأن المحمصة".

رفع مونتي حاجبيه... نعم، لدى مونتي حاجبان بكل تأكيد، بالإضافة إلى شارب، وكلها تبادلتني أطراف الحديث بكل طلاقة إلى حد يصيبني بالدهشة.

"أعتقد أنك ستستغلين هذا المواقف لضرب مثال ما، والاستهلال للتحدث عن الموضوع الذي ترغبين فيه حقاً، بدلاً من خوض مناقشة عمن يقع عليه اللوم في تخريب المحمصة".

"لقد كشفت ما بجعبتي، لنعتبر ما حدث مقدمة بسيطة لعلم الاقتصاد".

"يا لك من مخادعة!".

"ولنبداً أولاً بتعريف بسيط، قبل أن نتعمق في جذور الموضوع، الاقتصاد يمكن أن يعرف بشكل عام على أنه العلم المختص في دراسة القرارات المتخذة من قبل الأفراد وتأثيرها على المجتمع، هذا يتضمن عمليات الشراء المختلفة التي يقوم بها البشر، وطريقة استجاباتهم للمحفزات المختلفة من حولهم، كالعروض والإعلانات، حيث يتعامل الاقتصاد بشكل أساسي مع السوق والنظام الذي يعمل من خلالها".

"مهلاً... أنت لا تعنين بشكل سطحي سوق كامدين، التي تذهب إليها روزي، لشراء أحذية دوك مارتن، أو التي يذهب إليها الفيلسوف، لشراء أسطوانات الفاينيل المميزة خاصته، صحيح؟".

"أنا لا أعنيهما فحسب... فالسوق هي أي مكان - سواء في عالمنا الحقيقي، أو الافتراضي (الإنترنت) - يتعامل فيه الناس مع بعضهم البعض لبيع وشراء المنتجات؛ بمعنى آخر، هم يشترون المنتجات والخدمات المختلفة بمقابل سعر مالي محدد، ولكن في الواقع ما ذكرته أنت - سوق كامدين - هو مثال حي وجيد، يجسد حقيقة الأمر، ويجب أن أنوه إلى أمر بالغ الأهمية، وهو أن تلك العمليات التي تتم في السوق تندرج جميعها تحت إطار واسع من التعليمات التي تقوم المؤسسات المعنية بصكها، وهذا ما يوفر ويسهل التجارة بين السوق والمستهلكين. على سبيل المثال، هذا الإطار الذي تحدثت عنه هو ما ييسر التجارة في الأسواق الصغيرة التي نذهب إليها يوميًا كسوق كامدين، وأيضًا يعزز تطوير ونمو السوق بشكل عام على نطاق أكبر، وسنكرس الكثير من وقتنا لمناقشة هذا الموضوع بالتفصيل في نزهاتنا المقبلة.

"أريد نبذة توضح التعليمات المتضمنة في هذا الإطار..."



"إنهما العملة، والقانون، وهما اللذان يساعدان على تنظيم المعاملات التجارية المختلفة، وبفضل القوانين، تتوفر للأفراد حماية ضد الاختلاس، أو السرقة، وهي أخذ الأشياء بدون دفع قيمتها المالية المستحقة".

"ظننتك أنهيت كعكة الجبن بأكملها!".

"دعك من هذا الآن، أعطيت ما تبقى مني للفيلسوف، لنتطرق لموضوع الحديث، سأشرح لك الأسواق بالتفصيل الدقيق فيما بعد، ولكن في الوقت الحالي، لنصب تركيزنا على الاقتصاد؛ لأنه الأداة التي تمكنا من فهم طبيعة الأسواق، وعوامل نجاحها وفشلها".

"يبدو موضوعًا سطحيًا نسبيًا..."

"هذا لأن نظرتك الشخصية لمفهوم السوق وأهميتها محدودة للغاية، ولهذا السبب بالتحديد أريد أن أضرب مثالاً مستشهدة بمحمصة الخبز".

"كلي آذان صاغية..."

"منذ بضع سنين، قرر مصمم بريطاني يدعى توماس ثويتس أن يقوم بنفسه بصناعة محمصة خبز من الصفرة<sup>1</sup> لم يعتقد أن الأمر سيكون بتلك الدرجة من الصعوبة، فهو لن يحاول صناعة روبوت أو حاسوب عملاق، بل كل ما أراده فقط هو المحمصة".

"دعيني أظن، لم تجر الأمور على ما يرام، صحيح؟".

"بأت محاولة ثويتس هذه كارثة هزلية: بدأ البحث عن محمصة ذات سعر زهيد ليشتريها، وبالفعل اشتراها مقابل أربعة جنيهات إسترلينية من سوق أرجوس، ثم قام بتطبيق الهندسة العكسية وفككها إلى القطع الصغيرة التي صُنعت منها، وبمجرد انتهائه، اكتشف أن هذه الأداة البسيطة تضمنت بداخلها أربعمائة قطعة مختلفة ومنفصلة عن بعضها البعض، وهذه القطع مصنوعة من مئة مادة خام مختلفة، وبما أنه - بطبيعة الحال - لم يستطع جمع

كل هذه المواد، بذل كل ما بوسعه بخمسة أنواع فقط من المواد الخام: حديد، بلاستيك، لكاث، نحاس ونيكل، مع الوضع في الاعتبار أن هذا الرجل مصمم بارع وموهوب وذو مهارات وقدرات تقنية لا توجد لدى الكثير منا، لعلك تعتقد أنه سيتمكن على الأقل من تحقيق نتائج جيدة نسبيًا ومتقاربة".

"على العكس، أتوقع أنه أخفق إخفاقًا ذريعًا".

"توقعك في محله، فبعد انتهائه منها، بدت المحمصة مثل مخلوق بحري ذي ملامح مشوهة، وقام بتشغيلها مرة واحدة فقط، وبدأت بالتحميمص لمدة لم تتجاوز خمس ثوانٍ، بعدها بدأت العناصر والمواد بالانصهار، وكلفته هذه التجربة برمتها ما يقارب ألفًا ومائة وسبعة وثمانين جنيهًا إسترلينيًا، والدروس المستفادة من هذه التجربة: أنه مهما كنت على قدر كبير من الذكاء والموهبة، فإنك إذا عملت بمفردك لن تكون قادرًا على إنجاز مهمات بهذا التعقيد، كصناعة محامص الخبز أو أي من تلك الأجهزة المنزلية، التي نعتبر وجودها أمرًا مفروغًا منه، ولكن، بوجود أداة معقدة ودقيقة كالأسواق، أصبح بإمكاننا إنتاج تلك الأجهزة بتكاليف زهيدة. إن الأمر لا يتعلق بالمحامص والأجهزة المنزلية فحسب، لكن نهج الحياة الحديث الذي نعيشه في هذا العصر، ما هو إلا سرب من العجائب التي تتحرك في إيقاع سحري فيما بينها، ينتج عنه تناغم يغذي جميع احتياجاتنا. على سبيل المثال عندما ندخل في أي من تلك المقاهي الموجودة في غرب هامبستيد لطلب كوب من القهوة، لا يعلم أحد مسبقًا أنك ستأتي لطلب هذا الكوب، ولكنه مع ذلك، موجود طوال الوقت؛ حيث زُرعت حبوب القهوة وثُركت لتنمو في كولومبيا، والحليب الطازج أتى من أبقار في ديفون، والمياه أتت منقاة جاهزة للشرب بعد رحلتها لمئات الكيلومترات تحت الأنفاق، والسكر استُخرج من البنجر الذي ينمو في شرق إنجلترا، والشيكولاتة المستخدمة في الكابتشينو صنعت من حبوب الكاكاو التي تأتي من غرب أفريقيا".

"تمهلي للحظة... جميعنا يعلم ما سيقوله الفيلسوف لو سمع كلامك هذا - سيقول إن جميع الأشياء التي ذكرتها للتو من شيكولاتة، وقهوة، ومحامص الخبز، كلها أشياء مفيدة وتبعث

السرور في القلب، لذلك، لابد من وجود ثمن خفي يقبع وراءها، ويتحتم علينا دفعه، وأعتقد أن سبب كون هذه الأشياء زهيدة في سعرها بالنسبة لنا هو أن العاملين عليها لا يتقاضون أجرًا كافيًا من المال، فضلًا عن وجود العديد من الأشخاص الذين يتمتعون بثراء فاحش، وبنوا ثرواتهم على حساب الفقر والجهد المبذول من الآخرين، وإلى جانب ذلك، هناك عامل مهم دائمًا ما يغفل الجميع عنه: وهو التأثير الذي تخلفه كل هذه الأنشطة البشرية على بيئتنا".

"وكالعادة، سيثبت الفيلسوف وجهة نظره، نحن لا ننكر الآثار السلبية الناجمة عن نظام السوق وحركة التجارة العالمية، ولكن ما تتميز به هذه الأسواق هو أنها تفتح المجال للتعاون على نطاق واسع مع مختلف الأطراف، وهذا انعكس بشكل إيجابي ومتقدم على البشر أجمعين، حيث استطعنا تحقيق مستويات عالية من الرفاهية، كما علمنا، وهذا النظام لا يعمل بشكل مثالي، ولكن طريقتنا في التعامل مع هذه الحقيقة وتفهمنا الجيد لها هو ما يفتح آفاقنا لفهم هذه الأداة المعقدة، وبعدما نحقق هذا، يمكننا حينها أن نأمل بوضع خطة من شأنها إصلاح العيوب، وهو الأمر الذي يشبه ما حدث مع ثويتس في تجربته، فقدرته على تفكيك المحمصة إلى أجزاء صغيرة لا تعني بالضرورة أنه قادر على بناء أخرى بنفسه، ولكن لعله سيستطيع إصلاح محمصتنا دون أن يفسد صمامها كما فعل الفيلسوف!".

"يعتقد البعض أن نظام الأسواق له دور مهم، وفضل كبير في تحقيق الرخاء بين الأمم، وأنه يجب على الحكومات التنحي جانبًا وعدم الوقوف في طريق الازدهار،<sup>2</sup> ولكن لدي رأي خاص حول هذا الاعتقاد، وهو أننا جميعًا (سواء كنا شعوبًا أو حكومات) أجزاء لا تتجزأ من منظومة تقوم على العمل الجماعي (منظومة السوق)، لذلك حري بنا أن نعمل بجهد على تطوير وتحسين العيوب والفروقات التي حتمًا ستنتج عن دورة عمل هذه المنظومة، أعتقد أن منظومة السوق تشبه إلى حد ما تجربة امتلاك كلب".

"ها قد بدأنا..."

"هناك الكثير من المميزات التي لا غبار عليها في هذه التجربة، كالشعور بالسعادة والرضا والتحسن العام، ولكن في المقابل، توجد بعض السلبيات".

"ولكن تلك السلبيات كنقطة في بحر!".

"تتمثل السلبيات في الاضطرار إلى الخروج في نزعات أثناء الطقس الماطر، والتقاط الفضلات وتنظيف مكانها، هذا بالإضافة إلى الحوادث التي يتسبب فيها داخل المنزل، وأخيرًا وليس آخرًا، التقاطه بعض البراغيث كل حين وآخر".

"لا يوجد أحد خالٍ من العيوب..."

"ما أعنيه والشاهد من كلامي هو أن العمل على تحقيق أقصى استفادة من إيجابيات المنظومة، والتأكد من أن عواقب السلبيات لن يتحملها الكادحون الذين لم يحالفهم الحظ، مثلي تمامًا الآن مضطرة للخروج وأخذك في نزعة".

"تبدو هذه المقارنة في غير محلها، ولكني أفهم هذا على كل حال، فأنت تشرحين الاقتصاد لكلب، لذلك أتوقع المزيد من تلك الأشياء التي في غير محلها".

"ما أحاول قوله هو أن هدفنا ليس التعظيم من شأن منظومة السوق، ولا أيضًا النظر إليها على أنها الشيطان الرجيم في القصة، بل علينا فهمها، وفي كثير من الأحيان يضطر المرء إلى أخذ بعض من الخطوات إلى الوراء حتى يتمكن من التقدم، ولهذا، سنكرس النزعات الأولى للتعلم في تاريخ الاقتصاد والرموز البارزة فيه، أو ما يعرف بـ "الآباء المؤسسين" نعم، الأبوة هي المصطلح المناسب، لأن جميعهم من الرجال، أنا أقول هذا آسفة، ولكن لم توجد أي شخصية نسائية برزت في مجال الاقتصاد حتى حلول القرن العشرين، وكما جرت العادة، هؤلاء الرموز البارزة أساء فهمهم وتم تعديل وتبسيط مناهجهم ونظرياتهم حتى تتماشى مع الأيديولوجيات الحديثة، على الرغم من معارضتهم واختلافهم العميق مع هذه الأيديولوجيات، وبعدما تنتهي من هذا الجزء الخاص بالتاريخ، سننتقل معًا إلى

الحديث عن أحد فروع الاقتصاد، ألا وهو الاقتصاد الجزئي الذي يختص بدراسة القرارات التي يتخذها الأفراد وطريقة تفاعلهم وتأثرهم بمنظومة السوق. ويجب التنويه إلى أن المقصود بالأفراد: أن يكون الشخص بمفرده، أو أسرة، أو مؤسسة، بعدها سننتقل إلى الفرع الآخر وهو الاقتصاد الكلي، وهذا يتناول مفهوم الاقتصاد على نطاق أوسع، ويشمل: السياسات الاقتصادية المختلفة، البطالة، النمو الاقتصادي، حركة التجارة العالمية، والمناهج التي تتخذها الحكومات التي من شأنها أن تساعد على تطوير الاقتصاد، أو تعرقل نموه.

ولكن في الوقت الحالي، دعنا نذهب إلى واحدة من تلك المقاهي ونتناول عينة من هذه المنتجات التي وصلت إلينا بفضل شبكات التجارة العالمية".

# النزهة ٢: الجزء ١: نبذة تشمل تقريبًا تاريخ كل شيء

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: سنستهل هذا الجزء من النزهة في شرح وتعريف علم الاقتصاد، ثم سنناقش التغييرات التاريخية التي ساعدت بدورها في إنشاء وتطوير المفهوم الاقتصادي بالسوق؛ أما في الجزء الثاني من النزهة، فسنحدث عن مشاهير الاقتصاد وأعلامه الذين برزوا في المجال، وكيف أثرت أفكارهم الخلاقة على الاقتصاد بشكل عام.

في نزهتنا السابقة، سلكنا المسار المعتاد إلى الغابة التي تمر حول حديقة جولدريهيل، هذا المسار جميل للغاية وهادئ، ويعتبر منفصلاً نوعاً ما عن هامبستيد هيث، وهذا هو مسلك جولتنا الاعتيادية، حيث نمر عبر بعض الشوارع الرئيسية حتى نصل إلى المنطقة التي تتكاثر بها الأشجار، وتكثر المسارات المتعرجة. ولو اصطحبنا الفيلسوف (زوجي، أنتوني ماجوان) معنا، لأخذ يعرفنا بنبرة من التفاخر على أنواع الطيور التي تغرد من فوقنا كأن يقول: (هذا النوع هو ذكر الشفشاف،

وعمره عامان، وقد عاد لتوه من رحلته الشتوية، ومن صوته أستطيع تمييز أنه من تشاد)، أو يشرح لنا بالنبرة نفسها أنواع الفطر المميزة والغريبة على مرأى العين، فيقول مثلاً: (هذا النوع يطلق عليه قبة الموت، ومذاقه كمذاق اللوز المحروق عند تناوله، وهو يسبب الاختناق والموت في غضون لحظات، إلا إذا تم تناوله على هيئة أقراص دوائية، وحينها يسبب بعض الوخز الخفيف لا أكثر)، ولعله سيفعل شيئاً مختلفاً تماماً، ويخبرنا إلى أي حيوانات تنتمي تلك الفضلات المتناثرة على الأرض، كأن يقول: (هذه الفضلات خاصة بحيوان العرس، تميزها سهل للغاية نظراً لحجمها الصغير ورائحة اللوز المحروق المتصاعدة منها)، ولكن لم نصطحبه معنا على كل حال، فقط أنا ومونتي والاقتصاد يلفنا.

أضحى الطقس ممطرًا، ولكن ليس بالحدة الشديدة التي ترغمنا على التخلي عن خطتنا للقيام بالنزهة، فارتدينا أنا ومونتي الملابس الثقيلة، وكان مونتي يرتدي معطفه المطري وردي اللون، الذي رأى أنه بمثابة إهانة لذكوريته ولسان حاله يقول: (إنه وردي اللون! بل إن لونه أحمر قرمزي، وهذا أسوأ وأضل!)، ثم بعدها خرجنا.

عندما وصلنا إلى منطقة منعزلة وهادئة بالغابة، قلت: "حسنًا يا مونتي، أنا متأكدة من أنك حظيت بقدر كافٍ من المرح أثناء تعلم الفلسفة، ولكن ما رأيك بأن تتعلم شيئًا ذا نفع لك؟".

نظر إليّ مونتي، بنظرة بليغة ومفعمة بالدلالة، هو معروف في منزلنا بهذا النوع من النظرات، ودائمًا ما يبهرننا بمقدار ما يخبرنا به عن طريق هذه الحركات، كأن يرفع حاجبيه أو يضم شفتيه.

"يتوقف الأمر على ما تقصدين بكلمة **ذو نفع**".

"لقد دلتك حقًا تلك النزعات التي تعلمت فيها الفلسفة، أليس كذلك؟".

"كل ما في الأمر أن المفيد بالنسبة لك ليس بالضرورة مفيدًا لي".

"أنت محق، ستثريني المحادثة بلا شك، ومع ذلك، موقفنا هذا لا تنطبق عليه معادلة المجموع الصفري".

"ماذا قلت للتو؟ معادلة ماذا؟".

"إنها معادلة تنص على أن الأرباح المكتسبة من قبل طرف ما، هي بالتحديد القيمة نفسها التي خسرها الطرف المقابل، على سبيل المثال: عندما يلتقي حمار وحشي بأسد، فهذا موقف تنطبق عليه معادلة المجموع الصفري، لأن الطرف الرابع فقط هو الأسد، ولكن في موقفنا هذا يا مونتي، هناك استفادة ونفع يعودان على كلينا".

"أتعدينني بأنك ستجعلين الأمر يستحق العناء؟".

"أعدك".

"حسنًا، لتتناول بعضًا من كعك الجبن".

"في أحلامك! ستتناول بعضًا من البسكويت فقط".

"لم يبخل الفيلسوف عليّ بشيء من قبل".

"بل تساهل معك، من الآن فصاعدًا ستتبع قواعدي الجديدة".

"حسنًا، ولكن سأتناول ثلاث قطع".

"ثلاث قطع من ماذا؟".

"من البسكويت".

"هذه وسيلة جيدة للتفاوض، أن تطلب الكثير وأنت تعلم جيدًا أنك لن تنال مرادك وستضطر للتنازل عن القليل، وحينها سيتبقى معك الكمية التي أردتها من البداية. محاولة جيدة يا مونتي، يمكنك تناول قطعتين".

"اتفقنا، ولكن ذكريني مجددًا، ماذا سنفعل؟".

"سنحدث عن الاقتصاد".

"فهمت، وما هو الاقتصاد؟".

"هذا سؤال إجابته أصعب مما تتصور، ودائمًا يختلف خبراء الاقتصاد فيما بينهم عند وضع تعريف محدد له".

"لقد خالجنني شعور بأنك ستقولين هذا!".



"تمهل قليلاً، لقد بدأنا لتونا، وأحتاج إلى القليل من الإحماء قبل أن نشق طريقنا في هذا الموضوع، هناك أستاذ جامعي في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، يدعى ليونيل ريبنز (1898-1984)، عرّف الاقتصاد على أنه العلم المختص بدراسة وتحليل السلوك البشري وتأثيره في الاحتياجات وندرة الموارد، وإيجاد العديد من الطرق المختلفة والمتنوعة للاستفادة من تلك الموارد".

"عفوًا! ماذا تعنين بكل هذا؟".

"أجل، هو تعريف معقد بعض الشيء، وأنا بدوري لا أحبذ استخدامه؛ هو كافٍ لإرباك وتنفير معظم الأشخاص - والكلاب - ذوي المعرفة السطحية لهذا الموضوع، ولكن لنحاول معًا أن نحلل مقصده من وراء هذا التعريف: هب أننا نملك مبلغًا محدودًا من المال (وهنا نعني الجزئية الخاصة بالندرة في التعريف). سيتحتم علينا أن نقرر على ماذا سننفق هذا المبلغ (وهذا ما تعنيه كلمة الاحتياجات)، وبموجب ذلك علينا اتخاذ قرار في النهاية لنحدد ما سنقوم بشرائه بهذا المبلغ، وما سنتركه، مثلاً: أن أقرر شراء يخت بدلاً من سيارة فيراري!".

"هذا كلام واقعي جداً".

"أمزح معك، هب أنني قررت شراء زوج من الأحذية بدلاً من حقيبة يد".

"أجل الآن صار الكلام منطقيًا".

"أضف إلى ما سبق أن اتخاذ مثل هذه القرارات يعني أيضًا أننا سنستجيب للمحفزات الاقتصادية من حولنا كالعروض وما إلى ذلك، فإذا تم خفض السعر لمنتج معين - كالkekك - بالجن مثلاً، بما أنك ذكرته منذ وهلة - فعلى الأرجح سيتوجه المستهلكون لشراء كميات أكبر منه".

"أتفق بشدة".

"تكمّن تحت هذا التعريف فكرة، وهي أن الاقتصاد يصنّف على أنه "فرع من العلوم"، وهذه النظرية تعني بدورها أنه وسيلة يُعتمد عليها في كشف الستار عن الحقائق بالاستعانة بالأدلة الملموسة وإجراء الفرضيات المختلفة".

"وما صحة هذه الفكرة؟".

"لدي شكوكي حولها؛ فمن الصعب للغاية إجراء تجارب اقتصادية خاضعة لسيطرتنا بالكامل، كأن نقوم بتقسيم السكان إلى نصفين متساويين، ونطبق سياسة اقتصادية مختلفة على كل نصف، ثم نقوم بدراسة وتحليل النتائج، ولكن لحسن الحظ، أن لدينا العديد من الأمثلة والتجارب الواقعية على مدار التاريخ، كما حدث بعد الحرب العالمية الثانية، من تقسيم كل من كوريا وألمانيا، بالإضافة إلى إمكانية إجراء التجارب الفكرية المختلفة التي تساعدنا على التوصل لحلول منطقية لبعض القضايا، و عوضاً عن أن تمسي مهووساً بفكرة إلى أي مدى، يمكننا اعتبار الاقتصاد فرعاً من العلوم، ومن الأفضل النظر له على أنه وسيلة وطريقة لتحليل قرارات الأشخاص التي تخص كيفية إنفاقهم الموارد المحدودة، وبالطبع يتضمن الاقتصاد في جوهره العديد من العمليات الرياضية المعقدة، وهي توحى بذلك الانطباع العلمي الذي يغطي على هذا الحقل المعرفي".

"لمعلوماتك، فإن أقصى ما أعرفه عن الرياضيات هو العد لا أكثر، فأنا أعلم حينما تقومين بالانتقاص من وجباتي، لكن، إن كنت ستقضين هذه النزهة بأكملها في شرح مفاهيم تتعلق بالجبر أو حساب التفاضل والتكامل، فسيكون من الأفضل أن نعود أدراجنا".

"لا تقلق يا مونتي، سنصب تركيزنا على النظريات، لا على المعادلات".

"حسنًا، هذا يبعث على الراحة!".

"أعتقد أن أسهل طريقة للبدء في رحلة التعرف على الاقتصاد، هي أن ترجع إلى الأصول والجذور التاريخية له، فذلك يمكننا من فهم الاقتصاد بتمعن، واستيعاب التغييرات التي مر

بها على مدار التاريخ".

"وأي تاريخ تقصدين هنا؟".

"بالطبع ليس تاريخ الحروب والمعارك، والملوك والملكات، والرجال العظماء المزعومين بتحقيق الكثير من الإنجازات، إنما ما أقصده هو التاريخ الخاص بالوسيلة المُطورة من قبل المجتمعات التي من خلالها تم تنظيم عملية توزيع وصناعة المنتجات والأطعمة والخدمات المختلفة وطرق الدفع لها، والتغييرات التي مرت بها هذه الوسيلة، ولكن قبل أن نبدأ، لم لا نقوم بالإحماء وتركض قليلاً حتى تستفيد من فائض الطاقة الجسدية لديك؟".

وصلنا إلى بقعتنا المفضلة، حيث تتواجد أشجار الزان الشاهقة ذات الملمس القاسي، وتغطي الأرض بطبقة جافة مما جف من البلوط، راح مونتي يهرول مستنشقا الرائحة المنبعثة من الأرض، في نفس الحين كنت أمشي بخطوات متثاقلة أحاول ترتيب الأفكار في ذهني، حتى أروي ما أريد قوله بسلاسة.

جلسنا على مقعد توقف عنده مونتي، في رقعة أرضية أعلى بقليل مما حولها، ويطل على أشجار بديعة ذات مظهر أخاذ يبعث السرور على القلب.

"هل أنت مستعد لما نحن بصدده يا مونتي؟".

"بالتأكيد، ولكن، أتعدينني باستبعاد أي معادلات رياضية من حديثنا؟".

"أعدك، لنبدأ. ببساطة شديدة، لطالما ركز الاقتصاد على كيفية إنتاجنا لكل ما نحتاج إليه في هذه الحياة، وتوزيعه على الأشخاص الذين يريدونه أو يحتاجون إليه، تلك قضية مهمة، ولكنها أقل تعقيداً في الوقت ذاته، هي تشغل موضعاً مهماً لأن الكفاح والصراع للبقاء على قيد الحياة عُرفا بالقسوة والوحشية فيما مضى، ولكنها أقل تعقيداً لأن الشعوب القديمة تمكنت من تحقيق الاكتفاء الذاتي، ففي أول مائتي ألف سنة من تاريخ البشرية على هذه الأرض، تمكنت القبائل والعائلات الصغيرة من إنتاج كل ما يريدونه في سد

احتياجاتهم واستهلاكهم عن طريق الصيد وجمع الموارد الأساسية، وظل الأمر كذلك إلى أن بدأ البشر في تحقيق نمط حياة أكثر استقرارًا، عندها اختلف نهج حياة المجتمعات، وظهرت فكرة الطبقات الاجتماعية، وأصبح لكل طبقة دور مختلف تلعبه داخل إطار تلك المجتمعات، وبذلك أصبحت هناك حاجة ماسة إلى منظومات تعاونية وتجارية متطورة.

إذا أخذنا نظرة أعمق في التاريخ القديم، سنجد ثلاث سياسات تمكنت من خلالها المجتمعات القديمة من حل القضايا الاقتصادية الواردة لها: اتباع التقاليد، والقيادة، ومنظومة السوق.

لعل اتباع التقاليد هو أقدم وسيلة فيما بينهم، حيث تم من خلالها تحديد من عليه فعل هذا ومن يستحق الحصول على ذاك، واستمر كل شخص في العمل بحرفته لأن هذا ما أجاده وقضى الكثير من الأوقات في عمله، وسار الأبناء على خُطى آبائهم، وضمنت هذه الاستمرارية توريث الحرف والمهارات الضرورية عبر الأجيال، فعلى سبيل المثال، حدد النظام الطبقي في الهند الحرفة التي سيعمل بها كل شخص منذ لحظة ولادته، وجميع هذه الوسائل التقليدية آتت أكلها في المجتمعات القديمة كونها مستقرة وتساعد في الحفاظ على النظام الاجتماعي، ولكن افتقرت هذه الوسائل إلى التطوير أو التغيير بأي شكل وظلت على هذه الحالة دائمًا، فإن عمل والدك في جر وحمل الأسمدة، فحتمًا عليك أن تعمل مثله.

أما السياسة الثانية في حل المشكلات الاقتصادية للمجتمعات القديمة فهي القيادة؛ أي وجود قائد أو حاكم يملئ على أفراد الشعب أن يفعلوا ما يؤمرون به."

"هذا مشابه لما يحدث في المنزل، فأنت تُملين على الجميع واجباتهم!".

"نعم، فالفيلسوف يستمتع بوجود نظام حكم صارم بالمنزل، لنأخذ الأهرامات في مصر القديمة كمثال: لم تُبن الأهرامات لأن رجل أعمال ما رآها مبادرة جيدة لمشروع ربحي، بل بُنيت ببساطة لأن الحاكم الفرعوني أمر ببنائها.

كما أن الاتحاد السوفيتي ظل متبنيًا نظام الاقتصاد الموجه لفترات طويلة من القرن العشرين، ومع محدودية وجود الأسواق في ذلك الحين، صُنعت معظم القرارات المهمة بواسطة الحاكم المركزي، كقدر الأجر المطلوب، ومن عليه العمل في أي وظيفة، ونوعية المنتجات المتاحة للشراء في الأسواق".

"إن نبرتك تُشعرنني بأن هذا لم يكن شيئًا صائبًا لتطبيقه، صحيح؟".

"هذه السياسة يمكن أن نلجأ إليها خلال الأزمات والحروب والمجاعات، فهناك أوقات نحتاج فيها لحاكم مركزي، ذي حس عقلائي ومنطقي، ليصنع القرارات نيابة عنا، عندما تكون منظومة السوق في وضع سيئ بحق، وسنتطرق أكثر لهذا الموضوع فيما بعد. كما رأينا مؤخرًا، فإن الأزمات والجائحات العالمية هي ما تحفز الحكومات للتحرك على قدم وساق لتولي زمام الأمور، ولكن هناك قضيتان متعلقتان بهذا النظام، الأولى أخلاقية وهي: تحت ظل الاقتصاد الموجه، لا يمكن للفرد أن يقرر بنفسه ما يريد بيعه أو شراؤه، وهذا في الأساس يعني أن جزءًا كبيرًا من حياتك سيخضع لسيطرة النظام الحاكم.

أما القضية الثانية فهي أن نظام الاقتصاد الموجه يعتبر وسيلة غير فعالة على الإطلاق في إدارة المواقف المعقدة للغاية، وهذه الحجة تم طرحها من قبل الخبير الاقتصادي والفيلسوف النمساوي فريدريك هايك (1899-1992)، ولكننا سنتطرق له ولحجته فيما بعد".

"أكاد أشعر بالنار من احتراقي شوقًا!".

"أتعلم؟ السخرية هي أردأ شكل من أشكال الفكاهة".

"دعك من هذا، فأنا ما زلت كلبًا بالنهاية! يجب أن تشعري بالامتنان لكوني كلبًا مميزًا ومهذبًا لا يأكل المخلفات أو يعبث بجميع الوسائد في المنزل".

"حسنًا، لن أحملك ما لا تطيق، لنعد الآن حيثما توقفنا، السياسة الثالثة، هي لتنظيم عجلة الاقتصاد: هي السياسة التي نعيش تحت ظلها في هذا العصر، وتعتمد اعتمادًا كليًا على منظومة السوق، وفيها لا تُصنع القرارات الخاصة بكيفية إنفاق الموارد من قبل السلطة الحاكمة، أو على أساس تقاليد موروثة من أجيال سابقة، إنما تُصنع وتُبنى على أساس معطيات السوق من حولنا".

"أحتاج إلى المزيد من التوضيح حول ما تقصدين بـ"معطيات السوق"، فهي بالنسبة لي الآن مجرد كلمات غامضة لا معنى لها".

"أعرف، وسأوضح لك بعد قليل، ولكن دعنا نتأمل الآن إبداعية وروعة هذه الإطالة من حولنا".

أومأت بيدي في حركة لافتة للانتباه، ولكن مونتي، ولكونه كلبًا، حلق في يدي وتجاهل هذا المنظر الجميل.

"لنضع بعين الاعتبار أن الأسواق هي مفتاح كل شيء. ولنصبَّ اهتمامنا على هذه الحقيقة، نحن - أو معظمنا على الأقل - نعتبر وجود الأسواق، ودورها الحاسم والمذهل في تنظيم عجلة الاقتصاد، أمرًا مسلمًا به، أتتذكر حديثنا عن محمصة الخبز؟ أو عن القهوة؟ هذان مثالان من ضمن العديد من الأمثلة الأخرى التي تيسر علينا حياتنا، والتي لم تُنح وتُتوفر لنا سوى بفضل منظومة السوق، ولهذا السبب بالتحديد يرتبط الاقتصاد ارتباطًا وثيقًا بالأسواق ولا ينفك يصب اهتمامه على دراستها وكيفية ازدهارها وركودها، والعوامل المؤدية لذلك".

"ولكن بما أن نظام الأسواق هذا نافع وناجح لهذا الحد، لماذا استغرقت المجتمعات وقتًا طويلاً للغاية في ابتكاره؟".

"هذا لأنه على مدار التاريخ، لم تهتم المجتمعات القديمة بصنع قرارات منطقية من شأنها تحقيق التقدم الثابت والمستمر والذي بدوره سيساعدهم في تحقيق هدفهم لإنشاء دولة متطورة، لكن على العكس، عاشت المجتمعات القديمة في بيئات ريفية فقيرة لم تعتمد تقريباً على وجود أي شكل من أشكال الأصول السائلة في التعاملات التجارية، حينذاك، لم يوجد أي طريق إلى تحقيق الثراء إلا من خلال امتلاك سلطة دينية، أو الانضمام للقوات العسكرية. إلى جانب ذلك، لم يشغل هذه المجتمعات فيما يخص الأموال والتجارة، سوى الجانب الأخلاقي، أي محاولاتهم لتطبيق مبدأ "السعر العادل".

"السعر العادل؟".

"تلك نظرية طُرحت من قِبل الفيلسوف توماس أكوينس، والذي ينحدر من العصور الوسطى، ولكن في الواقع، فهذه النظرية تنحدر أصولها إلى الفكر اليوناني القديم، وهي تطرح فكرة أن لكل شيء قيمة مستحقة، ولا يجوز لأي تاجر أن يرفع سعره عن قيمته المستحقة، وضرب أكوينس مثلاً لذلك بمواد البناء، فقال إن هناك "سعرًا عادلاً" للحجارة والبلاط، وأنه من غير الأخلاقي للتجار أن يزيّدوا في سعرها بعد حدوث زلزال على سبيل المثال، فحينها سيزيد الطلب عليها بسبب عمليات إعادة الإعمار، ما يمنح فرصة للتجار الجشعين أن يرفعوا أسعارها كيفما شاءوا، وهذا إثبات على أن التعاملات التجارية منذ قديم الزمان لا تختلف كثيراً عن الطريقة التي تعمل بها منظومة السوق في وقتنا الحالي، والتي تُحدّد فيها أسعار المنتجات على أساس التعاملات التي لا تعد ولا تحصى بين التجار والمشتريين.

يعتبر النشاط الاقتصادي والتجاري عملاً غير نزيه في قديم العصور، وأكد الفيلسوف الروماني، شيشرون، هذه النظرة السائدة ولخصها في قوله إنه لمن الواضحة أن تشتري كميات كبيرة من منتج ما بالجملة ومن ثم تبيعه للمستهلكين بالتجزئة، حيث من المستحيل حصول البائع على ربح نظيف من دون الخداع والاحتيال على المشتريين.

وإذا انتقلنا إلى المجتمعات الاقتصادية بالعصور الوسطى، سنشعر أننا اتخذنا خطوة إلى الخلف لا للأمام، حيث ساد الجهل في تلك المجتمعات وافتقرت للتقدم بسبب عدم الاستقرار السياسي الراجع إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية، واضمحلت حينها التجارة بشكل كبير، ودخلت أوروبا في حالة حرب، حيث انقسمت إلى العديد من الدول المتنازعة فيما بينها، إلى جانب ذلك، أثر النظام الإقطاعي حينها على تطوير فكرة الأسواق والاستفادة منها".

"مهلاً، ما هو هذا النظام الإقطاعي؟".

"حسنًا، سأخبرك بذلك في شكل وجيز ومبسط إلى حد غريب ومبالغ فيه. لئلق نظرة سريعة على تاريخ أوروبا، وشمال أفريقيا، ومنطقة الشرق الأوسط، ففي البداية، ساد الاستقرار في المملكة الرومانية بشكل معقول، وأسست وأفسحت المجال للطرق التجارية المختلفة، وحكمت بموجب القوانين، وشيدت المدن الكبيرة بالإضافة إلى العديد من الجوانب الحضارية الأخرى، ثم فجأة، انهار هذا كله حتى صرنا في خضم ما يسمى العصور المظلمة، حيث عمت فوضى عارمة، واشتعلت الحروب، ثم عادت الأمور إلى طبيعتها بشكل تدريجي، حتى وجدنا أنفسنا نلج العصور الوسطى، وتواجد بها العديد من الممالك المستقرة، ولكن أثناء ذلك، ذهب نظام التجارة العالمية المعقد والمتطور، الذي تميزت به الإمبراطورية الرومانية، هذا بالإضافة إلى ظاهرة التجزئة السياسية التي شهدتها هذه العصور (وهي توزيع السلطة السياسية على العديد من الأحزاب والفئات، بدلاً من تركزها في حكومة واحدة)، وهذا بدوره أدى إلى عودة الأفراد والأسر في المجتمع لمحاولة تحقيق الاكتفاء والاعتماد الذاتي من جديد، وفي ذلك الحين، صار كل من ملك عددًا كبيرًا من الأراضي يطلق عليه "المالك الإقطاعي" وبات هؤلاء بمثابة الوحدة المركزية المتحكمة في دوران عجلة الاقتصاد.

على مدار التاريخ القديم، انتشرت العبودية وتجارة الرقيق على نطاق عالمي، لكن بحلول العصور الوسطى تطور هذا المفهوم ليأخذ شكلًا آخر، ولكنه لا يختلف كثيرًا عن العبودية،



حيث انتشر مفهوم القنانة، وببساطة، يعتبر القن أيضًا بمثابة ملكية للسيد الإقطاعي، ولكن ما يختلف في هذه الملكية أنها تندرج تحت إطار من القيود والالتزامات المتبادلة من الطرفين، حيث يلتزم المالك الإقطاعي بتوفير الحماية للقن في مقابل خدمته الكادحة، وللأقنان أيضًا الحق في الاستفادة من مساحة صغيرة من الأرض لزراعة الطعام الكافي لإعاشتهم وعائلاتهم بشرط تقديم حصة من إنتاجهم. على الجانب الآخر، تواجدت بعض نقابات العمال الذين يتقاضون أجرًا ماليًا مقابل عملهم؛ كونه حرفة متخصصة للغاية ويصعب على المالك الإقطاعي توفيرها بنفسه مهما تعاظم حجم سلطته. بشكل عام، تم إنتاج البضائع والخدمات وتوزيعها وفقًا للقوانين والأعراف، وليس لسعر السوق، وسعى الحكام بجهد إلى الإبقاء على الهياكل الاقتصادية والسياسية كما هي من دون أدنى تغيير، بدلًا من ابتداع وسائل وأساليب حديثة للإدارة".

"إذن ماذا طرأ من تغيرات فيما بعد؟".

"الحقبة التالية من تاريخ الاقتصاد هي ما غيرت كل شيء، بالتقريب، منذ منتصف القرن الخامس عشر، حتى منتصف القرن الثامن عشر، وقد عرفت هذه الفترة باسم "الرأسمالية التجارية" أو "المركنتيلية"، وجلب فيها التجار الرحالة الكثير من البضائع والمنتجات الجديدة والغريبة على مرأى العين من المناطق النائية، لهذا، انتعشت حركة التجارة وانتشرت الأسواق على نطاق كبير، وشهدنا بروز العديد من المدن كمحاور تجارية أساسية كمدينة البندقية، وفلورينس، وبروج، وأصبح التجار مؤثرين بمجتمعاتهم ويحظون بقدر - ولو قليل - من الاحترام، وشهدنا أيضًا ظهور فكرة القومية وتوحيد الدول، وازدهرت فكرة التجزئة السياسية، حيث تعاونت جميع الكيانات السياسية الأوروبية الصغيرة واجتمعت لتشكيل حكومة مركزية موحدة، وشهدنا أيضًا انتعاش الحركة الصناعية، والتي اعتُبرت إنجلترا من روادها بفضل تمتعها بسوق داخلية مستقرة ومنتعشة، ويعتبر هذا من أهم العوامل التي جعلت من إنجلترا قوة صناعية عظيمة. أثناء نهوض حركة التجارة والصناعة، شهدنا انهيار النظام الإقطاعي، ومع النمو السكاني في المدن، زادت معدلات شراء الطعام بالنقود، وهذا أدى بدوره إلى اضمحلال القيود والالتزامات القديمة التي عُهد

بها إلى العمال في العصر الإقطاعي، وتحولت بشكل تدريجي إلى أجر معلوم من المال يتقاضاه العمال في مقابل خدماتهم، وازمحت أيضًا طرق المقايضة القديمة وتطورت بدائل جديدة كوسائل للدفع، فبدلاً من تسديد المستحقات عن طريق قضاء المزيد من الأيام بالعمل، أو مقايضة بعض من الدجاج والبيض، أصبحت العملة النقدية هي طريقة الدفع الموحدة. إن ازدياد عدد الأشخاص الذين يتلقون أجرًا نقديًا مقابل عملهم أفسح المجال لوجود سوق حرة ومنتامية يستطيع من خلالها التجار بيع منتجاتهم.

أخيرًا وليس آخرًا، حدث أيضًا تغيير في المناخ الديني السائد".

"وما علاقة الدين بما تقولينه؟ ألا يختلف الدين مع المبادئ التي يقوم عليها الاقتصاد؟".

"انتشرت نزعة في وقتنا الحالي لفصل الحقلين عن بعضهما البعض، ولكنها نزعة حديثة جدًا، حيث رفض العقل الديني قبل حدوث حركة الإصلاح الأوروبي، فكرة إلهاء الناس بالأمور الدنيوية، وتبنى رجال الدين هذا الرأي الذي ينص على أن الدنيا فانية، لذا يجب تجاهلها بالكامل والتركيز والعمل استعدادًا للحياة الآخرة، لأنها ذات قيمة عظيمة وسننعم فيها بالخلود، وبناءً عليه، أصبح السعي للحصول على المال والممتلكات ضربًا من الغرور والدونية، ولكن وفقًا لماكس ويبر، غيّر أحد المذاهب هذه الفكرة،<sup>1</sup> بل على العكس، أصبح الجد والاجتهاد وسيلتين لقياس القيمة الروحية لكل شخص، أما عن الثراء، فطالب هذا المذهب بعدم إهداره في رفاهيات من شأنها أن توقع صاحبها في الخطيئة، بل يجب توفير المال واستثماره فيما يعود بالنفع".

"أهذا كل ما بحاجة للتغيير؟".

"لا ليس الكل، لم يزل هناك جانب فكري علينا مناقشته، وهو الروح التنافسية بين التجار، والتي تطورت إلى المدى الذي جعل منهم أشخاصًا ذوي سلطة ونفوذ، ولكن عندما احتدمت المنافسة فيما بينهم دعموا تدخل الحكومة في الأمر لوضع حد لتلك المنافسة، كما أنهم عارضوا سياسة الاستيراد من جيرانهم من الدول، ونادوا بفرض بعض القوانين

والقيود على حركة التجارة وتدعيم سياسة احتكار المنتجات التي من شأنها تقليل المنافسة بين التجار على المنتج نفسه، ولو أنهم في ذاك الوقت سمعوا بـ *laissez faire* لعارضوا تطبيقها".

"أوجب أن أذكرك بأنني مجرد كلب محلي؟ لست كلبًا مالطيًا ولا من نوع البولودوج الفرنسي، ماذا يعني مصطلح *laissez - faire*؟".

"معذرةً يا مونتي، سأشرح لك حالاً ما يعنيه، إن مبدأ *laissez - faire* هو في الأساس مصطلح فرنسي، يعني إعطاء الأفراد حرية كاملة فيما يتعلق بقراراتهم (مبدأ عدم التدخل)، ولقد أصبح لهذه السياسة تأثير تاريخي على الاقتصاد، وبموجب هذه السياسة فإنه يجب على الحكومات الامتناع عن التدخل في التعاملات التجارية الخاصة من خلال القوانين، أو الإعانات المالية أو أي وسيلة أخرى، عدا جمعها الحد الأدنى من الضرائب. استخدمت مجموعة من المفكرين الفرنسيين ذوي المذهب الراديكالي هذا المصطلح لأول مرة في القرن الثامن عشر، وأطلقوا على أنفسهم "الفيزيوقراطيون"، وآمنوا بأن الزراعة هي المصدر الأساسي لتحقيق الثراء والرخاء، علاوة على ذلك، فإن إتيانهم بفكرة عدم فرض القيود على التعاملات التجارية الخاصة يعتبر أكثر إسهاماتهم الخالدة في حقل الاقتصاد، كما يرجع الفضل لمبادئهم التوجيهية في خلق بيئة تجارية حرة، ونشر الوعي فيما يخص حماية الممتلكات الخاصة للأفراد، وترسخت سلطتهم بإعلانهم: "دعوا السوق وشأنه"، وشملت نظرتهم أنه يجب على الحكومة التنحي التام من المشهد الاقتصادي، والتركيز على إصدار القوانين، وتنظيم شئون الدولة، والدفاع عن الوطن من أي تهديدات خارجية، مما أدى إلى نشوب نزاع فكري بينهم وبين أنصار مذهب السياسة التجارية.

بحلول أواخر القرن الثامن عشر، باتت الرأسمالية تسود عالمنا بشكل لا يمكن إنكاره، ولكن مع ذلك، تواجدت بعض الحالات الشاذة التي لا تجاري الأوضاع الحديثة في تلك الفترة الزمنية، حتى في دولة متقدمة مثل فرنسا، حيث اقتصر بيع الطعام المطهي فقط على من يملكون إذن البيع بموجب ميثاق ملكي، وهذا أدى بدوره إلى استغلال تلك الزمرة التي

حصلت على هذا الامتياز في أن يرفعوا من أسعار بضائعهم، إلا أن مقدمي الطعام الفرنسيين وجدوا طريقة ماهرة للتحويل على هذا الوضع، حيث بدأوا في بيع مرق اللحم على أنه شراب دوائي medicinal أو شيء يساعد الجسم على استرداد عافيته restorative، ومن هنا أتت تسمية المطعم بالفرنسية Restaurant، المغزى من هذا الموقف، أنه دائماً ما استطاعت التجارة أن تشق طريقها في ظل أي ظروف محيطة، ومن الوارد جداً تغير الأحوال لنرى سياسات اقتصادية تندثر وتتبدل كسياسة اتباع التقاليد والتوجيه بفعل مبدأ "اليد الخفية"، والذي يتأثر كثيراً في طريقة عمله بمنظومة السوق، يعتبر "آدم سميث" أول من قام بصك مصطلح "اليد الخفية" وأول من قدم توضيحات دقيقة حول وتيرة عمل العالم الحديث".

"أعتقد أنه قد حان الوقت لأخذ استراحة لتلبية نداء الطبيعة، سأذهب للتبول، ثم سأقوم بجولة سريعة لاستنشاق واشتتام المكان من حولي، وبعدها يمكننا العودة للمنزل وإخباري بأمر هذا المدعو سميث في طريق العودة، ما رأيك بهذا؟".

وبالفعل، سمحت لمونتي، بالذهاب في إحدى جولاته الفوضوية للتبول، حيث تبول بشكل متساوٍ وعادل على كل من أشجار المُران الشامخة (المعروفة بأشجار الرماد) وأخواتها من الشجيرات الصغيرة.

## النزهة ٢: الجزء ٢: الآباء المؤسسون

"أأنت جاهز؟".

"نعم، أفرغت مئائتي بنجاح".

"حسنًا، سنتحدث عن بعض فحول مجال الاقتصاد".

بدأ مونتي، في النباح بنبرة يشوبها العنف والتهديد، وهذا عيب مونتي الوحيد، أو بالأحرى ليس الوحيد، ولكنه أحد عيوبه القليلة، أو لأكون صادقة تمامًا، هو لديه الكثير من العيوب، وهذا الأمر أحدها، إن لديه صورة مبالغًا فيها عن نفسه، ويعتقد أنه "مقاتل شجاع"، وأكثر ما يحب فعله هو النباح بغضب على أي من الكلاب الضخمة التي نصادفها في طريقنا. على كل حال، فإن الأمر لا يتجاوز هذا النباح، فهو لم يسبق له الاشتباك مع أي من تلك الكلاب، أضف إلى ذلك أنه شاخ نوعًا ما، فلم يعد لديه ما يكفي من الأسنان الحادة التي قد يسبب بها ضررًا بأي شكل من الأشكال، ولكنه دائمًا ما يسبب لي الإحراج بفعل تلك العادة، وهذا لا ينعكس بتاتًا بشكل جيد على مالكيه، لذلك عندما قُمت بذكر "الفحول" انتفض مونتي، واستعد للنباح، ولكن بعدما تفحص المكان بعناية بحثًا عن أي خصوم يحتمل وجودهم، لم يجد أحدًا، ثم استطاع أخيرًا أن يهدئ من روعه ويسترخي.

"أهذه مجرد استعارة بلاغية؟".

"نعم".

"إنن فهم أناس حقيقيون".

"صحيح؟"

"أهم خبراء اقتصاديون أو ما شابه؟"

"امنحني الفرصة حتى أشرح لك".

"فلتفضلني".

"سأخذك في جولة لتتعرف على ثلاثة مفكرين كلاسيكيين، يرجع لهم الفضل في وضع الأساسات التي بني عليها الاقتصاد الحديث، وهم: آدم سميث، وتوماس مالتوس، وديفيد ريكاردو.

ويعتبر آدم سميث مبتكرًا ومطورًا لمجال الاقتصاد في المقام الأول، وقام بنشر كتابين بقلمه هما من أعظم وأهم الكتب على الإطلاق *The Theory of Moral Sentiments* (1759) وكتاب

*The Wealth of Nations* (1776)، يغطي الكتاب الأول مفهوم الأخلاق بجوانبه المتعددة، أما الكتاب الثاني - الذي له فضل كبير في شهرته - فيتناول مفهوم الاقتصاد السياسي".

"ما هو الاقتصاد السياسي؟".

"سؤال جيد؛ معظم الناس يجهلون حقيقة ما تعنيه هذه المصطلحات، فالاقتصاد بات يسلك منحى متعلقًا بالرياضيات على نحو جلي، ودام ذلك خلال نموه وتطوره، وبهذا ازدادت تجريديته وانقطعت جميع روابطه مع المجتمعات في ظل الواقع الذي تعيش فيه، وعلى النقيض من ذلك، فإن الاقتصاد السياسي يهتم بدراسة القضايا الاقتصادية وطرق تأثيرها على عالمنا، وهو لا ينحصر فقط في دراسة منظومة الأسواق بمفهومها التجريدي، بل يهتم بتفاعلاتها مع الحكومات والعوامل الثقافية والقانونية.

في كتابه *The Wealth of Nations* يطرح آدم سميث سؤالاً مهمًا عن ماهية العوامل التي تؤدي إلى تحقيق الرخاء في مختلف الأمم؟ ولم يوجد سؤال أكثر إلحاحًا من هذا في

العالم الذي عاصره سميث، ففي زمانه كان يعمل الأطفال ضعيفو البنية في ظروف استعبادية ساعات طويلة وصلت إلى أربع عشرة ساعة؛ أما النساء الحوامل فكنَّ يُنظر لهن على أنهن "وحوش" ولا يشكلن سوى عبء ثقيل، فيُجبرن على العمل في جر عربات محملة بالفحم في أنفاق تحت الأرض، بالإضافة إلى وجود العديد من الأسر التي تضررت جوعًا وتجوب القرى الريفية بحثًا عن العمل، إنه لكتاب استطرادي، وذو شأن عظيم، ويمكننا تقسيم فحواه إلى أربعة موضوعات مفتاحية أساسية على الأقل، وسناقش كلاً منها على حدة، الموضوع الأول: إن السر في زيادة معدل الإنتاج، الذي من شأنه تحقيق مستويات عالية من الرخاء في أي أمة، يقبع وراء تطبيق آلية **تقسيم العمل**، أتذكر ما قاله الفيلسوف عن مصنع الدبابيس فيما مضى؟".

"في الحقيقة لا".

"معذرةً يا مونتي، أنت محق؛ لم تكن حاضرًا عندما ناقشنا تلك الجزئية، باختصار: إذا قمت بتقسيم عملية التصنيع إلى مهام صغيرة وتوزيعها على عدد معين من الأيدي العاملة على أن يتخصص كل عامل في أداء مهمة واحدة فقط، فستتمكن من تحقيق مستويات عالية من الإنتاجية والكفاءة، وهذا الأمر ينطبق على تصنيع أي شيء سواء دبابيس أو سيارات إلخ...".

"محامص الخبز أيضًا، أهذا يشبه تلك الأوقات التي تنفجرين بها غضبًا وتأمرين الجميع بتولي مهمة تنظيف جزء محدد من المنزل؟".

"نعم بعض الشيء، لعل الوضع في المنزل لا يختلف كثيرًا عما أقصده، على سبيل المثال: من الأفضل تقسيم مهام التنظيف على جميع أفراد الأسرة، فينشغل الفيلسوف في تنظيف الحمام، وأنا في تنظيف المطبخ، وروزي في تنظيف وترتيب غرفتها، بينما يقوم جاب بتنظيف الغبار المتراكم في غرفة المعيشة بالمكنسة الكهربائية. مهما بلغ مستوى تعقيد المهمة، فعند تقسيمها إلى مجموعة من المهمات الصغيرة المخصصة لكل فرد يشارك في العملية الصناعية، فإن مستويات الإنتاجية تزداد بشكل ملحوظ.

الموضوع الثاني هو الطريقة التي ننظم بها عملنا كمجتمع مدفوعة بميلنا الطبيعي نحو ممارسة التجارة ومقايضة الأشياء ببعضها البعض، حيث يعتمد تطبيق سياسة تقسيم العمل والتخصص في حرف أو مجالات محددة - الذي بدوره يساعد على تحقيق ثراء الأمم - اعتمادًا كليًا على وجود وسيلة تتيح بيع وشراء المنتجات، وهنا يأتي دور السوق، وكلما زاد تنوع السوق، فُتِح المجال أمام العديد من التخصصات والحرف، وهنا يا مونتي يستعين بك الكاتب في ضرب مثال".

"يستعين بي؟ لطالما علمت أنني كلب ذو مهارات متميزة!".

"حقيقةً هو لم يقصدك بعينك، إنما تحدث عن الكلاب بشكل عام، وقد أشار سميث إلى أن البشر كائنات فريدة من نوعها، وأخذ الكلاب مثالاً حيًا لذلك، فقال: لم يصادف لأحد من قبل أنه رأى كلبًا يقايض طعامه مع كلب آخر عن طريق القصد".

"إن هذه محض سخافة! لمَ قد أقوم بمقايضة طعامي مع كلب آخر؟ ولكن هناك أمر طرأ في ذهني، فعندما أرمقك بعينين مليئتين بالحزن، فأنت تعطينني قطع اللحم المقدد، هل يعتبر هذا نوعًا من المقايضة؟".

"تكمن الإجابة عن هذا السؤال عند سميث، حيث قال إن الحيوان الأليف، يزيد تودده وتزلفه لمالكه عندما يريد الحصول على ما يبتغي منه، وقد لاحظ أيضًا السلوك ذاته عند البشر، فالبعض منهم يستعمل هذه الوسيلة إذا اضطرب به الحال، فمن منا لا يعرف بعض الممتلكين المستعدين لفعل أي شيء لكي يبلغوا مبلغهم؟ ومع ذلك، أشار سميث إلى أن تلك طريقة محدودة الفاعلية، ولا يمكن الاعتماد عليها في إقناع الناس للتعاون معك، علاوة على ذلك، فإن المجتمعات المعقدة والمتطورة التي تطبق سياسة تقسيم العمل تحتاج إلى وسيلة ومنظومة فعالة لإدارة وتنسيق ملايين التعاملات المختلفة بين أفرادها.

الموضوع الثالث: فكرة متناقضة إلى حد ما، وتقوم على أن أي منظومة بُنيت بلبنة السعي وراء المصالح الذاتية، فإنها - بغير قصد، ومن دون أن ندري - سوف تحقق لنا مبتغانا وتعزز



مصالح مجتمعنا ككل، وهنا تبرز واحدة من أشهر اقتباسات سميث: "لا يقدم الجزار والخباز وصانع الشراب طعامهم وشرابهم لنا من باب اللطف والإحسان، ولكن من باب المصالح الشخصية والأرباح التي تقبع وراءنا كمستهلكين، فنحن لا نتعامل مع الجانب الإنساني لهم، بل نتعامل مع الجانب الذي يؤثر تفضيل ذواتهم على أي شيء، ولا يتم التواصل بيننا من أجل حاجتنا الماسة لخدماتهم، بل من أجل السعي وراء منافعهم من التجارة الربحية.

أما عن الموضوع الرابع في كتاب سميث: فهو المفهوم العظيم ليد السوق الخفية، وفيه يصف طبيعة السوق في ضبط وتنظيم التعاملات التجارية، التي تتم من خلالها بشكل تلقائي، ومن دون أي توجيهات أو إشراف من طرف العنصر البشري. على سبيل المثال إذا أحضر البائعون بضائعهم بكميات لا تكفي لسد احتياجات المشترين، فإن أسعار هذه البضائع سترتفع بطبيعة الحال، والعكس صحيح، فإذا أحضر البائعون بضائعهم بكميات تزيد على احتياجات المشترين، فستنخفض أسعارها، فتحدد سعر البضائع مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمبدأ العرض والطلب، ومن مميزات المنافسة المفتوحة بالسوق أنها توفر نوعاً من الضوابط التي تنظم بدورها التعاملات بين البائع والمشتري، فإذا رفع التاجر أسعار سلعة بشكل مبالغ فيه، سيجد نفسه بدون أي مشتري، وإذا دفع رب العمل أجوراً زهيدة لموظفيه، فسيجد نفسه بدون أي قوى عاملة.

استعرض سميث أيضاً نقطة مهمة، وهي أن أسعار السلع في السوق تنظم وتتحكم في عملية إمداد البضائع، حيث يميل البائعون بشكل تلقائي إلى إنتاج سلع ذات أسعار مرتفعة إذا ارتفع السعر السوقي بشكل عام، وبما أن ارتفاع الأسعار ينتج عن ندرة الموارد، فإن آلية عمل السوق ستتمكن من معالجة هذه المعضلة بدون الحاجة إلى تدخل حاكم مركزي، أو حكومة بيروقراطية لتقرر إنتاج المزيد من هذا، أو قطع الإنتاج عن ذلك. بذلك، يكون القرار النهائي بشأن هذه المسألة راجع إلى السوق ومتطلباتها، وكان آدم سميث قد انضم إلى تلك الحركة التي تطلق على نفسها اسم "الفيزيوقراطيون"، وهذا بلا شك يجعله منحازاً للرأي الذي يطالب الجهات السيادية بالتركيز على تأسيس القواعد القانونية للدولة، وعدم إعاقة

أو تقييد حركة التجارة بأي شكل. بيت القصيد أنه بفضل هذه الأيديولوجيات، بات الاقتصاد، كما نعرفه بشكله الحالي، قائمًا على سياسة السوق الحرة، ويعمل بدافع المصالح الشخصية، ويُنظم بشكل تلقائي من خلال اليد الخفية للسوق".

"أتعنين بكلامك أن آدم سميث نظر إلى الأنانية على أنها من حميد الخصال، وأن الأسواق منظومة عبقرية يجب على الحكومة ألا تقف في طريقها؟".

"هكذا تم تصوير أفكاره من قبل بعض أيديولوجيات التيار اليميني، ولكن الأمر أكثر تعقيدًا من هذا".

"كالعادة، علمت مسبقًا أنك ستقولين هذا".

"لم يعتقد سميث أن الجشع والأنانية من حميد الخصال، كما أنه ازدرى كثيرًا نهم الشعوب في امتلاك المال والسلطة، هناك جزئية رائعة في كتابه *The Theory of Moral Sentiments* تتناول قصة شاب أضاع حياته بأكملها سعيًا وراء المال والثراء، ثم يأتي يوم تزول فيه الغشاوة من على بصيرته ليدرك أن حياته ذهبت هباءً منثورًا، وتظهر عبقرية سميث، بشكل مفاجئ بعد هذا النقد اللاذع، ليقول: "من الجيد أننا جئنا لهذا العالم ببعض الغرائز والمعتقدات المغروسة فينا، حيث يعود الفضل لتلك الخدع العبقريّة في استمرارية تحفيز الجنس البشري للعمل بجد وتحقيق إنتاجية عالية"، ومن المفارقات العجيبة أن بعض الأشياء التي ينظر إليها على أنها ضرب من الأنانية المخزية، هي ما دفعتنا وحفزتنا - وعلى حد وصف سميث - أدت بنا إلى ابتداع وتطوير مجالات حياتية أخرى كالعلوم والفنون، وكل ما من شأنه رفع مكانة الإنسان، بمعنى آخر: إن خطيئة فردية كالأنانية، يمكن أن تتسبب في نفع كبير يعود على المجتمع بأكمله.

من المؤكد أيضًا أن سميث لم يعجب دائمًا بطريقة عمل منظومة السوق، أو نظر إليها على أنها منظومة عادلة، فعندما كتب عن أجور العمال، أشار إلى وجود خلل كبير وفرق شاسع في القدرة على المفاوضة بين الطبقة الإقطاعية والطبقة الكادحة بشأن حقوقهم

ومتطلباتهم، ولطالما عانت طبقة العمال الكادحة من الفقر، لذلك إذا نشب نزاع ما، فيمكن لملاك الأراضي الأثرياء أن ينتظروا النزاع ليُحل من دون أن يعانون قلة الطعام أو نقص الموارد، على النقيض من ذلك فإن الطبقة العاملة التي تسعى بكل جهد لكسب قوتها اليومي من أجل أنفسهم وعائلاتهم ستعاني حتمًا من نقص في الموارد وقلة الطعام.

هذه النقطة غاية في الأهمية، حيث إن معظم مؤيدي مبدأ عدم التدخل في عصرنا الحالي يثبتون صحة مبدئهم استنادًا إلى أن أي تعامل تجاري هو تعامل جيد وذو فائدة ما دام غير مقيد ويضمن الإنصاف للطرفين، وعلى النقيض من ذلك إن كانت الصفقة التجارية التي شارك فيها طرفان بمحض إرادتهما لن تعود بالنفع على أي منهما، فبكل بساطة تعتبر ملغاة، وهذه حجة قوية ومنطقية، فلماذا سيتكبد أحد عناء الدخول في صفقة لن يستفيد منها بشيء؟ وبطبيعة الأمر، فإن الطرف الممتلك للسلطة والقدرة على المفاوضة بشأن حقوقه، هو من سيحظى بأقصى استفادة من تلك الصفقة، وما دام الطرف الآخر (المستضعف) الذي لا يملك القدرة ذاتها سيحظى منها بشيء يعود عليه بالنفع - ولو بالقليل. إذن فلا توجد أي مشكلة، فهذا هو المنطق المتبع من قبل أنصار مبدأ عدم التدخل؛ أما عن سميث، فوعى جيدًا عدم تكافؤ القوى واختلال توازنها، وأنهما سيؤديان حتمًا إلى نتائج غير عادلة.

كما أنه لم يعارض بشكل صريح تدخل الحكومة في تنظيم الحركة الاقتصادية، ولكن كل ما طالب به الحكومات بشكل صريح هو توفير خدمات المعيشة الأساسية كالتعليم المجاني للجميع. إن فكرته هذه تشكل مصدر إزعاج لمؤيديه الحاليين، كونهم متشددين لفكرة الاقتصاد السوقي ويفضلون عدم تدخل السلطات في هذه الأمور حتى لو بأبسط الوسائل.

آمن آدم سميث إيمانًا قويًا بقدرة الأسواق على تحسين أوضاع معيشتنا، ومع ذلك فهو لم يتبع مبدأ عدم التدخل من دون أدنى تفكير، وهو أيضًا لم يعارض تدخل الدولة في الشؤون التجارية، ولم ينظر للأناية واتباع المصالح الشخصية على أنهما فضيلة يجب التحلي بها. في النهاية، لدى كل منا تفسيره وتحليله المختلف لكتابات سميث الغزيرة والمتنوعة، والتي

عند قراءتها ستفاجأ بتأييده لتيارين متناقضين، وهما: مبدأ عدم التدخل، ودعمه لدور السلطات في تنظيم حركة التجارة والاقتصاد.

لعلي أسهبت في الحديث عن آدم سميث، ربما بسبب كون كتاباته ونظرياته عرضة لسوء الفهم، ولكنه بلا شك ليس المفكر الاقتصادي الوحيد الذي برز في تلك الحقبة، والآن سأقوم بتقديم لمحة حول كل من توماس مالتوس، وديفيد ريكاردو، وسنتهي منهما بحلول وصولنا إلى المنزل".

"حسنًا لا بأس، ولكن من الأفضل أن تكون لمحة وجيزة".

"لدى آدم سميث نزعة تفاؤلية واضحة جعلته يأمل دائمًا في تحسين الأوضاع، على نقيض خلفائه، فلقد امتلك مالتوس منظورًا قاتمًا يطغى عليه التشاؤم، والأمر نفسه ينطبق على ريكاردو، وإن كان بدرجة أقل من مالتوس.

لاحظ مالتوس - كونه رجل دين في المقام الأول - أنه يقوم بعمل طقوس دينية للأطفال حديثي الولادة بصورة أكثر من توديعه وحضوره مراسم دفن وفيات "شيوخ ومسنين"، كما لاحظ أيضًا زيادة معدلات الفقر بين أبناء دار العبادة التي خدم بها، وأخذ مالتوس نظرة تأملية وربط بين كلتا الملحوظتين في كتابه الذي يحمل عنوان *An Essay on the*

*Principle of Population as it Affects the Future Improvement of Society*

الصادر في عام 1798، وتميزت استنتاجاته في هذا الكتاب بطابعها الحزين لدرجة محطمة للقلوب، أولها: أن وفرة الوسائل والموارد اللازمة للمعيشة هي ما يقيد ويحد من الازدياد السكاني، حيث قالها صريحة في كتابه: "إن كميات الطعام المتوافرة هي ما يضبط وينظم عملية الزيادة السكانية"، ثاني استنتاجاته: أن العلاقة بين تكدس السكان وازدياد الموارد المعيشية في منطقة ما هي علاقة طردية، بمعنى آخر: يتكدس السكان في منطقة جغرافية محددة كلما توافرت الموارد وتيسرت سبل المعيشة بها، وهذا كلام معقول، إلا أن المعضلة تكمن في أن السكان يزدادون بمعدلات مختلفة تمامًا عن بعضهم البعض، حيث يزداد المعدل السكاني بنمط سريع، كالحال في المتتالية الهندسية. على النقيض، تزداد

وفرة الموارد والطعام بمعدل أبطأ عند المقارنة، كالحال في المتتالية الحسابية (ويمكن القول أيضًا إن الازدياد يحدث بمعدل خطي، أي بوتيرة ثابتة)".

"إن لغتك باتت تميل إلى لغة الرياضيات".

"سأحاول تبسيط الأمور أكثر: تخيل معي رجلًا وامرأة ينعمان بحياة زوجية سعيدة في مزرعة، ويملكان حقلاً يقومان بزراعته لتلبية احتياجاتهما، كما أنهما رُزقا بأربعة أبناء ذوي صحة جيدة، وكل فرد من هؤلاء أنجب أربعة أطفال بدوره، بالتالي يصبح مجموع الأبناء ستة عشر فردًا، وإذا افترضنا أن كلاً من هؤلاء الستة عشر، أنجب أربعة أطفال، فيصبح إجمالي الأبناء أربعة وستين فردًا، خلال أربعة أجيال مختلفة، وهذا مثال يوضح نمط الازدياد في المتتالية الهندسية. ما شغل بال مالتوس في ذلك الوقت، أن معدل إنتاج الطعام الحالي لن يتمكن من مجاراة الزيادة السكانية الموهولة، وأن نمط ازدياده - في أحسن الأحوال - سيكون بوتيرة خطية ثابتة، ولمزيد من التفسير: نحن بدأنا في أول جيل من هذه العائلة بحقل زراعي واحد فقط، وسد احتياجات إطعام الزوجين بمفردهما (أي أن احتياج كل فرد من كمية الأطعمة المزروعة يساوي نصف حقل)، وعلى افتراض أن هناك احتمالية لازدياد عدد الحقول الزراعية بمعدل حقل واحد خلال كل جيل، فسيصبح المجموع أربعة حقول خلال الأجيال الأربعة السابق ذكرها. في البداية، استكفى كل فرد بالطعام المزروع في نصيبه من الحقل بمعدل نصف حقل لكل فرد، ولكن بعد هذه الزيادة السكانية خلال الأجيال، سيتعين على كل فرد العيش على زراعة البطاطا والجزر في نسبة من الحقل لا تتجاوز (6.25%)، ولكن حتى هذه النسب والأرقام تعتبر متفائلة، إلى حد ما، عند مقارنتها بما حدث في الواقع، حيث لاحظ مالتوس وجود نقص في كمية المحاصيل العائدة من زراعة تلك الحقول الجديدة، وهذا يرجع إلى حقيقة ثابتة، وهي أن الأراضي الزراعية الجديدة دائمًا ما تكون أقل إنتاجية من تلك التي كانت بالفعل تُزرع لسنوات من قبل.

وجه ذلك آفاق مالتوس نحو استنتاج سوداوي جديد، هو: إذا لم تحد الحروب وجائحات الأمراض من الزيادة السكانية، فستطرق المجاعات أبوابنا عما قريب".

"كنت محقة في وصف تلك الاستنتاجات بالسوداوية؛ بالنسبة لي، لا شيء سوداوي أكثر من أن أنظر إلى طبق طعامي وأراه فارغاً".

"وهذا ليس أسوأ ما في الأمر، حيث يؤكد مالتوس عدم وجود أي طائل من المحاولة لتحسين الأوضاع؛ وينبع اعتقاده هذا من أن تحسين الأوضاع المعيشية للسكان سيقودهم ويحفزهم على إنجاب المزيد من الأطفال، الذي سيؤدي بدوره إلى تكرار تلك الحلقة المفرغة من اليأس، وعلى أساس هذه الحجة، اعتبر مالتوس الأعمال الخيرية والمساعدة في تحسين الأوضاع ضرباً من الأعمال الشيطانية المتنكرة".

"وهل هو محق في هذا الشأن؟".

"باختصار لا، هو ليس محقاً، حيث تمكن العالم الحديث من تجنب الوقوع في هذا الكابوس الذي أرقّ مالتوس في منامه، ولكن مع هذا، لن تتحسن المعايير المعيشية بشكل عام في أي دولة إذا ظل النمو السكاني يفوق معدل النمو الإنتاجي، وقد حدثت بعض المجاعات الشنيعة خلال القرنين اللذين تليا إصدار مالتوس هذا الكتاب. إن الأوضاع في عالمنا الحالي لم تكن بالسوء الذي عاصره مالتوس في حقبتة، والجوع لم يفتك بأجساد الشعوب بالقدر ذاته على الرغم من التكدس السكاني الذي يشهده العصر الحالي، بفضل وسائل تنظيم النسل - التي عوملت على أنها من المحظورات في عصره - والتقدم المتحقق في المجال الزراعي كالتركيبات المتطورة للأسمدة التي ساهمت في تعزيز قدرة الأراضي الإنتاجية بطريقة لم يقدر مالتوس على التنبؤ بها أو تخيلها، بالإضافة إلى التغييرات السياسية والاقتصادية بشكل عام، والتي كان لها نصيب الأسد في إحداث ذلك التغيير. فعلى سبيل المثال: ساهمت عمالة الأطفال بجزء كبير من نسبة القوى العاملة في الاقتصادات التي قامت بشكل كامل على الزراعة، ولكن الوضع لم يعد كذلك في عصرنا الحالي الذي يعتمد وبصورة متزايدة على الصناعة، ففي زماننا هذا يتعين على الأجيال

الجديدة أن تحظى بتعليم جيد حتى تحظى بقيمة مجتمعية، وهذا المنظور الجديد أدى إلى انخفاض معدل المواليد حتى تستطيع الأسر تحمل التكاليف الباهظة للتعليم".

"إذن لم تمس الأوضاع غاية في السوء بنهاية المطاف".

"لقد أوشكنا على الوصول إلى المنزل يا مونتي، ولكن أعتقد أنه ما زال هناك متسع من الوقت للحديث عن فحل آخر من الآباء المؤسسين للاقتصاد قبل نهاية نزهتنا. ربما طغت السوداوية على معتقدات مالتوس، ولكن مع ذلك فهي غاية في البساطة عند شرحها، وهذا أمر لا ينطبق على أفكار ومعتقدات ريكاردو، لكن دعني أحاول شرحها، فقد تشكلت بين مالتوس وريكاردو علاقة وطيدة من الصداقة، على الرغم من كونهما مختلفين تمامًا من ناحية الظروف المعيشية، حيث عاش مالتوس في ظروف مقيدة ماديًا، واضطر إلى أن يتعامل بحرص مع ما كان لديه من مال زهيد؛ على النقيض، فقد بنى ريكاردو ثروة ضخمة في عالم المال والأعمال، وتقاعد في الثانية والأربعين من عمره ولديه من المال ما يكفيه لآخر حياته.

صب ريكاردو كامل تركيزه على امتلاك الأراضي؛ حيث اعتقد أنها الوسيلة الأساسية لتحقيق الثراء، كونها من الموارد صعبة المنال، وبينما انشغل آدم سميث في كيفية تحقيق ثروات ضخمة في المقام الأول، كان كل ما شغل ريكاردو هو كيفية توزيع هذه الثروات على الطبقات الاجتماعية الثلاث: الكادحين، والملأ الإقطاعيين، والرأسماليين".

"أنا على علم بشأن الكادحين والملأ الإقطاعيين، ولكن من هم الرأسماليون؟".

"لنسمهم ملاك المصانع بشكل مؤقت حتى نحافظ على بساطة الأسلوب. استنتج ريكاردو أن نصيب كل فرد من الثروة يتغير حسب الطبقة الاجتماعية المنتمي لها، وتعتبر طريقة التقسيم غير العادلة هذه نتيجة بديهية - حسب اعتقاده - نابعة من قانون الإيجار الذي أتى به ريكاردو، وأشار إلى أن السبب الوحيد في كون الأراضي ذات قيمة عالية هكذا، هو أنها تعتبر من الموارد المحدودة والمتنوعة في جودتها، وعند النظر إلى الحقبة الزمنية التي

عاصرها صديقه القديم مالتوس، سنجد أنها محدودة بسبب الضغوطات التي تشكلها الزيادة السكانية، وقال ريكاردو بشأن هذا الصدد: "إذا أمست الأراضي كالماء والهواء، غير محدودة في كميتها، وجميعها ذات جودة مطردة وموحدة، فلن يكون لها أي قيمة مالية تذكر".

"لقد فهمت الجزء الأول المتعلق بعدم دفع الأشخاص المال في مقابل شيء ذي كمية غير محدودة، ولكن ما علاقة الفرق في الجودة بهذا الأمر؟".

"سؤال ممتاز، وقبل أن أجيبك وجب التنويه بأن فلسفة ريكاردو مبنية مرة أخرى على أسس مالتوس، إن الطلب على الغذاء يزداد طرديًا مع النمو السكاني، وهذه الحقيقة الثابتة تضطرنا إلى استصلاح وزراعة الأراضي رديئة الجودة، وهذا يؤدي إلى ارتفاع أسعار الإيجار بسبب زيادة طلب المزارعين على الأراضي الخصبة وترك الأراضي الجدية حتى لو كلفهم هذا المزيد من المال، ومن هنا أتى مفهوم الإيجار في المقام الأول طبقًا لريكاردو، حيث إنه نابع من الفجوة في الجودة بين أفضل الأراضي وأسوئها، لا سيما في عالم تُعد فيه الأراضي موردًا محدودًا.

من منظور ريكاردو، دائمًا ما تحيط بنا العمال ظروف معيشية محبطة وصعبة، وقد ضرب مثالًا لذلك بارتفاع أجور العمال، حيث إذا حدث ذلك فستتحسن معايير المعيشة لديهم، وبدوره سيصبح ذلك حافزًا قويًا لهم لإنجاب المزيد من الأطفال، بالتالي سنسقط في فخ التكديس السكاني، ثم سيزداد عدد العمال الساعين وراء الوظائف المختلفة، مع العلم أن عدد الوظائف ثابت منذ البداية ولم يزد بزيادة العمال، هذا سيضطر أرباب العمل إلى خفض الأجور المستحقة من جديد، وكأن العمال مقيدون بسلسلة مطاطية ملتفة حول رقابهم، ولهم أن يحاولوا مطها وتوسيعها لينعموا ببعض الحرية المؤقتة، ولكنها حتمًا ستنكمش وتعود لتطوقهم مرة أخرى، الآن لننتقل إلى الطبقة المتكونة من أصحاب المال والأعمال - الرأسماليون - وعلى الرغم من دورهم المهم في المجتمع لتحقيق التقدم، لكنهم سيشهدون تقلصًا في نسب أرباحهم بسبب الزيادة السكانية التي ستؤدي بشكل حتمي إلى



ارتفاع أسعار المواد الغذائية، هذا بالإضافة إلى اضطرابنا لاستصلاح وزراعة الأراضي الجذبة، الذي سيقودنا أيضًا نحو موجة من غلاء أسعار الطعام بسبب قلة المحاصيل المجنية من تلك الأراضي، وهكذا دواليك، سيتعين على أرباب العمل (الإقطاعيين) رفع أجور عمالهم حتى يتمكنوا من مجارة الأسعار الجديدة للموارد المعيشية، وتلك الزيادة في الأجور تأتي على حساب انتقاص نسب الأرباح لرجال الأعمال (الرأسماليين)".

"عليّ مصارحتك بأنني لا أضمر أي ذرة تعاطف تجاه هؤلاء الرأسماليين بعد علمي بالظروف السوداوية المحيطة بعمالهم المعرضين لأن يتضوروا جوعًا".

"لعلك محق فيما قلته، ولكن بمنظور ريكاردو، فالموقف لا يختلف كثيرًا بالنسبة للرأسماليين، إن الفائزين الحقيقيين من هذا الموقف هم طبقة الملاك الإقطاعيين الذين يمثلون النظام الأرستقراطي القديم، والذي عُرف بحكر امتلاك الأراضي على حزمة صغيرة من الأشخاص أطلق عليهم ملاك الإقطاع، ولحيازتهم موارد نادرة وغاية في الضرورة كهذه، فهم لم يبالوا بشأن أي من تلك الأوضاع التي سادت في ذلك الحين، وكل ما فعلوه هو الاسترخاء وجمع إيجارات أراضيهم التي استمرت في زيادتها، مثل عنكبوت ضخمة يتربص بفريسته داخل شبكة كثيفة من خيوطه، وينتظر أن تتعثّر وتقع في فخه حتى ينقض عليها، وأعتقد أنه من الواجب الإشادة والإعجاب بموقف ريكاردو، فمع كونه إقطاعيًا، فإنه تمكن من فحص القضية بموضوعية تامة دون أن يسمح لمصالحه الشخصية بالتأثير على رأيه وتفكيره".

"أيمكننا أن نحظى بقليل من القصص المبهجة، بعيدًا عن كل هذا البؤس والسوداوية؟ هل جميع خبراء الاقتصاد لديهم هذا المنظور التشاؤمي؟".

عُرف ريكاردو بقدرته على فهم وتحليل العناصر المنطقية الكامنة وراء المنظومات المعقدة والفوضوية، ولكن تبين فيما بعد خطأ اعتقاده - تمامًا كما تبين خطأ مالتوس - بشأن توقعاته ومخاوفه، حيث استطاعت الثورات الصناعية أن تضع حدًا لتلك الزيادة السكانية، كما أننا تمكنا بفضلها من زيادة نسبة المحاصيل المجانية من الأراضي بشكل ملموس. من

الواضح أن القصة خُتِمت بنهاية سعيدة بعد كل شيء، أو بالأحرى، لم يتحقق ما تنبأ به ريكاردو بشأن الملاك الإقطاعيين وقيامهم بنهب الخيرات وقصرها عليهم وعلى عائلاتهم، ولم ينتشر الظلم كما توقع له أن ينتشر".

"لقد انتقدت كلاً من مالتوس وريكاردو، نقدًا لاذعًا، الأمر يبدو كأنما قدمت لي دروسًا مستفادة وقيّمة من خلال عرضك لاثنتين من وجهات النظر غير الصحيحة!".

"نعم، لعلك محق، لا تزال معتقدات ونظريات آدم سميث خالدة إلى يومنا هذا، وهذا لا ينطبق على مالتوس وريكاردو، وأنا لا أقصد بقولي هذا أنهما لم يكن لهما تأثير على مجال الاقتصاد، أو أنهما مثالان لا يستعان بهما في دراسة المجال بشكل عام - كل ما في الأمر أنه لا يوجد الكثير من أنصار فلسفة مالتوس أو ريكاردو في قسم الاقتصاد بمختلف الجامعات، وربما ما ينبغي دراسته بشأنهما هو كيف استطاعا جذب الانتباه إليهما في عصرهما بسبب نظرتيهما العقلانية والموضوعية للاقتصاد والمجتمع الذي يشكل جزءًا غاية في الأهمية منه، علاوة على ذلك، فهما حاولا إيجاد وابتكار الوسائل العلمية للاستعانة بها في تفسير العديد من العمليات والمعادلات المعقدة، بالإضافة إلى تقديم التنبؤات والتوقعات بشأن ما سيحل علينا في المستقبل، وبصدد هذا الشأن بالتحديد، فهما تأثرا كثيرًا بوسائل العالم إسحاق نيوتن التي عُرِفَتْ بكونها ثورة علمية، وكلاهما أراد أن يمسي في مجال الاقتصاد كما أمسى نيوتن في مجاله. ما أثار الاهتمام أيضًا هو التأثير العلمي المهم الذي خلفته هذه المحاولة الفاشلة في الاستعانة بالقوانين العملية لتفسير ما ورأيتا المعركة والكفاح الإنساني للبقاء على قيد الحياة. باشر تشارلز داروين العمل على تطوير نظريته الجديدة حالما عاد من رحلته حول العالم التي خاضها على متن سفينة بيجل في عام 1836. تعلقت نظريته بالبيولوجيا المتعلقة بالكائنات، ولكنه لم يمتلك أدنى فكرة عن العوامل أو الآلية التي تخدم نظريته، في عام 1838، قرأ تشارلز، كتاب مالتوس، حول الزيادة السكانية وتأثيراتها على ما نمتلكه من موارد، وبعدها أدرك تشارلز، أن جميع تلك الأفواه الجائعة والتي تبحث هائمة عن أي نوع من الموارد الغذائية حتى تستطيع البقاء على قيد الحياة، هي القوة الرئيسية التي تحرك وتحفز العملية التي أراد مناقشتها في

نظريته، باختصار: عندما تجتمع الرغبة الجامحة للبقاء على قيد الحياة مع بعض التغيرات العشوائية التي تحدث داخل المجتمعات، فستنتج بعض الامتيازات - حتى لو ضئيلة - التي من شأنها مساعدة الأفراد على البقاء وتوريث هذه الامتيازات لمن سيخلفهم من أجيال، لعل أفكار مالتوس لا تؤخذ في مجال الاقتصاد على أنها ثورية أو شيء من هذا القبيل، ولكنها بكل تأكيد أصبحت ذات شأن عظيم في علم الأحياء؟

لقد اقتربنا جدًا من الوصول إلى المنزل يا مونتي، الآن سأقوم بإجراء اختبار سريع لنرى إن كنت منصفًا لما أقوله أم لا، ما هو تعريف الاقتصاد؟".

"لم أضع في حسابي أنني سأخضع لاختبار حالما ننتهي، إن الاقتصاد عبارة عن شيء له علاقة بالأسواق والأموال، وأيضًا يرتبط بتصنيع الأشياء وتوزيعها بالإضافة إلى العديد من الأشياء الأخرى".

"إجابة معقولة إلى حد ما، ولكن هناك تعريف وجيز وضعه أحد أعظم خبراء الاقتصاد الذين وجدوا على الإطلاق، وهو روبرت هايلبرونر (1919-2005)، حيث عرّف الاقتصاد على أنه (دراسة ثاقبة للأوضاع داخل المجتمعات التي تعتمد على الأسواق)".

"هذا التعريف غاية في السهولة، ماذا لديك بعد؟".

"لدي ما أريد أن أضيفه قبل أن نختتم هذا الجزء المتمركز حول التاريخ، على الرغم من اختلاف آدم سميث، ومالتوس، وريكاردو، في طرق تفكيرهم ومناهجهم المتبعة في التوصل لبعض الحقائق والنتائج، إلا أنهم اتفقوا جميعًا حول وجهة نظر محددة، وهي أن الطبقة الكادحة تعتبر الضحية الحقيقية لتلك المنظومة الاقتصادية الممتلئة بالعيوب، كما أنهم لم يعتقدوا أو يلمحوا بتاتًا في كتاباتهم إلى استعداد تلك الطبقة لخوض معركة نضالية من أجل تغيير الأوضاع والمعايير المفروضة عليهم، خلال نزهتنا المقبلة، سنتعرف على الثورة الصناعية والتغيرات الجذرية التي طرأت مع قدومها، وآراء كارل ماركس، والآخرين حول تلك الملابس الجديدة.

وها قد عدنا أخيرًا إلى شارعنا حيث نقطن، حمدًا لله على عودتنا، إن الحديث والسير ساعات طويلة أمران مرهقان حقًا".

"أتفق معك بشدة".

"تستحق قطعة من البسكويت، وأنا أظنني أستحق كوبًا من الشاي بعد كل هذا العناء".

## النزهة ٣: الجزء ١: الثورة الصناعية

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: الثورة الصناعية وتأثيراتها غير المسبوقة على زيادة الإنتاجية، ولماذا أصبحنا أفضل بآلاف المرات في إنتاج وتصنيع وسائل الإضاءة المختلفة مقارنة بأسلافنا؟ كما أننا سنناقش الجانب المظلم والسلبى من الثورة الصناعية، كالاستعانة بعمالة من الأطفال الذين لا يتجاوز عمرهم السابعة، وجعلهم يعملون لأوقات طويلة تصل إلى خمس عشرة ساعة يوميًا؛ أما في الجزء الثاني من النزهة: فسنقوم بزيارة القبر الذي يرقد فيه كارل ماركس، لنعلم منه السبب وراء ظنه بأن الثورة الصناعية فكرة غير مرحب بها على الرغم من كونها حتمية؟ وأخيرًا، سنناقش كيف تحول الاقتصاد من كونه مفهومًا فلسفيًا أخلاقيًا إلى كونه مفهومًا علميًا بحثيًا.

ها قد حل يوم جديد، سنخرج به في نزهة جديدة، لكن - على الأقل - أضحت الشمس مشرقة في هذا اليوم.

سألني مونتي، وأنا أجاهد في ربط الحبل في الطوق الموضوع حول عنقه: "ترى ماذا لديك من أفكار وموضوعات ستروينها عليّ اليوم؟".

"ثمة موضوعان رئيسيان للنقاش في هذا اليوم، الثورة الصناعية، ومبادئ كارل ماركس، وعلى ذكر هذا، فإن المقبرة التي يرقد فيها كارل ماركس ليست بعيدة من هنا، لعله سيكون من اللطف أن نقوم بزيارته".

"ماذا؟"

"دُفن ماركس في مقابر هايجيت، وهذا يعني أنه سيتعين علينا ركوب الحافلة حتى نصل لتلك الوجهة".

"كم أحب ركوب الحافلة!"

هذا صحيح، أحب مونتي ركوب الحافلة كثيرًا، مع كونه كبير السن، فهو يستمتع ويتحمس كثيرًا وللغاية عند رؤيته المعالم واكتشافه بعض الروائح المختلفة أثناء الرحلة، كما يستمتع بالإطراء المفرط من قبل بعض السيدات على متن الحافلة، حيث يرينه لطيفًا جذابًا بشكل لا يقاوم، لم نستطع أن نبدأ حديثنا حتى نزلنا من الحافلة، فالحالة الوحيدة التي يمكنك فيها الحديث إلى كلبك على مشهد من الناس هو أن تمدحه لكونه مهذبًا ومطيعًا، أو توبخه لكونه مشاغبًا؛ وهناك حالة أخرى، وهي أن تلعب معه لعبة، حيث تقوم برمي شيء ما لمسافة، ثم تأمره بأن يجلبه لك، ولكن لم يحدث من قبل أن قام بجلب شيء لي، أما الحديث مع كلبك حول وسائل الإنتاج المختلفة ومفهومها فيعتبر شيئًا غريب الأطوار.

على كل حال، صرنا أنا ومونتي وحدنا عند أطراف هذه المقبرة، ويمكننا أخيرًا أن نخوض حديثنا بحرية دون أن يقاطعنا أي أحد، عدا بعض الأشخاص الذين يهرولون في هذا المكان بين الفينة والأخرى.

"لنبدأ حديثنا بالثورة الصناعية، التي بدأت بالظهور في قرابة القرن الثامن عشر، وكان تقدمها بطيئًا ويواجه بعضًا من التعثرات، لكن مع ذلك، كان تأثيرها لا مثيل له، حيث شهدنا تحولًا من اقتصاد قائم على الزراعة والتجارة، إلى اقتصاد آخر قائم بشكل كامل على الصناعة، والتي أصبحت جزءًا مهمًا على عجلة الاقتصاد؛ وقد استغنيينا عن وسائل التنقل التقليدية كالأحصنة، واستبدلناها بوسائل أكثر تطورًا كالآلات التي تعمل بقوة الحصان (وهي وحدة فيزيائية يُقاس من خلالها قدرة الآلات والمعدات)".

"ماذا تعنين بذلك؟"

"أدت الثورة الصناعية إلى ارتفاع غير مسبوق في معدلات الإنتاج، ما أدى بدوره إلى ارتفاع مستويات المعيشة كما لم نشهد من قبل، ولكن لم يأت هذا من تلقاء نفسه، حيث دفع البشر ثمنًا غاليًا من معاناة وشقاء، واضطر سكان المدن من الفقراء إلى العمل والكد

تحت ظروف قاسية للغاية. تعتبر التغييرات الجذرية في الأنماط السكانية التي نبعت من حدوث الثورة الصناعية، هي السبب الأساسي في عدم تحقق تنبؤات مالتوس التشاؤمية.

لنتخيل معاً رسماً بيانياً يوضح المستوى المعيشي منذ سنة 1000 ميلادياً حتى يومنا هذا، كل ما سنراه بهذا المخطط سيكون عبارة عن خط بياني مستقيم، ولكن يرتفع بشكل ملحوظ وفجائي عند نهايته، هذا الخط يشبه في بنيته شكل عصاة الهوكي وهي ملقاة على جانبها، أنا لم أحبذ استخدام هذا التشبيه قط، فهو تشبيه يغلب عليه طابع الثقافة الأمريكية؛ أعتقد أنهم تصوروا في ذهنهم عصاة هوكي جليدية، ذات نهاية أطول أو ما شابه، فأنا لا أعرف ماذا يطلقون على هذا الجزء منها؛ أما أنا فدائماً ما أميل إلى تشبيه ذلك الخط البياني بالمهرج الميت، وهذا تفضيل شخصي".

"ماذا؟!"

"كما سمعت، مهرج ميت، تخيل معي مهرجاً يرتدي زوجاً من الأحذية الكبيرة، ملقى على ظهره، وقدماه معلقتان في الهواء، ربما لا يكون ميتاً، من المرجح أن يأخذ قيلولة، وهذا ليس بمقصدي ولا بموضوعنا، ما أقصده هو أن جسمه ذو استواء ثابت، عدا نهايته التي فيها ترتفع قدماه إلى مستوى أعلى، أفهمت ما أقصده؟".

"نعم فهمت، ولكن أرجوك لا تقتلي المزيد من المهرجين في أمثلك!"

"مهما يكن، منذ بداية عام 1000 ميلادياً، شهدنا ثباتاً في مستويات المعيشة لما يقرب من سبعمائة عام، ولكن بدأت الأوضاع تتغير في المملكة المتحدة قرابة عام 1750، فازدادت الإنتاجية بشكل ملحوظ، وتطورت سرعة وسهولة وسائل الاتصال بمعدلات فائقة (وسائل الاتصال هي الطرق التي تمكنا من نقل المعلومات بسرعة وسلاسة إلى كل مكان حول العالم). إذا نظرنا إلى مستويات المعيشة الحالية في المملكة المتحدة، سنجد أنها أعلى بخمس وعشرين مرة مقارنةً بالمستويات التي سادت منذ ثلاثمائة عام".

"وهذا يرجع إلى...؟"

"إنه يرجع إلى كثير من العوامل وعلى رأسها موجة من الأفكار الخلاقة، والاكتشافات الجديدة، بالإضافة إلى ابتداع بعض الوسائل الحديثة التي ساعدتنا على زيادة كمية المنتجات التي نقوم بتصنيعها، وقد كان من أوائل تلك الوسائل "مجال الغزل والنسيج"، مثل آلة النسيج التي ابتكرها "جون كاي" في عام 1733، أو آلة الغزل الدوارة الخاصة بـ "جيمس هارجريفز"، وكلاهما عززا من معدلات إنتاج الأقمشة بشكل هائل في نهاية سبعينيات القرن الثامن عشر، حيث عمل "جيمس وات" على تطوير محركات تعمل بضغط البخار، واستُخدمت لإمداد المناسج بالطاقة، بالإضافة إلى مضخات المياه، التي لعبت دورًا مهمًا في منع حدوث الفيضانات داخل مناجم الفحم، ولكل من تلك الاختراعات أهمية كبيرة، ولكنها عندما اجتمعت قواها معًا، رأينا تحولات جذرية غيرت نهج حياتنا إلى الأبد، وهناك مثال تنويري آخر بشأن هذا، وهو صناعة مصابيح الإضاءة".

"لقد لاحظت تلك التورية التي فعلتها للتو".

"لم يعرف البشر في معظم تاريخهم أي وسائل للإضاءة خلال أوقات الليل سوى الإضاءة المنبعثة من القمر والنجوم، أو إشعال نيران المخيمات، أحرز أول تقدم بخصوص هذه المسألة عندما ابتكرت المصابيح الزيتية، بعدها أتت الشموع التي صُنعت باستخدام الدهون الحيوانية، أو بواسطة شمع العسل - في حالة إذا كنت واحدًا من الأثرياء - وكان هذا النوع من الشموع الذي يتميز بكونه نظيفًا في احتراقه ولا يترك وراءه تلك الرائحة النتنة الناتجة من احتراق شحوم الحيوانات، وقد تطورت الأمور بشكل أكبر فيما بعد وظهرت مصابيح الجاز في القرن التاسع عشر، وفي آخر ربع من هذا القرن، ظهر مفهوم الإضاءة الكهربائية والذي اعتُبر نقطة التحول الأولى من نوعها.

تحسنت صناعة المصابيح تدريجيًا وأصبحت أكثر كفاءة خلال كل طور من الثورة الصناعية، ولكنها مع ذلك لم تكن في متناول الجميع، كالعمال ذوي المستوى المعيشي المتوسط، تعين على أي عامل متوسط في عام 1800 العمل لمدة تصل إلى خمسين ساعة



حتى يستطيع تحمل تكلفة ساعة من إضاءة الشموع، ولهذا السبب، عاش الكثير منهم تحت أجواء يسودها الظلام الدامس، وانخفض هذا الثمن إلى ثلاث ساعات عمل بدلاً من خمسين ساعة بحلول عام 1880، وظل ذلك صعب المنال بالنسبة للكثيرين، كم عدد الساعات الذي سيتعين على أي عامل عادي - في عالمنا الحالي بشكله المتقدم - قضاؤها في العمل حتى يتمكن من دفع ثمن ساعة واحدة من الإضاءة الكهربائية في رأيك؟".

"إنني أكره كثيرًا هذا النوع من الأسئلة، أخبريني فحسب".

"الإجابة هي ثانية واحدة".

"هذا أمر مذهل للعقول بلا أدنى شك، ولكن إن كانت زهيدة لهذا الحد، لماذا يتذمر الفيلسوف دائمًا عندما ينسى البعض إغلاق المصابيح المضاءة؟".

"إنه محب للشكوى، كما أنه يحمي كوكبنا بهذا التوفير للطاقة، لكن السبب الرئيسي هو حبه للشكوى، لنعد حيثما توقفنا، هنالك العديد من المجالات الأخرى التي شهدت تلك النقلة النوعية كمجال الاتصال عن بعد، تخيل معي كم الوقت المستغرق حتى نقوم بإيصال المعلومات من مكان إلى آخر، على سبيل المثال: في عام 1860، عندما فاز "أبراهام لينكون" في انتخابات الرئاسة الأمريكية، استغرق هذا الخبر قرابة ثمانية أيام، حتى يصل من العاصمة واشنطن إلى ولاية كاليفورنيا، الأمر ذاته حدث مع نقل البضائع، الذي يعتبر الجوهر الأساسي لحركة التجارة، وبعد تطوير وابتكار سفن الشحن، أصبح نقل البضائع من موقع جغرافي إلى آخر سهلًا بشكل لا يمكن وصفه أو استيعابه، حتى لو كان المكانان على مسافة بعيدة من بعضهما البعض، كالصين وبيرو".

"لقد فهمت مقصدك نوعًا ما، ولكنني أتساءل عن الأسباب وراء هذه الثورة الصناعية المفاجئة؛ لم يستطع العالم سوى إحراز تقدم ضئيل جدًا - لا يكاد يذكر - خلال الآلاف من السنوات".

"يكمن السبب وراء الابتكار، وتخصص الأفراد في مهام محددة، وكلاهما يعتمدان بشكل أساسي على الأسواق. عندما تتخصص المصانع والعمال في إنتاج نوع معين من البضائع، فستحتاج إلى وسيلة لبيعها. لنستحضر قليلاً قصة آدم سميث حول مصنع الدبابيس، وكيف أن تخصص الأفراد في مهام وظيفية محددة يزيد معدلات الإنتاج، وهذه الزيادة في الإنتاج ليس لها أي قيمة إذا لم تكن هناك وسيلة نستطيع من خلالها التجارة فيها (من سيكون بحاجة إلى أربعة آلاف وثمانمائة دبوس يوميًا؟). تصبح هذه الوسيلة متاحة فقط من خلال الأسواق، ولن يتمكن كل من المعلم والممرض أن يمارسا تخصصاتهما، إلا إذا وُجد نظام يضمن لهما تلبية احتياجاتهما المادية من مأكّل وملبس، وتوفير مواصلات توصلهما إلى مقر عملهما، وكوب من القهوة يساعدهما على إزاحة توتر العمل من على عاتقهما بعدما يعودان للمنزل".

"صحيح، فهذا ما تقولينه حينما تعودين من العمل وتتناولين كوبًا من القهوة".

"يمكن أيضًا تطبيق سياسة التخصص عن طريق إصدار القيادات للأوامر، حيث تستطيع الحكومة أن تأمرني بممارسة مهنة التدريس، وتأمر الآخرين أن يصبحوا عمال بناء، أو عمالًا في مناجم، كما يمكنها التحكم فيما يقوم المزارعون بزراعته، ويمكنها إصدار قرار يحدد نوعية وشكل الملابس الذي يتم تصنيعها، لكن تعلمنا على مدار التاريخ أن تلك السياسة التوجيهية لم تكن فعالة. هناك نهج آخر، وهو مقايضة المنتجات بين العائلات والجماعات وبعضهم البعض (عن طريق العطاء والمشاركة)، ولكن مرة أخرى، انتشر هذا النهج بشكل محدود واقتصر على بعض جوانب الحياة المحددة كإعارة الأطفال. إن تطور الأسواق وإنشاء بعض المؤسسات الاقتصادية أديا إلى ازدهار مفهوم التخصص، كما أفسح المجال أمام إقامة تعاون عالمي، لم يكن في الحسبان. مثلاً: أولئك الأشخاص الذين تعاونوا على صنع هاتفي المحمول، لم يصنعوه لأنهم يكثرثون لأمرى بالتحديد، ولا يوجد شخص بيروقراطي رأى أنني في حاجة إليه فحفز عملية الصناعة من أجلي، بل كل ما في الأمر أن هؤلاء الأشخاص تعاونوا على صناعته لأنهم أمهر وأفضل مني في هذا المجال ليس إلا،

وأصبح هذا الهاتف بحوزتي لأنني دفعت مقابلًا ماليًا من أجل شرائه، وهذا يعني أن كل المذكورين آنفًا، يستطيعون أيضًا شراء ما يحتاجون إليه أو يرغبون فيه".

"حسنًا، لقد فهمت سبب اعتماد التخصص في المهمات الوظيفية على التعاملات التجارية، ولكنني ما زلت لا أفهم لماذا تعتمد الجهود الابتكارية والإبداعية على الأمر ذاته".

"السبب في ذلك هو استحالة أن يتكبد أحد عناء المشقة والتكاليف في سبيل تطوير بعض المنتجات الحديثة والمبتكرة من أجل استخدامه الشخصي فقط. يحتاج المبتكرون إلى الأسواق حتى يروجوا منتجاتهم ويكافأوا على جهودهم، كما أنها تلبى احتياجاتهم الأساسية التي لا غنى عنها أيضًا.

إن الإبداع والتبادل التجاري ليسا السببين الوحيدين اللذين حفزا هذه الزيادة الكبيرة في معدلات الإنتاج والازدهار الاقتصادي الذي نبع منهما، بل كان التحول الديموجرافي بمثابة القطعة الأخيرة التي أكملت حل هذا اللغز، أتذكر ذلك الشخص المدعو مالتوس؟".

"ذلك الشخص الذي أتى بنظرية أن الزيادة السكانية ستؤدي إلى ارتفاع معدلات الفقر والجوع؟".

"نعم هو... صحيح أن زيادة معدلات الإنتاج أمر جلل، ولكن لن تتحسن مستويات المعيشة بدولة ما إذا ظلت الزيادة السكانية فيها تفوق الزيادة الإنتاجية، ولقد شهدت الأطوار الأولى من الثورة الصناعية تكدسًا سكانيًا غير مسبوق، ففي عام 1810، بلغ متوسط عدد الأطفال الذين تنجبهم المرأة الإنجليزية في عمر الخصوبة يتراوح ما بين خمسة وستة أطفال، ولكن أخذت تلك المعدلات في الهبوط بحلول أواخر القرن التاسع عشر، حتى عام 1930، حتى أصبح متوسط عدد الأطفال الذين تنجبهم المرأة الواحدة طفلين فقط، ومنذ ذلك الحين، شهدنا بعض الارتفاعات الطفيفة في نسب المواليد، ولكن في وقتنا الحالي فالرقم المقدر يعتبر أقل من طفلين لكل امرأة".

"ولماذا انخفضت المعدلات بهذا الشكل؟ هل لأن إنجاب الأطفال عملية باهظة الثمن؛ لذلك كلما ازداد الشخص ثراءً، أنجب المزيد من الأطفال؟".

"ثمة العديد من التفسيرات التي تخص هذا الأمر، أحدها: أن الأطفال يكونون ذوي فائدة أكبر داخل بيئة زراعية لكثرة المهمات فيها، كإطعام الدواجن وإبقاء الغربان بعيدة عن الحقول، لكن، داخل البيئة الحضرية التي يزداد انتشارها بوتيرة سريعة، لن يمسي الأطفال ذوي فائدة كبرى، وهناك عامل آخر أيضًا: مع تحسن أوضاع المعيشة، أصبح الآباء أقل قلقًا على أطفالهم من خطر الموت؛ لذا ليسوا بحاجة لإنجاب الكثير منهم. ومع ازدياد أهمية التعليم يومًا بعد يوم، ازدادت التكاليف المصاحبة لإنجاب الأطفال، ثم إنه مع تغير أحوال المرأة واقتحامها للقوى العاملة داخل المجتمع، أصبحت لا تملك سوى القليل من الوقت الذي لا يكفي للاعتناء بالأطفال وتربيتهم".

"وكل ما ذكرته للتو يعتبر من الأشياء الجيدة، صحيح؟".

"نعم، جميعها أشياء جيدة بشكل عام، ولكن ظهرت بعض المشاكل: منها أنه كلما قلت نسبة المواليد، قل عدد القوى العاملة المستقبلية، ثانيًا زيادة متوسط أعمار البشر، الذي يعني بدوره وجود الكثير من المسنين والشيخوخ الذين يجب الاعتناء بهم. في العصر الحالي، انخفضت معدلات المواليد كثيرًا داخل الدول ذات الاقتصادات المتقدمة إلى مستوى أدنى من المستوى الطبيعي للاستبدال (الاستبدال هو: معدل الخصوبة الكلي الذي - إذا استمر - فإنه يسفر عن جيل جديد مساوٍ في عدد سكانه لجيل أقدم منه في منطقة محددة)، ومن المؤكد أننا سنأتي بحلول لهذه المشكلات، ولكن سيتطلب الأمر بعض التفكير الإبداعي والذكاء الإستراتيجي، علاوة على ذلك، ربما ستتضمن تلك الحلول بعض الهجرات الجماعية الضرورية من بعض الدول النامية إلى الدول المتقدمة. على كل حال أنا متيقنة أن الحل يقبع وراء منظومة السوق؛ كونها آلية بارعة في جذب العاملين للقيام بالوظائف التي تعتبر غاية في الأهمية، ولكننا سنتقصى عن هذا الموضوع بشكل مفصل أكثر عندما نتحدث عن مفهوم العولمة في نزهة أخرى".

"موافق، إذن يمكننا الاستنتاج - بغض الطرف عن تحفظاتك المعتادة - أن الثورة الصناعية كانت شيئًا جيدًا".

"نعم، يمكننا، غير أن الزيادة الإنتاجية التي ناقشناها استغرقت كثيرًا من الوقت حتى تؤدي أكلها على هيئة زيادة في دخل الطبقة المتوسطة، حيث ظلت الأوضاع بالسوء ذاته على مدى جيلين أو ثلاثة أجيال أخرى، بل تفاقم ذلك السوء بالنسبة للكثيرين حتى وصل إلى حد الوحشية. قدّر المؤرخ الاقتصادي أرنولد توينبي (1852-1883) أجور العاملين في عام 1840، ووجد أنها تقلصت بقدر ثمانية شلنات، وهذا الأجر يقل عن الحد الأدنى المطلوب للوفاء بالاحتياجات الأساسية للمعيشة، بمقدار ستة شلنات، لكن العامل استطاع تعويض ذلك المقدار بإرسال زوجته وابنه للعمل، فبدأت ظروف العمل في التحسن بحلول عام 1870، حيث ازدادت الأجور بما يكفي - بل تجاوزت ذلك - لتغطية التكاليف الأساسية كالطعام والسكن، علاوة على ذلك، تغيرت أوقات العمل أيضًا، حيث أصبحت أقصر مما كانت عليه، ولكن مع ذلك، لم تزل طويلة نسبيًا، لم يكن التأثير المصاحب لكل هذه التغييرات عادلاً. على سبيل المثال - تسبب الانتشار الواسع لآلات الغزل والنسيج التي تعمل بقوة ضغط البخار في دفع الحرفيين الذين يعملون يدويًا إلى الفقر المدقع، ولكن بالرغم من كل تلك المصاعب، استطعنا أخيرًا أن نسلك منعطفًا جديدًا يسوده التقدم والرخاء".

كنا ندور حول المقابر طوال هذا الوقت، ونتوقف كل حين وآخر لنبدي إعجابنا بنصب تذكاري مؤثر، أو ضريح ذي مظهر سوداوي وطابع قوطي؛ وبدأت مظاهر التعب والإرهاق تظهر على مونتي.

"هل أسلكنا منعطفًا مختلفًا نحن أيضًا؟".

"نعم، سنعود الآن، مرورًا بجانب قبر هو من الأشهر على الإطلاق".

## النزهة ٣: الجزء ٢: موقف كارل ماركس من الثورة التي لم تحدث

لقد وصفت الثورة الصناعية في بداية تنزهنا على أنها التحول الذي شهده الاقتصاد من الاعتماد على الزراعة والتجارة، إلى الاعتماد الكامل على الحركة الصناعية، وهذا يشير إلى وجود تغييرات كبيرة في الحياة العملية للأفراد، حيث سينتقلون من العمل بالحقول الزراعية، إلى العمل بالمصانع التي عُرفت بقسوة ظروف عملها، وتطلبت قدرًا كبيرًا من الجهد حتى يستطيع العمال فيها التكيف مع هذه البيئة الجديدة. عارض الكثير من الأشخاص هذا التغيير بشدة ورفضوا الخضوع له، وقاموا ببعض أعمال الشغب تعبيرًا عن غضبهم، كتخريب آلات التصنيع وإضرار النيران في المصانع التي مقتوها؛ كونها تميزت بمشقة أعمالها.

لكن إن كان العمل بالمصانع كريهًا للعمال، فإن معيشتهم في حياتهم الفقيرة والعشوائية أسوأ بفارق ملحوظ؛ حيث تم تقدير متوسط العمر المتوقع للقاطنين في مانشستر بمطلع القرن التاسع عشر، على أنه سبعة عشر عامًا فقط، وانتشر القحط والبؤس بشكل لا يصدق، حتى إن تقريرًا عن الأوضاع المعيشية في جلاسكو عام 1839، كان وصفه للمشهد سوداويًا، فذكر: تجمعت تلال من القاذورات على مسافة قريبة من بعض الشوارع الضيقة، بالإضافة إلى وجود العديد من الغرف الخالية من أي شيء سوى قاطنيها، والتي يتكدس بها ما يقارب من 15 إلى 20 شخصًا، حظي بعضهم بالقليل من الملابس، وبقي الآخرون عراة دون قطعة ثياب واحدة، وقد زعم بعض المؤرخين جدلاً أن القحط والعوز المنتشرين في المناطق الحضرية لم يكونا أكثر قسوة مما حدث في الريف. الأمر وما فيه أنهم أصبحوا ظاهرين بشكل ملموس؛ ما جذب انتباه وكسب تعاطف العامة، وحث ذلك التعاطف، بالإضافة إلى التنظيم الشعبي للنقابات والاتحادات العمالية، السياسيين لتشريع قوانين جديدة من شأنها تحييد عمالة الأطفال وتقليل ساعات العمل، فأدت تلك العوامل

إلى تقليص نسبة القوى العاملة، ما أدى إلى زيادة الأجور، بالإضافة لذلك، مُنح حق التصويت بالتدريج إلى الأفراد داخل المجتمع، وبحلول عام 1918، مُنح حق التصويت لجميع الرجال فوق الواحد والعشرين عامًا (حدث الأمر ذاته فيما بعد بالنسبة للنساء، لكن بحلول عام 1928).

رأى البعض أن هذه الإصلاحات التدريجية غير كافية، حيث إن ما أرادوه هو ثورة شاملة. ذكر في كتاب *The Communist Manifesto* الصادر عام (1848): "لترتعد الطبقات الحاكمة خوفًا من الثورة الشيوعية المقبلة، ونحن البروليتاريين لا نخشى خسارة أي شيء، وحتما سيأتي اليوم الذي سنتخلص فيه من تلك الأغلال التي تكبلنا وننطلق لننعم بعالم أفضل".

في توقيت مثالي، وصلنا إلى مقبرة ماركس، حيث وجدنا تمثالاً ضخماً لرأس مثبتة بإحكام على قاعدة من الرخام.

"هنا يتواجد كارل ماركس، يا مونتي، أو بالأحرى نصبه التذكاري، وليس هو بشخصه. لا يعتبر ماركس خبيرًا اقتصاديًا بحثًا، إنما يعتبر فيلسوفًا ذا أفكار لها نصيب الأسد من الأثر الذي تركته على القرن العشرين، أثر أكبر من الذي خلفه أي خبير اقتصادي آخر. لقد تم ارتكاب أفظع الجرائم وأبشعها خلال هذا العصر على يد أتباعه، وهنا تكمن السخرية، وهي مأساوية بعض الشيء؛ حيث تركزت الفلسفة الاقتصادية لماركس حول الإيمان بسمو القيم الإنسانية، وتمني الأفضل للجميع، علاوة على ذلك، حققت منظومة السوق - التي اعتبروها في منظورهم أداة تشجع على انتشار الجشع والأنانية بين الناس - نتائج مرضية للغاية، أترى ما كُتب على هذه القاعدة الرخامية؟".

"لا، فأنا مجرد كلب، لا أستطيع القراءة".

"صحيح، لطالما نسيت الكم الهائل من الفطنة والذكاء لديك! على كل حال، إن ما كتب على القاعدة هو مقولة لماركس: "قام الفلاسفة بتأويل حقيقة هذا العالم بمختلف الوسائل

المتعددة؛ ومع ذلك، يبقى أن الهدف الأسمى هو تغييره وليس تأويله"، حقق ماركس نجاحًا ساحقًا في هذه النقطة تحديدًا، طوال معظم القرن العشرين: فقد عاش أربعة من كل عشرة أشخاص تحت ظل حكومة كانت تعتبر نفسها ذات نزعة ماركسية، وخلال نزهتنا السابقة، تحدثنا عن آدم سميث، ومالتوس، وريكاردو، وجميعهم صبوا تركيزهم على التحديات الاقتصادية التي واجهت الطبقة الكادحة بطريقة أو بأخرى، ولكن مع كونهم معاصرين للثورة الفرنسية، لم يتوقع أحد منهم حدوث مقاومة لتغيير الأوضاع من طرف تلك الطبقة المتألّمة، ولكن ماركس كان على وشك تغيير هذه الفكرة<sup>1</sup>.

"أعطيني خلفية حول هذا التغيير، في أي عصر حدث؟".

"وُلد ماركس في ألمانيا (1818-1883)، ولكنه قضى معظم فترات حياته في المنفى بإنجلترا، كانت أشهر أعماله كتاب

(1848 *The Communist Manifesto*)، والذي تعاون في تأليفه مع صديق عمره فريدريك إنجل، والكتاب الآخر تحت عنوان *Capital*، وتم نشره في ثلاثة مجلدات بداية من عام 1867 حتى عام 1894، شكك ماركس في موثوقية علم الاقتصاد، مجادلًا بأن هناك مفاهيم دخيلة ومستجدة عليه، كالملكية الخاصة ونظام الأسواق المتنافسة، كما أنه نظر إلى النظام الرأسمالي على أنه يحمل بجوهره نزاعًا لا مفر منه، وسيكون شرارة اندلاع الثورة. وفقًا لماركس، ينقسم المجتمع الحديث إلى طبقات عدة، وتحدد كل طبقة وفقًا لهيكل علاقاتها مع وسائل الإنتاج. عُرفت الطبقة الرأسمالية باحتكارها للمصانع، والمطاحن، والمناجم، وورش الحدادة، أما الطبقة الكادحة فلم يكن لديها شيء سوى العمل في تلك المنشآت، وملاك المنشآت هم من يدفعون أجور العاملين المستحقة، وهم يصنعون ثروتهم من خلال الفرق في الأجور المدفوعة لكل عامل على حدة، بالإضافة إلى قيمة الأشياء التي ينتجونها، لتتخيل أنني مالكة لمصنع منتج لسلاسل معدنية، تستخدم في تعليم الانضباط للكلاب المشاغبة".

"هل تعمّد حقًا جعلي أتخيلك شريرة لتخيفيني؟".



"هذا مرجح..."

"أنتِ بالفعل تندمجين في لعب هذا الدور الرأسمالي الشرير، ألسْتُ محقّة؟".

"أنا أحاول استحضار روح الفيلسوف عن طريق تبني أحد نُهجهِ، ولكنه أكثر خبرة مني في هذا المجال. على كل حال، هذا ليس موضوعنا، فمن الطبيعي أن أرغب في تحقيق أرباح مجدية من بيع هذه السلاسل المعدنية؛ كوني مالكة لهذا المصنع، لكن هناك بعض التكاليف التي يتعين عليّ دفعها لإحضار المواد الخام اللازمة لعملية الصناعة، وهذا شيء حتمي ولا مفر منه، وكل ما أستطيع فعله في هذا الشأن: هو تشجيع السياسيين الممثلين لفئتي على فتح المجال أمام النشاط الصناعي، وتيسير الحصول على كل ما أريد من مواد خام كالمطاط والحديد وغيرهم، إلى جانب ذلك، هنالك المزيد من التكاليف بخلاف شراء المواد الخام، وهي أجور العاملين في مصنعي، والتي كلما قلت، زاد حاصل ربحي، هناك شيء آخر، وهي فكرة تبناها ماركس من آدم سميث وريكاردو: تساوي تكلفة المواد المستخدمة في صناعة كل سلسلة جنيهاً إسترلينياً واحداً فقط لا غير، ووتيرة إنتاج العمال في مصنعي تعادل عشر سلاسل في الساعة؛ هذا يحتم عليّ دفع عشرة جنيهاً على مضض، لتغطية تكلفة الإنتاج. لنفترض أنني أعطي كل عامل أجراً يساوي عشرة جنيهاً في الساعة - كوني شخصية كريمة العطاء، كما أنني دائماً أفضل تبسيط العمليات الرياضية بقدر الإمكان - وسعر السلاسل هي عشرة جنيهاً للوحدة. بذلك، أحقق في الساعة أرباحاً تقدر بمائة جنيه، وبعد خصم عشرين جنيهاً لتكاليف الإنتاج، يتبقى صافي ربح يقدر بثمانين جنيهاً".

"أحسنَتِ عملاً!".

"من منظور ماركس، يرجع الفضل في تحقيق هذا الربح الفائض إلى جهود العمال بالمصنع، بمعنى آخر، هو يرى أن العامل يستحق أن يُعطى أجراً يقدر بتسعين جنيهاً بدلاً من عشرة جنيهاً، ومن هنا، نمت جذور الصراع بين الطبقة العاملة والطبقة الرأسمالية الذي يتلخص في: استحواذ المالك الرأسمالي على فائض الأرباح لنفسه، ومحاولاته المستمرة في إبقاء أجور العاملين منخفضة بقدر المستطاع، في حين أن العامل يرغب في الحصول على

مقابل أفضل، تعويضًا عن جهوده، ومن ثم، تتحول هذه الاختلافات الفكرية إلى صراع طبقي".

"هل يمكنني القول إنك قمت بتبسيط هذه الأمور أكثر من اللازم؟".

"نعم يمكنك ذلك؛ حيث إن أفكار ماركس هي من أكثر الأفكار تعقيدًا، ويشتمل عمله على العديد من المجالات: كالتاريخ، والفلسفة، وعلم النفس، بالإضافة إلى الاقتصاد، ويمكننا بسهولة أن نذهب في سلسلة أخرى من النزعات تحت عنوان "كيف تعلم الماركسية لكلبك *How to Teach Marxism to Your Dog*" ولكن ما زال لدينا الكثير من النقاط لنناقشها في ميداننا المعرفي الحالي، يمكننا جميعًا - وهذا يشمل من ليس لديهم نزعة ماركسية بأي شكل من الأشكال - أن نشعر بتأثير ماركس القوي من خلال كتاباته النقدية حول الحقيقة التي تقبع وراء النظام الرأسمالي الذي ساد في القرن التاسع عشر، تضمنت كتاباته وصفًا تفصيليًا عن مدى قسوة وفظاعة ظروف العمل بداخل المصانع، واستوحى معظمها من منشورات صادرة عن صحف حكومية. إن أكثر ما يثير الانتباه حول النظام الرأسمالي هو وصف العاملين لما مروا به خلال "يوم العمل" في كتابه *Capital*، يظهر لنا فيه ماركس، الثمن الذي يتوجب على البشرية دفعه في ظروف عمل غاية في القسوة فُرضت بالإجبار على البالغين والأطفال على حد سواء.

زعم ماركس أن الرأسمالية تستعبد العاملين تحت ظلها، حيث رأى أن الفرق الوحيد بين الرأسمالية والمجتمع المستعبد بحق، هو أن النظام الرأسمالي يقوم بالاستحواذ على كامل الأرباح الفائضة على حساب العاملين، قد يبدو للعاملين أنهم يتمتعون بكامل حريتهم، ولكن في الحقيقة ليس لديهم سوى خيارين: إما القبول بالعمل وفقًا لشروط الطبقة الرأسمالية، وإما الموت جوعًا، وباتت تلك الظروف حتمية آنذاك، ليس لأن الرأسماليين طماعون أو قساة بطبيعتهم - مع أن هناك البعض منهم يتميزون بكلتا الصفتين - ولكن بسبب القوانين التي زادت من حدة المنافسات بينهم بالطريقة نفسها التي حدثت مع العمالة المستقلة".

"هذا الكلام يبدو مقنعًا للغاية، لعلني أصبحت ماركسيًا، لقد خطر في بالي تلاعب لفظي: لعلني أصبحت ماركسيًا!".

"إنها مزحة غاية في السوء!".

"آسف، لكن أخبريني، أكان لديه حل يضع حدًا لتلك المعاناة والاستغلال؟".

"رفض ماركس فكرة الإصلاح التدريجي: أن تحسن أوضاع العمال عن طريق زيادة في الأجور أو تحسين بيئات العمل؛ هذا الإصلاح في نظره هو مجرد راتب أعلى للعبودية، يتلخص الحل بمنظوره في حدوث تحول جذري للنظام بأكمله، تبدأ أولى خطواته من رفض السياسة المتداولة في ملكية الأراضي، ووسائل الإنتاج، وهناك مفارقة كامنة وراء تلك الخطة، حيث جادل ماركس أن النظام الرأسمالي سيلعب دورًا في حدوث هذا التحول بسلاسة كونه السبب في تكثيف وزيادة الثروات لدى البعض، لذلك، كل ما يجب فعله هو مصادرة الطبقة العاملة لهذه الأموال من مالكيها، ونادرًا ما صرح ماركس بأية تفاصيل حول الهيكل الذي سيتخذه المذهب الشيوعي عند تطبيقه على أرض الواقع، كل ما صرح به بوضوح: أن البشر وقعوا عبيدًا لرغبتهم في الحصول على الأملاك الخاصة، وأن الهدف الأسمى في تاريخ البشرية، هو استرجاع حريتهم المسلوبة، افترض ماركس أن الحسد والجشع سيختفيان من المجتمع إذا تم إحلال سياسة الملكية الخاصة واستبدالها بالملكية الاشتراكية، وخضوع وسائل الإنتاج للإدارة الشعبية، وحينها ستختفي المصالح الفردية حينذاك، وتصبح المصالح مشتركة بين جميع أفراد المجتمع؛ ما يحفز الإرادة الطوعية لديهم ويدفعهم للتعاون مع بعضهم بعضًا، وبذلك، لن نكون بحاجة إلى ذلك النظام الحاكم للدولة كما عهدناه من قبل".

"هذا يبدو مثاليًا جدًا".

"نعم، لعلك محق، فقد أدى فشل ماركس في رسم أي خطط تصورية عن الهيكل المجتمعي الجديد إلى خلق الكثير من المشاكل المضطربة لتابعيه، فكيف سنتكفل بتوفير العمالة

المناسبة للقيام ببعض الوظائف الصعبة إذا توقفنا عن الاعتماد على السوق؟ من سيتولى مهمة تنظيم قنوات الصرف؟ من سينقب في المناجم؟ من سيجمع القمامة؟ أي يمكننا حقًا الاستغناء عن هذه الوسائل التجارية المعقدة التي بفضلها نسد حاجتنا من الطعام والملابس وغيرها من الضروريات، ونستبدلها بمنظومة ذات إدارة شعبية لا يوجد بها أي تسلسل اجتماعي ولا تحمل في جوهرها أي نوع من الترغيب أو التحفيز المالي؟!

إلا أن ماركس تميز برؤيته العبقريّة لقسوة النظام الرأسمالي وأسوأ الجوانب به، كما أنه عزز إدراكنا تجاه بعض الحقائق: إن ما يطلق عليه "العمالة الحرة" في الواقع تتمتع بقدر ضئيل من الحرية، وإن السوق ليست منظومة ثابتة من صنع الطبيعة وغير قابلة للتغيير، إنما هي من صنع الإنسان وعلينا أن نتأملها جيدًا لنرى من يحقق استفادة من ورائها، ومن يتكبد المعاناة بسببها".

"ماذا عن الثورة التي تنبأ بها ماركس؟ لماذا لم تتحقق مطلقًا؟".

"بلى، أخذت الثورة شكلًا في أرض الواقع؛ لكن ليس في المكان والتوقيت اللذين أرادهما، ظن ماركس أن الثورة ستتحقق في مجتمع متقدم تفشت فيه الرأسمالية بمستويات متدهورة وفاسدة إلى درجة تتطلب تغييرًا شاملاً، وظن أيضًا أن الطبقة الكادحة في هذا المجتمع ستتمسي على درجة من التنوير والوعي الكافي بحقوقهم وقدرتهم على التغيير - في حقيقة الأمر، بدأت الثورة في أقل المناطق تقدمًا بقارة أوروبا، وهناك العديد من الأسباب التي يحتمل أنها وراء ذلك، أحدها هو الدور الذي لعبته سياسة الغرب الاستعمارية: استنزفت اقتصادات دول الغرب موارد الدول النامية؛ حتى تمكنت من تحسين جودة الحياة لدى عمالها المحليين، علاوة على ذلك، لم تكن المنافسة بين الكثير من القطاعات الصناعية بذلك العنف الذي تصوره ماركس، خصوصًا في المناطق ذات الأسواق التي تهيمن عليها بعض المؤسسات الكبيرة، وتلك المؤسسات تعمل على تحقيق أقصى استفادة من السوق؛ لتتمكن من دفع أجور معقولة لعمالها، يوجد سبب آخر لعله الأكثر تأثيرًا: تنفيذ الحكومة - التي ازدهر ماركس ورأى أنها بمثابة لجنة تنفيذية تعمل

على تحقيق المصالح الشخصية للطبقة الحاكمة - لخطط الإصلاح التي منحت العاملين الكثير من حقوقهم، هكذا، تمكنت جميع الأنظمة الديمقراطية الرأسمالية من التوسط لتحقيق حالة مستقرة من التوازن بين العمل على كسب الأرباح مع ضمان سيادة الرخاء المجتمعي،<sup>2</sup> وبالتالي لم تحدث الثورة، ولم يحصل الفيلسوف على قبعة تشي جيفارا".

"هل انتهينا من ماركس والثورة؟".

"نعم، ولكن هناك شيئًا أخيرًا سأعلق عليه قبل أن نعود إلى المنزل، آمن ماركس بإصرار شديد بأن منهجه مبني على أسس علمية، وأنه استطاع اكتشاف ما يسميه "قوانين التاريخ البشري"؛ وهو التحليل الموضوعي للعمليات الاقتصادية ذات الطابع الاجتماعي على مر التاريخ؛ يزعم ماركس بأن تلك القوانين ستصقل قدرته على التنبؤ بالأوضاع التي ستسود عالمنا مستقبلاً، وما زالت كتابات ماركس التي تركز على مفهوم الإنسانية تحمل تأثيرًا عظيمًا إلى يومنا هذا، وفيها يرصد ماركس ويستنهجن الظلم والقسوة في دولة ذات حكومة استبدادية. وتحت ظل النظام الرأسمالي، يمكننا القول إن هناك آخرين من الخبراء الاقتصاديين تمكنوا من تحقيق مستويات أعلى من النجاح فيما يخص إسناد الاقتصاد إلى الأسس العلمية، وأبرزهم ألفريد مارشال (1842 - 1924) الذي يعتبر واحدًا من مؤسسي المذهب الكلاسيكي الحديث في الاقتصاد. سعى ألفريد جاهدًا في تطبيق الأدوات الرياضية - كالأرقام - في الاقتصاد، حيث كانت بمثابة النور الذي أضاء فهمه للتعاملات الاقتصادية البشرية، وكسر طبيعة الغموض التي تخيم عليها".

"هممم، ظلت تقولين سابقًا إن الاقتصاد يتمحور حول صناعة القرارات، ومن واقع ما شهدته من تصرفاتكم، لا يغلب الطابع العلمي عليه بشكل واضح، مثلاً: كم من مرة طلبت بها من الفيلسوف شراء بعض الخبز والحليب، ولكنه عوضًا عن ذلك، أحضر بعض رقائق البطاطس وشراب الشعير؟ لا يوجد أي علامة على تطبيق تلك الأدوات الرياضية التنويرية التي ذكرتها للتو".

"أقر مارشال بعدم وجود قوانين اقتصادية دقيقة كتلك الموجودة في العلوم الفيزيائية والكيميائية؛ يختص الاقتصاد بدراسة السلوك البشري، ولن نستطيع أبدًا التنبؤ بما سيقدم الأشخاص على فعله، ومع ذلك، جادل مارشال أنه يجدر بنا - على الأقل - أن نحاول دراسة تلك التساؤلات الاقتصادية بدقة وتمعن، وحتى نحقق هذا، وجب على المختصين في الاقتصاد صك بعض القوانين المؤقتة، وإجراء تقديرات على مبلغ عالٍ من الدقة تتخصص في دراسة الميول الاقتصادية للأفراد".3

"إذن أنت تعين أنه لا يمكنك التنبؤ بدقة بسلوك الأفراد، ولكنك يمكنك - على الأقل - محاولة إجراء بعض التقديرات التي تعطينا تلميحات حول ما يميلون لفعله؟".

"بالضبط. ضرب مارشال مثالاً لذلك مستعينًا بحركات المد والجزر، نحن على علم بأن منسوب المد يرتفع وينحسر مرتين يوميًا، وتزداد قوته عندما يكون القمر في طور البدر أو المحاق، وباستطاعتنا أن نحسب مسبقًا أقصى ارتفاع سيصل له منسوب المياه، كما يمكننا تحديد موقعه بشكل تقريبي، لكن لا يوجد أحد على علم كاف ليتنبأ بدقة إلى أي متر سيصل ارتفاع المياه في شاطئ برايتون خلال يوم محدد في ساعة محددة، هذا ما تمناه مارشال بخصوص الاقتصاد؛ أن نشرع بعض القوانين الاقتصادية وننشر بعض التقارير التي نستدل من خلالها على السلوك البشري المتوقع خلال الظروف والأوضاع والمختلفة.

قام مارشال بتغيير جذري في الميدان الدراسي للاقتصاد، وظل كتابه بعنوان *Principles of Economics* الصادر عام 1890 هو المرجع الأساسي والتمهيدي للطلاب في دراسة الاقتصاد لسنوات عديدة. تميز الكتاب بامتلائه بالرسوم البيانية، والمعادلات الرياضية؛ ما أدى إلى خلق طابع علمي صارم له، فضلًا عن ذلك، كان مارشال أول من قام بوضع رسم بياني توضيحي للعلاقة بين مبدئي العرض والطلب، كما أنه قدم العديد من الأفكار المهمة حول النظرية الهامشية، ومفهوم المرونة في الاقتصاد، ولكننا سنستعرضهما فيما بعد.

لم يرد مارشال أن تضيفي المعادلات الرياضية الصعوبة والتعقيد على أفكاره، وكثيرًا ما راعى أن تكون أعماله سهلة الفهم بالنسبة للعوام، وحتى الكلاب، لذلك لخص مارشال -

ببراعة - منهجه في ست نقاط رئيسية:

1. استعن بالرياضيات كلغة تساعدك على تبسيط الأمور، عوضًا عن استخدامها كأداة للاستكشاف والاستطلاع.
2. التزم بتطبيق الست نقاط جميعًا حتى تنتهي من بحثك.
3. قم بترجمة ما توصلت إليه إلى اللغة الإنجليزية.
4. قدم المزيد من التوضيحات حول نتائجك عن طريق الاستعانة بأمثلة حية من واقعنا.
5. تخلص من الطابع الرياضي الذي يضاف على عملك.
6. إذا لم تستطع النجاح في تطبيق النقطة الرابعة؛ فلا تتكبد عناء تطبيق الثالثة، هذا ما أفعله شخصيًا في بعض الأحيان".4

"إذن هل استطاع مارشال إثبات حجته في النهاية؟ هل يُعتبر الاقتصاد فرعًا من فروع العلوم؟".

"كما ذكرنا آنفًا، الاقتصاد يختص بدراسة السلوك البشري، وكما قال مارشال: البشر متقلبون بطبيعتهم ويصعب التنبؤ بما سيقدمون على فعله، لا ينصاع البشر ببساطة إلى القوانين كما انصاعت ثمرات التفاح إلى قوانين الطبيعة وسقطت أرضًا، هذا يعني أنه يتاح أماننا المجال لنناشد بشيئين، الأول: أن الاقتصاد في حاجة ماسة لإضفاء الطابع العلمي عليه، الثاني: هو التأكيد على أننا لا يمكننا معاملة الاقتصاد على أنه حقل علمي بحت، بلا شك، يقوم خبراء الاقتصاد في كثيرٍ من الأحيان بإلقاء كم هائل من المعادلات الرياضية التي تزيد الإبهام حول الأمور عوضًا عن عدم توضيحها بصورة أفضل، ظهر مصطلح "حسد الفيزياء" تعبيرًا عن هذه الظاهرة؛ حيث يقوم خبراء الاقتصاد بتطبيق الوسائل العلمية المعقدة على الاقتصاد بسبب رغبتهم في أن ينظر إليهم باعتبارهم علماء،<sup>5</sup> إنني أدمع وبشدة اقتناع مارشال بأهمية الأرقام والمعادلات الرياضية في الاقتصاد، كما أن الصعوبة التي تكمن في إيجاد القوانين الموضوعية تستحق العناء المبذول في سبيلها، وكما قال

الكاتب جورج أورويل: الحصول على نصف رغيف خير من عدم الحصول على خبز بالمرة،  
بمعنى آخر: إن عجزنا عن فهم جميع الأشياء من حولنا لا يعني بالضرورة أننا لن نفهم شيئاً  
منها على الإطلاق".

صوبت نظري نحو مونتي، فلاحظت أن قدميه ترتعشان؛ فانحنيت لأسفل ثم رفعتة بين  
يديّ؛ كونه كلباً يسهل حمله جداً.

"لنستقل هذه الحافلة ونعد إلى المنزل، يا إلهي، لقد أسهبنا في الحديث عن التاريخ بما  
يكفي، من الآن فصاعداً، سنصب تركيزنا بتمعن في نزواتنا المقبلة على الوسيلة التي  
يُمارس من خلالها الاقتصاد في هذا العصر، وتأثيراتها على حياتنا، وكيف تساعدنا تلك  
الأدوات الرياضية التي حبذاها مارشال على فهم القوى التي تتحكم في هيكل مجتمعنا".



## النزهة ٤: الأسواق: من المسؤول عن إمداد مدينة لندن بالخبز؟

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: لماذا تشكل الأسواق أهمية وفائدة كبيرة لنا؟ وكيف يقوم خبراء الاقتصاد بصنع نماذج مبسطة تعينهم على فهم الأسواق ذات الأوضاع الجيدة؟ متى تسوء الأوضاع بالسوق؟ (كظهور الفقاعات الاقتصادية، والبيتكوين، والزيادة المفاجئة للطلب على بعض المنتجات كورق المرحاض)، كيف تستطيع الأسواق تحقيق التوازن بين العرض والطلب؟ ما المقياس الذي نحدد من خلاله مدى جودة النتائج بالأسواق؟ وما الأخطاء والأزمات الوارد حدوثها؟

لم تعد هذه النزهة إحدى نزهاتنا المفعمة بالحياة في الحديقة، بل أمست جولة في طرقات وأزقة ويست هامبستيد، عندما انتقلنا هنا لأول مرة منذ قرابة الثلاثين عامًا، تواجدت مجموعة من المتاجر النافعة وقديمة الطراز بالشارع الرئيسي: محل جزارة، ومتجر أسماك، ومتجر للأجهزة الإلكترونية، وحتى متجر لبيع الأسطوانات الموسيقية، أما الآن، فمعظم ما يوجد بهذا الشارع هو المقاهي والمتاجر الخيرية، بالإضافة إلى بعض صالونات تجميل الأظافر وتصفيف الشعر من أجل زيادة التنوع التجاري بالمنطقة، يوجد أيضًا متجر للكتب، والذي علينا أن نكون ممتنين كثيرًا لوجوده، لا تزال المنطقة تتمتع بجمال خلاب أثناء شروق الشمس، هناك حقيقة مثيرة قليلًا للاهتمام، أُطلق على هذه المنطقة اسم "ويست إند" حتى إنشاء نظام مترو الأنفاق، ولا يزال الشارع الرئيسي اسمه طريق ويست إند، حتى يومنا هذا، لكن، عندما أنشئت محطة مترو الأنفاق الجديدة، رأت السلطات أن من الوارد أن يضل اسم "ويست إند" الركاب بالمترو، فاعتقدوا أنهم وصلوا إلى أرض المسارح بويست إند، لذلك قاموا بتغيير الاسم إلى ويست هامبستيد.

بدأت بالحديث: "حسناً يا مونتي"، ولكن مونتي كان يصب كامل اهتمامه على بعض أكياس القمامة السوداء الموضوعة بالشارع.

"أعتقد أننا جاهزون الآن كي نخوض في حديث دسم عن الاقتصاد المعاصر، ولكن قبل أن نباشر، لنقم بمراجعة سريعة على ما مضى. لقد ناقشنا الوسائل الثلاث التي تستخدمها المجتمعات في حل مشكلاتها الاقتصادية: اتباع التقاليد، والقيادة، والأسواق، وبعدها تناولنا مرحلة تطور منظومة السوق، التي استطاع الأفراد من خلالها تبادل البضائع والتخصص في مهن معينة، وهذا ما أدى إلى زيادة ضخمة في مستويات الإنتاج والإبداع، وفي نزهتنا الأخيرة، تناولنا كل ما يخص الثورة الصناعية، التي أدت إلى حدوث أكبر قفزة استثنائية شهدها العالم إلى الأمام فيما يخص مستويات المعيشة - كالرسم البياني الشبيه بالمهرج الميت - لكن على حد وصف ماركس، جاءت كل تلك التطورات مصحوبة بثمن، وتحملت الطبقة الفقيرة عناء دفع هذا الثمن كما هو معتاد، نتجت عن الحركة الشيوعية الأحوال التي شهدناها في خضم الثورة الصناعية، ولكنها في النهاية أثبتت فشلها كتجربة اقتصادية، لكن جزءاً من رد فعلنا تجاه تلك الأحوال كان تقديم الاقتصاد على كونه الميدان المعرفي الذي يهتم بدراسة الأسواق، علاوة على ذلك، شهدنا انتقال الاقتصاد من الهيكل الفلسفي الأخلاقي - الذي عُرف به آدم سميث - إلى هيكل علمي ممنهج - وضعه ألفريد مارشال - يدرس بدقة آلية عمل الأسواق".

سأل مونتي وهو يتتعد ليبحث عما لذ وطاب له عند صناديق القمامة: "وماذا سنفعل اليوم؟".

"اليوم، سنبدأ بمقدمات بسيطة للموضوع، وذلك بالحديث عن كيفية استعراض خبراء الاقتصاد نماذج حياتية تعكس الأوضاع بالسوق، بعدها سنتناول في الواجهة الرئيسية كيفية تحكم قوى العرض والطلب معاً بأسعار وكميات البضائع بالسوق".

"لقد سمعتك تذكرين كلمة "نماذج" عدة مرات حتى الآن، أعتقد أنك لا تقصدين نماذج لعبة وور هامر، التي اعتاد أن يصنعها جابريال".

"عندما يذكر خبراء الاقتصاد كلمة "نموذج" فهم يقصدون بها وسيلة لتبسيط الواقع من حولنا مجردة من كل الجوانب التي تشتت الانتباه، ولا تمت بصلة للموضوع، حتى نصل إلى الجوهر الأساسي الذي يحوي بداخله المغزى. في بعض الأحيان، تبلغ الأمور مستوى عاليًا من البساطة إلى درجة لا تطابق الواقع، ولكن هذا المستوى الضئيل من الواقعية لا يعتبر بالضرورة شيئًا سيئًا؛ إن ما يجري داخل الأنظمة الاقتصادية لهو نظام معقد وفوضوي على نحو مربك قهري، وذلك نتاج الملايين من التعاملات والأنشطة. لتتمكن من أخذ خطوة - وإن كانت بسيطة - في فهم الصورة كاملة، يجب عليك إيجاد وسيلة ما لتبسيط جميع تلك الأمور. يمكنك النظر إلى تلك النماذج الاقتصادية على أنها خريطة مترو الأنفاق بلندن، حيث يُبسط نظام المترو، بمساراته المعقدة التي تمتد لمئات الكيلومترات، ما تحتاج إليه من معلومات أساسية: عدد مرات التوقف بين محطة وأخرى، وعدد المحطات التبادلية بالإضافة إلى فكرة تقريبية عن الاتجاهات التي سيسلكها المترو بشكل عام".

"أظنني فهمت".

"لنتخيل معًا يا مونتي، أن هناك خبيرًا اقتصاديًا يحاول فهم آلية عمل السوق بالنسبة لمنتج أو نوع معين من البضائع، لنقل إنه..."

"يبيع كلابًا لطيفة مثلي؟".

"نعم بالتأكيد، في محاولة لفهم آلية عمل السوق بالنسبة لتجارة الكلاب اللطيفة، يبني خبراء الاقتصاد نموذجًا افتراضيًا لما يسمونه "سوق المنافسة المثالية"، يستدلون من خلاله على الوارد حدوثه إذا لم يوجد أي شيء يعوق المنافسة الحرة. يفترض خبراء الاقتصاد في موقف كهذا تطابق كل البضائع التي تُباع وتُشتري في جميع الجوانب، لذا - في المثال الذي نناقشه - تتطابق جميع الكلاب في كونها لطيفة وجميلة مثلك تمامًا".

"مستحيل!".

"تذكر أننا نقوم بإجراء فرضية لا أكثر، يتخيل أيضًا الخبراء إقبال العديد من البائعين والمشتريين، وجميعهم متساوون في النفوذ والسلطة؛ لا يوجد بينهم أحد ذو نفوذ كبير إلى حد تأثيره على قانون العرض والطلب، في هذا النموذج، يتصور الخبراء أنه من الطبيعي أن يصنع الناس قراراتهم بمنطقية تامة بحيث تدر عليهم نفعًا، بالإضافة إلى ذلك، فهم يتصورون أيضًا عدم وجود أي عوامل خارجية".

"عدم وجود ماذا؟".

"ما قصدته بالعوامل الخارجية هو غياب أي تأثير إيجابي أو سلبي على الأفراد الذين لم يشاركوا في أي تعامل تجاري، لا تقلق سنعود فيما بعد ونربط النقاط ببعضها البعض، فذلك موضوع مهم، وأخيرًا، يفترض الخبراء أن البائعين والمشتريين واعون تمامًا بشأن الصفقات التجارية التي يشاركون بها، وبالتكلفة التي تقبّع من ورائها".

"هنالك الكثير من الافتراضات، سمعتك من قبل تخبرين روزي وجابريال بأن الافتراضات تجعل منا أشخاصًا حمقى".

"صحيح، إن الافتراضات تبعدنا بمسافة كبيرة عن حاضر واقعنا، ولكن تلك المسافة تمنحنا رؤية واضحة حوله، أتذكر خريطة المترو؟ من الأسهل حقًا أن تفهم الرسم الموضح بها على أن تفهم الحقيقة المعقدة للمسارات المتداخلة".

"أنت محقة، إذن، على ماذا نستدل من هذا النموذج المسمى سوق المنافسة المثالية؟".

"أولاً، لنفكر في الأمر من وجهة نظر المشتري، أو كما يقول خبراء الاقتصاد: من الطرف الممثل لقوة الطلب، لطالما برز مفهوم أساسي في الاقتصاد، وهو أنه دائمًا ما يستجيب الأشخاص إلى المحفزات المالية من حولهم، إذا هبط سعر منتج، فمن الطبيعي أن يتوجه الناس إلى شراء المزيد منه، على سبيل المثال: كلما أصبحت الجراء أرخص في سعرها، زاد ميل الأشخاص لشراء الكثير منها، أما من منظور البائع - أو الفئة الممثلة لقوة العرض - فمن

المنطقي أيضًا أن يريد التجار بيع كميات كبيرة من المنتجات عند ازدياد أسعارها، مثلًا: إن حصلت على مائة جنيه إسترليني مقابل كل جرو، فلن أتحمس كثيرًا للعمل بجهد لبيعها في السوق، ولكن إن ارتفعت القيمة الشرائية لألف جنيه إسترليني، فسأبذل ما بوسعي حتى أبيعها جميعًا".

"ما من شيء مفاجئ في كل هذا".

"أجل، ولكن ما هذا إلا تهينة لما نحن بصدده؛ نحن على وشك مناقشة جزئية ذات موضع غاية في الأهمية، لذا أرجو أن تنتبه جيدًا".

"كلي آذان صاغية".

"حسنًا، فلنقرع الطبول: يتنبأ الاقتصاد بأن أسعار نوع محدد من البضائع - وهو الجراء اللطيفة في حالتنا - سوف تستقر عندما يتساوى معدل الطلب عليها مع معدل عرضها، وهذا ما نسميه "التوازن الاقتصادي"."

"لست متأكدًا من أن تلك المعلومات تستحق قرع الطبول من أجلها، أريد المزيد من التوضيح".

"بعض الأشخاص يصعب إثارة إعجابهم، المقصد من وراء هذا: أن هناك علاقة متغيرة بين الكمية المطلوبة من منتج محدد، والكمية المعروضة منه وسعره؛ إذا ازداد الطلب على الجراء، فسيزداد عدد الأشخاص الذين يتنافسون على شراء الكمية نفسها من الجراء (أي أن كمية الجراء المعروضة لم تزد مع زيادة الطلب عليها)، ومع ثبوت بقية العوامل ذات الصلة، يرتفع السعر، وهذا بالضبط ما شهدنا حدوثه خلال جائحة كوفيد - 19؛ بات الكثير منا عالقين بمنازلهم خلال فترة الحجر، واحتاج البعض إلى رفقة الكلاب المؤنسة، فارتفع الطلب عليها، وازداد سعر تلك الجراء المحبوبة ليتجاوز الضعف".

"أنا لست سعيدًا تمامًا بتلك التجارة التي تضم إخواني من الكلاب، أي يمكننا تقليل الذاتية المتعلقة بالكلاب في نقاشنا؟".

"حسنًا، دعنا ننتقل إلى طعام الكلاب: تخيل معي ارتفاع سعر طعام الكلاب ليتجاوز نقطة التوازن - حيث تتساوى كمية الطلب مع الكمية المعروضة - بشكل مؤقت ولسبب ما، حينها، يقل عدد المشتريين مقارنة بالبائعين بسبب هذا السعر المرتفع، وتمتلئ المستودعات بالمخزون الفائض من طعام الكلاب بالأسواق. بالنهاية، سيسعى كل تاجر لبيع منتجاته بسعر أقل من منافسيه حتى يتخلص مما تبقى من فائض معلمات لطعام الكلاب، سيستمر السعر في الهبوط حتى يصل - تخمينك في محله - إلى مستوى الاتزان من جديد، فتتساوى الكمية المطلوبة مع الكمية المعروضة. الآن لتخيل عكس ما حدث في هذا الموقف؛ هبط سعر المنتج إلى درجة أدنى من مستوى الاتزان، حينها، سيمسي سعر المعلمات زهيدًا، فيندفع جميع من لديه كلب لشراء مخزونه من طعام الكلاب، ويؤدي ذلك الوضع حيثما يسعى المستهلكون وراء شراء الكثير من طعام الكلاب المحدود إلى نقص الكمية المعروضة من هذا المنتج، فيتجه التجار إلى...؟".

"زيادة أسعار المنتج".

"حتى؟".

"حتى نبلغ مرحلة التوازن من جديد".

"ممتاز، لقد صرت الآن خبيرًا اقتصاديًا، تكمن روعة هذه المنظومة في قدرتها على التنظيم الذاتي، إذا ارتفعت الأسعار، فسيؤدي هذا إلى ارتفاع نسب الأرباح مما يحفز التجار ويصب تركيزهم نحو تصنيع المزيد من هذا المنتج، والعكس صحيح إذ سيؤدي هبوط الأسعار، إلى دفع التجار نحو توفير منتجات بديلة، تعود عليهم بالربح، هذا هو نموذج آدم سميث - المؤلف لدى أي طالب جامعي في السنة الأولى من دراسة الاقتصاد - الذي يحاكي نظام العرض والطلب، والتميز على طبيعته بالتنظيم الذاتي.

هناك جانب آخر مهم: يصف خبراء الاقتصاد هذا النوع من الأسواق بأنه فعال، وتُعد الأسواق فعالة، إذا لم يضطر المشتري للانتظار طويلاً حتى يستطيع الحصول على المنتجات التي يريد، وإذا لم يملك التجار بضاعة فائضة على رفوفهم، مع ذلك، كون منظومة السوق فعالة ليس له علاقة بكونها منظومة عادلة، ويرى الخبراء أنه من اللازم اتخاذ الإجراءات للنظر في هذه المسألة.

يسمى هذا المبدأ عادة بقانون العرض والطلب، مع أنه يوجب فصله إلى قانونين مختلفين: قانون الطلب الذي ينص على أن ارتفاع أسعار منتج ما يؤدي إلى قلة معدل شرائه؛ وقانون العرض، وهو ينص على أن ارتفاع أسعار المنتجات يدفع التجار إلى توفير كميات كبيرة منها.

رفض آدم سميث فكرة مبنية على قدر قليل من المنطق، وهي أن الأسعار لا تحدد بناءً على القيمة الجوهرية للأشياء، واستعان بالألماس كمثال على ذلك؛ لماذا نحن نعظم من قيمة الألماس بهذا الشكل بينما نفعل العكس مع المياه؟ من البديهي والمنطقي أن يكون العكس صحيحاً، المياه مورد أساسي للحياة، بينما الألماس مجرد زينة غير ضرورية، وتكمن الإجابة - بكل صراحة ومن دون تزيين - في إقبال العديد من الأشخاص المستعدين لدفع مبالغ ضخمة لشراء الألماس الذي يعتبر من المنتجات ذات الكميات محدودة العرض، على النقيض، فإن الماء مورد لا غنى عنه، ولكن كونه يتوافر بكميات كبيرة جداً تزيد على المعدل المطلوب يجعله من الموارد زهيدة الثمن. بالنسبة لخبراء الاقتصاد، فإن سعر المنتج يعتبر نتيجة لمدى حاجتنا له (مدى استعدادنا لدفع ثمنه) مقابل الكمية المعروضة منه (أي مدى وفرته أو رخصه في التوفير)، ويجدر التأكيد هنا أن الاقتصاد غير معني بالجوانب الأخلاقية لهذا النظام بأكمله، لا تحمل القيمة الجوهرية للمنتجات أي معنى بالنسبة للخبراء، كل ما يهم هو القيمة التبادلية للمنتج لا أكثر."

"أهناك أي فرصة للحصول على طوق مرصع بالألماس؟".

"هذا ترف لا يليق بكلب كهل مثلك".

"لا أريده من أجلي، بل هناك كلبة بكينيزية انتقلت مؤخرًا بالقرب من نهاية الشارع".

"أتقصد الكلبة بينيلوبي؟".

"ربما، لم تلتقط أذناي اسمها بوضوح".

"لست واثقة بإمكانية تحملي تكاليف تلك السلاسل الألماسية، أقصد الأطواق، ربما يجدر بي أن أضرب مثالًا آخر، لنقارن نظام عمل سيارات الأجرة في سوقين مختلفين: تشتهر لندن بسيارات الأجرة سوداء اللون، وهي آمنة ومريحة ويتميز سائقوها بمعرفتهم الضليعة لمدينة لندن بأكملها، مثلما تحفظ أنت أعمدة الإنارة الموجودة بشارعنا عن ظهر قلب، ولكن تكلفة ركوب إحدى هذه السيارات السوداء ثابتة ولا تقبل النقاش. هناك تسعيرة ثابتة يجب عليك دفعها، هذا مثال لنوع من الأسواق لا يشبه نموذج سوق المنافسة المثالية الآنف ذكره، من الوارد أن تزداد تكلفة سيارات الأجرة في مناسبات معينة كعطلات نهاية الأسبوع، وإجازات البنوك، وفترة المساء بشكل عام، إلا أن التسعيرة تظل ثابتة، ما يؤدي إلى نقص في توافر سيارات الأجرة، حيث يستحيل إيجادها في كثير من الأحيان. قبل حدوث جائحة كوفيد - 19، كان استقلال سيارة أجرة بعد الخروج من المقهى آخر الليل مثل الفوز باليانصيب، وفي أوقاتٍ أخرى تتوافر سيارات الأجرة إلى حد يزيد على طلب الركاب، فيظل السائقون واقفين بسياراتهم في صفوف بحالة من الملل.

يعمل أوبر بنظام يختلف كليًا عن هذا الوضع؛ حيث تمكنوا من تطوير خوارزمية معقدة تتيح لهم زيادة الأجرة بناءً على مدى ندرة السائقين المتوافرين في وقت محدد، الهدف من هذه التسعيرة المتغيرة هو محاولة الوصول إلى مستوى التوازن حيث تتطابق حاجة الركاب مع عدد السائقين المتاحين، وبالفعل نجحت تلك السياسة في تحقيق هذا الهدف، لكن هناك بعض العواقب، تتمثل إحداها في وجود زيادات فجائية وضخمة في الأسعار خلال بعض الأوقات؛ عندما يرتفع الطلب على سيارات أوبر، ترتفع أجور سائقيها أيضًا، هذا مثال نادر لمنظومة سوق واقعية تشبه إلى حد كبير النموذج الافتراضي لسوق المنافسة المثالية".



"لقد تذكرت بعض المرات التي كان يتذمر فيها الفيلسوف بشأن شركة أوبر، وكيف أنها شركة شريرة تستغل عاملها".

"هذه وجهة نظر موزونة يا مونتي، أخيرًا لم يكن الفيلسوف مخطئًا بشكل كامل في أحد اعتقاداته، هناك بعض الانتقادات الصحيحة والواقعية توجه لشركة أوبر، لعل المستهلكين يستفيدون من السعر الرخيص لهذه الوسيلة التي تعيدهم إلى منازلهم من المقاهي، لكن هذا المنظور المشرق يتلاشى بالنسبة للسائقين. ظلت أوبر تشير لفترات طويلة بأن جميع السائقين بالشركة يعملون لحسابهم الخاص، وهذا يعني أنه باستطاعة الشركة تخفيض نسبة الضرائب المستحقة عليهم، بالإضافة إلى افتقارهم لبعض المزايا: كالإجازات مدفوعة الأجر، والإجازات المرضية، ورواتب المعاشات التقاعدية.<sup>1</sup> من الجدير بالذكر أن الخبراء لا يقصدون أن جميع الأسواق يجب أن تكون بالشكل والظروف نفسها الخاصة بنموذج سوق التنافس المثالية التي وضعوها، وإنما مقصدهم هو: هل سيساعدنا هذا النموذج على فهم أي شيء عن قوى العرض والطلب باقتصادنا؟".

"هممم... أعتقد أنني أتفق معك في هذه النقطة، ولكن كونكم بشرًا، فأنتم كائنات متلونة دائمًا تطالب بالتغيير المستمر، أتذكرين عندما اتبع الفيلسوف حمية غذائية غريبة لم يأكل خلالها شيئًا سوى رقائق الذرة لمدة شهر كامل؟ أو عندما تتبعين أنتِ والفيلسوف تقليد "يناير الجاف" وتتوقفون عن تناول الشراب طوال هذا الشهر، لابد أن امتناعكم هذا يمثل ضربة قاضية تؤثر على تجارة المشروبات في ويست هامبستيد".

"يا لك من لئيم! إذا تغيرت نسبة الطلب - أو العرض - فمن الطبيعي أن ترى تغيرات في السعر والكمية، لاسيما بالأسواق ذات الأسعار المتذبذبة، ما حدث خلال جائحة كوفيد - 19 في ربيع عام 2020، يوفر لنا الكثير من الأمثلة بخصوص هذا الشأن: قرر الناس - لسبب ما غير معروف - أن يتجهوا لتخزين كمية من ورق المرحاض".

"حقًا؟ هل كل ما يعتلي هم الناس تحت ظل تلك الظروف الكارثية هو ورق المرحاض فحسب؟".

"صحيح أنه شيء غير مفهوم، لكن لسبب ما أدت جائحة كوفيد - 19 إلى زيادة الطلب على مختلف المنتجات: أقنعة الوجه، ومعجون الغسول لليدين، والأدوية، والأطعمة القابلة للتخزين، وحتى الكلاب، وشهدنا في بعض الأحيان ارتفاعات الأسعار الفجائية والمبالغ فيها، ومع ذلك، أدان الناس بشدة هذه الزيادة، واضطرت السلطات إلى التدخل حتى تمنع ما يحدث من "تلاعب بالأسعار". وغرمت المتاجر التي رفعت أسعار معقم اليدين ومستحضرات التنظيف بشكل عام في مدينة نيويورك، في أحيان أخرى، لم ترتفع الأسعار، بل ما حدث هو نقص في بعض المنتجات، فلم يستطع أحد الحصول عليها، ما دفع أصحاب المتاجر إلى تقنين شراء تلك المنتجات، يمثل كل من ردّي الفعل - ارتفاع الأسعار وتقنين شراء المنتجات - بالتحديد توقعات ذلك النموذج البسيط المحاكي للسوق.

آخر مفهوم اقتصادي أريد توضيحه هو مفهوم المرونة، لقد قلت في البداية إنه كلما ارتفع سعر منتج ما، قل طلب المستهلكين عليه، والعكس صحيح، كلما انخفض سعر المنتج، زاد طلب المستهلكين عليه، وهنا يكمن السؤال: إلى أي مدى سيستجيب الأفراد تجاه هذه التغيرات في الأسعار؟ قام مارشال بصك مصطلح "المرونة" هذا لوصف تلك الاستجابة؛ يُوصف الطلب بكونه مرناً عندما يتجاوب بشكل سريع مع تغير الأسعار، ويوصف بكونه غير مرّن، عندما لا يتفاعل بشكل ملموس مع الأمر ذاته، سنناقش أكثر تلك القضية في نزهتنا المقبلة التي ستتناول مدى استجابة الناس إلى المحفزات الاقتصادية، ولكن في الوقت الحالي، تذكر أن المرونة هي المعيار الأساسي: إذا ارتفع السعر، يقل الطلب.

"حسنًا، لقد فهمت، أعتقد أن الأسواق منظومة ذكية؛ حيث يتجه السعر للاستقرار عندما تتساوى نسبة الطلب مع العرض، وإذا تغير أي عامل من الاثنين، سيتغير سعر أو وفرة المنتج أيضًا، علاوة على ذلك، يمكنك الاستدلال عن مدى تغير الأسعار عن طريق الاستعانة بمفهوم المرونة، هل تعمل الأسواق دائمًا بهذه الآلية؟".

"جميع المذكور آنفًا هو وصف لما نطلق عليه "السوق المنضبطة"، لكن الإجابة هي لا، كالحال مع الأطفال، والكلاب والفلاسفة، لا تعمل السوق بآلية منضبطة طوال الوقت،

خصوصًا أسواق الأصول المتميزة بطبيعتها الغريبة".

"الأصول؟".

"الأصول هي كل ما نشتره ونحتفظ به - دون أن نستهلكه كالمثلجات - لنبيعه، أو نستثمره عوضًا عن أن نستهلكه".

"فهمت، كالعظم الذي أدفنه عندما أريد الاحتفاظ به عوضًا عن عضه بنهم".

"نعم شيء من هذا القبيل. إذا اشترت شيئًا بغرض استهلاكه، فسيتسبب ارتفاع الأسعار في نقص الطلب عليه، لكن، هذه الفكرة تتغير إن اشترت شيئًا آخر بغرض الاحتفاظ به، فبالنسبة للأصول يظن البعض أن ارتفاع أسعارها في الوقت الحالي هو مؤشر لارتفاعها بشكل أكبر خلال الفترة المقبلة، وهذا الاعتقاد يمكن أن يتحول لنبوءة ذاتية التحقيق (النبوءة ذاتية التحقيق: هي التوقع الذي يجعل من نفسه صحيحًا بسبب ردود فعل الناس واعتقادهم القوي بالنبوءة، حيث يسبب سلوكهم الذي تأثر بتلك التوقعات في تحقيقها)، وقد تجد نفسك محبوسًا في فقاعة اقتصادية، على الأقل لفترة مؤقتة، ولكن تنفجر تلك الفقاعة بنهاية المطاف".

"أتقولين فقاعة؟ من لا يحب الفقاعات؟".

"المقصود بالفقاعة هو حدوث إقبال غير طبيعي بالسوق على شراء شيء معين، ليس بسبب قيمته الفعلية، ولكن بسبب وجود تيار رائج بسرعة يحفز تلك العمليات الشرائية؛ ما يدفع الناس للانضمام لهذا التيار".

"تقولين فقاعات وتيارات، أعتقد أنك تخطئين في استخدام تلك المجازات".

"معذرة، أنت محق. لعل ضرب بعض الأمثلة يوضح الأمر، حدثت أول فقاعة بهولندا في القرن السابع عشر، وسميت جنون التوليب بسبب انتشار الوله بشراء زهور التوليب بشكل

كبير في المجتمع إلى حد بيع بعض زهور التوليب النادرة بأسعار تجاوزت سعر قصر ملكي في أمستردام. 2 في السنوات الأخيرة شهدنا فقاعة الإنترنت التي حدثت أواخر التسعينيات؛ حيث ارتفعت قيمة أسهم شركات التكنولوجيا بشكل هائل، ثم انهار سعر الأسهم فجأة بحلول عام 2000، وهذا ما يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار بشأن الفقاعات، دائمًا ما تنتهي بانفجارها، هناك مثال آخر، وهو فقاعة سوق العقارات التي حدثت في الولايات المتحدة بعام 2007؛ بدأت بارتفاع متسارع تبعه انهيار مفاجئ، ويعتقد الكثيرون أن الفقاعة التالية التي شارفت على انفجارها هي فقاعة البيتكوين - وهناك الكثير من التفاصيل التي سنكشفها حولها. يعتقد الخبير الاقتصادي روبرت جيمس شيلر - الحاصل على جائزة نوبل، والشهير بتوقع حدوث الكثير من الفقاعات فيما مضى - أن الاتجاه الحالي الساعي وراء عملة البيتكوين هو بلا شك دليل حي يجسد اللاعقلانية الجماعية، يربط شيلر حدوث الفقاعات بانتشار الأوهام الجماعية، ويشير إلى أنه يمكن تمييزها من خلال العديد من العلامات، تمامًا كما يحدث عند تشخيص الأمراض النفسية، تتضمن قائمة العلامات الدالة على الفقاعة ما يلي:

1. أن نشهد وقتًا ترتفع به الأسعار بوتيرة سريعة.
2. أن يختلق الناس فيما بينهم بعض الخرافات التي يبررون من خلالها السبب وراء ارتفاع الأسعار.
3. أن يروي الناس قصصًا لبعضهم البعض عن حجم الأرباح التي تُدر عليهم.
4. أن يشعر من لم يشارك في هذا التيار بالندم والحسد تجاه الآخرين المشاركين.

"أشعر ببعض الالتباس، لقد قلت فيما مضى إن الأسواق هي السبب في كوننا أثرياء، كما أنك تحدثت عن الأسواق المثالية، بعدها بدأت في التحدث عن الفقاعات الاقتصادية. أنا أعني جيدًا أن كوني كلبًا لا يشكل المال جزءًا مهمًا من حياته، لكن هذا المثال بشأن ولع التوليب غير معقول، إذن ما حقيقة الأمر؟ هل تتميز الأسواق جميعها بعلم موثق، أم أن جميعها مجرد أنظمة حمقاء؟".

"في بعض الأحيان تعمل الأسواق بشكل جيد، وفي البعض الآخر تعمل بشكل سيئ تكمن الخدعة هنا في إدراك نمط عمل الأسواق، حتى تتمكن من فهم وتطوير نظام الاقتصاد، أما بخصوص أسواق الأصول، فمن الطبيعي أن تمر بفتترات تشهد فقاعات من الوهم الجماعي".

"إذن، في بعض الأحيان تسمي الأوضاع في الأسواق مجنونة، هل يشير هذا إلى احتمالية حاجتنا لاستخدام منظومة أخرى؟ منظومة متزنة وعقلانية؟".

"البديل الأساسي الذي سبق لنا تجربته هو التخطيط المركزي".

"أهو ذلك الشيء الذي له علاقة بالتوجيه الحكومي الذي ناقشناه في نزهتنا الثانية؟".  
"أجل هو".

"لقد فكرت مليًا بشأن هذا، أليس من المنطقي أن يوجد لدينا حاكم مركزي مسئول عن تخطيط شيء ذي أهمية كبيرة كالاقتصاد؟".

"تعد هذه الفكرة جذابة من بعض النواحي؛ تبدو الأسواق وسيلة فوضوية لتنظيم الأشياء من منظور سطحي، علاوة على ذلك، من غير البديهي أن نعتبر منظومة يحاول جميع من فيها بجهد الحصول على صفقات تضمن لهم أفضل العوائد أجدر من منظومة قائمة على الحكم المركزي، هناك قصة شائعة حول ضابط سوفيتي زار لندن في عقد الستينيات، سأل هذا الضابط: من المسئول عن توزيع الخبز في لندن؟ الإجابة عن هذا السؤال: لا أحد.

هل يجب أن نقلق بشأن هذا؟ بشكل عام، لا؛ إن لندن بأفضل حال من ناحية إمدادات الخبز، خلال جائحة كوفيد - 19 شهدنا انهيارًا لهذا النظام، وتدخلت الحكومة لحل المسألة، ولكن مع ذلك، لم تستغرق المتاجر وقتًا طويلاً في إعادة توفير الخبز من جديد، من الأسهل أن أوضح لك ببعض الأمثلة.

من الصعب إيجاد دولة لا يعتمد اقتصادها على الأسواق مثل كوريا الشمالية، وبعد انقسام شبه الجزيرة الكورية إلى دولة شمالية وأخرى جنوبية في عام 1945، بات لدينا قواعد واضحة تساعدنا على المقارنة بين البلدين. قبل الحرب العالمية الثانية، تقاربت معدلات النمو الاقتصادي للبلدين، لكن بحلول عام 2017، وصل الناتج المحلي الإجمالي للفرد الواحد إلى 32,000 دولار أمريكي في كوريا الجنوبية، بينما في كوريا الشمالية لم يتجاوز 2,000 دولار أمريكي، لا تزال الآن بما يعنيه الناتج المحلي الإجمالي للفرد الواحد، سنوفي تفاصيله في نزهة أخرى، يمكنك الآن النظر إليه كمعيار لمدى رخاء الدول، ومع أن المال ليس أهم شيء، هناك ظن بكون الناتج الإجمالي المحلي - حتى لو بأدنى قدر - مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بمدى جودة الحياة.

لنأخذ ألمانيا الشرقية والغربية كمثال آخر، بعد الحرب العالمية الثانية انقسمت ألمانيا إلى نظامين اقتصاديين مختلفين: الاقتصاد الرأسمالي في ألمانيا الغربية، والاقتصاد الموجه في ألمانيا الشرقية، قبلما يحدث هذا الانقسام، تشارك كل منهما مستويات معيشية متقاربة للغاية، بالإضافة إلى مشاركتهما نفس اللغة، والثقافة، والاقتصاد الرأسمالي. مرة أخرى، لدينا تجربة حية تقارن دولة قائمة على سياسة الاقتصاد الموجه، بنظيرتها القائمة على اقتصاد السوق، هبط معدل الناتج المحلي الإجمالي للفرد بألمانيا الشرقية إلى أقل من نصف المعدل الموجود بنظيرتها الغربية بعد سقوط جدار برلين في عام 1989.

"لنفترض أنك محقة حول كون منظومة الأسواق الحرة تحقق معدلات نمو اقتصادي بوتيرة أسرع من الاقتصادات الموجهة، ما التفسير وراء ذلك؟".

"يشير بعض الناس إلى أن السبب وراء غياب فاعلية سياسة الاقتصاد الموجه راجع إلى بعض المشكلات المتعلقة بتحفيز الأفراد الذين يعيشون تحت ظله؛ لماذا قد يتكبد أحد عناء مشقة العمل إن كان يحصل على جميع ضروريات المعيشة؟ لقد ذكرت سابقًا الخبير الاقتصادي النمساوي فريدريك هايك، وهو واحد من أبرز أنصار نظام السوق الحرة. هايك، جذب انتباهنا نحو مشكلة مهمة؛ أشار إلى أن سعر المنتج يعتبر علامة تنم عن مدى ندرته،

وهذه المعلومة هي ما يغيب من مضمون الاقتصاد الموجه، يضرب هايك مثلاً لذلك برجل أعمال يقرر بين أمرين: إما أن يستخدم القصدير في مصنعه أو يستغنى عنه، ولنفترض - لأي سبب من الأسباب - أن كمية القصدير الموجودة بالسوق شحيحة، لذا من غير الضروري أن يعرف رجل الأعمال السبب وراء هذا النقص، كل ما يحتاج معرفته هو أن القصدير قد زادت تكلفته بعض الشيء، وأنه سيوفر مبلغاً من المال إذا استبدله بمادة أخرى، سيؤثر هذا القرار البسيط على النظام الاقتصادي بأكمله، ويغير من كيفية استخدام الناس للقصدير، ليس هذا وحسب، بل سيغير أيضاً من كيفية استخدام بدائله، وبدائل بدائله.

وبغض الطرف عن الفاعلية الهائلة لمنظومة الأسواق، هناك جانب آخر أخلاقي، وهو أن الحرية هي المبدأ الأساسي التي تقوم عليه الأسواق، فمن منظور خبراء اقتصاديين مثل هايك وميلتون فرايدمان، يوفر الاقتصاد وسيلة لأفراد المجتمع يستطيعون من خلالها التعاون بكامل إرادتهم، عوضاً عن وجود حكومة بيروقراطية تملي عليهم أفعالهم؛<sup>3</sup> تقلص منظومة الأسواق الحرة من مدى خضوعنا للتأثير السياسي في بعض الجوانب الحياتية".

"هممم، كل ما ذكرته يبدو رائعاً للغاية، ولكن ماذا عن الأشخاص الذين لا يملكون المال لشراء أي شيء من السوق؟ فهذا لا يبدو شيئاً ذا طابع حر في نظري".

"هذه نقطة مهمة حقاً، كان آدم سميث، على دراية تامة بأن الفارق الموجود في مدى قوة التفاوض بين الملاك الإقطاعيين والعاملين يميل بوضوح للطرف القادر على تحقيق أقصى استفادة من صفقة تجارية، لكن هذه قضية كبيرة ويجب أن نوفيها حقها بأن نخصص لها نزهة أخرى، لنلتزم بحديثنا عن الأسواق في الوقت الحالي".

"سأتطلع لهذا، بناءً على كلامك، فإن الأسواق جميعها أنظمة جميلة لا تشوبها شائبة، أحقاً لا تتخللها أية عيوب على الإطلاق؟".

"إن محو الأسواق من الوجود لفكرة غاية في السوء - حتى كوريا الشمالية لم تستطع فعل ذلك - ولكن هذا لا يعني أنها منظومة مثالية، هنالك العديد من المجالات في حياتنا لا نعتمد فيها على الأسواق، وهذا يرجع إلى بعض الأسباب التي تصب في مصلحتنا، جميع التعاملات التجارية بين العائلات والأصدقاء لا تتضمن وجود الأسواق في فحواها، فمثلاً: روزي وجابريال غير مضطرين لدفع المال مقابل الرعاية الأبوية التي توفرها أنا والفيلسوف، توجد بعض الحالات التي تتطلب حظر الأسواق بموجب القانون، مثل التجارة في المخدرات أو الأعضاء البشرية. وحتى أكثر المناصرين للأسواق الحرة حماسة يقرون بأن الحكومات تلعب دوراً محورياً ومهماً للغاية في توفير أطر وهيكل وقواعد لم تكن الأسواق لتزهر بدونها.

على الأرجح، هناك سببان رئيسيان وراء عدم اعتمادنا على الأسواق في تنظيم كل شيء: أحدهما متعلق بالعدل والمساواة، والآخر متعلق بمدى صحة الفرضيات التي أجريناها عندما تحدثنا عن نموذج سوق التنافس المثالية، سوف نتناول السبب الأول في نزهة أخرى، ولكن بشكل عام، لن تعمل الأسواق بالفاعلية نفسها إن لم تتحقق الفرضيات التي أجريناها بالبداية، إذن يا مونتي، هل تتذكر ما هذه الفرضيات التي من شأنها تحقيق سوق تنافس مثالية؟".

"أنا؟ نعم بالتأكيد، أنا أنصتُ جيداً لما قلته، أول فرضية هي... آسف، لا أتذكر شيئاً".

"حسناً لا بأس، لقد اقتربنا من المنزل كثيراً، لنجلس على هذا المقعد خمس دقائق، وسأراجع الفرضيات مرة أخرى. قلت في البداية لنفترض أن الأفراد أصبحوا واعين بما يصب في مصلحتهم، ولكن هل نقابل هذا كثيراً في واقعنا؟ إن لم يستطع الأشخاص اتخاذ القرارات "الصائبة" فيما يخص مشترياتهم، فلن تعمل الأسواق كوسيلة فعالة لزيادة مستويات الرخاء لدى البشر، وهناك سؤال يطرح نفسه: إذا بتنا غير واثقين بقدرة الناس على اتخاذ قرارات مصيرية مهمة، إذن فيمن يجب أن نضع ثقتنا؟.



أود أن أ طرح حُجة: إذا لم يتخذ الأشخاص القرارات الصائبة بأنفسهم، فمن المحتمل كون البديل المتوفر - وهو أن تختار الحكومة ما تراه مناسبًا لك - أسوأ بكثير، وإذا افترضنا أن الحكومة تصرفت بعقلانية تجاه بعض المسائل المفيدة مثل دعوة الناس لشراء الطعام الصحي، هل يجب أن يُجبر المرء على فعل شيء لا يود أن يفعله، حتى لو كان يصب في مصلحته؟ الافتراض الثاني، الذي أجريناه هو أن التأثير الذي يجلبه البائعون والمشترون ضئيل جدًا نظرًا لضخامة السوق، وهذه نقطة فارقة، كونها تعني انعدام وجود أي بائع أو مشترٍ ذي نفوذ كبير إلى حد تأثيره على الأسعار بالسوق، لكن هذا لا ينطبق على واقعنا، والاحتكار يعتبر خير دليل على هذا، حيث تهيمن شركة معينة على السوق بأكملها، وتقوم بتسعير منتجاتها كيفما تشاء، كما تحدثنا عن شركة أوبر قبل قليل؛ لقد اتَّهموا باستخدام إستراتيجيات عدوانية ضد منافسيهم حتى يتخلصوا منهم ليهيمنوا على السوق، وهناك مثال آخر للتنافس باحتدام: في الأيام الأولى لشركة أمازون في عصر الإنترنت، أسس صديقًا الدراسة مارك لور، وفينت برارا، متجر [diapers.com](http://diapers.com) لبيع الحفاضات وبعض منتجات رعاية الأطفال الأخرى للآباء حديثي الإنجاب الذين يعانون ضيق الوقت. أبدت أمازون إعجابها بفكرتهما وعرضت عليهما شراء متجرهما، ولكن رفض المؤسسان هذا العرض لرغبتهما في الاستقلالية. فيما بعد، قامت أمازون بخفض أسعار الحفاضات بنسبة وصلت إلى 30%، وفي كل مرة قام متجر [diapers.com](http://diapers.com) بتغيير أسعاره، غيرت أمازون أسعارها وفقًا للأسعار الجديدة؛ كانت أمازون على أتم الاستعداد - والمقدرة - لخسارة الأموال لفترة طويلة، حتى لا تسمح بوجود أي مجال للمنافسة، أخيرًا، وبعد سلسلة من المفاوضات العنيفة، تمكنت أمازون من شراء متجر [diapers.com](http://diapers.com).<sup>4</sup>

"يا لهم من مكرين!"

"لقد ذكرت أيضًا أنه لا وجود للعوامل الخارجية في السوق المثالية".

"ذكريني، ما هي العوامل الخارجية؟".

"العامل الخارجي هو التأثير الذي تحدثه الأنشطة التجارية أو الصناعية على جهة أخرى، دونما أن تنعكس على الأسعار الموجودة بالسوق، تعتبر ظاهرة التلوث مثالاً تقليدياً على هذا، ولكنه موضوع يطول شرحه، وأعتقد أنه يجدر بنا مناقشته في نزهة مخصصة (النزهة الثامنة).

تمثلت الفرضية الأخيرة في المعرفة المطلقة، أن يعرف كل من البائعين والمشتريين جودة وأسعار المنتجات التي يشترونها، بشكل عام، لن تعمل السوق بكفاءة إذا غابت تلك المعلومات المهمة من أذهان الناس، وسنناقش هذا أيضاً بشكل مفصل في نزهة أخرى (النزهة التاسعة).

كما ترى يا مونتي، من الوارد التشكيك في صحة هذه الفرضيات؛ لا وجود لسوق في الواقع تشبه نموذج المنافسة المثالية الموصوف في المراجع، مع ذلك، فإن الواقعية ليست الغرض من وراء هذا النموذج، الغرض منه هو مساعدتنا على التفكير بتمعن حول طبيعة قوى العرض والطلب، بالإضافة إلى توجيهنا لإيجاد الأوضاع الملائمة التي من شأنها جعل منظومة السوق تعمل بأفضل كفاءة، وأخيراً التنبؤ بالمشكلات الوارد حدوثها وتوفير بعض الحلول المقترحة لها.

وُجهت أيضاً انتقادات أشد قسوة لمنظومة السوق تدعي أنها تشجع على فساد سلوكنا؛ يشير "مايكل ساندل" إلى كون المنظومة سيئة لأنها تشجع الأفراد على الاستقلالية التامة والانسلاخ من المجتمع من دون مبالاة بالعواقب المترتبة على ذلك، في الاقتصاد القائم على مبدأ عدم التدخل، يعتبر كل منا كياناً اقتصادياً منفرداً يعمل ما بوسعته لتحقيق أقصى قدر من مصالحه الشخصية، كأننا جميعاً روبوتات تسيطر عليها الأنانية، ويجب عليك أن تعيد تفكيرك حول كون الثراء المادي المعيار الوحيد لمستوى جودة الحياة؛ والحب، والصداقة، والعائلة، وجميعها أشياء مهمة لا يمكن للمرء توفيرها من خلال هذه الشبكة المعقدة من التعاملات التجارية التي تشكل الهيكل الأساسي للسوق.

لكن هنالك فكرة أخرى أهم في الوقت الحالي: مع أن الثروة المادية ليست أهم شيء في الوجود حاليًا، إلا أنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالحصول على العديد من الأشياء التي تمثل قيمة كبيرة لدينا؛ فمن الصعب أن تعيش حياة سعيدة ومصدرك الوحيد للضوء والدفع هو نيران خانقة مصنوعة من روث الحيوانات، وهذا الوضع ينطبق على الملايين من الأفراد حول العالم، إذا لم تستطع الأسواق حل مثل هذه المشكلات، فمن واجبنا الأخلاقي أن ندرسها بعناية وندرس الفوائد التي من الوارد أن تجلبها لنا".

"تمهلي قليلًا، لقد قلت روث الحيوانات؟ أجمعين روّثي في أكياس لهذا السبب؟".

"لا، ليس لهذا السبب، ولكن من الأفضل ألا تذكر هذا أمام الفيلسوف لأنه سيحاول استخدامه بحجة التوفير في تكاليف فاتورة الغاز".

# النزهة ٥: سلوك الأسرة: لا يمكنك دائمًا الحصول على ما تريد، لكن إن حاولت بجد فسوف...

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: كيف يستجيب الناس للمحفزات الاقتصادية؟ "إن المفاضلة جزء لا يتجزأ من عالمنا المحدودة موارده"، وسنناقش الاستثناءات التي تخضع لها تلك القاعدة: سلع جيفن، وسلع فبلين. سنتقصى أيضًا كيف تؤثر الزيادة في الدخل على نسبة الطلب للسلع المختلفة - كما أن مونتي يدرك أنه يندرج تحت تصنيف السلع الكمالية - أخيرًا، ولعل تلك الجزئية هي الأكثر أهمية: كيف نتخذ القرار الصائب فيما يجب فعله بشأن أئمن الموارد في تاريخنا، وهو الوقت؟ وهل كان جون كينز محقًا أم مخطئًا؟

كان يومًا ممطرًا؛ جوه سيئ للتنزه، لكن جيد للحدائق، لذلك، استلقيت مع مونتي على الأريكة، ومع تقدمه في السن، أصبح يفضل النوم هكذا عن الخروج في نزهة في الأجواء الباردة، ولكنه لن يعترف بهذا أبدًا.

"أعترف بماذا؟".

"لا شيء... عدتُ للتحدث إلى نفسي مجددًا؟".

"أجل، نوعًا ما، ما الموضوع المتناول اليوم؟".

"أتذكر حديثنا البارحة عن آلية عمل الأسواق؟".

"أجل".

"قلت بالأمس إن بإمكاننا أن نفترض بشكل عام أنه عند هبوط سعر سلعة ما، يميل الناس إلى شراء المزيد منها، وهذا يطلق عليه قانون الطلب".

"نعم أتذكره، كما أنني أتذكر رفيقه الذي لا يفارقه، قانون العرض".

"هذا جيد، ولكننا اليوم سنصبُّ كامل تركيزنا على قانون الطلب، وضعت تلك القوانين الكثير من الضغط على عاتق خبراء الاقتصاد، كونها لا تعمل بالنمط الثابت نفسه الذي تعمل به القوانين الفيزيائية، ولكن بشكل عام، يعتبر قانون الطلب قانونًا مُتَقَنَّ وموثوقًا، ما أريد استطلاعه اليوم عن موضوعين محوريين: أولهما حقيقة تفاعلنا مع المحفزات من حولنا، ثانيهما، أن تلك الحقيقة تتضمن في فحواها حدوث المفاضلات، وكما قال ميك جاجر - الذي درس في كلية لندن للاقتصاد بالمناسبة - بكلماته الخالدة "لا يمكنك دائمًا الحصول على ما تريد"، بلغة الاقتصاد يُشار إلى هذا المفهوم بمصطلح معروف "بتكلفة الفرصة البديلة" بمعنى آخر: هي المفاضلات الحتمية التي يجب عليك حسمها تحت ظل ظروف تنسم بندرة الموارد.

صرح ستيفن لاندسبيرج بأنه يمكن تلخيص معظم جوانب الاقتصاد في أربع كلمات، وهي: "كيفية استجابة الناس للمحفزات"، والباقي مجرد تعقيب على هذا ليس إلا. هذا يرجعنا إلى رؤية هايك الشهيرة حول السبب وراء نجاح منظومة الأسواق الحرة، والذي يرجع إلى كون الأسعار تحمل بعض الحقائق عن السلع، بالإضافة إلى سبب يجعلنا نتجاوب معها".

"أنا مجرد كلب، أستجيب للوجبات الخفيفة، والنزهات، والتدليك على بطني، لذا يجب عليك أن توفري لي بعض الأمثلة حول تلك الأسعار".

"أصدرت الحكومة البريطانية في عام 2015، رسومًا على استخدام الأكياس البلاستيكية تساوي خمسة جنيهات إسترلينية، ونتج عن هذا القرار انخفاض في استخدامها يُقدر بنسبة 80%، وفي

عام 2003، تم تطبيق ما يعرف بـ "رسوم الازدحام" بمدينة لندن، ونتج عنه تقليل حدة

التكدس المروري بنسبة 10%، وفي عام 2014، فرضت الحكومة المكسيكية الضرائب على المشروبات السكرية، وانخفضت مبيعاتها بنسبة 10% بحلول العام التالي، يعتبر كل ما سبق مجموعة من الأمثلة لما يعرف بضريبة الخطيئة؛ ضريبة تُفرض على سلع ضارة يريد المجتمع ردعها، تُعد هذه الضرائب بمثابة ضرب عصفوريين بحجر واحد، حيث إنها وسيلة يمكن بها تحسين الصحة العامة وجمع الأموال في آن واحد، ما أحاول إيضاحه هنا لا يتعلق بكون تلك الضرائب فكرة سديدة أم حمقاء - حيث يشير البعض إلى أن فكرة ضرائب الخطيئة تعاقب الفقراء بشدة أكبر - إنما يتعلق بكونها فعالة ومبرهنة على مدى تجاوبنا مع تغير الأسعار؛ إذا ارتفع سعر سلعة ما، يقل الطلب عليها".

"أنا أفهم أنه بإمكاننا التقليل من استهلاك المشروبات الغازية إذا ارتفع سعرها، فنحن لا نحتاج بالضرورة إلى شربها، لكن ماذا عن الأشياء الأخرى؟ الأشياء التي نحن بحاجة إليها حقًا؟".

"وجهة نظر سديدة يا مونتي، لعل فكرة استجابة الناس للمحفزات حقيقية، ولكننا أيضًا نريد أن نعلم إلى أي مدى سيستجيبون لها، في بعض الأحيان، تؤثر تغيرات الأسعار بشدة على الأفراد، وفي أحيانٍ أخرى يكون تأثيرها طفيفًا، أتذكر حديثنا عن المرونة الاقتصادية؟".

"نعم، أتذكر. تتحقق المرونة عندما يرتفع السعر وينخفض الطلب، مثلما يرتدي الفيلسوف السراويل ذات الخصر المرن حينما تخرجين أنتِ وأصدقائك ويقوم بطلب بيتزا كبيرة الحجم".

"يا له من تصور جميل، شكرًا لك، كما أشرت أنت، يمكننا أن نتوقع تغير نسبة الطلب على المشروبات الغازية عند تغير أسعارها؛ هناك العديد من أنواع المشروبات الغازية المتشابهة التي يمكننا الاختيار من بينها، ويمكننا الاستغناء عنها من الأساس، لذا، إذا قامت شركة معينة برفع أسعار مشروباتها، فسيتجاوب الناس مع هذا التغير بالاتجاه لشراء ماركة توفرها شركة أخرى، لتتخيل أنك تعمل في وظيفة بمكان بعيد يحتم عليك القيادة إلى

العمل يوميًا، وعندها، سينخفض مدى استجابتك لتغير أسعار الوقود (قد يصبح الطلب غير مرناً نسبياً)".

"أتساءل الآن عن مرونة سوق أحزمة السراويل، أظنها غير مرنة، لكن بدونها ستنزلق سراويل الفيلسوف من على خصره، أليس كذلك؟".

"لنتابع... لأجيب عن سؤالك يا مونتي سأقول: مع أن تقليل الاعتماد على الوقود أصعب من التبديل بين ماركات المشروبات الغازية، فإن الناس تتكيف في النهاية؛ بإمكانهم مشاركة السيارات، أو الاتجاه لاستخدام سيارة ذات كفاءة أعلى في استخدام الوقود، أو استبدال السيارة بدراجة هوائية، نتيجة لكل هذا، باتت الشركات على وعي تام بمدى مرونة الطلب على منتجاتها، لقد أنفقت شركة "نتفليكس" مبالغ طائلة على إنتاج محتوى جديد، وأخذت في رفع قيمة باقات اشتراكها في الولايات المتحدة بالتدريج، وتلك مخاطرة كبيرة؛ أن يفترضوا من أنفسهم بأن الطلب على خدماتهم غير مرناً نسبياً، ولن تتسبب الزيادة في الأسعار بخسارتهم الكثير من المشتركين.

يجب أن تعي الحكومة بدورها جيداً مفهوم المرونة؛ إن كانت الحكومة تهدف إلى تحصيل الأموال من خلال رفع نسبة الضرائب - لا أن يحدثوا تغييراً في سلوك المجتمع بشأن سلع معينة - فلن تعود عليهم بأي فائدة من استهداف السلع التي تصنف أسعارها بأنها على درجة عالية من الحساسية (أي سلع تتأثر نسبة الطلب عليها بشدة مع تغير أسعارها)، ويحتمل أن يؤدي هذا إن حدث إلى هبوط حاد في نسبة الطلب على هذه السلع، مما يتسبب في تقليص نسبة العوائد. تُعد ضريبة امتلاك النوافذ التي تم تطبيقها في إنجلترا عام 1696 مثالاً جيداً لما أقوله.

"تمهلي، أتقصدين ضريبة على امتلاك نوافذ حقيقية - أي كلما زاد عدد النوافذ في منزلك، دفعت ضريبة أكبر؟".

"نعم، بالضبط، تبدو ضريبة النوافذ فكرة جيدة بالفطرة، فهي ضريبة من الصعب تفاديها لأنك لن تستطيع إخفاء عدد النوافذ في منزلك في المقام الأول، علاوة على ذلك، فهي تبدو فكرة عادلة؛ كون الأشخاص الأثرياء يعيشون في منازل كبيرة تحتوي على عدد كبير من النوافذ. كانت النتائج التي خلفتها تلك الضريبة سهلة التوقع بالنسبة لأي خبير اقتصادي: بدأ الناس في سد مساحات تلك النوافذ بالطوب، وأدى هذا إلى خلق ظروف معيشية قاسية للفقراء الذين عاشوا في مباني سكنية مزدحمة، حيث اضطر ملاك العقارات في بعض الأحيان لإزالة جميع النوافذ في عدد من الطوابق. وتسببت الضريبة في رفع أسعار النوافذ، فأدى هذا إلى قلة الطلب عليها. عارض تشارلز ديكنز هذه الضريبة، مشيرًا إلى أنها سياسة من المفترض أن تستهدف الأثرياء، ولكنها حرمت الفقراء من النور والهواء عوضًا عن ذلك، في نهاية المطاف، ألغيت ضريبة النوافذ في عام 1851.

"إذن تم إسدال الستار على ضريبة النوافذ".

"ممتاز، من المؤثرات التي نتجاوب معها أيضًا كيفية تقاضينا أجورنا في العمل، حيث نجد أنفسنا نعمل بجهد أكبر عندما نعتمد رواتبنا على العمولات، ونقل المجرمين المدانين إلى أستراليا دليل قوي على هذا: دفعت الحكومة البريطانية أجرًا ثابتًا لبعض السفن الخاصة كي تنقل المجرمين المدانين بين عامي 1790 و1792، ووصلت معدلات الوفيات في الرحلة إلى 12%، فقد حفزت الأرباح العائدة من بيع المؤن الزائدة قبطان السفينة أن يترك المجرمين يلقون حتفهم، ووصلت معدلات الوفاة ذات مرة على سفينة ما إلى 37%، كيف تُحل هذه المشكلة؟ قررت الحكومة الإنجليزية تحفيز ربان السفن عن طريق منح كل قبطان مكافأة مالية عن كل مجرم يصل إلى أستراليا على قيد الحياة، ونتج عن ذلك انخفاض معدلات الوفاة إلى نسبة شارفت 0%".

"حسنًا لقد تمكنت من إقناعي فيما يخص المحفزات وقانون الطلب، ولكنك قد ذكرت من قبل وجود بعض الاستثناءات، فما هي؟".



"يُعد قانون الطلب من أقوى قواعد الاقتصاد وأكثرها إحكامًا، لكن هذا لا يمنع وجود بعض الاستثناءات المثيرة للاهتمام التي تخضع لها تلك القاعدة، وأحدها حالة متفردة من نوعها يطلق عليها سلعة جيفن، (وقد سُميت تيمناً بالسيد روبرت جيفن، الذي عمل في الخدمة المدنية بالقرن التاسع عشر)؛ أما تعريفها فهي السلع التي تتميز بزيادة نسبة الطلب عليها كلما زاد سعرها.

قد تسأل: لمَ قد يحدث شيء كهذا؟ تخيل أنك فقير جدًا إلى حد أنك لا تستطيع تحمل تكلفة سوى نوعين من الطعام: أحدهما شيء أساسي كالأرز الذي يمدك بمعظم احتياجاتك من الأسعار الحرارية، بالإضافة إلى كمية قليلة من اللحم، وتخيل بعدها أن سعر الأرز قد ارتفع، ولا تنس أن هذين النوعين من الطعام بالكاد يمدانك بالأسعار الحرارية الكافية، في إن استمررت في شراء اللحم، سيتحتم عليك التقليل من شراء الأرز، ما ينتقص بشكل هائل من قدر الأسعار الحرارية اللازمة لبقائك على قيد الحياة، خيارك الوحيد هو أن تستغنى عن شراء اللحم، وتشتري كمية أكبر من الأرز عوضًا عنه، حتى لو ازداد سعره عن ذي قبل.

هناك حالة أخرى يزداد فيها الطلب على السلعة مع زيادة سعرها يُطلق عليها "سلعة فبيلين"، ولكنها تحدث لسبب مختلف تمامًا عن سابقتها. هناك بعض الأشخاص الذين يشيرون إلى كونك سلعة من سلع فبيلين يا مونتي".

"لا أعرف ما يعنيه هذا، ولكن يعجبني الانطباع النابع من اسمها، لكن هل تعتبر سلعة فبيلين هذه شيئًا جيدًا؟ لأن سلعة جيفن كانت مريعة تمامًا بصراحة، مع أخذ كل الأمور بعين الاعتبار".

"سأتركك أنت لتقرر. سُميت سلعة فبيلين بذلك تيمناً بثورستين فبيلين (1857-1929) الذي صك مصطلح "الاستهلاك التفاضلي"، ويتضمن هذا بعض الأمثلة مثل حقيبة يد من ماركة هيرميس، أو بالفعل أنت يا مونتي؛ كونك كلبًا ذا طراز رفيع".

"صحيح جدًا، ولكن ماذا يعني الاستهلاك التفاخري؟".

"هو شراء السلع لغرض التباهي بها، ففي حالة سلعة جيفن، يزداد الطلب مع ازدياد الأسعار خشية الوقوع في حفرة الفقر؛ أما في هذه الحالة، فالسبب عكس هذا تمامًا كونه يتمحور حول الرغبة في التفاخر بالحالة الاقتصادية المترفة للفرد، ويسعى الناس وراء هذا النوع من السلع ليس لأنها باهظة الثمن فقط، ولكن لأن الجميع يعرف بكل تأكيد أنها باهظة الثمن، فمن الممكن أن يصل سعر حقائب ماركة هيرميس إلى عشرة آلاف جنيه إسترليني، وقد تُعرض منها كميات محدودة عن عمد؛ ولا يمكنك الدخول بشكل اعتيادي متجر هيرميس وشراء حقيبة من طراز بيركن على سبيل المثال، لأنك ستحتاج إلى أن تطلبها خصيصًا، وسيوضع طلبك في قائمة انتظار طويلة، لكن إن توافرت تلك الحقائب بعُشر السعر، أو حتى عُشر العُشر من السعر، فيمكن القول إن الطلب عليها سينخفض".

"وهل هذه هي كينونتني؟ هل أنا رمز هذه الحالة الاقتصادية؟".

"هذا بالتأكيد ينطبق على بعض أنواع الكلاب. على كل حال، آمل أن تلك الأمثلة قد نجحت في إقناعك بأننا نتجاوب مع محفزات الأسعار - بغض الطرف عن بعض الاستثناءات الفردية - بطريقة يسهل التنبؤ بها.

هناك مفهوم أساسي آخر: إلزامية المستهلكين للقيام بمفاضلات، لدى معظمنا موارد محدودة من الوقت والمال، ويجب علينا اتخاذ القرارات بشأن كيفية استغلال تلك الموارد، إن تفضيل القيام بشيء على حساب آخر، يلقي بعرض الحائط احتمالية فعل الشيء الآخر تمامًا، ويشير الاقتصاديون إلى تلك الفرص التي تم تفويتها بمصطلح "تكلفة الفرصة البديلة"، من الشائع التغاضي عن تكاليف الفرص البديلة؛ على سبيل المثال، عندما يفكر الناس في تكلفة الالتحاق بالجامعة، فإنهم يضعون في اعتبارهم تكاليف الرسوم الدراسية علاوة على نفقات المعيشة، ويتجاهلون حقيقة أن العمل بجهد عوضًا عن الدراسة سيدير عليهم المال، هذا هو المقصود بتكلفة الفرص البديلة، مثال آخر: إذا قررت أخذك في نزهة

بعد الظهيرة، فستتمثل تكلفة الفرصة البديلة في الأموال التي كان بإمكانني أن أجنيها من العمل في وقت تنزهنا".

"حسنًا، فهمت".

"نملك كلنا ميزانية محددة، والجميع يحاول أن يحصل على مزيج من السلع والخدمات المختلفة التي تناسب تفضيلاته الشخصية في حدود هذه الميزانية، هناك سؤال يطرح نفسه: كيف يتأثر قانون الطلب بزيادة ميزانيتنا عندما نصبح أكثر ثراءً؟ يحاول الاقتصاديون فهم هذا السؤال من خلال فحص كيف يستجيب الطلب على أنواع مختلفة من السلع للزيادات في الدخل، كما أنهم يصنفون السلع إلى سلع طبيعية وأخرى رديئة".

"هذا يبدو انتقادًا بعض الشيء".

"نعم، في الحقيقة هو كذلك، البضائع الرديئة تتسم بانخفاض الطلب عليها مع زيادة الدخل: كالطعام الرخيص، ومنتجات المتاجر التي لا تحمل علامة تجارية، والدراجات الهوائية - على الأقل من الناحية التاريخية - ويوجد مثال آخر: وهو أخذ قرض بضمان الراتب عندما لا تستطيع الاقتراض من مصدر حسن السمعة، هذه كلها أمثلة على سلع يضطر الناس إلى شرائها عندما لا يستطيعون تحمل تكاليف ما يريدونه بالمقام الأول.

على النقيض، فإن الطلب يزداد مع زيادة الدخل في حالة السلع الطبيعية، وتسمى الطبيعية لأنها أول ما نتوقع شراءه: إذا بت أكثر ثراءً، فمن الطبيعي أن تتجه إلى شراء المزيد من السلع من هذا النوع، تنقسم السلع الطبيعية بذاتها إلى سلع ضرورية وكمالية.

السلع الكمالية هي ما ينفق عليها الناس نسبة كبيرة من دخلهم في حين يزداد الأخير، مثل السيارات الرياضية، وساعات اليد، وتكاليف قضاء العطلات، والكلاب الباهظة مثلك يا مونتني. إن كنت فقيرًا فمن المنطقي ألا تنفق أموالك على تلك السلع، ولكن في حالة الثراء، فأنت غالبًا تقوم بهذا بالفعل لأنه شيء في استطاعتك، يزداد الطلب على السلع الضرورية

أيضًا بزيادة الدخل، ولكن بنسبة تقل عن تلك التي ازداد بها الدخل، وتعتبر السلع الغذائية والخدمات دليلاً على هذا".

"أيمكنك شرح جزئية زيادة نسبة الطلب بقدر أقل مما يزداد به الدخل؟".

"بالتأكيد، لنستعن بالسلع الغذائية كمثال، بشكل عام، كلما ازداد دخل الأفراد، زاد معدل إنفاقهم على السلع الغذائية كونهم يتجهون إلى شراء كميات كبيرة منها - ويهدرون كميات كبيرة منها أيضًا - كما أنهم يتجهون إلى شراء السلع الباهظة، مع ذلك، فإن معدل ما ينفقونه على السلع الغذائية لا يزداد بشكل منتظم مع زيادة الدخل؛ هناك حد لمقدار ما يمكن للشخص استهلاكه في الطعام".

"بمناسبة الطعام، ما رأيك أن نذهب إلى مقهى ونشارك شطيرة من اللحم المقدد؟".

يحب مونتي اللحم المقدد أكثر مما قد يحب خبير الاقتصاد - على سبيل المثال - جدولاً يوضح بيانات إنتاج اللحم المقدد في الربع الثالث من السنة المالية الماضية. انطلق مونتي مسرعاً ليجلب حبله. لقد قلت فيما سبق إن مونتي يزدري معظم الخدع التي تفعلها الكلاب، ولكنه برع حقاً في إحضار حبله بنفسه. ربطت الحبل بإحكام حول رقبتة ثم انطلقنا إلى الشارع الرئيسي، وتسببت التفاعلات الاقتصادية المعقدة كالإيجار، والضرائب، والعرض والطلب في تحويل مجموعة متنوعة للمتاجر العملية - كما لاحظت فيما قبل - إلى مجموعة من المقاهي، والمتاجر الخيرية، وصالونات الشعر، وجميعها يغلب عليها طابع ثقافات مختلفة، وتهيمن على نظامنا الاقتصادي كما ستهيمن الجرذان، والصراصير، والحمام على النظام البيئي عندما تحدث نهاية العالم. ذهبنا إلى أحد المقاهي المحلية حديثة التأسيس، وعثرنا فيه على ركن مريح استقرنا فيه.

"حسنًا يا مونتي، لقد تحدثنا اليوم عما يطلق عليه خبراء الاقتصاد "اتخاذ القرارات تحت ظل ندرة الموارد"، هل يمكنك القول ما هو المورد الأكثر ندرة بنهاية المطاف؟".

"بسكويت الكلاب؟".

"بل إنه الوقت".

"نعم، بلا شك! أنتم أيها البشر كائنات غريبة الأطوار من منظوري بصفتي كلبًا؛ تجلسون منحنيين أمام الحاسوب طوال اليوم لجني الأموال عوضًا عن أخذي للتنزه، فضلًا عن أولئك الذين يدفعون المال لشخص آخر مقابل تولي تلك المهمات! هذا يشبه أن تدفع المال لشخص حتى يأكل طعام العشاء بالنيابة عنك!".

"أنت حكيم جدًا يا صديقي، ولكن هذا التوازن بين الحياة الشخصية والعملية الذي يجب أن نتعامل معه كأفراد راشدين ومسؤولين ليس بشيء يسهل تحقيقه. تخيل أنك تعمل في وظيفة بمعدل أربعين ساعة أسبوعيًا بمقابل عشرة جنيهات إسترلينية للساعة الواحدة، فبهذا المعدل سيصبح لديك أربعمائة جنيه أسبوعيًا لتنفقها على ما تريده من أشياء".

"وماذا عن ضريبة الدخل؟".

"ماذا؟"

"في الحقيقة أنا لا أعرف عنها شيئًا عدا أن الفيلسوف يعتقد أنه يجب على الجميع أن يدفعوا نسبة أكبر، وأنت تعتقدين أنهم يجب أن يدفعوا أقل".

"لا بأس، لنفترض الآن أنه لا وجود لشيء يسمى الضرائب، ولنتخيل الآن أن أجرك قد زاد ست مرات ليصبح ستين جنيهًا إسترلينيًا في الساعة، هل ستستمر حينها في العمل لأربعين ساعة أسبوعيًا وتستمتع بقدرة أكبر على الإنفاق بعدما أصبح أجرك الأسبوعي 2,400 جنيه إسترليني بفضل جهدك في العمل، أم أنك ستتنازل عن تلك القدرة الشرائية الكبيرة لأنك تفضل الحصول على مزيد من الوقت للراحة؟ وفي هذه الحالة ستتمكن من تقليص فترات العمل الأسبوعية لديك إلى أقل من سبع ساعات أسبوعيًا، ماذا ستقرر في موقف كهذا؟".

"بما أنني كلب، فسأفضل الخيار الذي يمنحني الوقت، ثانيًا، ما مدى واقعية هذا الكلام؟ زيادة الأجر بمعدل ست مرات يبدو أمرًا مبالغًا فيه".

"تعمدت أن تكون الزيادة بنسبة ست مرات لأن هذا معدل الزيادة التقريبي لمتوسط أجر ساعة العمل في أمريكا خلال القرن العشرين، كتب جون ماينارد كينز مقالة في عام 1930 بعنوان "Economic Possibilities For Our Grandchildren" (أي الفرص الاقتصادية المحتملة لأحفادنا في المستقبل)،<sup>2</sup> وذلك أثناء فترة اقتصادية سوداوية عُرفت باسم "الكساد العظيم"، لكن كينز كان متفائلًا بطبعه؛ حيث صرح فيما قبل بأن ندمه الوحيد في الحياة هو عدم استمتاعه بها بما يكفي، وتنبأ كينز في تلك المقالة بتوقعين جريئين حول الهيكل التي ستتخذها الحياة بالنسبة لأحفاده بعد مائة سنة منذ وقت إصدار المقال، أي الوقت الحالي، التوقع الأول: ستزداد معدلات الرخاء بمقدار يتراوح بين أربعة إلى ثمانية أضعاف بفضل التقدم التكنولوجي، أما التوقع الثاني فهو نتيجة للأول؛ سنضطر للعمل بمعدل خمس عشرة ساعة أسبوعيًا".

"أنا لا أقوم بحساب ساعات عملكم، ولكن يبدو أنكم تعملون لمدة تزيد على خمس عشرة ساعة".

"كان التوقع الأول لكينز في محله من الدقة، فكما قلت، ازداد متوسط الدخل في الولايات المتحدة بمعدل ست مرات خلال القرن العشرين، مع ذلك، أخطأ كينز بعض الشيء فيما يخص توقعه الثاني، وحاول أحد الصحفيين أن يجعل حفيده يخبره بعدد ساعات عمله".<sup>3</sup>

"وبعد ذلك...؟".

"اتضح أنه ليس لديه أي أحفاد، ولكن لديه حفيد لأخته، على كل حال هذا لم يختلف كثيرًا، نيكولاس همفري هو حفيد شقيقة كينز - وهو متقاعد في الوقت الحالي - لكنه كان أستاذًا جامعيًا في علم النفس التطوري. قدر "نيكولاس" عدد ساعات عمله ووجد أنها خمس عشرة ساعة يوميًا".

"إن كيف أخطأ كينز في التقدير إلى هذا الحد؟".

"أشار ريتشارد فريمان - الخبير الاقتصادي في جامعة هارفارد - إلى أن خطأ كينز هذا راجع إلى اعتباره أوقات الفراغ من السلع الفاخرة، تذكر أننا اتفقنا على أن ما يجعل السلع الفاخرة ما هي عليه الآن يرجع إلى الزيادة في الدخل لدى الأفراد؛ كلما ازداد دخل الفرد أنفق المزيد من المال على هذه السلع، ومن هذا المنطلق، إذا اعتبرنا أوقات الفراغ سلعة فاخرة ازداد ثراؤنا، وتمكننا من الحصول على المزيد من أوقات الراحة.

توقع كينز أننا سنحظى بالكثير من أوقات الراحة كلما ازدادنا ثراءً، وهذا ما يطلق عليه خبراء الاقتصاد تأثير الدخل؛ كلما ارتفع الدخل، اشترينا المزيد من السلع، مع ذلك، نحن لا نرى هذا يحدث بواقعنا في غالب الأحيان، لناخذ نجوم الرياضة أو نجوم صناعة الأفلام كمثال: تقاضى أرنولد شوارزنيجر أجرًا يساوي 29 مليون دولار أمريكي، عن الفيلم الثالث من سلسلة أفلام *The Terminator*، جيمس ليبون أيضًا - لاعب كرة السلة - كان من المتوقع أن يجني 94 مليون دولار، في عام 2021، لم يستقل كلاهما من عملهما ويعيشا حياة لا يوجد بها سوى الراحة؟".

"ربما لأنهم يستمتعون بعملهم؟".

"هذا بالتأكيد سبب من الأسباب، ومن المؤكد أن كينز، قد غض طرفه عن هذا السبب؛ يجد البعض منا هدفًا ومغزى في حياته المهنية. على الأرجح، ما قصده كينز، كان العامل العادي الذي يتم استعباده في مصنع ما أو يفتك به الملل من العمل في المكاتب، علاوة على ذلك، لم يتبع كينز نصيحته بذاته؛ عمل بجد على نحو لا يخفى على أحد مع أنه عاش حياة مليئة بالمغامرات.

لكن، هناك تأثير اقتصادي آخر يظهر بوضوح ويتخذ مسارًا معاكسًا لما سبقه: **التأثير البديل**، في هذه الحالة، يبتعد الناس عن شراء سلعة معينة عندما يرتفع سعرها بشكل نسبي - كأوقات الراحة في مثالنا - وهنا، يوجد سؤال آخر قائم على فرضية: تخيل أن أجرك

اليومي خمسمائة جنيه إسترليني، وأمامك خياران: إما أن تعمل وتحصل على هذا المبلغ، أو تعزف عن العمل وتذهب إلى الحديقة في يوم مشمس وجميل، ماذا ستختار حينها؟".

"أنا أحب الحديقة، ولكن خمسمائة جنيه يبدو مبلغًا كبيرًا. فجأة خالجني شعور بأن الذهاب إلى الحديقة يكلف الكثير من المال".

"هذا ما يعنيه بالضبط التأثير البديل، عند القيام بالمفاضلة بين العمل حيث تجني الكثير من المال وأخذ أوقات للراحة، ستشعر كأن الإجازات من العمل بمثابة إهدار للمال، وهذا بلا شك لا يعني أنك تدفع المال مقابل الحصول على أوقات الفراغ؛ أتذكر حينما تحدثت عن تكلفة الفرصة البديلة؟ تزداد تكلفة الفرصة البديلة لوقت فراغك مع زيادة راتبك، وعندما يزداد راتبك يحدث شيان: تتقاضى أجرًا أكبر مقابل كل ساعة عمل، وهذا ما يعرف بتأثير الدخل، حيث يمكنك زيادة معدل إنفاقك واستهلاكك مع الحصول على وقت الفراغ نفسه، لكن عندما يصبح وقت الفراغ شيئًا مكلفًا وثمينيًا، فحينها يصبح لديك حافز للعمل لفترات أطول مع أخذ أوقات راحة أقل، وهذا ما يعرف بالتأثير البديل".

"إنن ماذا يحدث في نهاية المطاف؟ أي عنصر له تأثير أقوى، تأثير الدخل أم التأثير البديل؟".

"إحدى الطرق للإجابة عن هذا السؤال هي أن ننظر إلى التاريخ لنرى ما حدث على أرض الواقع، إذ زادت الأجور بشكل هائل خلال حقبة الثورة الصناعية، وهنا يكمن السؤال: هل استغل الناس هذه الزيادة في شراء المزيد من السلع الاستهلاكية، أم في الحصول على المزيد من أوقات الفراغ؟ الإجابة المباشرة على هذا أنهم استغلوها لفعل الشئيين معًا.

ازدادت ساعات العمل بشكل كبير خلال الثورة الصناعية، حيث كان من الوارد جدًا أن تمتد ساعات العمل إلى ثماني عشرة ساعة، وشكلت لجنة برلمانية في إنجلترا عام 1832 لتقييم بيئات العمل في المصانع، ووجدوا أن الأطفال عملوا لساعات طويلة امتدت إلى تسع عشرة ساعة يوميًا يتخللها فترات راحة قصيرة تكاد لا تذكر. بعد ذلك، في الفترة التي



تراوحت بين عامي 1870 و1950، انخفضت ساعات العمل بشكل ملموس في جميع الدولة المتقدمة، وفي عقد الخمسينيات، بدأت الأمور تأخذ منحى لافتًا للانتباه؛ استمرت ساعات العمل في الانخفاض بدول أوروبا، في حين ثبتت على حد معين لم تنخفض عنه في الولايات المتحدة، في الوقت الحالي - ومع كونهم أكثر ثراءً في المتوسط - يضطر الأمريكيون للعمل لساعات أطول مقارنةً بأقرانهم في دول أوروبا، بل في الواقع، ازدادت ساعات العمل بشكل طفيف في الولايات المتحدة خلال أواخر القرن العشرين".

"إذن على حد فهمي، يحاول الناس أن يختاروا المال والوقت معًا بشكل عام، ولكن في أمريكا يفضلون المال لشراء المزيد من السلع، بينما في أوروبا يميلون إلى الحصول على المزيد من أوقات الفراغ".

"بالضبط. كتقدير تقريبي، ارتفع أجر ساعة العمل في الولايات المتحدة بمقدار ست مرات على مدار القرن العشرين، بينما انخفضت ساعات العمل إلى الثلث، ومع كون كينز مخطئًا بشأن تقليص ساعات العمل إلى خمس عشرة ساعة أسبوعيًا، فقد اتخذنا بعض الزيادات الإنتاجية التي حققتها الرأسمالية الحديثة في هيئة المزيد من أوقات الفراغ. سيبدو توقع كينز عقلائيًا أكثر إذا نظرنا إلى حاصل مجموع ساعات العمل خلال حياتنا كلها، عوضًا عن أن ننظر إلى المدة الأسبوعية أو حتى السنوية، أضف إلى ذلك أننا قضينا وقتًا أطول بكثير في التعليم مقارنة بالمدة التي عرفتتها المجتمعات القديمة، كما أننا نعيش لفترات أطول ونحظى بفترة تقاعد طويلة. لم يتواجد مفهوم التقاعد قبل حلول القرن العشرين، حيث اضطر معظم الناس قبل ذلك إلى العمل حتى مماتهم؛ كون التقاعد حُصر بين فئة قليلة جدًا من الأثرياء".

"إذن نستنتج من هذا أن بعضًا منكم أيها البشر صار يعمل فترات أقل على مدار حياتهم، بينما البعض الآخر أمسى يعمل لفترات أطول وبجهد أكبر، كيف حدث ذلك؟".

"أولاً، يجب أن تسأل نفسك إن كان لدينا حرية اختيار عدد ساعات العمل كما يفترض بعض الاقتصاديين. ثانيًا، هناك فارق بين احتياجاتنا - التي يمكن تلبيتها بسهولة - وبين

رغباتنا النهمة التي من الصعب إشباعها. فيما يخص القضية الأولى، فإن ساعات العمل تعكس توازن السلطة بين العامل ورب العمل؛ عندما يملك أرباب الأعمال اليد العليا في النفوذ والسلطة، وعندما يصعب الحصول على عمل، وعندما تضعف قوة الاتحادات العمالية، يصبح لدى أرباب العمل السلطة الكافية لتحديد ساعات العمل لديهم، قد يحظى المرء بحرية اختياره وظيفته، لكنه لا يتحكم في مقدار ساعات عمله.

هناك عامل آخر مهم، وهو ميلنا الفطري البحث لمقارنة أنفسنا بالآخرين، والذي يمكن أن يؤدي بدوره إلى دخولنا في مسابقات عنيفة من الإنفاق التنافسي؛ تبذير قد يخرج عن سيطرتنا؛ كما قال الفكاهي هنري لويس منكن: الرجل الثري هو من يجني أكثر مما يجني عديله بمقدار مائة دولار، وقد أشارت الخبيرة الاقتصادية جوليت شور إلى أن الطبقة المتوسطة اتجهت من محاولاتها لمواكبة الجيران، إلى محاولتها لمواكبة عائلة كارداشيان (مواكبة الجيران هو مصطلح يستخدم في أغلب الدول الناطقة بالإنجليزية ويعبر عن الدعوة للمقارنة مع الجار بصفته معيارًا للطبقة الاجتماعية، أما عائلة كارداشيان فهي عائلة أمريكية على مستوى عالٍ من الثراء برزت في المجالات الترفيهية ومجال الأعمال)، وهذا الاتجاه الجديد سينتج عنه منافسة محتدمة ذات طابع "دارويني" ستؤدي بدورها للوقوع في فخ الديون.4

وعندما تنبأ كينز، بتلك التوقعات، كان على وعي تام بتلك القضية - حيث أطلق عليها رغبتنا في التفوق على أقراننا - ولكنه بالتأكيد استخف بمدى تأثيرها وقوتها. اعتقد كينز أنه بمجرد أن نلبي احتياجاتنا الضرورية، سنوجه انتباهنا للمشكلة الحقيقية، وهي تتعلق بكيفية استغلال حريتنا الاقتصادية للعيش حياة سعيدة ومرفهة تتخللها الحكمة والراحة".

"تبدو هذه خاتمة جيدة لموضوعنا".

"حسنًا، لنعد إلى المنزل، أعتقد أننا نستحق أن نأخذ فترة بعد الظهر للراحة والاستجمام".

## النزهة ٦: الشركات: الاحتكار، واحتكار القلة، والتواطؤ، والتنافس

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: الشركات هي واحدة من أهم العناصر في مختلف الاقتصاديات، فما هو تعريفها؟ وما القوى التي تؤثر عليها؟ وكيف تسعر الشركات منتجاتها؟ وكيف نضمن بيئة تنافسية سليمة حتى نتجنب الاحتكارات بجميع أنواعها؟

"تحدثنا في نزھتنا الماضية عن الطلب، أتذكر أي شيء عنه يا مونتي؟".

"آآه، أجل أذكر، إذا امتلکنا الكثير من المال، سنتمكن من شراء المزيد من الأشياء، ولكن ليست أشياء عادية كالنقائق مثلاً، ولكن أشياء فاخرة، كحذاء من ماركة هيرميس، بغض النظر عن ماهيتها، وأطواق كلاب من الماس، كما أنني أتذكر أن المرونة لها علاقة بالأمر بشكل أو بآخر، وثمة شيء اعتقد الجميع أننا سنشتري الكثير منه: وهو اللاشيء، أعني أوقات الفراغ، مع ذلك فنحن ما زلنا نعمل بجد بسبب ما يعرف بتكلفة الفرص!".

"تكلفة الفرص تسمى تكلفة الفرص البديلة! أتساءل في بعض الأحيان إذا كن... لا عليك، في الحقيقة ما قلته لا يختلف كثيراً عن المقصود في نزھة اليوم، أريد أن أتناول واحداً من أهم العوامل التي تشكل جزءاً من مختلف الاقتصادات: الشركات".

"تمهلي قليلاً، أعطني تعريفاً سريعاً عن الشركات من فضلك؟".

"فتى نبيه دائماً، لا أخشى أن نتخطى نقاطاً مهمة كهذه، الشركة هي مؤسسة هدفها الأساسي هو الربح، من خلال تصنيع أو بيع السلع والخدمات للمستهلكين، ويتراوح حجم الشركات، فتبدأ من التاجر الوحيد الذي يبيع الأحذية في السوق المحلية، إلى الشركة الكبيرة متعددة الجنسيات التي تبيع أجهزة "أيفون" إلى نصف سكان العالم، في عصر آدم سميث، كانت الشركات صغيرة والأسواق محلية، ولكن تواجدت بعض الاستثناءات؛ مثلت

الشركة الشرقية الهندية نصف التجارة العالمية في أوائل القرن التاسع عشر، مع ذلك، تكونت الأسواق عادة التي عرفها سميث من مجموعة من التجار المبتدئين الذين لم يملكوا النفوذ الكافي للتأثير على الأسعار، هذا الهيكل من السوق يمثل النموذج الذي يطلق عليه خبراء الاقتصاد سوق التنافس المثالية.

هذه الأوضاع تغيرت في الوقت الحالي؛ صار هناك العديد من الأسواق التي تهيمن عليها بعض الشركات العملاقة، وفي بعض الأحيان نرى سوقًا لا يوجد بها سوى مورد واحد فقط، وهذا ما يعرف بالاحتكار، في أحيانٍ أخرى، نرى بعضًا من الموردين الكبار يتحكمون في أوضاع السوق، وهذا ما يعرف باحتكار القلة، حيث تتنافس فيه كبرى الشركات باحتدام كالحال مع شركتي كوكاكولا وبيبسي. وأحيانًا نرى الشركات تتواطأ مع بعضها البعض كما هو معروف مع شركات المزادات: كريستيز وسونبيز<sup>1</sup>.

"تتواطأ؟ يبدو هذا تحايلاً".

"كما كان يقول آدم سميث: كلما اجتمع البائعون الذين يتاجرون في النوع نفسه من البضائع، حتى لو على سبيل المرح والسمر، دائمًا تنتهي محادثاتهم بالتآمر ضد مصلحة العامة، أو التخطيط لرفع الأسعار<sup>2</sup>.

هذا بالتحديد ما حدث مع شركتي كريستيز وسونبيز في بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، إنها قصة تتضمن الخيانة، ومشاهد تتناثر فيها القطع الفنية لبابلو بيكاسو، والطائرات الخاصة، والصراع الطبقي الذي أدى في نهاية المطاف إلى سجن مالك شركة سونبيز، ولكن لا تشعر بالأسى الشديد حياله؛ فهو ذهب إلى السجن على متن طائرته الخاصة، في حين يقدم له خادمه النقانق والكافيار أثناء الرحلة. بحلول تسعينيات القرن العشرين، تمتعت شركتا كريستيز وسونبيز باحتكار قلة فعال، حيث سجلت الشركتان نسبة مبيعات من المزادات وصلت إلى 90%، بعد ذلك، مرت السوق بحالة من عدم الاستقرار، ووجدت الشركتان نفسيهما في صراع مرير مع بعضهما البعض؛ وظلنا تخفضان نسب عمولاتهما مرارًا وتكرارًا لإنهاء الصفقات مع التجار وجذب المزيد منهم، في مرحلة ما

خطرت فكرة ببال أحد مالكي الشركتين - وما زالت هوية صاحب الفكرة متنازعًا عليها حتى الآن - وهي أنه من الأفضل أن يقوم كلا الطرفين بتثبيت نسبة العمولة التي يتحصلان عليها، أثّرت الشكوك لدى السلطات الأمريكية، وقام كريستوفر دايفيدج - الرئيس التنفيذي لشركة كريستيز - بإبلاغ السلطات عن نظيره في شركة سوزبيز مقابل الحصول على الحصانة القانونية".

"تبدو هذه القصة ذات طابع سياسي أو درامي، أكثر من كونها ذات طابع اقتصادي".

"أنت محق يا مونتي، فأنا بدأت القصة من منتصفها عوضًا عن بدايتها. لنقرر في أي مكان سنتنزه وبعدها سأروي من البداية".

"لم نذهب إلى تلة بريمرز، منذ فترة طويلة حيث يوجد الكثير من الكلاب اللقيطة الجميلة والأشجار البديعة".

قمنا برحلة أخرى قصيرة بالحافلة، وبعدها جلسنا على مقعد أعلى تلة بريمرز، وأمامنا إطلالة رائعة على حديقة الحيوان وحديقة ريجنتز، بل الأكثر من ذلك، إطلالة على أبراج وزقورات المدينة.

"مستعد؟".

"كلي آذان صاغية".

"صب الاقتصاد بشكله التقليدي تركيزه على الأسواق؛ على كيفية تفاعل التجار والمشتريين مع بعضهم البعض في إطار اقتصادي حر، وظل ما يحدث على أرض الواقع داخل الشركات مُتجاهلاً، وفي حقيقة الأمر، فإن العديد من القرارات الاقتصادية المهمة التي تؤثر على المجتمع لا تؤخذ من قبل الأفراد بناءً على حركة البيع والشراء لديهم، كما أنها لا تؤخذ بواسطة الحكومة أيضًا؛ تُصنع هذه القرارات في شركات كبيرة تتسم بأنماط بيروقراطية معقدة ومخصصة لاتخاذ القرارات".

"إن ضربت لي مثالاً الآن سيكون ذلك مفيداً جداً".

"حسنًا، أتت النظارات التي أستخدمها من سلسلة متاجر سبيكسيفرز والتي توظف قرابة 33 ألف عامل، وتوظف سلسلة متاجر جون ليويس التي اشترت منها طوقك قرابة مائة ألف عامل، ويوظف مقهى ستاربكس الذي اشترت كوب القهوة الذي أحمله بيدي 349 ألف عامل، 3 في الولايات المتحدة الأمريكية، توظف شركة وولمارت 2.2 مليون عامل، في حين توظف سلسلة مطاعم ماكдонаلدز قرابة 1.9 مليون عامل، ويحدث داخل تلك الشركات - بالإضافة إلى المئات من الشركات العملاقة الأخرى - عدد ضخم من التعاملات التجارية التي تمر مرور الكرام، دون أن تُفحص بدقة، وحتى إن ألقينا نظرة على حركة التجارة العالمية، فس نجد أن قطاعًا كبيرًا منها يتكون من مجموعة من التعاملات الداخلية التي تحدث داخل شركات بعينها، عوضًا عن وجود تعاون تجاري على نطاق أوسع بين مختلف الشركات، يشحن كل من صانعي السيارات والطائرات قطع الغيار كالعجلات والأجنحة من مصنع ما في أوروبا إلى آخر في الولايات المتحدة، وبناءً على ذلك، فمن الواضح جدًا أن كل تلك القرارات التجارية المهمة والتي تساوي قيمتها مليارات الجنيهات لا تُقرر بواسطة اليد الخفية للسوق، وإنما بواسطة اليد المرئية لمديري تلك الشركات".

"ولكن إن أخفق هؤلاء المديرون، سينتج عن إخفاقهم طائرات وسيارات رديئة الجودة، وحينها سيعزف السوق عن شرائها، إذن أليست السوق تمتلك وسيلة لترى ما يقبع وراء ستائر الشركات نوعًا ما؟".

"قطعًا يا مونتي، ولكن هذا لا يزال يطرح السؤال التالي: ما هي آلية العمل الداخلية للشركات؟ وهل لدى الاقتصاد الكلاسيكي الحديث أية آراء مفيدة حولها؟ أم أن هذا الحقل المعرفي من الأفضل تركه لعلماء النفس والاجتماع أو حتى العلماء السياسيين؟".

"والفلاسفة أيضًا؟".

"دعنا نتجنب المبالغة، في الحقيقة، أعتقد أن لدى الاقتصاديين رأيين متعلقين بسلوك الشركات، الأول يتمحور حول التسعير والتكاليف، والآخر حول البنية الهيكلية للأسواق المختلفة، لنبدأ بمنظور الأسواق حول كيفية تسعير الشركات لمنتجاتها، ستجري النظرية الأولى حول سير الأوضاع كالتالي: لدى المستهلكين فكرة واضحة حول تفضيلاتهم الاقتصادية، وبعد النظر في الأسعار وفي ميزانيتهم، فإنهم سيختارون شراء حزمة من السلع والخدمات التي تمنحهم سعادة مطلقة. إن الهدف الأساسي من وجود الشركات هو تحقيق الأرباح، وتسعى كل شركة إلى تحقيق أكبر قدر من الأرباح بالوسيلة نفسها، وهي ضبط مستوى الإنتاج بدقة بحيث تتساوى تكلفة إنتاج سلعة إضافية (التكلفة الحدية) مع الزيادة في العوائد الناتجة من بيع تلك السلعة (الإيرادات الحدية)".

"لنتروّ قليلاً هنا، ماذا تعنين بالتكلفة الحدية والإيرادات الحدية؟ وماذا قصدتِ بتلك النقطة المتعلقة بتحقيق أكبر قدر من الأرباح؟".

"أول شيء أساسي يجب ملاحظته هو أن خبراء الاقتصاد يقسمون التكاليف إلى تكاليف ثابتة وتكاليف متغيرة، التكاليف الثابتة هي جميع التكاليف التي يجب أن تدفعها الشركة حتى إن توقفت عن الإنتاج في وقت ما، على سبيل المثال: إذا أنشأت مشروعاً للعناية بنظافة ومظاهر الكلاب، فيجب عليك أن تدفع إيجار المكان حيث تقيم مشروعك سواء إن كان هذا المشروع ناجحاً ويدر عليك أرباحاً أم لا؛ أما عن التكاليف المتغيرة، فهي تكاليف تتغير مع تغير مستوى الإنتاج، بالنسبة لشخص أقام مشروع تجميل الكلاب، فهذه التكلفة المتغيرة قد تتمثل في عدد العاملين الذين يجب توظيفهم للقيام بمهام العمل، أو الشامبو الذي يحتاج إليه لتحميم الكلاب، ومن هذا المنطلق نجد أنفسنا أمام مفهومين أكثر أهمية: التكلفة المتوسطة والتكلفة الحدية، التكلفة المتوسطة هي متوسط التكاليف التي تتحملها في مشروعك (أي إجمالي التكاليف مقسوماً على مجموع الكلاب التي تعتني بها)، على الجانب الآخر، فإن التكلفة الحدية هي نسبة الزيادة في إجمالي التكاليف عندما تقوم بإنتاج وحدة إنتاجية إضافية في مشروعك، وكل من هذه التكاليف تتغير مع تغير معدلات الإنتاج.

هذا هو جزء المعادلة الخاص بالتكاليف، لننظر الآن إلى جزء الأرباح، الإيرادات الحدية، هي الزيادة في الأرباح التي تحصل عليها عند بيع وحدة إنتاجية إضافية، وإذا جمعت بين المفهومين معًا (التكلفة الحدية والإيرادات الحدية) سنحصل على معادلة بسيطة ومنطقية: نستطيع تحقيق أقصى قدر من الأرباح عندما تتحقق هذه المعادلة: نسبة التكاليف الحدية = الإيرادات الحدية".

"لم أتمكن من فهم هذا".

"تأَنَّ في التفكير بالأمر يا مونتي، إن كان إنتاج وبيع وحدة إضافية من شيء ما يدر عليك مالا أكثر مما يكلفك، فإنك ستفعله بلا شك، وإن لم يدر عليك شيئًا، فإنك لن تفعله".

"حسنًا، أعتقد أنني فهمت الآن، تصنيع الأشياء يحملنا التكاليف، وما دامت تلك التكاليف أقل من الأرباح التي نحققها، فإننا نستمر في تصنيع المزيد".

"نعم، هذا كل ما في الأمر تقريبًا، أضف إلى ذلك الكثير من الرسوم البيانية والمعادلات الحسابية في التفاضل والتكامل، وحينها سنحصل على منظور الشركات الحديث ذي الطابع الكلاسيكي".

"وهل هذا واقعي؟".

"أعتقد أن عليك تقبل فكرة أن هذه النظرية عبارة عن تبسيط غريب الأطوار، ولكن يجب التأكيد على أن هذا التبسيط ليس عائقًا، بل هو الغرض من النظرية؛ جوهر الاقتصاد يتعلق بدراسة جزء مهم من السلوك البشري، والسلوك البشري يتسم بتعقيده الشديد، لذلك يجب علينا تبسيطه إذا أردنا أن نحظى بأي أمل في فهم ما يجري، إن لم تتمكن الشركة من تحقيق الأرباح فإنها ستفلس وتنهار، وبغض الطرف عن الأخلاقيات والعهود التي تتمسك بها، وهذا ينطبق أيضًا على ناشري الكتب ومصنعي السلع المختلفة، وكل رجل أعمال لا يفارق خياله التفكير في التكاليف والأرباح، إن فعل ونسي سيدهسه القطار".



"هذا أشبه بكلب يتغذى على لحم كلب آخر".

"لقد قلت فيما سبق إن خبراء الاقتصاد يصبون كامل تركيزهم على الأسواق، وثمة عامل هو من أحد العوامل شديدة الأهمية بالنسبة للشركات: في أي بيئة من الأسواق تتواجد الشركة - أي: كم عدد الشركات الأخرى التي قطعًا ستتنافس معها؟ والأكثر أهمية، ما مدى الحرية التي ستحظى بها الشركة في تسعير منتجاتها؟ يشير الاقتصاديون إلى كل تلك العوامل بأنها البنية الهيكلية للسوق، في البداية، لقد تكلمت عن الاحتكار الفردي، واحتكار القلة، وسوق المنافسة المثالية".

"أظن أنه يجب أن تراجعني تلك المفاهيم عليّ مرة أخرى".

لنبدأ بسوق المنافسة المثالية، وهذا يشير إلى نوع من الأسواق ناقشناه فيما مضى، وفيه توجد العديد من الشركات التي تبيع سلع متطابقة الجودة، وكل من تلك الشركات تحظى بنفوذ قليل جدًا لا يؤثر على أسعار السوق، وإذا حاولت إحدى الشركات رفع سعرها عن السعر المتداول بالسوق، سيعزف عنها المستهلكون ويتجهون إلى شركات أخرى، هنالك أيضًا حرية تامة لدخول الشركات السوق أو الخروج منها، وهذا يجعل كبح الشركات الجديدة عن المنافسة أمرًا مستحيلًا، نتيجة لذلك، وسيهبط سعر السلعة حتى يصل إلى مستوى قريبًا جدًا من تكلفة الإنتاج، وبالتالي ستنخفض الأرباح. تُعد هذه نظرية مثالية أكثر من كونها ذات صلة بواقعنا؛ ومن النادر للغاية أن تكون المنافسة على هذا القدر من المثالية، لكننا مع ذلك، نشهد بعض الأسواق التي تقترب من مستوى المثالية هذا، إذ تميل أسواق الموارد الطبيعية كالقمح والذهب للعمل بهذه الآلية، بالإضافة إلى أسواق المزارعين ذات الطراز القديم التي عرفها آدم سميث، فهي تُقام بمدينة صغيرة، حيث يأتي إليها المزارعون وغيرهم لبيع الجبن والملفوف وأي شيء آخر ينتجون، مثلًا: إن باع المزارع "عارف" الملفوف مقابل شلن واحد، وحاول المزارع "بوب" بيعه مقابل شلنين، فسيجد "بوب" عربته لا تزال مليئة بالملفوف بنهاية اليوم".

"هذا يبدو جيدًا بالنسبة للمستهلك المتواضع".

"وهو كذلك بالفعل، فمن الطبيعي أن يتجه المستهلك للحصول على صفقة رابحة، وعندها ستتنافس الشركات على خفض أسعار منتجاتها إلى أدنى مستوى، ولكن مستوى منخفض بدرجة تمكن الشركة من البقاء داخل المنافسة".

"وماذا عن الآثار السلبية؟".

"مع أن هذا الوضع ملائم للغاية بالنسبة للمستهلكين، فهو صعب على العاملين؛ ستحاول الشركات المنتجة التقليل من أجورهم وجعلهم يعملون تحت ظروف قاسية حتى يزدوا قدرتهم التنافسية".

"لقد تحدثت كثيرًا عن هذه المنافسة المثالية، فماذا عن الآخرين؟ الاحتكار الفردي واحتكار القلة؟".

"لقد ناقشنا بعض التفاصيل من كليهما بالفعل، ولكن تلخيصًا: احتكار الفرد يعني وجود مؤسسة واحدة فقط تتحكم في السوق بأكمله، أما احتكار القلة فهو وجود عدد محدود من الشركات التي تهيمن على سوق أو صناعة ما. في بعض الأحيان، تتنافس تلك الشركات فيما بينها، وفي أحيانٍ أخرى ستتعاون مثلما حدث مع كريستيز وسوزبيز قبل انهيارهما، توجد هيمنة افتراضية من قبل شركتي نايكي وأديداس، على عالم الملابس والمعدات الرياضية، ولا توجد أي شركة أخرى تقترب من مستوى هيمنتها، وكذلك الحال بشأن طائرات الركاب؛ حيث تُصنع جميع الطائرات بواسطة شركتين فقط، إما إيرباص (وهي شركة أوروبية) أو بوينج (وهي شركة أمريكية).

إذا استمررنا في البحث بدقة فس نجد العديد من أمثلة المنافسة المثالية، والاحتكار الفردي، واحتكار القلة، لكن، تعتبر المنافسة الاحتكارية هي أكثر هيكل معتاد ومعروف للسوق، في إطار المنافسة الاحتكارية، تقوم الشركات بالتنوع في منتجاتها بطريقة ما، عوضًا عن أن تباع المنتجات نفسها بالأنماط نفسها المتعارف عليها؛ هذا يمنحها درجة من النفوذ في السوق، حيث يصبح بإمكانها رفع أسعار منتجاتها قليلًا من دون أن تخسر عملاءها، لنأخذ

المطاعم المستقلة كمثال: كل من هذه المطاعم في المناطق المحلية تقدم شيئًا فريدًا ومختلفًا عن بقيتها، وبطبيعة الحال، لكل شخص تفضيلاته ومذاقه المستقل، فالسعر ليس بأهم عامل في وضع كهذا؛ ربما ترغب بشدة في تناول الطعام الهندي، أو البيتزا، أو السوشي، وهذه الرغبة تمثل جزءًا غاية في الأهمية من قرارك، لكن من المرجح أيضًا أن تتحقق من قائمة الأسعار المعروضة، وإذا وجدت مطعم البيتزا المفضل لديك بدأ في رفع الأسعار بشكل ملموس وفجائي على أصناف مثل المارجريتا، أو بيتزا الفصول الأربعة، فإنك ستتجه للبحث عن بديل لهذا المطعم.

تعتبر المنافسة الاحتكارية هي الموطن الأساسي لبناء الهوية التجارية، حيث تنفق الشركات الكثير من الأموال على الدعاية والإعلانات وتصميم الشعارات، أو اختيار بعض المشاهير بغرض الترويج لمنتجاتها عن طريق جعلهم يرتدون تصميماتها ورش عطورها، كل هذا يهدف إلى محاولة خلق بيئة احتكارية فريدة للشركات؛ أن تقنعك بأن منتجاتها مميزة وتختلف عن غيرها، فمثلاً: عطر شانيل هو ليس عطرًا عاديًا، فهو عطر استخدمته مارلين مونرو. وأديداس لا تصنع أحذية كرة قدم فحسب، بل إنها تصنع أحذية يستخدمها ليونيل ميسي، أعظم لاعب كرة قدم في العالم.

"يا لها من مفاجأة، لم أتوقع شيئًا كهذا!"

"بصراحة، هو ماهر جدًا".

"استعيدي تركيزك! أرى أننا عدنا إلى قضية الاحتكار ثانية، أهى بمثابة الجائزة الكبرى التي ترغب كل شركة في الحصول عليها بشدة؟ أيريدون جميعهم أن يصبحوا ملوك الغابة؟".

"نعم، بشرط أن تستطيع إثبات نجاحك. من المعتاد أن تستغل الشركات المحتكرة نفوذها في السوق لتحديد كميات إنتاجيتها، وبعدها ستقوم ببيعها بسعر أعلى مما كانت ستباع به في سوق ذات مجال مفتوح أكثر للمنافسة.

أوشكت مجموعة شركات دي بيرز أن تصبح محتكرة لسوق الألماس خلال معظم القرن العشرين، قبل أواخر القرن التاسع عشر، اتسم الألماس بكونه موردًا نادرًا، وتسببت هذه الندرة - إلى جانب مميزات المنتج الجوهريّة الأخرى كجمال مظهره وصلابته - في أن يصبح موردًا نفيّسًا. اكتشفت مناجم ألماس كبيرة في جنوب أفريقيا خلال عام 1870، وأدرك المستثمرون وجوب تكاتفهم مع بعضهم البعض حتى يتمكنوا من السيطرة على الإنتاج وحماية وهم ندرة الألماس، ومن هنا، أنشئت شركة دي بيرز وفرضت هيمنتها على أسعار السوق حتى نهاية القرن العشرين، ورسّخت فكرة من خلال حملة إعلانية شهيرة فيما مضى، تحت عنوان: الماس يخلّد إلى الأبد، وشرعت الشركة في زرع أفكارٍ تقول إن الألماس هدية تنم على الحب، وكلما كبر حجم الألماسة المقدمة، ازداد صدق التعبير عن الحب، عندما اكتشفت مناجم ألماس أخرى في سيبيريا في عقد الخمسينيات، أسرع دي بيرز وضمّتها إلى مخزون مجموعتها، ولكن قطع الألماس هذه كانت صغيرة الحجم مقارنةً بتلك التي جاءت من جنوب أفريقيا، ولكي يتمكنوا من إيجاد سوق لتلك الجواهر الصغيرة، ابتدعوا فكرة "الخاتم الأبدي"، وأظهرت دراسات دي بيرز أن النساء لديهن مشاعر متضاربة، فمن ناحية، أدركن مدى فظاعة هذا النوع من الاستهلاك المبالغ فيه على نحو جلي، ولكن في أعماق نفوسهن، انجذبن إلى فكرة كون الألماس علامة واضحة على الثراء والنجاح، وما يسمى بـ "الهدية المفاجئة"، وما هي إلا طريقة لتدعي بها المرأة أنها لم تشارك أو تؤثر على اتخاذ قرار الشراء، إنها طريقة تمكنها من الاحتفاظ بالألماسة والحفاظ على صورتها البريئة، القطعة الأخيرة، ولإكمال تلك الأحجية والتي تمثلت في إيجاد طريقة يمنعون بها المشتريين من إعادة بيع قطع الألماس، وكانت الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك هي إخضاع المشتريين لشروط تلزمهم بالاحتفاظ بقطع الألماس التي اشتروها؛ إن لم تفعل الشركة هذا، سيتحطم وهم ندرة الألماس من جديد.<sup>4</sup>

"يا له من أسلوب ماكر".

"الغرض الأساسي من وراء هذا هو الحفاظ على احتكارهم، لكن بعد ذلك، تلاشت السيطرة المطلقة للشركة بعدما خسرت أعوانها المنتجين في كندا وأستراليا، وتفاقت المخاوف

بشأن مصدر جواهر دي بيرز، حيث اتضح فيما بعد أنها مسلوقة من بعض الدول في أفريقيا التي مزقتها الحروب، وانتشر بعد ذلك مصطلح "الألماسات الدموية"، ولكن بالرغم من ذلك، حظيت الشركة بهيمنة اقتصادية استثنائية استمرت لفترة طويلة. يشير البعض في الوقت الحالي إلى أن شركات التكنولوجيا العملاقة مثل مايكروسوفت وجوجل وأمازون، اتخذت خطوات دي بيرز نفسها؛ واقتربت بشكل خطير من كونها محتكرة للمجال التقني".

"فهمت الآن أن امتلاك نشاط احتكاري شيء رائع، ولكن كيف بالضبط نستطيع تحقيقه؟ وإذا استطعنا، كيف نحافظ على بقائه؟".

"بصورة عامة، لتتمكن من الحفاظ على احتكارك، ستحتاج إلى بناء عائق يمنع دخول منافسين جدد إلى السوق، وقد يتحقق هذا من خلال الحصول على براءة اختراع، أو التعاون مع شركات أخرى - مثلما فعلت مجموعة دي بيرز عندما أنشأت إمبراطورية الألماس الخاصة بها، أو من الممكن أن تقوم الحكومة عن عمد بتحقيق احتكار، ولعل أكثر وسيلة شائعة هي تحقيق احتكار طبيعي بزيادة حجم شركتك".

"وما هو الاحتكار الطبيعي؟".

"يتحقق الاحتكار الطبيعي ببساطة عندما نرى أنه من الأفضل والأكثر أن تقوم شركة واحدة بإمداد السوق بأكملها، ومن الأمثلة الواضحة لذلك شركات المياه. تتسم التكاليف الثابتة لإنشاء البنية التحتية اللازمة لإمداد المياه بضخامتها، ولكن بمجرد الانتهاء من تلك الخطوة، تكون التكاليف الحدية - وهي تكاليف إمداد وحدة إنتاجية إضافية من المياه - منخفضة، من الصعب جدًا - ويمكن القول إنه من الإسراف - أن تبني شركة أخرى نسخة مطابقة من البنية التحتية للشركة السابقة، لأن المغزى كله وراء إقامة شركة كهذه هو تواجد شركة واحدة كبيرة الحجم".

"آسف، ولكن عليك أن تشرحي لي ما تعنيه بكل هذا؟".

"تتميز الشركات الكبيرة بالفاعلية العالية كونها قادرة على تصنيع الأشياء بتكلفة أقل، وهذا يحدث بسبب كبر حجم التكاليف الثابتة التي يلزم دفعها مهما كانت معدلات الإنتاج، كما هي الحال مع أنابيب إمداد المياه، وهناك أمثلة أخرى كالإنفاق على البحث العلمي والتطوير، وتكاليف التسويق، لننظر إلى شركات صناعة الطائرات: إن تصميم وصناعة أول طائرة من طراز جامبو جيت مكلف للغاية، ولكن بمجرد الانتهاء من تجهيز خط الإنتاج وتشغيله، ستنخفض تكاليف صناعة الطائرات اللاحقة فيما بعد، الفكرة المحورية هنا هي أن أي قطاع صناعي يتجه إلى حالة من الاحتكار الفردي أو احتكار القلة عندما تزداد عائدات الشركة بالنسبة لحجمها، وحينها لن يتواجد شيء مثل سوق المنافسة المثالية".

"لا أفهم، ما المانع؟".

"لأن ازدياد العائدات بالنسبة للحجم يعني تمتع الشركات الكبيرة بميزة، وهي القدرة على تصنيع الأشياء بتكلفة أقل، لا تتمتع بها أقرانها الصغيرة، والمغزى العام من هذا أنه في بعض الأحيان، تعتمد الأسواق اعتمادًا كبيرًا على التكنولوجيا في قطاعات صناعية معينة؛ فمثلاً: الاهتمام بعناية وتجميل الكلاب قطاع يتسم باعتماده الضئيل على التكنولوجيا وانخفاض التكاليف الثابتة، لذا، لا تتواجد أي زيادة في ازدياد العائدات بالنسبة للحجم، ونتيجة لهذا، من المرجح أن ترى العديد من الشركات الصغيرة المتنافسة في السوق، أما في القطاعات الصناعية التي تتسم بضخامة تكاليفها الثابتة، من النادر أن تتواجد العديد من الشركات الكبيرة في آن واحد".

"حسنًا، فهمت".

"من الوارد أيضًا أن تتمتع الشركات الكبيرة بأفضلية الطلب المتزايد نتيجة لتوسعها؛ قد يميل الأشخاص إلى شراء السلع من شركة كبيرة، وهذا يرجع إلى سببين: سمعة الشركة الحسنة، ومدى إقبال المستهلكين على سلعها، وهذا نراه بوضوح مع عمالقة مجال التكنولوجيا، فمثلاً: أنا أستخدم منصات تواصل مثل فيسبوك وتويتر، بسبب تواجد العديد من الأشخاص الذين أرغب في التواصل معهم على هذه المنصات نفسها، والحال نفسها مع

شركة جوجل؛ فكلما زاد عدد مستخدمي محرك البحث، زادت كفاءته، وهذه الفاعلية المتزايدة تدفع الكثير من الآخرين لاستخدام الخدمة نفسها، بمعنى آخر: ترتفع قيمة السلعة كلما ازداد عدد الأشخاص المستخدمين لها، وهذا ما يعرف بتأثير الشبكة.

ينتج عن امتلاك هاتين الميزتين (الطلب المتزايد وانخفاض التكاليف الثابتة) وجود كيان اقتصادي تمكن من الهيمنة على السوق بنجاح، كما أن هذا ينم أيضًا عن مدى استعداد الشركات لتكبد الخسائر المالية لفترات طويلة في مقابل أن تحظى بفرصة لتحقيق احتكار في المستقبل، وهذه إستراتيجية تتبعها شركتا أمازون وأوبر؛ واستغلت أمازون بنجاح ازدياد العائدات بالنسبة للحجم إلى جانب اللوجيستيات وميزة شحن السلع في الدفع بمنافسيها الصغار إلى خارج السوق، وشركة أوبر أيضًا، ففي كل رحلة تُستخدم فيها خدمة أوبر، تتكبد الشركة خسائر، لكن هذه إستراتيجية مقصودة لإجبار المنافسين على الخروج من السوق حتى يُفسح المجال لتحقيق الاحتكار بالنهاية أو الاقتراب من تحقيقه على الأقل.

"إذن، هل تعتبر الاحتكارات شيئًا دائمًا؟".

"في أحيان كثيرة؛ تخيل كيف سيمسي مدى سوء معاملتك لعملائك لمجرد أنهم مضطرون للتعامل معك، ولا تتوافر لديهم بدائل أخرى؟ المشكلة الأساسية هنا أنه في ظل سوق تتمتع بمنافسة مثالية، سيقترب سعر السلعة كثيرًا إلى سعر تكلفة إنتاجها، بينما سيرتفع السعر في الأسواق الأخرى التي تفتقر إلى هذه البيئة التنافسية، وعلاوة على ذلك، ترتفع الأسعار إلى أعلى معدلاتها في ظل وجود بيئة احتكارية، لنأخذ أجهزة آيفون على سبيل المثال: ربما لا تصنف شركة أبل بأنها شركة احتكارية؛ فهناك العديد من الهواتف الذكية التي توفرها شركات أخرى، ولكن مع ذلك تفتقر هذه الشركات للكم الهائل من النفوذ في السوق الذي تتميز به شركة أبل. عندما كان روزي وجابريل يذهبان إلى المدرسة، اعتبرا أن امتلاك أي هاتف ذكي آخر غير آيفون بمثابة عزلة اجتماعية، تنعكس تلك القوة السوقية التي تتمتع بها شركة أبل في مقدرتها على رفع أسعار منتجاتها، فمثلاً: يساوي سعر آيفون

11 برو ماكس، الذي تم إصداره في 2019، ألف جنيه إسترليني في المملكة المتحدة، بينما في الحقيقة؛ لم تتجاوز تكلفة إنتاجه 385 جنيهًا إسترلينيًا، تحت ظل سوق تنافس مثالية، سيكون سعر البيع بالتجزئة أقرب بكثير إلى سعر تكلفة الإنتاج.5

غالبًا ما تحظى الاحتكارات الحكومية بسمعة أسوأ من هذه، أنشأ والداي مشروعًا صغيرًا في أواخر عقد السبعينيات، واحتاجا إلى خط هاتف ليتمكنوا من تسيير المشروع، حظيت الشركة البريطانية للاتصالات باحتكار حكومي في هذا الوقت بالمملكة المتحدة، لذلك لم يوجد لديها حافز لوضع خدمة العملاء من ضمن أولوياتها، وأخبرت والديّ بأنهما سيضطران إلى الانتظار لمدة سنة حتى يتسنى لهما الحصول على خط هاتف أرضي، ولهذا السبب، يرى البعض أنه لا ينبغي للحكومة أن تكون هي المصدر الوحيد للموفر لسلعة أو خدمة ما، ما دام لا يوجد أي سبب قهري يمنع القطاع الخاص من تأدية هذا الدور".

"يخالجني إحساس نوعًا ما بأنك ستقولين كلمة "ولكن" في أي لحظة".

"أنت تفهمني تمامًا يا مونتي! تُعرف الاحتكارات بسمعتها السيئة بسبب رفعها المبالغ للأسعار علاوة على ما تقدمه من خدمة غير مُرضية، لكن توجد بعض الحالات التي تتفوق فيها مميزات الاحتكار على عيوبه، هناك تبرير تقليدي بأن الاحتكار يساعد على الإبداع؛ لذا يمكننا أن نرى بوضوح تخوف الناس من إنفاق أموال كثيرة على شراء ابتكار جديد يظنون أن بإمكان أي شخص آخر تقليده، ومن أجل هذا أتى مفهوم براءة الاختراع، حيث إنه يمنح المستثمرين فترة من الوقت يستطيعون من خلالها بيع ما ابتكروه بشكل حصري. في حقيقة الأمر، أطلق على براءات الاختراع فيما مضى "براءات الاختراع الاحتكارية".

كما تعتبر ضالة الإمكانية على المنافسة في السوق واحدة من المشاكل الرئيسية التي تتعلق بالاحتكار، ولعل الاحتكار فكرة غير مثالية، ولكن ما دام هناك احتمالية للمنافسة، فهذا تهديد كافٍ للشركات الاحتكارية حتى تكون على أهبة الاستعداد لتقديم خدمات عالية الجودة لعملائها، وحينها، ربما يُفسح المجال أمام أحدهم ليصمم هاتفًا ذكيًا يتفوق على آيفون في جميع النواحي، وأخيرًا، تعتبر الاحتكارات الطبيعية فعالة بصورة أكبر،



حيث تتكفل شركة واحدة كبيرة بتوفير سلعة ما بتكلفة أقل بكثير مقارنةً بالشركات الصغيرة، لذلك يفضل وجود مزود واحد فقط للسلعة. من غير المنطقي أن تمتلك أكثر من شبكة واحدة من الأنابيب التي تمدك بالغاز الطبيعي، وأيضًا، يعتبر تولي العديد من الشركات المختلفة مهمات جمع القمامة من شارع واحد ضربًا من الإسراف المبالغ فيه - وأمرًا مزعجًا كذلك - لذا، تسمح الحكومة لشركة واحدة فقط بإدارة تلك العمليات في مثل هذه الحالات".

"حسنًا، إذن نستنتج أن الاحتكار شيء سيئ بصورة عامة، ماذا يمكننا أن نفعل حيال هذا؟".

"سيتحتم على الحكومة بنهاية المطاف أن تعي جيدًا متى يجب أن تدعم احتكارًا ما، ومتى يجب أن تكبح جماحه، عندما نرى سببًا وجيهًا يحث على وجود شركة واحدة فقط لإنتاج شيء ما - كما هي الحال مع الاحتكار الطبيعي - نجد أنفسنا أمام خيارين أساسيين: الأول هو الملكية العامة، تقوم الفكرة على أنه في حالة وجود شركة تتميز باحتكار طبيعي، فمن الأفضل أن تُترك لإدارة الشعب حتى لا يتعرض الأفراد للاستغلال، على سبيل المثال: من خلال فرض أسعار مرتفعة للغاية".

"هذا يبدو منطقيًا".

"صحيح. في فترة ما، أجمعت الآراء السياسية على أن الشركات التي تُدار من قبل الحكومة تتسم بكونها غير فعالة ولا تدر علينا أي فائدة، لذلك ظهر اتجاه رائج يشجع القطاع الخاص على تولي إدارة الشركات ذات الاحتكارات الطبيعية وتنظيمها، مثلًا: عن طريق فرض حد أقصى للزيادة المسموح بها في الأسعار. تتبع المملكة المتحدة هذه السياسة مع شركات الخدمات العامة مثل المياه، والكهرباء، والغاز الطبيعي.

لكن، بدأت تلك الآراء السياسية في التآرجح؛ حيث يعتقد البعض في الوقت الحالي أن الاحتكارات التي يديرها القطاع الخاص يجب أن تعود مجددًا لوكر الملكية العامة، على

سبيل المثال، توجد بعض الحجج المنطقية التي تطالب بعودة قطاع السكك الحديدية - والذي تم خصصته في عام 1993 - في المملكة المتحدة إلى الملكية العامة. ينقسم قطاع السكك الحديدية في الوقت الحالي إلى قسمين: البنية التحتية - والمقصود بها بناء المسارات، والجسور، والمحطات ووضع إشارات المرور - وهي مملوكة لدى شركة غير ربحية تقع تحت الإدارة العامة، القسم الثاني هو خدمات النقل بالقطارات، وهي تدار بواسطة مجموعة من شركات القطاع الخاص التي منحها الحكومة حق الامتياز التجاري والمتخصصة في مجال السكك الحديدية. على النقيض، تقع معظم قطاعات السكك الحديدية الأوروبية الأخرى تحت إدارة حكومية، لذلك لا عجب في أن تُصنف أسعار تذاكر القطار في المملكة المتحدة من بين الأعلى في أوروبا، أضف إلى ذلك أنه من الصعب جدًا فهم نمط تسعير التذاكر وجدول مواعيد القطارات كون المنظومة تُدار بواسطة عدة شركات مختلفة. تقوم تلك الحجج على هذا الأساس: إذا استعادت الدولة نظام السكك الحديدية تحت جناحيها، ستتمكن من التفكير بصورة إستراتيجية أكثر من القطاع الذي في حاجة ماسة للاستثمارات بمنظومة السكك الحديدية، وهذه المنظومة شكل من أشكال الاحتكار الطبيعي، وهناك العديد من المنافع الاقتصادية والاجتماعية التي ستعود على المجتمع بأكمله عند وجود شركة نقل ميسورة التكلفة تعمل بكفاءة عالية، من الوارد أن تتبنى الدولة رؤية طويلة الأمد مقارنةً برؤية الشركات المساهمة، وفي هذه الحالة، إعادة التأميم لن تكون مكلفة بالضرورة؛ يمكن أن تحدث تدريجيًا مع قدوم موعد تجديد كل عقد من عقود الشركات المساهمة.

هناك بعض الحالات التي لا تتطلب بالضرورة وجود هيكل احتكاري بالسوق، وفي بعض من تلك الأحيان تتدخل الحكومات لجعل القطاعات الصناعية أكثر تنافسية؛ حينها يُمسي الإجراء الحاسم هو تفكيك هيكل الاحتكار. أنشأ جون دافيسون روكفلر شركة ستاندارد أويل في عام 1870، وبحلول عام 1890، هيمنت الشركة على 90% من أسهم سوق النفط بالولايات المتحدة. زعمت حكومة الولايات المتحدة بأن الشركة تعمدت خفض أسعارها حتى تتخلص من منافسيها، وبمجرد ما حدث ذلك، عادت الشركة إلى رفع

أسعارها ثانيةً لتستغل عملاءها، في عام 1911 أعلن أن شركة ستاندارد أويل تم إدارتها باحتكار غير قانوني، وبعدها قُسمت تلك الشركة العملاقة إلى 34 شركة صغيرة. لذا تخشى شركات التكنولوجيا العملاقة أن يتكرر معها مثل هذا السيناريو.

هناك طرق أقل حدة وتطرفاً من هذه للتشجيع على التنافس. عادةً ما تراقب الحكومات القطاعات الصناعية المختلفة حتى تتأكد من عدم إساءة استغلال الشركات لقوة السوق، أو تواطؤها مع بعضها البعض، حيث تتفق الشركات لرفع أسعار سلعها، أو تتبع إستراتيجية التسعير المفترس، حيث تخفض الشركات أسعارها عن عمد حتى تُخرج جميع منافسيها من السوق، يوجد نموذج آخر على السلوك السيئ من الشركات وهو التواطؤ في تزوير المناقصات، حيث تتفق مجموعة معينة من الشركات على التناوب في تقديم العطاء الرابع الذي يضمن لهم إبرام الصفقة، واتفقت أربع شركات أدوية في دولة ما بجنوب آسيا على التناوب في توفير الإمدادات الطبية اللازمة لمشاريع ممولة من قبل متبرعين أجانب، وذلك بعدما شجعتهم الحكومة على فعل ذلك، التقت الشركات أربع مرات سنوياً لتحديد أي شركة يقع عليها الدور في الإمداد، ولاحظت شركة أدوية أمريكية ارتفاع الأسعار الناتج عن هذا التواطؤ، فقامت بتقديم عروض ذات أسعار منخفضة بكثير، علم أصحاب الشركات الأربع الأصلية بالأمر وقاموا بدعوة الشركة الأمريكية للانضمام في ناديهم، وحدث بالفعل وانضمت لهم الشركة الأمريكية".6

"إذن هناك صراع مستمر بين السلطات الحاكمة والشركات الكبيرة، من سيفوز بهذا الصراع بالنهاية؟".

"هناك بعض المخاوف بشأن كون السوق متركزة حول الشركات الكبيرة بشكل ملحوظ، ويجب أن تُنظم بشكل أفضل، أشارت إليزابيث وارن إلى أن اقتصاد الولايات المتحدة أمسى متلاعباً به ومفتوحاً فقط أمام مجموعة معينة من الشركات أو الأفراد؛ حيث تجني الشركات المتكاسلة أرباحاً عن طريق الاحتكار وعلى حساب المستهلكين، وهناك بعض التفسيرات المتناقضة حول هذا، فمن ناحية، يقول البعض إن هذا الوضع يرجع إلى محاولة

الشركات التنافسية المتطرفة في التخلص من منافسيها غير المؤهلين، وهذا شيء لا ينبغي القلق بشأنه. وعلى الجانب الآخر، يشير البعض إلى أن هذا ليس بسبب سياسة البقاء للأقوى، بل بسبب ضعف الجهات الرقابية التي تسمح للشركات الكبيرة بالإفلات من العواقب كلما بدر منها سلوك معادٍ للمنافسة".

"وأي من التفسيرين هو الصحيح؟".

"هذا سؤال ليس من السهل الإجابة عنه، ولكن أعتقد أنها الحالة التي تتعلق بضعف الرقابة؛ لا يمكننا أن نتوقع من الأسواق أن تدير نفسها، ينبغي على الهيئات الرقابية أن تعي بحرص ما يجري حولها. أتعلم يا مونتي؟ أنا أدرّس في قسم إدارة الأعمال، وفي محاضرة ما، سيُدرّس لطلاب الاقتصاد أهمية وفاعلية الأسواق التي تتمتع بمنافسة مثالية، وفي محاضرة أخرى بقاعة مختلفة، سيتعلمون التخطيط الإستراتيجي والتسويق، وسيتعلمون الوقت الذي لا يُصلح فيه الدخول في المنافسات، وكما قال الرأسمالي المجازف بيتر ثيل:

**المنافسة للخاسرين فقط".7**

"وفي هذا الصدد أريد أن أقـ..."

"أعلم يا مونتي ما ستقوله، فأنا أشعر بك ترتجف، سنعود الآن إلى المنزل".

## النزهة ٧: الفائزون والخاسرون: الرأسمالية والأسواق وعدم المساواة

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: هو كيف تؤدي منظومة السوق إلى تفاوت جسيم في الثراء والنفوذ بين الأفراد؟ وهل يمكننا فعل أي شيء حيال هذا، أم أن مثالية الأسواق هي الهدف الوحيد الذي يستحق أن نكافح من أجله؟ وهل عدم المساواة جزء لا يتجزأ من النظام الرأسمالي؟

أطلت أشعة شمس الخريف الساطعة من خلال النوافذ في منظر بديع، وهذا الطقس الجميل يدل على أننا سنخرج في نزهة طويلة، والنزهات الطويلة تعني أننا سنناقش موضوعًا دسمًا.

"ما رأيك يا مونتي في أن نتنزه اليوم بالطريق الطويل حول حديقة هامبستيد هيث؟".  
"هذا يناسبني".

مجددًا، من المستحيل ألا تبهرك مظاهر الثراء الموجودة على مرأى العين في الطرقات الأنيقة المؤدية للحديقة، في المناطق الأخرى بلندن، قُسمت العديد من تلك المنازل الكبيرة والقديمة إلى شقق صغيرة، لكن هنا، بقيت معظم تلك المنازل على حالها، استقرت سيارات الدفع الرباعي ذات النوافذ السوداء على جانب الرصيف، وفي بعض الأحيان وقف بالقرب منها رجل أمن قوي البنية يرتدي نظارات شمسية، ويتكئ على هيكل السيارة وهو يدخل، إن السكن في مثل هذه الشوارع صعب المنال حتى بالنسبة للأطباء والمحامين، فهذه المنطقة محصورة على فئة قليلة ذات نفوذ كبير كالأوليغارش (المسؤولين الحكوميين) ومسؤولي صناديق التحوط، لو اصطحبنا الفيلسوف برفقتنا، غالبًا كان سينحني ويلتقط الحجارة ويقضي بعض الوقت في محاكاة كيف سيرميها نحو نوافذ هذه المنازل وهو

يقول: "هؤلاء الناس لا يدفعون أية ضرائب، وإن حدث وحطمت زجاج النوافذ، فعلى الأقل سيتعين عليهم الاستعانة بخدمات شركة محلية لتبديل الزجاج المحطم ودفع ضريبة القيمة المضافة". ولكن الحقيقة، أنه في النهاية سيحتفظ بالحجارة في جيبه، ويلقي بها بين الأشجار فيما بعد، ويحني كتفيه استسلامًا؛ تقدم الفيلسوف في السن قليلًا ولا يقدر على ارتكاب أعمال شغب كتحطيم النوافذ وغيرها.

"حتى من يؤمن منا بفاعلية منظومة الأسواق الحرة يا مونتي يجب عليه الاعتراف بحقيقة أن الرأسمالية تولد عدم مساواة، بمعنى آخر: هناك فائزون وخاسرون".

"أتقصد من الفقراء والأغنياء؟".

"أجل، ولكن أولاً يجب توضيح تلك المصطلحات، إن عدم المساواة شيء مختلف عن الفقر؛ عدم المساواة يعني الفجوة الاجتماعية بين الفقراء والأغنياء، أما الفقر فيتمحور حول وقوع الناس تحت مستوى دخل أدنى من المستوى المطلوب، ويمكن قياسه بمعايير مطلقة أو نسبية، الفقر المطلق هو عندما تحاول أن تحصل على دخل محدد تحتاج إليه لشراء السلع الضرورية للمعيشة، وإذا وقعت دون هذا المستوى، فحينها تعتبر فقيرًا بشكل موضوعي، أما في حالة الفقر النسبي، فيُقاس استنادًا إلى مقدار ما يمتلكه بقية أفراد المجتمع، على سبيل المثال: يُعرّف الفقر النسبي في المملكة المتحدة على أنه مستوى دخل الأسرة الذي يقل عن 60% من متوسط الدخل، ومع تغير فكرة المجتمع عبر الزمن لما يعرف بـ "الحد الأدنى المقبول من الدخل" يحدد الآن مجتمعنا استخدام معايير الفقر النسبي، وهناك حقيقة أخرى، وهي أن مدى رضانا عن حياتنا يعتمد على الطريقة التي نرى بها مكانتنا في المجتمع مقارنةً بالآخرين، والدليل على ذلك أن المجتمعات التي تتمتع بقدر أكبر من المساواة غالبًا ما تكون أكثر سعادة".

"هناك تعريف آخر أريد توضيحه، وهو الفرق بين الثروة والدخل".

"الثروة - أو رأس المال كما يسميه البعض - هو مجموع الأصول التي تصنف ملكية خاصة لأفراد عاديين من المجتمع، وبناءً على هذا، تدرج أي ملكية خاصة بحوزتك تحت مفهوم الثروة، مثل منزل، وأسهمك المالية وأي نوع آخر من الأصول. على الجانب الآخر، الدخل هو العوائد المالية القادمة إليك، كالراتب الذي تتقاضاه من عملك، أو المزايا الاجتماعية التي تمنحها لك الدولة، أو العوائد الاستثمارية. بلا شك، يرتبط الدخل والثروة ببعضهما البعض، في بعض الأحيان بشكل مباشر: كالدخل الذي تحصل عليه من تأجير أحد ممتلكاتك الخاصة، فكر بالأمر وكأنه حوض استحمام، حيث يتمثل الدخل في الماء الخارج من الصنبور، وتتمثل الثروة في مدى ارتفاع مستوى الماء في الحوض، ويمثل مصرف الماء معدل إنفاقك،<sup>1</sup> بشكل عام، غالباً ما تُوزَّع الثروات بصورة غير متكافئة مقارنةً بتوزيع الدخل".

"ولم يحدث هذا؟".

"تستغرق الثروة وقتاً لتكوينها، ودائماً ما تبقى داخل إرث العائلة؛ يعزز كل جيل وينمي الثروة التي تركها سابقه، الآن بعدما انتهينا من الحديث عن تلك المصطلحات، يمكننا الآن أن نناقش كيف يقيس الاقتصاديون عدم المساواة. إحدى الوسائل - التي تعتبر سهلة الفهم مقارنة بالبقية - هي تقسيم السكان إلى مجموعات بحسب دخلهم، ثم التحري عن إجمالي الدخل الذي تحصل عليه كل مجموعة".

"أفهمك.. أظنني أفهمك".

"تخيل أنك قمت بترتيب جميع الأفراد في المجتمع ترتيباً وفقاً إلى الدخل، من الأفقر إلى الأغنى، وبعدها قمت بتقسيمهم إلى عشر مجموعات متساوية في العدد - أو ما يعرف بالعشریات - ستضم العشرية الأولى أفقر 10% من السكان، في حين أن العشرية الأخيرة تضم أغنى 10% من السكان".

"حسناً".

"حينها، ستمكن من معرفة نسبة الدخل التي تحصل عليها كل عشيرة، في ظل عالم تسوده المساواة التامة والعدل، من البديهي أن تحصل كل عشيرة على النسبة نفسها من الدخل، ولكن الأمر يختلف عن هذا في واقعنا".

"وكان ذلك شيء جديد!".

"استخدم الخبير الاقتصادي الفرنسي توما بيكيتي، هذه الوسيلة لمعرفة مدى تغير أنماط توزيع الثروة (وعدم المساواة) خلال القرن الماضي، اهتمت دراسات بيكيتي بالمكاسب المالية التي حققها أولئك الذين في قمة الثراء، في سبعينيات القرن الماضي، حصل أغنى واحد في المائة من سكان الولايات المتحدة والمملكة المتحدة على ما يقرب من ثمانية في المائة من إجمالي الدخل بهذه الدول، وبحلول عام 2010، زادت هذه النسبة إلى ما يقرب من الضعف.

ساعدت أبحاث بيكيتي على توضيح ما يجري، وفي ضوء تلك المعلومات، تحولت قضية "اللامساواة" إلى قضية سياسية. ما أشار إليه بيكيتي واضح للغاية: كانت الفجوة بين الفقراء والأغنياء واسعة للغاية، وهذا منذ العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر حتى حلول عام 1914، وبعد ذلك الحين، حدثت العديد من الاضطرابات الاقتصادية المفجعة التي تأثر بها الأغنياء، كالحرب العالمية الأولى، والكساد العظيم، والحرب العالمية الثانية. في الوقت نفسه، أتت العديد من حكومات دول الغرب بسياسات من شأنها مساعدة الفقراء، ولهذا انخفضت اللامساواة في عقد السبعينيات إلى أدنى المستويات في تاريخها. تم عن عمد تحييد حركة السياسة التي تهدف للمساواة في المملكة المتحدة والولايات المتحدة وغيرهما من دول الغرب، وأدخلت سياسات أخرى شجعت أثرياء المجتمع على الاستمرار في تجميع وتنمية ثرواتهم بشكل هائل، وفي الوقت نفسه، قلصت الرواتب والإعانات الاجتماعية التي يحصل عليها من في الطبقة الفقيرة والمتوسطة، نتيجة لما حدث، عادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء إلى ما يقارب المستويات التي كانت عليها في مطلع القرن العشرين".



"حقًا إنها نتيجة قاسية، لماذا تسود عالمنا اللامساواة؟".

"بسبب تفاوت السلطة بين الأفراد، أشار ميلتون فرايدمان - الذي يعد واحدًا من أكبر أنصار الرأسمالية الحرة - إلى وجود حقيقة عن منظومة الأسواق الحرة تعتبر غاية في الأهمية: لن تحدث أي صفقة تجارية ما لم يستفد منها الطرفان".

"نعم، أتذكره، يمكن تلخيص الفكرة في أنه لن يُجبر أحد على الدخول في أي صفقة إلا إن كان سيحصل على شيء من ورائها؛ مثلاً: أنت تداعبين بطني، وهذا شيء يمنحني الشعور الجميل، ثم أتدحرج أنا في مظهر لطيف وهذا شيء يثير إعجابك".

"سأمنحك الآن مداعبة مجانية لأنك قلت هذا! يساعدنا منظور فرايدمان كثيرًا في توضيح ما يحدث من معاملات تجارية بالسوق، لكن ما يخفيه عنا هو حقيقة تحدث على أرض الواقع، وهي أن الطرف ذا القدرة التفاوضية الأكبر دائماً سيستحوذ على الحصة الأكبر من المكاسب في كل الصفقات التي يخوضها، دعني أوضح لك بالاستعانة بمثال من عصر الثورة الصناعية، في سوق العمل، يقع دائماً النفوذ في يد رب العمل، كونه الشخص الذي يدير المشروع ويعرض الوظائف الشاغرة، والفرد العامل ليس بيده أي حيلة سوى قبول أو رفض الوظيفة المعروضة، وبالنسبة لوضع الطبقة العاملة في القرن التاسع عشر، لم يتواجد لديهم أي بديل للعمل سوى اللجوء لدار رعاية الفقراء، مع أن معدلات الإنتاج في بريطانيا أخذت في الازدياد قرابة منتصف القرن السابع عشر بفضل جهود العمال. لم تستطع الطبقة العاملة أن تكتسب القدرة التفاوضية اللازمة لرفع الأجور إلا بحلول منتصف القرن التاسع عشر، وساعدهم على ذلك مزيج من عدة أشياء: التغييرات في العرض والطلب على العمال، وتشكيل النقابات العمالية بالإضافة إلى حصولهم على بعض الحقوق القانونية الجديدة. يتواجد هذا الشكل من التفاوت في النفوذ في العديد من التعاملات التجارية التي تُجرى في الأسواق".

"إذن هل يمكن إصلاح هذا الوضع؟ هل من الممكن أن نجعل منظومة الأسواق عادلة؟ أم أننا سنظل محاصرين في هذا الوضع الذي تسوده اللامساواة؟".

"الطريقة الوحيدة للتطرق إلى تلك القضية هو تقسيمها إلى سؤالين".

"سؤالان فقط؟ لقد اعتقدت دائماً أن تلك المواضيع تُقسم إلى ثلاثة أسئلة، حيث نطرح السؤال الأول ويليه مباشرة الثاني ثم الثالث، وبهذا ننتهي من الموضوع برمته".

"عسى ذلك سِيكتب في كتاب كيفية تعليم فن الخطابة لكلبك! لنعد الآن إلى حديثنا، في أي جزء توقفت؟".

"تقسيم القضية لسؤالين".

"شكراً لك، السؤال الأول: هل النتائج مثالية بما يكفي؟ والسؤال الثاني: هل النتائج عادلة؟ لنبدأ بالسؤال الأول ونفكر معاً إن كانت النتائج مثالية أم لا، هناك طريقة للتفكير حول هذا الشأن اقترحها فليفريدو باريتو (1848-1923)، أشار باريتو إلى أن توزيع الثروات يعتبر مثاليًا إن لم توجد أي وسيلة أخرى لإعادة تنظيم الأمور من أجل تحسين الأوضاع لدى شخص واحد على الأقل بدون أن تتدهور عند شخص آخر".

"إن رأسي الصغير لا يستطيع استيعاب كل هذا، أعتقد حان الوقت للتوضيح بمثال".

"ما هو أكثر شيء تفضل أكله وأكثر شيء تبغض أكله؟".

"من السهل الإجابة عن هذا؛ أنا أبغض تناول الخضراوات حقاً، لا تطنيني لا ألاحظ عندما تضعين البروكلي خفية في طعامي، وبالنسبة لأكثر شيء أحب تناوله، فهو اللحم المقدد بلا شك، فأنا أحبه للغاية".

حسنًا، هذا جيد، تخيل الآن أن لديك عشر قطع من البروكلي، وأنا لدى عشر شرائح من اللحم المقدد، و..."

"تمهلي قليلاً، أنا أتخيل ما تقولينه... مممممم، لحم مقدد، يا للروعة!".

"هل انتهيت من الشعور بالنهم تجاه اللحم المقدد؟ حسناً، لنفترض أنني شخص نباتي ولا أريد شرائح اللحم تلك، كما أننا اتفقنا أيضاً على حقيقة أنك لا تحب البروكلي، في موقف كهذا، يتسم توزيع الموارد بكونه غير مثالي، يمكننا إصلاح وضع كهذا من خلال التبادل التجاري حتى يصل كلانا إلى نتيجة مُرضية، وبمجرد انتهاء عملية التبادل، تتحقق مثالية باريتو في حياة الطرفين، تتجلى تلك الحالة - وفقاً لباريتو - عندما يعمل السوق على نحو مثالي، إذا حظي الجميع بالحرية الكافية لإجراء التبادلات التجارية هكذا، فإننا سنتخلص من السلبيات التي تنتج عن عدم مثالية المنظومة، مثل أن أظل عالقة مع اللحم المقدد الذي لن أستفيد منه، وأنت تظل عالقاً مع البروكلي".

"هذا يبدو جيداً، ولكن ما السقطة التي تقبع وراء هذا؟".

"السقطة يا مونتي هي أن مثالية باريتو لم تهتم بتأثراً بسد فجوة العدل، أعتقد أن معيار باريتو مفيد في إرشاد المجتمع بكيفية تفادي الحالات التي لا تتحقق فيها مثالية باريتو، وأعتقد أن الجميع سيتفق على هذه النقطة، عندما يصبح بإمكاننا القيام بشيء من أجل تحسين أوضاع شخص واحد على الأقل دون أن يتضرر شخص آخر، فينبغي علينا إتمام هذا الشيء، المشكلة أن هذا المعيار غير فعال بما يكفي لتقييم النتائج المختلفة.

لنلعب لعبة تخيلية، لعلها تساعدنا في فهم كيف يؤدي التفاوت في السلطة بين الأفراد إلى عدم المساواة بينهم".

"هل تتضمن تلك اللعبة مطاردة عصا تخيلية؟".

"لا".

"هذا جيد، فحتى اللعب بالعصي الحقيقية يضجرني".

"تسمى هذه اللعبة "المُهلة النهائية" وفيها يتم اختيار أحدها بشكل عشوائي يلعب دور المُقترح والآخر يلعب دور المستجيب، مُنح المقترح - وهو أنا - مبلغاً قدره مائة جنيه

إسترليني، وسوف أقترح عليك طريقة لتقسيم المبلغ. تكمن الخدعة هنا في أنك مضطر للقبول بهذا الاقتراح؛ إن لم توافق على طريقتي في تقسيم المبلغ، فلن يحصل كلانا على أي شيء. إما أن تقبل أو ترفض، لا يوجد خيار سوى هذين، على سبيل المثال: إذا اقترحت عليك أن تأخذ خمسين جنيهاً من المبلغ، فهل ستوافق؟".

"أجل، ولكن هل يمكننا أن نضرب مثلاً بالبسكويت عوضاً عن المال؟ فهذا سيساعدني على التركيز أكثر".

"حسنًا، لا بأس، تخيل الآن أنني عرضت عليك عشرين قطعة من البسكويت وليس مائة، هل ستظل تقبل بهذا العرض؟".

"هذا ليس عدلاً، لكن عشرين قطعة أفضل من لا شيء، إن لم أوافق على العرض لن يحصل كلانا على أي بسكويت على الإطلاق، صحيح؟".

"صحيح".

"إذن عشرون قطعة لا بأس بها، حتى إذا بدوت متذمراً".

"هذا جيد، إذن سيتبقى ثمانون قطعة من نصيبي، لكن لنفترض أنني عرضت عليك خمس قطع فقط، ماذا ستفعل؟".

"وأنت بمفردك تحصلين على خمس وتسعين قطعة؟ هذا مثير للسخط!".

"لعلك محق، ولكن أستقبل بالعرض في النهاية؟".

"من الصعب الإجابة عن هذا السؤال وأنا لا أرى قطع البسكويت الحقيقية أمام عيني، لكن في لحظة ما سأغضب بشدة وأقوم بسبك حتى أعاقبك على كونك لئيمة".

"لكن، إن كنت تتمتع بتفكير عقلائي من الناحية الاقتصادية، وقلت لك إنك ستحصل على قطعة بسكويت واحدة وأنا سأحصل على التسع والتسعين المتبقية، فحري بك قبول العرض لأن خيارك الثاني والأخير هو ألا تحصل على شيء مطلقاً، لتتكلّم بجدية أكبر: إن كان الجوع سيفتك بك، وقطع البسكويت تلك هي فرصتك الوحيدة لتناول وجبة العشاء، فبأي منطق سترفض ما أعرضه عليك؟ في هذه اللعبة، أي وسيلة لتقسيم أي مورد - حتى لو سيحصل طرف على قطعة بسكويت واحدة ويحصل الآخر على تسع وتسعين متبقية - ستتحقق بها مثالية باريتو ما دام الطرفان متفقين عليها؛ ستتحسن الأوضاع لدى شخص دون أن تسوء عند الآخر، لكن بخصوص من سيجني الحصة الأكبر من القسمة، تلك قضية مختلفة تماماً ولم ينطق باريتو عنها بأي شيء، ربما هناك أيضاً سؤال مُلح نرغب في طرحه: هل هذا عادل؟".

"إذا حصلتِ أنت على تسع وتسعين قطعة وأنا قطعة واحدة، فسيكون الجواب لا".

"نعم، لأن هذا ما يبدو عليه الأمر وفقاً للطبيعة البشرية؛ أي شخص طبيعي سيرى أن هذا ليس عادلاً، لتتعمق الآن في الجوانب المعقدة من تلك القضية، ماذا ستفعل إن أخبرتك بأن الشخص الذي عرض عليك قطعة بسكويت واحدة لديه أربعة من الأبناء جوع، وجميعهم يعيشون في فقر مدقع، وأنت على الجانب الآخر تعيش حياة رغدة؛ كلب مدلل لا تحتاج لهذا البسكويت في المقام الأول؟".

"هممم، لقد فهمت مقصدك وراء هذا".

"وماذا إن عرض عليك هذا الشخص نصف كمية البسكويت، هل تلك القسمة تتسم بالعدل في جميع الأحوال؟".

"أعتقد أن هناك حيلة ما وراء طرح هذا السؤال".

"ربما، إذا عرض عليك الشخص نصف الكمية التي بحوزته لمجرد أن هناك شيئًا يجبره على فعل هذا، فلعلك تعتقد أن هذا ليس منصفًا. الفكرة التي أحاول إيضاها في هذا السياق هي أن العدل مفهوم معقد وليس مجرد فكرة وحدوية، بل هو كتلة من الأفكار التي تتشابك مع بعضها البعض، وينبغي عليك إيضاح ما تقصده وراء استخدامك لهذا المفهوم؛ هل تسأل عما إن كانت الوسيلة عادلة، عما إذا كانت النتائج عادلة؟ وما هو المعيار الذي تستخدمه لقياس مدى عدالة النتائج: أهو المال (أو البسكويت)؟ أهو مدى ما يختلجك من سعادة، أم حتى القدر الذي تحظى به من الحرية؟".

"حسنًا، اتضح لي كم هو مفهوم معقد، حقيقةً، وبدأت هذه مثل النزعات التي خرجت فيها مع الفيلسوف، لكن أعتقد أنه بإمكانك الإجابة عن بعض من تلك الأسئلة".

"سأحاول، لنبدأ باثنين من أشهر الاتجاهات المتعارضة حول العدالة التوزيعية، أي الأفكار التي ترشدنا إلى كيفية تقسيم الكعك والبسكويت، وهي مأخوذة عن جون رولز (1921-2002) وروبرت نوزيك (1938-2002).

عرض نوزيك رؤيته بإيضاح رائع في كتابه الكلاسيكي الثوري بعنوان *Anarchy, State and Utopia* الصادر في عام 1974: "ممتلكاتي لا تنتمي إلى أحد سواي، ولا يحق للدولة أن تتطفل وتضع أيديها على ما أملكه - إلا تحت ظروف نادرة للغاية - سواء بطريقة مباشرة أو عن طريق فرض الضرائب، لا يهم ما إن كانت الدولة تفعل هذا سعيًا وراء أغراضها الخبيثة، أو بنية حسنة، وتفعل هذا لصالحي. عندما يتعلق الأمر بممتلكاتي، يجب على الدولة أن تبتعد عن طريقي، إن حقي في الاحتفاظ بممتلكاتي الشخصية التي حصلت عليها بشكل قانوني يفوق في أهميته أي فكرة لديكم حول العدالة" أما من منظور نوزيك، إذا شارك أي طرفين بشكل طوعي في صفقة تجارية، فلا يحق لطرف ثالث التدخل بالإكراه، حتى إن نتج عن هذه الصفقة طرف يتمتع بثراء مبالغ فيه، وآخر مفلس تمامًا".

"هذا كلام قاسٍ".

"صحيح، ولكنه يعتبر تحديًا فكريًا مفيدًا لمن لديهم عقليات ذات توجهات جماعية".

"أتقصد ان الفيلسوف بكلامك هذا؟".

"نعم، كما أني أقصد الأفراد ذوي التيارات الوسطية مثلي، يدفعك نوزيك - الذي يتميز بكونه كاتبًا ذا أسلوب رفيع ومشوق - إلى التفكير حول شيء ما دائمًا اعتقدناه أمرًا مسلمًا به: أحقية الدولة في مصادرة أموالنا لاستخدامها في أغراض ربما لن نوافق عليها، وهنا، يطرح نوزيك تساؤلًا صريحًا: لماذا من المقبول أن تفعل الدولة هذا؟.

يجيب رولز عن هذا التساؤل. بينما يعتبر نوزيك من الأنصار المتشددين للحرية، يمنح رولز الأولوية القصوى لتحقيق المساواة، تركز أهم حُجة طرحها رولز على ما يُعرف بـ "مبدأ الفارق" وهو ينص على وجوب توزيع القيم الاجتماعية بالتساوي على الجميع، ما لم يكن التوزيع غير المتساوي يصب في مصلحة الجميع أيضًا".

"ماذا؟".

"أقر رولز باحتمالية حاجتنا إلى معدل ما من الفروق الاقتصادية بين الأفراد؛ إن حصل الجميع على مبالغ متساوية من المال بغض النظر عن مقدار ما يبذلونه من جهد فيما يعملونه، فسيتضرر المجتمع بأكمله وسيعاني خسائر فادحة، لكنه أشار إلى أن تلك التفاوتات الاقتصادية سيُسمح بها فقط من خلال إطار يستطيع الأفراد ذوو الأوضاع المعيشية الأسوأ في المجتمع الاستفادة منه في تحسين ظروفهم، كما أنه يخبرنا ألا نغير اهتمامًا لأمر الأغنياء، حيث ستظل أوضاعهم بخير في أي حال، ووعودًا عن ذلك، ينبغي لنا أن نصب اهتمامًا أكبر على مساعدة الفقراء، برر رولز تلك الحُجة مستعينًا بتجربة فكرية تتضمن في فحواها ما يُطلق عليه ستارة الجهل".

"تبدو مثيرة للاهتمام".

"نعم، إنها تجربة ممتازة، تخيل أن رأسك قد اصطدم بشيء، ثم وجدت نفسك مستيقظًا في مستشفى وليس لديك أدنى فكرة عن كينونتك؛ قد حُرمت من كل شيء عرفته عن نفسك فيما مضى، سواء كنت غنيًا أم فقيرًا، مريضًا أم معافى، ذكيًا أم غبيًا، متقاعسًا أم مجتهدًا، هذا هو المقصود بستارة الجهل، يقول رولز إنه في موقف كهذا، أي شخص يتمتع بحس عقلائي سوف يضع قوانين مجتمعية جديدة من شأنها تحقيق أقصى استفادة لأكثر الأشخاص الذين يعانون سوء الأوضاع".

"لماذا؟".

"ببساطة، لأنك في موقف كهذا ستحتاج إلى ما يضمن أنك لم تعيش حياة مريرة بشكل لا يُحتمل فيما مضى؛ إذا تبين فيما بعد أنك تتمتع بالثراء والموهبة، فهنيئًا لك على هذا، ولكن إن تبين أنك فقير، فستحتاج من المجتمع إلى أن يمد يد العون لك، ولكونك لا تعلم بتأثًا أيًا من تلك الأوضاع التي كنت عليها فيما مضى، فمن الطبيعي أن تتجه لهذا الخيار الذي يؤمن لك حياتك المستقبلية".

"لعل هذا صحيح، لكن مع ذلك، هذا الشيء الذي يدعى ستارة الجهل يتسم بكونه غريب الأطوار؛ ولم يسبق أنني استيقظت وليس لدي أدنى فكرة عن كينونتي، وعلى حد علمي، لم يمر أحد على الإطلاق بهذه التجربة أيضًا".

"أعتقد أن المغزى من وراء هذه الفرضية هو إيجاد وسيلة موضوعية لتقييم مفهوم العدل؛ سيتوصل أي شخص إلى الاستنتاج نفسه إذا تخيل نفسه في وضع كهذا، واستنتاجه هذا نابع بشكل كامل من حسه العقلائي الذي يسعى لتأمين مصالحه الفردية".

"حسنًا، إذن يصرح نوزيك بأنه يحق لي الاحتفاظ بجميع قطع البسكويت خاصتي ما دمت حصلت عليها بطريقة قانونية، ولا يحق لك أخذها مني، حتى لو لم تمتلكي أي قطعة على الإطلاق، وإذا حاولت فعل هذا، فسيعتبر بمثابة ارتكاب جريمة سرقة في حقي، على الجانب الآخر، يشير رولز بأنه ينبغي على الدولة أخذ بعض من قطع البسكويت لدي



وإعطاؤها لك، مبررًا هذا بحجة أن كلينا لم يعلم مسبقًا بمقدار ما سيحصل عليه من بسكويت، وأننا على الأغلب سنفضل حينها تواجد منظومة عادلة تأخذ البسكويت من الشخص - أو الكلب - الذي يمتلك القدر الأكبر، وتعطيه للكلب الآخر - أو الشخص - الذي لا يملك أي قدر منها على الإطلاق".

"نعم، هذا ما هو عليه الأمر".

"لكن، لعلني أغفلت شيئًا من حديثك، فأنا أرى أن ثمة أمرًا لم يحسم بعد: كم عدد قطع البسكويت التي سنأخذها من طرف لإعطائها للآخر؟ هل هو المقدار الكافي فقط لئلا يتضور جوعًا، أم أنه مقدار أكبر من هذا يهدف لتساوي ما يملك الطرفان؟".

"وجهة نظر ثاقبة، هناك منظور له اسم صعب قليلًا يدعى مبدأ الاكتفائية sufficientarianism، يقول هذا المبدأ إن علينا ألا نقلق بفكرة اللامساواة إلى هذا الحد، وعوضًا عن ذلك، نصب كامل تركيزنا على التأكد من أن الجميع لديه ما يكفي للعيش، ما الفارق الموجود في أن تمتلك طوقًا من ماركة T.K. Maxx في حين أن تلك الكلبة المدللة بينيلوبي تمتلك طوقًا من ماركة تيفاني؟ ما يهم هو أن جميع أفراد المجتمع لديهم ما يكفي لعيش حياة كريمة، لذا، من الواجب على المجتمع أن يعيد توزيع الثروات حتى نضمن تلبية الاحتياجات الأساسية لدى الجميع، وبعدها نحقق ذلك، نغلق ملف تلك القضية ولا نقلق بشأنه مجددًا".

"هذا كم كبير من المعلومات للاستيعاب، فمن جهة، لدينا عنصر المثالية، وهو يتحقق بفضل منظومة الأسواق الحرة التي تنجح في الجمع بين البائعين والمشتريين المناسبين لبعضهم البعض، وعلى الجهة الأخرى لدينا مبدأ العدل، وإذا قبلنا بمنظور رولز، أو حتى أفكار جماعة مبدأ الاكتفاء، فسنجد أنفسنا ننغرس في قضية مختلفة تمامًا، هل هناك وسيلة تمكننا من تنظيم الأمور بحيث يتحقق العدل والمثالية في آن واحد؟".

"تلك طوباوية يا مونتني، ولا يوجد شيء بهذه الدرجة من البساطة في الحياة، في غالب الأحيان، من الصعب جدًا تحسين أوضاع شخص دون أن تضر بشخص آخر؛ دائمًا يجب إجراء مفاضلة بين العدل والمثالية".

"أتعنين أنه عندما يتحقق العدل، تقل المثالية؟ لماذا يتعين على الأمور أن تأخذ ذلك المجرى؟".

"إن الضرائب التوزيعية هي الطريقة الوحيدة لتحقيق نتائج اقتصادية عادلة في الدول الرأسمالية، ومع ذلك، يشير البعض إلى أن تلك السياسة تؤثر بشكل سلبي على الحوافز الاقتصادية التي تدفع الأفراد للعمل الجاد والإبداع، أضف إلى ذلك أن تسيير العملية البيروقراطية - التي يتم من خلالها إعادة توزيع الثروات عن طريق الضرائب - يتطلب تكاليف باهظة؛ يتعين على الكثير من الموظفين الحكوميين والنواب التشريعيين بذل مجهود كبير في العمل على نقل الأموال من فئة مجتمعية إلى أخرى، كما أننا ما يحدث عندما تلعب الحكومة دور المورد الأساسي للخدمات المختلفة: تأخذ الشركات الحكومية هيكلًا احتكاريًا، وأثبتت لنا سياسة الاحتكار مدى عدم كفاءتها وسوء جودة الخدمات التي تقدمها للمستهلكين. نظرًا لكل هذه العوامل، يشكل التوصل إلى مستوى تتوازن فيه المثالية مع العدالة تحديًا حقيقيًا ليس من السهل إنجازه".

"لكن أنتم أيها الخبراء الاقتصاديون تميزون بكونكم أذكاء، أليس كذلك؟ لا بد من أن تجدوا مخرجًا لهذه المعضلة وإلا لن تكونوا ذوي فائدة لنا".

"يمكن لخبير اقتصادي واسع المعرفة أن يخبرك بكيفية تحقيق ذلك: تعزيز المساواة إلى الحد الذي تتساوى فيه الفوائد الإضافية الناتجة عن زيادة نسبة المساواة مع التكاليف الإضافية الناتجة عن زيادة نسبة انعدام المثالية، بلا شك، لا توجد طريقة عملية على أرض الواقع لإجراء هذه الحسبة، كما أن العواقب المترتبة عليها غير محسومة وتتنازع عليها الآراء، وتتغير بحسب التوجه السياسي الخاص بكل فرد. أجرى الاقتصادي آرثر أوكن

(1980-1928) تجربة فكرية سماها "الدلو المثقوب" استطاع من خلالها رؤية رد فعل الناس نحو التوازن بين العدالة والكفاءة.2

تخيل معي أن أدنى 20% من الأسر من حيث توزيع الدخل تحصل على دخل أقل من 14 ألف جنيه إسترليني (يبلغ متوسطه عشرة آلاف جنيه إسترليني) في حين أن أغنى 5% من الأسر تحصل على دخل يفوق 56 ألف جنيه إسترليني (بمتوسط يبلغ 90 ألف جنيه إسترليني). تم عرض اقتراح بفرض ضريبة على أغنى 5% من الأسر، وستبلغ هذه الضريبة متوسطًا يقدر بثمانية آلاف جنيه. نظرًا لوجود أسر في المجموعة الفقيرة بمعدل أكثر بأربع مرات من الأسر الموجودة بالمجموعة الغنية، فمن المفترض أن تحصل كل أسرة فقيرة على متوسط 2,000 جنيه إسترليني بعد توزيع الضرائب.3

"هذا يبدو عادلاً، أن نأخذ قطع البسكويت من أولئك الذين يملكون الكثير، ونعطيها لأولئك ممن لديهم كمية زهيدة".

"ومع ذلك، هناك مشكلة تتعلق بتلك الخطة، تُحول الأموال من الأغنياء إلى الفقراء من خلال ما يطلق عليه أوكن "الدلو المثقوب"؛ لذلك، نفقد بعض الأموال أثناء عملية التحويل، حيث لا تصل المبالغ بأكملها في المحل الذي نرغب في أن تصل إليه، إذن ما الحد الأقصى المسموح به من فقدان الأموال والذي لن يجعلنا نعدل عن إجراء عملية إعادة التوزيع؟ لنقل إننا سنفقد عشرة في المائة من الأموال أثناء التحويل، هل سنستمر حينها في دعم وتطبيق هذه المنظومة؟ في هذا الحين، ستعني هذه الخسارة أن كل أسرة فقيرة ستحصل على 1,800 جنيه إسترليني بدلاً من 2,000".

"نعم أعتقد أنني سأستمر في تطبيق المنظومة؛ خسارة تقدر بـ 10% لا تبدو سيئة لهذا الحد، وعلاوة على هذا، ستظل الأسر الفقيرة تحصل على فائدة كبيرة رغم كل شيء".

"لكن، ماذا ستفعل إن بلغت الخسارة 50%؟ أو 75 أو 90%؟ ما الإجراء الذي ستتخذه حتى تتمكن من السيطرة على الوضع؟ إجابتك حول هذا الأمر نسبية، فلا يمكن تصنيفها

بأنها صحيحة أو خاطئة - أو كما قالها أوكن - الأمر يشبه اختيارك لنكهة المثلجات المفضلة لديك، لا توجد إجابة محددة وصحيحة؛ إن خسارة الأموال في هذا الموقف تمثل انعدام الكفاءة الاقتصادية.

الغرض من هذا هو التأكيد أنه وفقًا لمنظور رولز يجب الاستمرار في عملية تحويل الأموال من خلال الدلو حتى تصبح نسبة الخسارة 99%، لأن المساواة هي الأولوية القصوى بالنسبة له، على النظر، فإن فرايدمان يعطي الأولوية لتحقيق المثالية، وظني أنه سيتوقف عن عملية التحويل حتى إن كانت نسبة الخسارة ضئيلة جدًا، أما بالنسبة لشخص يعتقد أن عملية إعادة التوزيع غير منطقية وليس لها أي مبرر مثل نوزيك، فإنه سيرفض المبدأ من أساسه بغض النظر عن كبر أو صغر حجم الخسارة".

"وماذا عنك؟ ما هو رأيك في كل هذا؟".

"هذا ليس سؤالًا سهل الإجابة عنه، وأي شخص يعتقد عكس ذلك بالتأكيد لم يفكر بتأنٍ في الأمر، لكن، أعتقد أن الأمر يتلخص في كونه اختيارًا سياسيًا بطبيعته، فكما قال صديقنا أوكن: كل ما يستطيع الاقتصاديون فعله هو تبسيط القضايا الاقتصادية، وتوضيح العواقب المترتبة على أي قرارات نتخذها".

"توقفي عن كونك طرفًا محايدًا!".

"ولكنني أحب كوني محايدة، فهذا يمنحني رؤية ثاقبة وشاملة لمختلف الأمور".

"هذا فرار من الحقيقة".

"حتى الآن، تناولنا الجانب الفلسفي من القضية، ورأينا أن النتائج الاقتصادية التي تتحقق فيها مثالية باريتو تُعد غير عادلة بالمرّة، كما أن التفاوت في النفوذ بين الأفراد يلعب دورًا كبيرًا في تحديد من سيربح الفوائد الاقتصادية بالنهاية، لكن، لا يزال هناك جانب آخر من القضية، وهو يعود إلى السؤال الذي طرحناه في البداية، وهو هل انعدام المساواة أمر

سيئ في حد ذاته أم لا؟ إذا ضربنا الصين مثلاً، سنجد زيادة مهولة في الفجوة بين الأغنياء والفقراء، تحديداً منذ بداية الفترة التي تلت عام 1990، ولكننا سنرى أيضاً تحسن الأوضاع المعيشية بصورة عامة؛ تمكن البعض من الابتعاد عن الفقر المدقع، والعيش في ظروف جيدة نسبياً كالتي يتمتع بها الغالبية العظمى من السكان، هل كنا سنتمكن من تحقيق هذا من دون الزيادة في فجوة اللامساواة التي نجمت عن الانتقال إلى نظام رأسمالي؟".

"نظراً إلى الطريقة التي تطرحين بها السؤال، فأنا أعتقد أن إجابتك هي لا".

"في ضوء حديثنا عن الصين، هناك قضية أخرى مثيرة للتأمل، وهي انعدام المساواة، ولكن ليس بين أفراد مجتمعات الدول النامية، بل انعدامها بين الأمم المختلفة حول العالم، لقد قام خبير اقتصادي يدعى "برانكو ميلانوفيتش" بتقدير مدى تطور الأوضاع الاقتصادية للأفراد من مختلف فئات الدخل حول العالم، وما تبين من تلك الدراسة ليس صورة واضحة تدل على أن الأثرياء يزدادون ثراءً والفقراء يزدادون فقرًا، بل ما تبين أن أغنى عشرة في المائة، وعلى وجه التحديد أغنى واحد في المائة داخل تلك الفئة - كما هو متوقع - تزايدت ثرواتهم بشكل ملحوظ، هناك فئة اجتماعية أخرى تحسنت أوضاعها المعيشية على مدى العقود الأخيرة، وهي الفئة الأقل دخلاً، ولكن أعلى بدرجة طفيفة مقارنة بمن يعيشون في فقر مدقع. إن الغالبية العظمى من هؤلاء الأشخاص يعيشون في دول مثل الصين، وماليزيا، والهند، وقد تحسنت الأوضاع المعيشية لدى جميعهم بفضل ما شهدوه من ازدهار اقتصادي متنامٍ".

"حسناً، هؤلاء هم الفائزون من ذلك الوضع، إذن من هم الخاسرون؟".

"برزت فئتان اجتماعيتان بشكل لافت في هذا الجانب الخاسر؛ ساءت الأوضاع بشكل أكبر لدى الأفراد الأشد فقرًا بالنمط نفسه المتوقع الذي ازدهرت من خلاله ثروات الأغنياء، وهؤلاء الأفراد غالباً ما يعيشون في دول تعاني انهياراً اقتصادياً مثل أفغانستان، وهائيتي، والصومال، والفئة الأخرى التي لم يتحسن دخلها الاقتصادي بشكل يذكر هي الفئة

المتوسطة في البلدان النامية، تشكل هذه الفئة ما يقرب من سبعين إلى ثمانين في المائة من سكان العالم، ومع كونها لا تصنف فقيرة بأي حال من الأحوال عند مقارنتها ببقية العالم، إلا أنها تتسم بثبات دخلها أو تراجعها في بعض الحالات. ينبع ظهور الحركات الشعبوية اليمينية - كمن يدعمون أيديولوجيات ترامب، أو من يدعون إلى انسحاب المملكة المتحدة من الاتحاد الأوروبي - من الشعور الذي يختلج الطبقة المتوسطة بتدهور أوضاعهم الاجتماعية؛ بات من الصعب جدًا عليهم تحمل تكاليف أشياء اعتادوا عليها: كالتعليم الجامعي للأبناء، وامتلاك منزل، وشراء سيارة جديدة.

لكن، إذا عدنا ونظرنا بتمعن مجددًا للفائزين الذين ذكرناهم آنفًا في الصين والهند، سنجد أن أوضاعهم تحسنت عند قياسها بمعيار النسبة المئوية، ولكن بالمعايير المطلقة، لم يؤد هذا التحسن إلى نتائج ذات شأن".

"لست متأكدًا من كوني أستوعب ذلك تمامًا، هل يمكنك أن تضربي مثالًا؟".

"تخيل أنك تحصل على دخل سنوي يقدر بمائة جنيه إسترليني، وازداد هذا المقدار بنسبة 100%، يبدو ذلك رائعًا، صحيح؟ فلقد تضاعف دخلك، يا لها من فرحة! لكن عند قياس تلك الزيادة بالمعايير المطلقة، ستجد أن مقدارها يساوي مائة جنيه فقط لا غير. تخيل الآن أنك تحصل على دخل يقدر بمئة ألف جنيه، وازداد هذا الدخل بمقدار النصف، أي بنسبة 50% فقط، عند القياس بالمعايير المطلقة، سنجد أن مقدار الزيادة يساوي 50 ألف جنيه إسترليني، للتوضيح، استنتج ميلانوفيتش أن أكثر من نصف المكاسب الإجمالية في الثروة ذهبت إلى أغنى 5% من ناحية توزيع الدخل، في الفترة بين عامي 1988 و2008، هذا يعني أنه عن كل جنيه إسترليني إضافي جناه العالم، ذهب منه 27 بنسًا إلى أغنى 1% من السكان، و25 بنسًا أخرى إلى الطبقة ذات نسبة الـ 4% التي تليهم.

يعتقد بعض الأشخاص أن النظام الاقتصادي الذي ينتج عنه هذا النوع من انعدام المساواة لا بد أن يعاني الانهيار".

"أنا أتفهم سبب شعور بعض الناس بعدم الرضا حول هذا الوضع، وقد يعتبر هذا سؤالاً بديهيًا، لكن، هل يعلم خبراء الاقتصاد السبب وراء زيادة فجوة اللامساواة هذه؟".

"عندما تدرس المعطيات من حولك، ستجد أن معدلات اللامساواة بدأت في الازدياد داخل الكثير من البلدان في أواخر عقد السبعينيات من القرن الماضي، وهناك العديد من النظريات التي تحاول تفسير هذا، إحداها أن الأسواق باتت ميدانًا للمنافسة الشرسة حيث لا يتواجد فيها سوى قاعدة واحدة: "الفائز يحصل على كل الأرباح"، أي أن أولئك الأشخاص والشركات الذين يتميزون ببراعتهم في مجال ما، هم من يستحوذون على جميع المكاسب، ويرجع هذا الوضع السائد إلى التقدم التكنولوجي وتصادد تيار العولمة.

سأضرب لك مثالاً آخر: قبل أن تتمكن جماهير كرة القدم من مشاهدة المباريات عن طريق البث التلفزيوني، كان العديد من الأشخاص يذهبون إلى الملعب لمشاهدة مباريات فرقهم المحلية، وحتى إذا رغب الناس في الذهاب لمشاهدة اللاعبين الأكثر شهرة واحترافية، فهم لم يتمكنوا من ذلك بسبب وجود حد أقصى لعدد المقاعد في الإستاد، وهذا بدوره وضع حدًا أقصى لما يحققه لاعبو كرة القدم من مكاسب، لكن، بمجرد امتلاك تلفزيون عبر الأقمار الصناعية، سيتمكن الجميع - وحتما سيفعلون - من مشاهدة تلك المباريات، وبهذا تستحوذ أنجح وأشهر الفرق على معظم المكاسب المالية.

يشير البعض إلى حقيقة أخرى: وهي انخفاض مبالغ الضرائب المُحصلة من الأغنياء في العديد من الدول؛ في عقد السبعينيات، فُرضت ضرائب على الأغنياء بالولايات المتحدة والمملكة المتحدة تقدر بنسبة تتجاوز الثمانين في المائة من إجمالي دخلهم، منذ ذلك الحين، انخفضت تلك النسبة إلى النصف بشكل ما، وبطبيعة الحال، أمسى الأغنياء ماهرين للغاية في تمويله مقدار ما يملكونه من دخل حقيقي، لذا، جزء كبير من هذا الدخل لم يخضع للضرائب على الإطلاق، أضف إلى ذلك وجود انخفاض كبير في ضرائب الميراث.

في الوقت ذاته، ضعفت التشريعات والمؤسسات التي وفرت حماية للفقراء في الكثير من الدول، مثل الاتحادات العمالية، وقانون الحد الأدنى للأجور، والتشريعات المتعلقة بالعمل

بشكل عام.

من ضمن العوامل الأخرى، التي لعبت دورًا في نمو الثروة لدى الفئة الأعلى في المجتمع، تحرير الأسواق المالية. يعمل العديد من الأشخاص المنتمين في فئة أغنى 1% من السكان في مجال التمويل، ومجالات صناعية أخرى مرتبطة بالتمويل.5

أخيرًا، أشار بيكيتي إلى أن تجميع الثروات - أو رأس المال - أصبح ذا أهمية كبرى، حيث تتدهور قيمة رأس المال خلال الفترات التي تتسم بمعدلات تضخم كبيرة، وهذا أحد الأسباب - بحسب بيكيتي - التي تعزى إليها الزيادة المتصاعدة في معدلات المساواة في الفترة التي تلت عام 1945، لكن منذ عقد الثمانينيات، أثرت السياسات التي قوضت معدلات التضخم على ارتفاع قيمة الأصول، كالممتلكات. يأتي الدخل بطبيعته في صورة أصول سائلة، لكن الممتلكات على الجانب الآخر، تتسم بكونها ثابتة في إطار محدد لا تخرج عنه، ثابتة داخل إطار عائلي، أو إطار طبقي".

"هذا الكلام يبعث على الإحباط، هل من المُقدر للأثرياء أن يزدادوا ثراءً طوال الوقت؟".

"يشير مؤرخ يدعى والتر شيدل - وهو يتسم بكونه متشائمًا بعض الشيء6 - إلى أنه استنادًا إلى الألفية الماضية من تاريخ البشرية، فهناك أربعة أشياء فقط ساهمت على نحو بارز في خفض معدلات اللامساواة: الحروب، والثورات، وفشل الدول، والجوائح العالمية".

"لا أعتقد أن تلك أشياء هينة ومرحة، هناك وسائل أخرى لتقليص فجوة اللامساواة لا تتضمن هلاك العديد من الناس؟".

"الشيء البديهي الذي يجب فعله هو فرض الضرائب على الأثرياء، ولكن لعله من الصعب زيادة معدل ضرائب الدخل على الحد الحالي؛ يدفع أثري الأثرياء الكثير من الضرائب على دخلهم، إذا زاد معدل ما يدفعونه على الحد الحالي، فإنهم سيرحلون إلى بلد آخر، مثلًا: يدفع أغنى 1% من سكان المملكة المتحدة ضرائب تشكل 29% من إجمالي ضرائب



الدخل المحصلة من جميع سكان الدولة،<sup>7</sup> فكرت بعض الدول في فرض ضرائب على الثروات عوضًا عن فرضها على الدخل، فمثلاً، ينادي بيكيتي بفرض ضرائب كبيرة على الميراث وعلى الثروات في جميع أنحاء العالم. يطالب البعض الآخر بوجوب تعزيز النفوذ الخاص بالمؤسسات المعنية بسوق العمل، وتطبيق قانون الحد الأدنى للأجور في العديد من الدول، وزيادة الحد الأدنى في حال إن كان القانون مطبقًا بالفعل، وقد يعتبر هذا أمر بديهياً ولا حاجة لنا بقوله، ولكن ينبغي لنا محاربة أي تمييز يحدث على أساس جنسي أو عرقي كونه قد يولد المزيد من انعدام المساواة.

هناك فكرة متطرفة، ولكنها تلقى اهتماماً متزايداً، وهي تحديد راتب أساسي لكل فرد في جميع أنحاء العالم، أي أن تمنح الحكومات مبلغاً محدداً من المال لكل فرد بصورة شهرية، سواء إن كانوا على قوة عمل أم لا، وقد شهدنا خلال جائحة كوفيد - 19، العديد من الدول الغنية تطبق سياساتها لدعم الدخل بشكل أكثر سخاءً، لذا، لعل شيدل محق، لعلنا نحتاج إلى صدمة ما كالجائحة حتى نغير من طريقة تفكيرنا.

ها قد شارفنا على الوصول إلى المنزل يا مونتني، لقد أحسنت صنعاً باستيعابك تلك المعلومات، هذا على فرض أنك انتبهت لما أقوله..."

"عادةً، لا أنتبه، فالانتباه من خصال كلاب الصيد وليس من خصالي، لكن هذه المرة، أعتقد أنني استوعبت معظم ما قلته."

"هل تود أن تقدم تلخيصاً لما سبق؟".

"أتشكين في قدراتي الاستيعابية؟ حسنًا إذن، سأحاول، لقد أشرتِ إلى أن منظومة السوق قد تحقق نتائج فعالة، ولكنها لا تكون منصفة في كثير من الأحيان؛ يمكن للأسواق أن تحقق ازدهاراً اقتصادياً - وهنا تتسم بالمثالية - ولكن كيفية تقسيم مكاسب هذا الازدهار على الجميع أمر يعتمد على القوة التفاوضية لكل فرد، وهنا تكمن قضية العدل، وفي مثال لعبة "المهلة النهائية" التي تحدثت عنها، يقترح الطرف الممتلك للسلطة عرضاً للطرف

الآخر، ولكنه عرض يضمن لذوي السلطة الاستحواذ على معظم المكاسب، وفي الوقت ذاته، يحفز الطرف الآخر على قبوله كونه ليس لديه أي خيارات أخرى سوى القبول أو عدم الحصول على أي شيء، وبغياب العدالة، تتسع فجوة اللامساواة، إلا إذا حلت علينا كارثة ما أعادت تنظيم الأمور من جديد".

"ممتاز يا مونتي، أعتقد أن المغزى وراء كل هذا هو أن منظومة السوق الحرة تولد المزيد من انعدام المساواة، وإذا أردنا أن نضع حدًا لهذه المشكلة، فسيتحتم علينا اتخاذ قرارات سياسية صعبة، لكن في الوقت الحالي، أنت أمام خيارين سهلين: أتريدني أن أدلك بطنك أم أمسد أذنيك بلطف؟".

"هل من الممكن اختيار الاثنين معًا؟".

"في الاقتصاد، هذا غير ممكن، لكنني سأوافق، فأنا لست بشخصية متزمته".

## النزهة ٨: فشل منظومة السوق: المؤثرات الخارجية، والسلع العامة، والموارد المشتركة

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: المؤثرات الخارجية؛ أي الآثار الإيجابية والسلبية غير المباشرة التي تنتج عن التعاملات التجارية الخاصة، ولماذا يعتبر كلا النوعين مشكلة يجب إيجاد حل لها؟ سنناقش أيضًا المنافع العامة (مثل الأمن القومي) والموارد المشتركة (مثل الصيد)، وكيف أن محاولة الاستعانة بالأسواق في تنظيم مثل هذه الموارد ينتج عنها مشكلات عميقة، الدرس المستفاد من هذه المحاولة: يجب علينا أن نتكاتف معًا لتوفير هذا النوع من السلع أو نقنن استخدامها المفرط، وإلا فسنضرر جميعًا.

مثلما يسعى وزير المالية إلى تحقيق التوازن بين الإيرادات والمصروفات في الميزانية، يميل فصل الخريف إلى تحقيق الأمر ذاته من ناحية الطقس، فكل يوم مشمس يجب أن يُعوض بيوم عاصف؛ فعصفت الرياح ذاك اليوم، وهيمت السحب الداكنة كحيتان نافقة على الشاطئ، وأضحى ذاك اليوم صالحًا فقط للنزول في نزهة قصيرة ليس إلا؛ نزهة لن تبعد عن تلك المساحة الخضراء الضيقة والكئيبة التي تقع في نهاية الشارع، والتي سميت - لأسباب واضحة - حديقة الروث.

بلا شك، فرح مونتي كثيرًا بالذهاب إلى تلك الحديقة القذرة، وكأنه ذاهب إلى نزهة في وسط الريف، مع كونها مليئة بالزجاجات البلاستيكية، وعلب الوجبات السريعة، وأعقاب السجائر، والأدهى من ذلك هو وجود كيس مملوء بروت الكلاب عُلق على إحدى الشجيرات، كزينة عيد لكن بطابع شرير، ذهب مونتي ليتبول بحماس على أي شيء داخل نطاق الحديقة، ثم اندفع بحماس نحو ما يشبه بقايا الكباب.

"إياك والاقتراب من هذا يا مونتي!"

لقد عشنا مع مونتي بعض التجارب السيئة التي تسبب فيها تناوله طعام الشارع بشكل عشوائي، والذي ترتبت عليه تأثيرات سلبية على جهازه الهضمي، وهذا أمر مثير للسخرية كونه كلبًا انتقائيًا للغاية فيما يتعلق باختياره نوع الطعام المقلب الذي يحب التهامه.

"يا لك من شخص مفسد للمرح".

"ستأتي لشكري على هذا فيما بعد، على كل حال، هذا وقت جيد للحديث عما يطلق عليه الاقتصاديون المؤثرات الخارجية، أعتقد أنني سبق أن قلت بالفعل إن السوق منظومة استثنائية".

"نعم، أعتقد أنك قلت هذا أيضًا".

"إنها كذلك بالفعل، فالأسواق وسيلة حققت فاعلية استثنائية في تنظيم تعاملات بشرية تنسم بالتعقيد الشديد، لكن في بعض الأحيان، لا تعمل الأسواق بشكل صحيح، أي أنها تفشل كما يقول الاقتصاديون".

"تمهلي قليلًا، ماذا تعنين بفشل الأسواق؟ أتعنين أنها تخفق بسبب انعدام المساواة الناتجة عنها كما تحدثنا في النزهة الماضية؟".

"لا، هذا الأمر يختلف عن ذلك. عندما يستخدم الاقتصاديون مصطلح "فشل السوق" فإنهم يعنون أن الأسواق لا تعمل بالآلية المثالية كما ينبغي لها لسبب أو لآخر، هناك سبب مهم يرجع له إخفاق منظومة السوق، وهو مشكلة المؤثرات الخارجية".

"أخبريني مجددًا، ما المؤثرات الخارجية؟".

"المؤثر الخارجي هو التأثير الذي يخلفه أي تعامل تجاري بين بائع ومشتري على طرف ثالث لم يشارك في هذا التعامل، يرجع السبب وراء أهمية هذا الأمر إلى أن إحدى الحجج الأساسية التي تدعم السوق الحرة تنص على وجوب استفادة الطرفين عند إتمام أي تبادل

تجاري، وإلا ستعتبر الصفقة ملغاة، بلا شك، لا تنطبق هذه الحجة في حالة تأثر طرف ثالث بهذه الصفقة، حتى إذا لم يشارك بها بأي شكل من الأشكال، وهذا ما يعنيه خبراء الاقتصاد عندما يتحدثون عن المؤثرات الخارجية".

"أعتقد أنني بحاجة لبعض الأمثلة للمزيد من التوضيح".

"أوضح مثال لذلك هو التلوث، فمثلاً: عندما أذهب لتزويد سيارتي بالوقود، تتم صفقة تجارية بيني وبين مالك محطة الوقود، وكلانا راضٍ عن نتائجها، ولكن بعد ذلك، تبعث سيارتي الكثير من الغازات السامة التي تلوث طبقة الغلاف الجوي؛ ما يؤثر على الجميع، هذا يشبه ما كان سيحدث إذا تركت تآكل بقايا الكباب، وما يحدث عندما يشغل الملهى الليلي موسيقى صاخبة طوال الليل تفسد علينا الأجواء الهادئة بالحي، أو عندما يترك شخص محب للوجبات السريعة علب الطعام ملقاة في الحديقة، أو عندما ينسى مالك كلب التقاط فضلات حيوانه الأليف... في جميع تلك الحالات، يوجد طرف ثالث يتحمل بعض العواقب السلبية الناتجة عن مثل تلك الأفعال".

"لقد فهمت؛ في بعض الأحيان، تنتج الآثار السلبية عن عمليات البيع والشراء التي تحدث بالسوق، وتتأثر بها أطراف أخرى لم تشارك في هذه العمليات، لكن أيعني هذا حقاً فشل منظومة الأسواق؟".

"تعمل الأسواق بكفاءة عندما يتحقق الشرط التالي: عندما يعكس سعر السلعة جميع التكاليف والامتيازات التي تأتي معها، وليس فقط التكاليف والامتيازات الخاصة بالمشتري والبائع، وعندما تقرر الذهاب إلى مكان ما بالسيارة، فأنت تضع في حسابك التكاليف التي ستقع على عاتقك أنت فقط، مع أن هذه ليست التكاليف الوحيدة القابعة وراء قرارك؛ هناك تكاليف أخرى تقع على عاتق الآخرين: التلوث، الضوضاء، والاحتفاظ بالمرور، وطالما أن تلك التكاليف لا تدرج في قيمة السلع المعروضة بالسوق، إذن، ووفقاً لمعايير الاقتصاديين الفنية، تعتبر السوق لا تعمل بكفاءة".

"أريد طرح سؤال حتى أتيقن أنني أفهم هذا بشكل صحيح، هذا الأمر لا يتعلق بالعدالة، أليس كذلك - بل يتعلق بالكفاءة، الأمر الذي يفترض أن تجيد الأسواق تحقيقه؟".

"نعم، بالضبط. عندما ناقشنا قضية انعدام المساواة، تفحصنا النتائج لنرى إن كانت عادلة أم لا، وهذه قضية تنحصر بين ميدان أخلاقي وآخر سياسي، لكن هنا، نحن نتحدث عن مدى كفاءة آلية عمل السوق، عندما تتواجد المؤثرات الخارجية، لا تشغل قضية العدالة اهتمامنا بتاتاً، لأن في ذلك الحين، قد تنعدم كفاءة منظومة السوق، وهذا ما يجب القلق بشأنه".

"لقد قلت شيئاً منذ قليل عن التكاليف والامتيازات؟ لقد ظننت أننا نتحدث عن الأشياء السيئة فقط".

"ملاحظة جيدة يا مونتي، المؤثرات الخارجية قد تكون إيجابية أو سلبية، فعندما يوجد مؤثر سلبي، فذلك يعني تحملك ضرر شيء سيئ بشكل مبالغ فيه؛ أما في حالة وجود مؤثر إيجابي، فذلك يعني عدم تمتعك بشيء جيد بشكل كافٍ، الفكرة المحورية هنا: إذا أدت المؤثرات الخارجية إلى فشل منظومة السوق - استناداً لمعيار الكفاءة - فيجب علينا التدخل لوضع الأمور في نصابها، يمكننا تناول المؤثرات الإيجابية فيما بعد، دعنا الآن ننظر إلى مثال حي على المؤثرات السلبية، لمَ لا تقفز وتجلس بجانبني على هذا المقعد لأبقى بعيداً عن هذا الكباب المقزز والمتعفن؟".

"صدقيني، إن اضطررت مثلي لأكل طعام الكلاب المقلب طوال الوقت، فستجدين نفسك ستقتنصين أي فرصة لتناول بعض الكباب الشهي والبارد".

"يا للؤمك! بالعودة لما كنت أقول، كما أوضحت فيما قبل يا مونتي، يعتبر التلوث مثلاً حياً وقديماً للمؤثرات السلبية. شرعت السلطات الفرنسية في ثمانينيات القرن الماضي باستخدام مبيد حشري يدعى كلورديكون في جزر مارتينيك وجوادلوب،<sup>1</sup> وهي جزر كاريبية تحت إمرة السلطة الفرنسية، وحقق كلورديكون فاعلية كبيرة في إبادة حشرة

سوس الموز، واستخدمه المزارعون كثيرًا كوسيلة فعالة لزيادة محاصيلهم، فحققوا أرباحًا عالية، واشترى المستهلكون الموز بأسعار منخفضة، فعاد هذا بمنفعة، على كل من البائع والمشتري، لكن عندما انجرف هذا المبيد الحشري مبتعدًا عن الأراضي الزراعية، لوث في طريقه المياه التي تستخدمها المجتمعات المجاورة في صيد الأسماك".

"وهل علم المزارعون بشأن هذا الأمر؟".

"بلى، لقد علموا بالتأكيد، كما علمت أيضًا الحكومة الفرنسية، كونها المسؤولة عن الأمر برمته، وتم وقف إنتاج مبيد كلورديكون في الولايات المتحدة بعام 1975، عندما تبين أن له علاقة بالإصابة ببعض الاضطرابات العصبية. لم تحظر السلطات الفرنسية استخدام المبيد سوى بحلول عام 1990، ولكن حتى في ذلك الحين، سمحوا للمزارعين باستخدام المخزون المتبقي لديهم من تلك المواد الضارة حتى عام 1993، وربما لفترة أطول من ذلك، 2، تنتمي مادة كلورديكون إلى مجموعة تسمى "الملوثات العضوية الثابتة" وتعرف أيضًا بالكيماويات دائمة البقاء، حيث إنها تستغرق عدة قرون حتى تتحلل، نتيجة لهذا، ستبقى الكثير من الأراضي في جزيرة مارتينيك غير صالحة للإنتاج الزراعي للعديد من الأجيال، وعلاوة على ذلك، ارتفعت معدلات الإصابة بالسرطان على تلك الجزيرة، الأمر الذي تبين فيما بعد أنه راجع إلى استخدام ذلك المبيد الحشري".

"حسنًا، لقد أوضحتِ الفكرة، بالفعل، يمكن أن يترتب على المؤثرات الخارجية أشياء مضرّة، إذن ماذا ينبغي علينا أن نفعل بهذا الشأن؟".

"بصورة عامة، هناك ثلاثة حلول أساسية فيما يتعلق بالتعامل مع مشكلة المؤثرات السلبية: يتضمن الحل الأول التحديد الدقيق لمن تُنسب إليهم حقوق الملكية، وهذا هو النهج المفضل لأنصار منظومة السوق الحرة، لكن عند أخذ قضية تلوث الهواء في عين الاعتبار، سنجد أن من يفضلون هذا النهج يقولون إنه لن يصلح في معالجة مشكلة تلوث الهواء، لأنه على أرض الواقع، لا يمتلك شخص الهواء، إذا انتسبت ملكية الهواء لشخص ما، فلن يسمح لنا مثلاً بتلويثه عن طريق تلك الغازات المؤذية التي ستخرج منك إن تناولت هذا الكباب".

"لن أرد على كلامك هذا".

"ما دام لا يمتلك أحد الهواء الموجود فوق هذه الحديقة، فإن للشخص الجالس هناك كامل الحرية في التدخين وتلويث الغلاف الجوي، فأنا لا أملك الهواء، لذا ليس بمقدوري منعه، تخيل لو أن الهواء ملكية خاصة بك، مثل حديقة منزلك أو غرفة معيشتك، حينها لن يجرؤ أحد على تلويثه من دون إذنك.

هذا هو المبدأ الأساسي الذي طرحه رونالد كوس (1910-2013)، حيث اعتقد أن المؤثرات الخارجية مشكلة ناشئة في المقام الأول عن الغموض الذي يحيط بحقوق الملكية؛ أشار كوس إلى أنه إذا تم إيضاح حقوق الملكية، بمعنى أن يدري كل شخص ما يمتلكه الآخر على وجه التحديد، سيتمكن الأفراد من إيجاد الحلول فيما بينهم، من دون الحاجة إلى تدخل الدولة، يتخيل كوس موقفًا فيه جاران، أحدهما صانع حلوى يسبب الصخب والإزعاج، والآخر طبيب يتميز بالهدوء، إذا امتلك صانع الحلوى حق الملكية في إحداث الضجيج، فببساطة، سيتعين على الطبيب أن يدفع له المال حتى يحصل على بعض الهدوء، وإن كان الهدوء والسلامة شيئًا أكبر في قيمته للطبيب من الضجيج الذي يصدره صانع الحلوى، فإنهما سيتمكنان من التوصل إلى اتفاق خاص يُرضيهما".

"كيف سيصلح هذا النهج في حل المسألة المتعلقة بزراعة الموز؟".

"في مثال كلورديكون، تخيل أن مجتمعات الصيد لها الحق في امتلاك مياه نظيفة. في هذه الحالة، سيتعين على المزارعين دفع تعويضات للصيادين حتى يستطيعوا تلويث المياه بالمبيد، ولو كانت تلك التعويضات مكلفة بدرجة كبيرة، لوجد المزارعون وسيلة أرخص للسيطرة على سوس الموز. هناك مزحة في هذا السياق تتعلق باختيارك أخف الضررين، ولكني لا أفضل قول هذا النوع من الدعايات، فهو من اختصاص الفيلسوف".

"لكن كيف تمكن الصيادون من الاتحاد والاتفاق على موقف واحد للتفاوض حول الأمر؟".



"ملاحظة موفقة يا مونتي، فكما أقر كوس بصريح العبارة: في معظم الأحيان، ستقف صعوبة التفاوض في وجه هذه الحلول حتى تبدو غير واقعية، ولعل الأمر يسير بمرونة أكثر في مثال الطبيب وصانع الحلوى، حيث يمكننا أن نتخيل إلى حد ما توصلهما إلى اتفاق، لكن الأمر يختلف في ظل المجموعات الكبيرة، كما حدث في مثال المجتمعات الموجودة بجزر مارتنينيك وجوادلوب، فمن الصعب تصور كيفية تسير المفاوضات بنجاح على أرض الواقع، أضف إلى ذلك وجود مشكلة أخرى: اختلاف نتائج المفاوضات بحسب الشخص الممتلك لحقوق الملكية؛ هل للمزارعين الحق في تلويث المياه، أم للمجتمع الحق في الحفاظ على نظافة الأراضي والمياه؟ على الأرجح، يحصل الشخص الممتلك لحقوق الملكية على الفائدة الأكبر من هذا الاتفاق، ومع ذلك، تُعد هذه فكرة محورية وجزء أساسي من التسوية.

هناك مثال آخر أحبه حقًا، وهو يتضمن القليل من "التوتر الجوي"... في عام 2014، نشب نزاع حول من لديه الحق في المساحة التي توجد أمام مقعد الطائرة، وتسبب هذا النزاع في تغيير مسار إحدى رحلات الطيران لشركة الخطوط الجوية المتحدة".<sup>3</sup>

"نشب النزاع بسبب مساحة راحة الساقين؟".

"نعم، هذا هو الأمر في جوهره، أنت لم تجرب قط متعة السفر في وسائل النقل الجوي الحديثة، حيث تجد جسدك - ما لم تكن غنيًا - معترضًا في مقاعد صغيرة، وركبتيك مضغوطتين باتجاه المقعد الذي أمامك، وهو أمر كافٍ لدفع أكثر شخص هادئ إلى حالة من الغضب الشديد تُفقد السيطرة على تصرفاته. ما حدث على متن تلك الطائرة هو دخول راكبين في نقاش محموم حول أحقية أحدهما - وهي امرأة - في الانحناء بمقعدها إلى الورا، وأحقية الآخر - وهو رجل - في الاستمتاع بالمساحة التي أمام مقعده لتمديد قدميه، أحضر الرجل معه جهازًا يسمى حامي الركبتين، وهو يمنع صاحب المقعد الأمامي من الانحناء للخلف. طلبت منه مضيعة الطيران أن يزيل الجهاز، ولكنه رفض، وأظهرت تلك المرأة ردة فعل عنيفة، حيث ألقت مشروبها في وجه الرجل، ومع احتدام الفوضى على

الطائرة، قرر طاقم الطيران تغيير مسار الطائرة. في موقف كهذا، ماذا كان سيستنتج كوس لو تم التصريح عن حقوق الملكية بشكل واضح؟".

"أعتقد سيستنتج أنه كان لدى تلك المرأة الحق في الانحناء بمقعدها للخلف، وأنه سيتعين على ذلك الرجل أن يعرض عليها مبلغًا من المال حتى يمنعها من فعل ذلك، وإذا رأت المرأة أن المبلغ جيد، فإنها ستقبل بالعرض، أما إذا كان الانحناء بمقعدها للخلف ذا أهمية أكبر من المال بالنسبة لها، فسترفض".

"نعم، بالضبط. لكن على أرض الواقع، أعتقد أن كلا المثالين - جهاز حامي الركبتين، ومبيد كلورديكون - دليلان على أن هذا الحل تقبّع وراءه بعض التحديات والمشاكل بلا شك".

"حسنًا، إذن توضيح حقوق الملكية مفيد في بعض الأحيان، ولكن في أحيانٍ أخرى يكون الأمر كمغالطة الرنجة الحمراء، كما في حالة هؤلاء الصيادين المساكين (مغالطة الرنجة الحمراء هي مغالطة منطقية تتمثل في عرض موضوعات أو أسباب جاذبة خارجة عن إطار الموضوع، هدفها تشتيت انتباه الطرف الآخر عن الموضوع الأصلي)".

"أهذه مزحة نادرة من مزاحات مونتي الطريفة؟".

"ماذا؟ آه، ربما. أيًا يكن، ما الوسائل الأخرى للتعامل مع المؤثرات الخارجية؟ لقد قلت من قبل إن هناك ثلاث وسائل".

"صحيح، الوسيلة الثانية للتعامل مع المؤثرات السلبية هي فرض الضرائب على حدوثها، وهذه تعرف بـضرائب بيجوفي، حيث سُميت تيمناً باسم الخبير الاقتصادي البريطاني آرثر بيجو (1877-1959)، على سبيل المثال: إذا تسبب التدخين أو قيادة السيارات في عواقب سلبية للآخرين، فستُفرض الضرائب على مثل هذه الأنشطة، تعتبر رسوم الازدحام المروري في مدينة لندن خير مثال على هذا، بجانب الضرائب العالية المفروضة على استخدام الوقود، تشير الآراء المؤيدة لهذا النوع من الضرائب أنها تعود بفائدة على

المجتمع في شيئين: أولهما هو وضع سعر محدد لتلك المؤثرات الخارجية، وبالتالي ردع حدوثها، ثانيهما هو زيادة نسبة العائدات التي تحصلها الحكومة، لكن هناك مشكلات تقبع وراء تطبيق هذا النوع من الضرائب".

"كنت سأصاب بخيبة الأمل إن لم تقولي هذا".

"تتمثل الشكوى العامة حول هذا النوع من الضرائب في كونها تنازلية، أي أنها تؤثر على الفقراء بصورة أكبر من غيرهم، وهذه أيضًا الحجة نفسها التي بُنيت عليها معارضة فرض الضرائب على استخدام السكر، لكن على الجانب الآخر، سارت حجة المؤيدين على هذا النحو: يسبب تناول السكر الإصابة بالسمنة وتسوس الأسنان، ما يؤدي إلى زيادة التكاليف التي ننفقها على نظام الصحة، وهذا يؤثر على المجتمع بأكمله، لذا، الحل الوحيد يتمثل في فرض الضرائب على السكر؛ بهذه الطريقة، سترتفع أسعار السكر مما يدفع الناس لتقليل استهلاكه، وأولئك الذين يستمرون في استهلاكه سيدفعون المزيد من الضرائب؛ ما يعود بالنفع على المجتمع بشكل عام".

"هذا أمر يتخلله بعض المنطق، ولكن ماذا عن تلك المشكلات...؟".

"أولاً، وكما ذكرت فيما قبل، تتسم الضريبة بكونها تنازلية، وبما أن الفقراء ينفقون النسبة الأكبر من دخلهم على الطعام، فسيدفعون ضريبة كبيرة نسبياً مقارنةً بالآخرين، علاوة على ذلك، يشكل السكر مصدراً رخيصاً نسبياً للمتعة، وبفرض ضريبة قاسية كهذه، فأنت تقتل تلك المتعة بالنسبة للكثيرين، وهناك مجموعة أخرى تشير إلى أن هذا الأمر مثال حي على سياسة "الدولة المربية" التي تتسم بالتدخل في الحياة الشخصية للأفراد".

"إذن، قد يساعدنا فرض الضرائب في بعض الأحيان، ولكنه أيضًا مصحوب بمشكلات، ما الوسيلة الثالثة؟".

"لعل أكثر الحلول وضوحًا وأمانًا هو وضع الضوابط. في بعض الحالات، خاصة مع الأشياء التي تستمر في إحداث ضرر على مدى بعيد - مثل مبيد كلورديكون - قد يتطلب الأمر الحظر النهائي لاستخدامها، هناك إجراء آخر أقل صرامة من هذا، وهو وضع قيود تحدد كمية الشيء، يعتبر المخطط الذي وضعه الاتحاد الأوروبي لتجارة انبعاثات الكربون مثالاً لذلك النظام الهجين، ففي عام 2005، أنشأ الاتحاد الأوروبي سوقًا لتداول الغازات الدفينة يهدف إلى مكافحة ظاهرة التغير المناخي. خصصت هذه السوق التصاريح السنوية بكمية محددة من انبعاثات الكربون لكل شركة لا يُسمح بتجاوزها، وتم تحديد هذه الكمية استنادًا لمقدار انبعاثات الشركة فيما مضى، والمغزى من هذه السياسة هو تقليل الطلب على تصاريح انبعاثات الكربون تدريجيًا حتى تتوافق مع الأهداف المرسومة لحل مشكلة المناخ، أعطيت الشركات الحق في التجارة بتصاريح الكربون بين بعضها البعض، وهناك شيء يميز هذا النظام، وهو وجود حد أقصى لعدد التصاريح المسموح بإصدارها، ما يعمل على تقليل نسبة انبعاثات غاز الكربون بشكل عام في قارة أوروبا. أضف إلى ذلك أن السماح للشركات بتجارة تصاريحها يعمل بمثابة حافز للشركات يدفعها لتقليل نسبة انبعاثاتها من الكربون.

"كلام معقول".

"يؤدي كل من فرض الضرائب والضوابط دورًا مهمًا في الحد من المؤثرات السلبية، ومع ذلك، يعتقد بعض أنصار منظومة السوق الحرة أن مثل تلك الإجراءات تعوق آلية عمل السوق، وقد تؤدي بنا إلى نتائج مروعة مثل حدوث خلل في المنظومة، أو انعدام كفاءتها؛ لهذا، يرى هؤلاء أن تلك الإجراءات بمثابة علاج مصحوب بآثار جانبية أسوأ من المرض، ولكن أقرت معظم دول الغرب بأن هذا ثمن يستحق عناء أن نتحمل تكاليفه".

"لقد ذكرت أيضًا المؤثرات الإيجابية بضع مرات".

"صحيح، حتى الآن، دار نقاشنا بشكل رئيسي حول المؤثرات السلبية؛ الأسباب التي تؤدي إلى حدوث خلل بالسوق بسبب نتائج عواقب سيئة تقع على عواتق أطراف ثالثة، ولكن هناك سبب آخر يؤدي إلى فشل منظومة السوق: المؤثرات الإيجابية".

"هذا عجيب، فكلمة "إيجابية" لها وقع إيجابي".

"تكمن المشكلة في أن هناك بعض المؤثرات التي قد تعود بالنفع على المجتمع كله، ولكنها لا تعود بفائدة واضحة أو مباشرة على فرد محدد، ويعتبر الابتكار هو أقدم مثال على هذا. فكرياً، يمثل مفهوم الابتكار مضاداً لمفهوم التلوث الذي تناولناه في مثالنا السابق؛ في مثال التلوث، يتسبب فرد ما في حدوث عواقب تتحملها أطراف ثالثة عوضاً عن أن يتحمل هو تكاليفها، أما في الابتكار، فيوجد شخص يتسبب في جلب المنافع إلى أطراف ثالثة دون أن يُمنح مقابلًا ماديًا، لعل استثمار الأموال والوقت في ابتكار شيء جديد أمر لا طائل منه في ظل منظومة السوق الحرة، حيث بات من السهل على الآخرين تقليد الفكرة. تكمن المشكلة الرئيسية في انعدام "القدرة على التحصيل" فمعروف أنه يحق لكل فرد تحصيل القيمة المالية لاستثماراته التي ينفقها تحت بند ابتكار شيء ما، وإلا لمَ قد يضطر لتكبد هذا العناء؟ وبالفعل، هناك العديد من الأمثلة على أشخاص ابتكروا أشياء أصبحت رائجة بشكل كبير ولم يحصلوا على أي مقابل لمجهوداتهم".

"سأقولها ثانيةً، عسى أن تفيدني بعض الأمثلة في فهم ما تقولينه".

"حسنًا. اخترع رجل يدعى جون ووكر أعواد الثقاب بشكلها الحالي في عام 1826، عن طريق مزج الكبريت مع بعض المواد الكيميائية الأخرى التي تميزت بقابليتها للاشتعال عند الاحتكاك بسطح خشن. لم يجنِ هذا الرجل قرشًا واحدًا مقابل ما فعله، مع أن هناك مليارات أعواد الثقاب التي استُهلكت على مدار الـ200 عام الماضية، كما أن رون كلاين - الذي اخترع الشريط المغناطيسي الموجود على ظهر بطاقات الخصم والائتمان، والذي لعب دورًا حيويًا في تسيير عجلة التجارة - لم يجنِ أي شيء بدوره، وهناك دايسوكي إينوي، الذي اخترع مفهوم الكاراوكي، وتسبب في جعل العالم مكانًا يعج بالضوضاء وإحراج الذات (الكاراوكي هو نوع من الأنشطة يقوم فيه الأشخاص بالغناء بمصاحبة موسيقى مسجلة، مع عرض كلمات الأغنية على شاشة أمام المغني)".

"دعيني أخمن، مات في مكان موحش ودُفن في مقبرة غير لائقة".

"لا أعلم ماذا حل به، ولكن تم تسويق فكرته هذه من قبل بعض الأشخاص الذين جنوا أرباحًا طائلة من خلال مساعدة الناس على غناء الأغاني بأسلوب مروع وقاتل لرونقها، وهناك مثال آخر، وهو العمل على تأليف كتاب، مثل ما نفعله".

"مثل ماذا؟ أليس هذا مجرد سلسلة من الدردشات غير المهمة لا أكثر؟".

"آه، نعم، على كل حال، فإن تأليف الكتاب يتطلب وقتًا ومجهودًا، إن كان من السهل نسخ الكتب وبيعها عن طريق سبل غير شرعية كالقرصنة، ومن دون دفع أي مقابل للمؤلف الأصلي، لماذا قد يتكبد أي شخص عناء تأليف كتاب في المقام الأول؟".

"حسنًا، لقد أوضحت المشكلة المتعلقة بالمؤثرات الإيجابية، كيف نحلها إذن؟".

"إن المعضلة بالنسبة للابتكار أن عليك إيجاد طريقة تسمح بها للمبتكر أن "يتحصل على" فكرته أو يملكها، ولك أن تفعل ذلك إن أتحت للناس سبيلًا يتحصلون بها على حقوق الملكية الفكرية، ويمكنك فعل ذلك بأربع وسائل: إيفاء حق النشر، وعمل براءات الاختراع، وتسجيل العلامات التجارية، والوفاء بحقوق التصميم. تُستعمل حقوق النشر لحفظ الأعمال الفنية مثل الكتب والموسيقى والأعمال الدرامية، وحق النشر هو حق بالطبيعة، أي أن الناشر أو المؤلف حق نشر عمله بشكل افتراضي؛ أما براءات الاختراع فتكون للاختراعات، ولكن ينبغي على مالكيها تسجيلها في الجهة المعنية، وهذه هي الجزئية التي التبست على مخترع أعواد الثقاب، ومخترع آلة الكارواكي، فهما لم يسجلا اختراعيهما. بالنسبة للعلامات التجارية فهي تحمي حقوق استخدام الشعارات واللافتات، فأنا إن أريتك مثلاً تفاحة مقضومًا منها قطعة، ما الذي سيخطر فورًا على بالك؟".

"سيخطر على بالي الأشياء المستطيلة التي يحدق إليها جابريال وروزي طوال الوقت".

"أجل، بالتحديد، هذه هي أجهزة آيفون، التي تصنعها شركة آبل، وهناك مثال آخر أيضًا واسع الشهرة، وهي علامة "سووش" الخاصة بشركة نايكي. ختامًا، تتمثل وظيفة حقوق

التصميم في حماية المظهر المرئي، أو الشكل الخارجي للأشياء، ويعتبر تصميم زجاجة شراب الكوكاكولا مثالاً على التصميم المسجل رسميًا بصفته حق ملكية فكرية.

جميع ما سبق نستعين به في حل المشكلة المتعلقة بانعدام قدرة المبتكر على الانتفاع المادي من ابتكاراته. لكن، هناك وسائل أخرى تستعين بها الحكومة في تحفيز وتشجيع الأبحاث العلمية والتطوير الابتكاري، حيث يمكن للحكومات تمويل الأبحاث بشكل مباشر، عن طريق الجامعات مثلاً، أو تقوم بتقديم حوافز ضريبية للشركات بهدف تحفيزها على تمويل أبحاثها العلمية".

"حسنًا، فهمت، يُعد الابتكار مثالاً على المؤثرات الإيجابية، ويجب على الحكومات وضع أنظمة بهدف السيطرة على هذه المشكلة وحماية حقوق الملكية الفكرية، بالإضافة إلى توفير دعم مباشر للقيام بالأبحاث العلمية الأساسية، لكن، هناك شيء خطر ببالي؛ لقد واصلت الحديث طوال هذا الوقت عن مدى فاعلية منظومة الأسواق وما إلى ذلك، لكن أليست حماية حقوق الملكية الفكرية والاستثمارات الحكومية أشياء لا تتماشى مع مبادئ السوق؟".

"هذا جانب مثير للاهتمام، ومن الوارد أن يشير البعض إلى وجود مبالغة في حماية حقوق الملكية الفكرية، من الضروري أن نسعى لتحقيق توازن بين الحث على الإبداع والابتكار، وتلبية رغبة المجتمع في مجانية الحصول على الموارد المعرفية، إن الغرض الأساسي من توفير مثل هذا النوع من الحماية ليس ضمان تحقيق أرباح طائلة للمبتكر، بل تحقيق منافع تعود على المجتمع بأكمله، أمسى الاتجاه الحالي يتمثل في التعزيز المتزايد لحقوق الملكية الفكرية مع مرور الوقت؛ تمثل حقوق الملكية الفكرية قيمة كبرى لمالكها، لذا يلجأ المالك إلى توظيف محامين وجماعات ضغط - يتقاضون أجرًا عاليًا - للعمل لصالحه. في الوقت الحالي، يظل حق النشر والتأليف للكتاب ساري العمل في المملكة المتحدة لمدة تصل إلى سبع سنوات منذ وفاة المؤلف. حصلت شركة أمازون في الولايات المتحدة على براءة

اختراع لابتكارها خاصية الشراء بنقرة واحدة. وهنا، يجب أن نسأل أنفسنا، هل هذا يعتبر ضرباً من الابتكار حقاً؟ هل هذا شيء يصب في مصلحة المجتمع بالفعل؟

هناك مثال آخر مثير للجدل أكثر من مثال الكتب أو خاصية الشراء بنقرة واحدة، وهو مدى القوة والصرامة التي تتميز بها براءات الاختراع عندما يتعلق الأمر بصناعة الأدوية. تضطر شركات الأدوية إلى استثمار مبالغ ضخمة في تطوير منتجات جديدة، ولكن بعد تحقيق ذلك، تفرض تلك الشركات هيمنتها على السوق وتقوم بتسعير منتجاتها بأسعار باهظة، يمكن للأفراد القاطنين في الدول المتقدمة تحمل هذه التكاليف، ولكن قد لا تتوافر هذه الأدوية في البلدان النامية نظراً لتكلفتها العالية".

"هممم، إذن يجب علينا إلغاء حماية حقوق الملكية الفكرية بشكل كامل؟".

"أشار البعض إلى أن هذا هو الإجراء الذي حري بنا تنفيذه،<sup>4</sup> ولكني أعتقد أنه يجب علينا أخذ الحيطة والحذر من الحالات التي تكون فيها تكاليف الابتكار باهظة، وتكاليف التقليد زهيدة، إذا انتزعنا حقوق الملكية الفكرية بالكامل، فمن سيتكبد عناء صناعة فيلم أو تطوير دواء جديد من نوعه؟ ومع هذا، فهناك الكثير من الحجج المقنعة التي تشير إلى أن حقوق الملكية الفكرية تتمتع بنطاق حماية مبالغ فيه، وتستمر لفترات أطول من اللازم، ولها سلطة قهرية. الآن، أريد استكمال الحديث قبلما نعود إلى المنزل حول بعض الحالات الأخرى التي قد لا تعمل فيها الأسواق بالكفاءة المطلوبة، هناك خصائص معينة للسلع تؤثر على مدى سهولة بيعها في السوق، وهذه الخصائص تدعى الاستبعادية والتنافسية".

"أنتِ تعلمين جيداً أنني سأحتاج إلى التوضيح ببعض الأمثلة".

"لنأخذ التفاح كمثال، أو هناك ما هو أفضل من هذا: شرائح اللحم المقدد - وجبتك المفضلة".

"مممممم".



"إن اللحم المقدد مثال على سلعة تتسم بكونها استيعادية وتنافسية في آن واحد، فمثلاً: إذا أكلت شريحة اللحم المقدد، لن يستطيع شخص آخر أكلها، وهذا معنى السلعة التنافسية. علاوة على ذلك، بإمكان بائع اللحم المقدد منعك بسهولة من الحصول عليه إذا لم تدفع ثمنه، وهذا معنى السلعة الاستيعادية. عادةً، تعمل الأسواق بشكل فعال عندما يتعلق الأمر بتجارة هذا النوع من السلع الذي نطلق عليه السلع الخاصة، ولكن عندما تفقد السلع خصائص الاستيعادية والتنافسية، من الوارد أن نواجه بعض المشكلات".

"أعتقد أنني لا أفهم تمامًا ظاهرة فقدان خصائص الاستيعادية والتنافسية تلك، أيمكنك إعطائي بعض الأمثلة؟".

"بالتأكيد، لنبدأ مع السلع العامة. يُعرف هذا النوع من السلع بأنه غير استيعادي وغير تنافسي، ومن الأمثلة عليه: الدفاع الوطني، مشاريع ري الأراضي، المعرفة، والتنبؤ بالطقس. تتميز السلع العامة - مثل الهواء النظيف - بأنه إذا استطعنا توفيرها لشخص واحد، فبإمكاننا توفيرها للجميع من دون أن نتحمل أي تكلفة إضافية، وهذا يعني أنها سلعة لا تُستهلك بالطريقة نفسها التي يُستهلك بها اللحم المقدد، فبالتالي، تُصنف هذه السلعة بأنها غير تنافسية.

من الصعب للغاية - إن لم يكن مستحيلًا - استبعاد من لا يدفع مقابل نوعية السلع هذه من الاستفادة منها، فمثلاً: التنفس في الهواء النظيف يعتبر سلعة متاحة للجميع، ما يجعله سلعة غير استيعادية، وينطبق الشيء نفسه على التمتع بحماية الدفاع الوطني، فهي سلعة غير تنافسية؛ لا يقتصر حق التمتع بامتياز الحماية على شخص واحد أو فئة محددة، كما أنها سلعة غير استيعادية؛ فليس بمقدورنا منع الآخرين من التمتع بها بدورهم".

"وكيف يعتبر هذا الأمر مشكلة؟".

"لأنه عندما يحتم علينا الأمر الدفع مقابل التمتع بالسلع العامة، يتحلى الجميع بسلوك يطلق عليه "الراكب الحر" أي أنهم يريدون الاستفادة من تلك السلع من دون المساهمة في

تحمل تكاليفها، وإذا تمكن الأشخاص من الفرار بنجاح من تحمل هذه التكاليف، تُصبح المنظومة معرضة لخطر الانهيار. لنأخذ النقابات العمالية مثالاً؛ النقابة العمالية هي منظمة تسعى بجهد لحماية حقوق العاملين في قطاع صناعي معين، وتتميز النقابة - بفرض أنها تؤدي وظيفتها على أكمل وجه - بقدرتها على تأمين مكاسب واتفاقيات أفضل للعمال مما يمكن أن يحصلوا عليه إذا تفاوض كل منهم بشكل فردي، لهذا السبب، كره رجال الأعمال هذا النوع من النقابات على مر التاريخ. يتحتم على أعضاء النقابة دفع اشتراك شهري يقدر ببضعة جنيهات حتى تتمكن النقابة من تمويل أنشطتها، وإذا انسحب عامل ما من النقابة بصورة فردية، فبإمكانه توفير ما يدفعه من رسوم اشتراك شهري، وسيظل يتمتع بمنافع التفاوض الجماعي للنقابة، إنها استفادة مضاعفة بالنسبة لذلك الشخص.

لكن، إذا انسحب معظم أعضاء النقابة، فستنهال المنظمة وتقع الخسائر على عاتق الجميع".

"هممم، وأين يكمن حل المشكلة؟".

"فيما يتعلق بالأشياء المهمة، مثل تمويل الدفاع الوطني، وخدمة إطفاء الحرائق أو دعم الأنظمة القانونية، يكمن الحل في استخدام القوة الجبرية؛ تجبر الجميع على المساهمة في هذه التكاليف عن طريق فرض الضرائب، عندما تريد مؤسسات غير تابعة للحكومة مثل النقابات العمالية - التي ليس بمقدورها استخدام القوة الجبرية - من الأفراد أن يدفعوا المال مقابل سلع لها خصائص غير استيعادية وغير تنافسية، فإنها تتجه لاستخدام إستراتيجيات مثل ممارسة الضغط الاجتماعي أو تقديم مكافآت صغيرة".

"بدأ رأسي يؤلمني".

"آسفة بسبب هذا يا كلبى العزيز، ولكني أريد الحديث عن شيء آخر، هناك بعض السلع التي تتميز بكونها غير استيعادية، حيث يصعب علينا منع الآخرين من الاستفادة منها، ولكنها تنافسية في الوقت نفسه، أي يمكن استخدامها فعلياً بشكل زائد يؤدي إلى استنفادها، يُطلق على هذا النوع من السلع "الموارد المشتركة" وهي من الصعب حصرها

على فئة معينة من الأفراد، كما أنها تتأثر باستهلاك كل فرد لها، حيث إنها تتوافر بشكل أقل للآخرين كلما استُهلكت من قبل فرد واحد، هناك حجة تشير إلى أن إتاحة الموارد بشكل مجاني، إلى جانب الطلب المتزايد عليها والذي لا يخضع لأي قيود، سيتسببان في استنزاف الموارد بنهاية المطاف، سُميت هذه المشكلة بـ"مأساة المشاعات" وهذا استنادًا للمقال الذي كتبه جاريث هاردين في عام 1968. هناك مثال مأساوي للغاية على هذه المشكلة، وهو الصيد الجائر.

خلال معظم فترات التاريخ الحديث، تواجدت أعداد مهولة من الأسماك في البحار، وحينها، كان بمقدور أي شخص الخروج للصيد، دائمًا، يتبقى عدد كبير من الأسماك بعد عمليات الصيد يكفي لتكاثرها وتزايد أعدادها، يعتبر ساحل نيوفاوندلاند مثالًا مروّعًا لما يمكن أن يحدث عند وجود معدل متزايد وغير مقيد للطلب على الموارد المشتركة.

عُرفت هذه المنطقة على مر التاريخ بأنها مورد غني للغاية بأسماك القد، ولكن ظهرت تكنولوجيا جديدة في ستينيات القرن الماضي مكّنت القوارب من زيادة كميات صيدها بشكل ضخم؛ تميزت شبك الجر الحديثة بكونها قوية العتاد، وهي لم تصطد هذه الأعداد الضخمة من سمك القد فحسب، ولكنها اصطادت أيضًا أنواعًا أخرى من الأسماك غير التجارية التي لها أهمية كبرى في المحافظة على توازن النظام البيئي، انخفض مخزون أسماك القد في أوائل تسعينيات القرن الماضي بشكل حاد، ويرجع هذا إلى أنماط الصيد الجائر التي تعرض لها هذا النوع، حيث لم تعد قادرة على التكاثر من أجل تعويض الكميات المفقودة. بالنهاية، تم حظر صيد هذا النوع من الأسماك اعتبارًا من عام 1992، لم يعد مخزون أسماك القد إلى مستوياته السابقة حتى بعد مرور عشر سنوات منذ قرار الحظر، ولم يُحسم إلى الآن أي تقدير نهائي حول مدى قدرة المخزون على الانتعاش مجددًا.

"يا له من شيء مأساوي للغاية، ماذا يمكننا أن نفعل حيال هذا؟".

"إن الطريقة المستخدمة لحل هذا النوع من المشكلات هي الطريقة نفسها التي نلجأ بها للتعامل مع المؤثرات الحادة؛ الاستعانة بالإستراتيجيات التي تحدثنا عنها فيما سبق، مثل:

فرض الضرائب على السلع للحد من الطلب عليها، أو تحديد حقوق الملكية، أو تشريع الضوابط والقوانين. كان الوضع في نيوفاوندلاند كارثيًا لدرجة أن السلطات اضطرت لإصدار قرار بوقف نشاط صيد أسماك القد. حاولت السلطات حظر سفن الصيد الأجنبية قبل الوصول إلى هذا الوضع المتفاقم، ولكن لعبت سفن الصيد المحلية الدور نفسه، أضف إلى ذلك أن السلطات حاولت أيضًا تحديد نسبة معينة من أسماك القد المسموح بصيدها، ولكن هذه النسبة كانت عالية للغاية كونهم قدّروا عدد أسماك القد المتاحة بصورة مفرطة في المقام الأول".

"أهناك طريقة يمكننا من خلالها ألا نعتمد على قدرة البشر في اتخاذ القرارات الصائبة التي تخص حماية كوكبنا وعدم تلويثه بالمواد الكيميائية القاتلة؟ ففي بعض الأحيان، يتسم البشر بالحماسة، وهذا نابع من منظوري ككلب".

"بشكل عام، تشتمل جميع الإستراتيجيات التي ناقشناها - مثل فرض الضرائب وتشريع القوانين وإنشاء الأسواق - على تدخل الحكومة بصورة بارزة واستخدامها القوة الجبرية لاتخاذ مثل هذه الإجراءات، مع ذلك، أشارت إيلينور أوستروم (1933-2012) إلى أن هناك بعض الحالات التي يمكننا فيها التغلب على هذه المشكلات دون اللجوء لتلك الضوابط والأنظمة التي تضعها الحكومة. على ذكر هذا، تعتبر إيلينور أول امرأة في التاريخ تفوز بجائزة نوبل لإسهاماتها في العلوم الاقتصادية، كما أنها جادلت بأن المجتمعات المحلية قادرة تمامًا على إدارة الموارد المشتركة بنفسها دون أن تتسبب في استنزافها إذا ترك الأمر برمته بين أيديها، لكن، كانت إيلينور أول من يقر بأن الحل الذي اقترحته ليس علاجًا لجميع المشكلات، وأنه على الأرجح سيصلح أكثر في المجتمعات الصغيرة التي تتميز بوجود روابط وثيقة بين أفرادها، حيث يمكن للجميع مراقبة الآخرين ومعرفة مدى التزامهم بالاتفاقيات".

"تمهلي، إنني أجري بعض الحسابات الآن، ويبدو أن هناك خللاً ما، لقد ناقشنا السلع التي تتميز بخصائص الاستبعادية والتنافسية، مثل اللحم المقدد الذي أحبه، كما أننا ناقشنا

البضائع التي تتميز بكونها غير استيعادية ولا تنافسية، مثل الحماية الوطنية، وناقشنا أيضًا السلع التي تتميز بأنها غير استيعادية، ولكن تنافسية، مثل الأسماك. إذن ماذا عن...؟".

"السلع الاستيعادية غير التنافسية؟ يا لك من كلب ذكي! لنحاول أن نجد سلعة بهذه الخصائص، ما يتميز به هذا النوع من السلع هو أنه يتيح للأشخاص فرض الرسوم في مقابل الحصول عليه - على عكس الدفاع الوطني - ولكن في الوقت نفسه، تتميز السلعة بأنها غير تنافسية، لذا السماح للآخرين بالاستفادة منها لن يحملنا أي تكاليف إضافية - أي أن استهلاك كل فرد لهذه السلعة لن ينقص من قدرة الآخرين على استهلاكها بدورهم - وتعتبر شركة نتفليكس أو أي منصة ترفيهية أخرى على الإنترنت مثالاً على هذا؛ في غالب الأحيان، يتسم توفير هذا النوع من السلع بكون تكلفته الثابتة مرتفعة للغاية، وتكلفته الحدية تكاد لا تذكر أو تقدر بصفر، في حالة كهذه، من الوارد جدًا أن نشهد حدوث الاحتكارات أو هيمنة عدد صغير للغاية من الشركات العملاقة على السوق، كونها تتمتع بميزة انخفاض تكاليفها الحدية بالمقارنة مع أقرانها من الشركات الصغيرة، وهذا يؤدي بنا إلى جميع العواقب الوخيمة المصاحبة لحدوث الاحتكار والتي تناولناها سابقًا".

"ما رأيك أن تبتاعي لي وجبة جاهزة لكوني أشعر بالحزن لأنني لم أحصل على قطع الكباب تلك؟".

"مهاراتك التمثيلية هذه يجب أن تُعرض في المسارح! الفكرة الرئيسية المُستنتجة هنا هي أن الأسواق ستعمل بصورة مثالية عندما يتعلق الأمر بتداول السلع التي تتميز بخصائص الاستيعادية والتنافسية معًا، أما الأنواع الأخرى فستسبب مشكلات لن تتمكن منظومة السوق من حلها بمفردها.

لعلني تناولت الموضوع بطريقة جعلته يبدو واضحًا وصريحًا، وهذا لا يتماشى مع حقيقة الواقع المبهمة والملتوية، ولكن دراسة مفاهيم الاستيعادية والتنافسية والتركيز على التباين بينهما وسيلة مفيدة تساعدنا على فهم الأسباب التي تدفع الأسواق إلى الازدهار أو الانهيار. إن الفكرة الرئيسية التي أريد إيضاحها حقًا هي أن الأسواق قد تعمل بفاعلية كبيرة

فيما يتعلق بالسلع الخاصة، ولكن قد تواجه الأسواق بعض المشكلات والتحديات عندما يتعلق الأمر بالأنواع الأخرى، لذا يجب علينا أن نتعاون جميعًا على إيجاد طرق فعالة لتوفير هذه السلع أو وضع القيود على استهلاكها المفرط، وإلا فسنتكبد الخسائر جميعًا، أنا أشعر بالبرد يا مونتي، كما أنه حان وقت العشاء لكلينا".

"لا داعي لقول هذا، فأنا أشاركك الرأي نفسه تمامًا، بحسب ما أذكر، هناك بعض بقايا اليخنة التي يريدونها كلبك المخلص".

## النزهة ٩: السوق والمعلومات: لِمَ لَمْ يعد شراب ريد بول يجعلك بأجنحة؟

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: لماذا تحتاج الأسواق إلى معلومات دقيقة حتى تتمكن من تأدية وظيفتها على نحو لائق؟ وما الإجراءات التي تتخذها الحكومات والشركات من أجل حل هذه القضية المتعلقة بالمعلومات؟ ولماذا دفعت شركة ريد بول غرامة قدرها 13 مليون دولار أمريكي بسبب شعارها: "ريد بول يجعلك بأجنحة"؟ وكيف تتسبب المعلومات في خلق مشكلة معينة بالنسبة لأسواق التأمين؟ وكيف ساهمت منصة إلكترونية لتجارة الأدوية في تكوين مجموعة من المحتالين الذين يتمتعون بالنزاهة (فيما بينهم)؟ ولماذا نقوم في بعض الأحيان باتخاذ القرارات الخاطئة حتى عندما تتوافر لدينا معلومات دقيقة؟

كان الطقس رائعًا جدًا في ذلك اليوم الخريفي الجميل؛ تألأت أشعة الشمس من خلال أوراق الشجر التي تلونت باللون الأصفر، لذا خطرت لي فكرة، وهي أن نأخذ نزهة طويلة في حديقة "هامبستيد هيث" حتى نصل إلى المقهى المعروف بترحيبه بالكلاب بصدر رحب عند قصر "كينوود هاوس". إن رجلي مونتي الكيلتين لا تتحملان قطع مسافة كبيرة كهذه، لذا في بعض الأحيان، أقوم بحمله في البداية عندما ننتقل في نزهتنا بين الشوارع. يطلب مني مونتي بإصرار أن أخفيه تحت معطفي إذا صادفنا أيًا من رفاقه الكلاب، لأنه لن يستطيع "تجاوز هذا الموقف المخرج" إذا علمت أنه لا يتحمل قطع هذه المسافة على قدميه، بدأت الحديث عندما وصلنا إلى طريق الغابة الجاف الذي يربط بين "وايتستون بوند - وكينوود" وهو من الأماكن التي تتميز بالهدوء والجمال الخلاب الطبيعي.

"حسنًا يا مونتي، حتى أكبر الداعمين لسياسات السوق الحرة يعترفون أحيانًا بأن الأسواق لا تعمل بشكل مثالي طوال الوقت، لقد تناولنا في نزهتنا السابقة واحدة من المشكلات التي تتسبب في فشل منظومة الأسواق، وهي مشكلة المؤثرات الخارجية، مثل التلوث

والازدحام المروري، هناك مشكلة أخرى قد تتسبب في حدوث خلل في الأسواق يجعلها تعمل على نحو سيئ - أو لا تعمل على الإطلاق - وهي مشكلة المعلومات، ويستخدم مصطلح "تفاوت المعلومات" لوصفها، وهو يعني وجود طرف ما في الصفقة التجارية على علم بشيء محدد لا يعلمه الطرف الآخر، هناك فرضية غاية في الأهمية تناولناها في نموذج سوق المنافسة المثالية، وهي تنص على أن الأفراد على وعي تام بما سيحصلون عليه عندما يقومون بإبرام أي صفقة تجارية. عندما لا تتحقق هذه الفرضية، يحدث اضطراب في آلية عمل السوق".

"وما مدى خطورة هذه المشكلة؟".

"تختلف هذه الإجابة بحسب الشخص الذي تسأله، ولكن بشكل عام، تنتشر المشكلات المتعلقة بالمعلومات في جميع المجالات؛ مثلاً: لا يعرف المقرض بالضبط مدى احتمالية سداد المقرض للقرض، ويعرف مصنع طعام الكلاب معلومات عن تلك المنتجات المعلبة أكبر بكثير مما يعرف المشترون، وقد يبدو أحد أجهزة آيفون بحالة رائعة على متجر "إيباي" الإلكتروني، ولكنك لن تعرف أنه جهاز أصلي وغير مقلد حتى تشتريه وتحمله بين يديك، إن لم يكن المستهلكون واثقين من أنهم يحصلون على قيمة جيدة من الصفقات التجارية، فسيؤثر هذا على سلسلة سير العمليات التي تحدث في أي سوق، الفكرة الأساسية هنا: يمكن للمشكلات المتعلقة بالمعلومات أن تحيّد عجلة التجارة، بل تتسبب في انهيار الأسواق بشكل كامل في بعض الحالات المتطرفة".

"ألا تعتقد أنك تهولين من الأمر قليلاً؟".

"لعلني بالغت ولكن ليس كثيراً، فالأسواق لا تعمل على نحو جيد عندما تفتقر إلى عامل الثقة، لنأخذ المتاجر الإلكترونية على سبيل المثال، يعتبر متجر "أوكشن ويب" من أوائل المتاجر الإلكترونية، ولقد تطور فيما بعد ليصبح متجر "إيباي" الحالي، حدثت أول عملية شراء على هذا المتجر في عام 1995، وكان صاحبها مارك فريزر الذي قام بشراء قلم ليزر (جهاز صغير ينبعث منه شعاع ليزر) ولكن كيف تأكد فريزر أنه سيتم شحن قلم الليزر له



إذا أرسل لهم المال؟ في هذه الفترة، اضطر المشتري أن يراهن عليهم، عُرض قلم الليزر للبيع بمبلغ زهيد للغاية (حيث ذكر في إعلان البيع أنه معطوب، واعتقد فريزر أنه سيتمكن من إصلاحه)، واستعد فريزر لأن يأخذ تلك المخاطرة، لكن في الوقت نفسه، احتاج متجر إيباي إلى وسيلة يُطمئن بها المشتريين المهتمين بأنهم لن يتعرضوا للخداع أو الاحتيال؛ من دون هذا، لن يتعدى المتجر كونه هواية ممتعة يحب مؤسسه ممارستها، ولما أصبحت ثروة بيبير أميديار - مؤسس المتجر - تقدر بالمليارات. لذا، قدم متجر إيباي بحلول عام 1997 ميزة جديدة لتزويد المشتريين ببعض المعلومات الإضافية والمهمة، وهي ميزة تقييم البائع، وبفضلها، بات لدينا طريقة موضوعية لتقييم مدى موثوقية البائعين في المتجر".

"ولكن كيف يمكن للناس التأكد من مدى صحة التقييمات الموجودة على الإنترنت؟".

"ملاحظة ممتازة، فبمجرد أن تصبح تقييمات العملاء على الإنترنت قيمة ومفيدة، سيحاول بعض الأشخاص العبث بالنظام عن طريق إرسال تقييمات مزيفة مما يؤدي إلى تدهور جودة الأسواق الإلكترونية والضرر بسمعتها، قامت صحيفة فاينانشيال تايمز في عام 2020 بفحص حسابات الأشخاص الأكثر نشاطًا فيما يخص كتابة التقييمات على موقع أمازون في المملكة المتحدة، ووجدت الصحيفة نشاطًا مشبوهًا عند تسعة أشخاص من أصل العشرة الأكثر مساهمة على الموقع.<sup>1</sup> تذكر دائمًا أن المعلومات هي العمود الأساسي الذي تُبنى عليه مصداقية السوق، ولكن ما لدينا في الوقت الحالي ليس معلومات، بل مجرد أكاذيب".

"إذن، هل مشكلة المعلومات هذه موجودة فقط بالأسواق الإلكترونية؟".

"بلى، هذه الظاهرة موجودة منذ ما قبل عصر الإنترنت. قدم الخبير الاقتصادي الأمريكي جورج أكرلوف مثالًا نظريًا وكلاسيكيًا حول هذه المشكلة،<sup>2</sup> حيث تخيل في هذا المثال وجود نوعين فقط من السيارات المستعملة؛ تمثل فاكهة الخوخ نوعًا معينًا، ويمثل الليمون النوع الآخر. امتاز نوع الخوخ بأنه ذو جودة عالية، ولكن الليمون على النقيض، ذو جودة رديئة، بطبيعة الحال، يعلم بائع السيارات المستعملة أي نوع جيد وأي نوع رديء، ولكن

المشتري المسكين لا يعلم؛ من السهل جدًا على البائع تزييف الحقيقة وتقديم نوع الليمون على أنه خوخ، لهذا السبب، يتردد المشتري في دفع مبلغ كبير من المال في مقابل سيارة من نوعية الخوخ، خشيةً من أن يكتشف لاحقًا أنه قد اشترى سيارة من نوعية الليمون فور وصوله إلى المنزل، ولهذا السبب أيضًا، يلجأ المشترون إلى التفاوض على خفض سعر السيارة، ولكن إن كان البائع على علم تام بأن ما سيبيعه هو سيارة من نوع الخوخ، فمن الطبيعي أن يعارض بيعها بسعر الليمون، تكمن النتيجة المترتبة على هذا في انسحاب البائعين ذوي سيارات الخوخ، وبالتالي سيصبح الليمون هو الشيء الوحيد المتوافر بكثرة في السوق".

"وحينها سيصنع الجميع عصير الليمون؟".

"طريف جدًا، الشاهد هو أن الأسواق لن تزدهر أبدًا ما دامت المعلومات الضرورية التي يحتاج إليها الناس عن المنتجات المعروضة للبيع لا تتوافر لهم".

"لقد أوضحت مقصدي بأن هذا الشيء المسمى تفاوت المعلومات يعتبر مشكلة حقيقية، ولكنني أفترض أن هناك حلًا لها، أليس كذلك؟".

"هناك بعض التدابير التي طرحتها الشركات من أجل معالجة هذه المشكلة، على سبيل المثال: يمكن أن تقدم لك الشركات ضمانًا على منتجاتها، وهو عبارة عن شهادة مكتوبة تنص على أن الشركة ملزمة بتصليح أو استبدال أي منتج اشتريته إذا حدث به أي عطل خلال فترة زمنية محددة، فالهدف الأساسي من فكرة الضمان هو طمأنة المشتري. في بعض الأحيان، يدفع الأشخاص مبلغًا ماليًا مقابل الاستعانة برأي خبير، فمثلاً: يقوم البعض بدفع المال لخبير عقاري من أجل الحصول على تقرير مفصل حول حالة المنزل قبل الشراء، لعل أهم الطرق في التعامل مع هذه المشكلة هي بناء علامة تجارية ووضع معايير محددة للمنتجات، وإذا نظرت حولك ستجد أن الشركات تسعى لإقناع المستهلكين بأن علامتها التجارية محل ثقة؛ مثلاً: ذلك المقهى الجديد والفريد من نوعه يتميز بتقديم أفضل أنواع القهوة، ولكن في الوقت نفسه، يضع ستاربكس آمالاً بأن مستهلكيه لن

يخوضوا المخاطرة ويقوموا بتجربة هذا المقهى، عندما تزور أي فرع من فروع ستاربكس، سواء في لندن أو لاهور أو لوس أنجلوس، فأنت واثق تمامًا بأنك ستفهم قائمة طلباتهم، وأن الفرع سيمتاز بكونه نظيفًا وآمنًا ويوفر شبكة "واي فاي" جيدة، كما أنك تعلم يقينًا أن مذاق مشروب "اللاتيه بنكهة الفانيليا" لن يختلف عما أنت معتاد عليه، وأن دورة المياه لديهم لا بأس بها. إن الهدف الأساسي وراء بناء الهويات التجارية هو اكتساب ثقة المستهلك وجعله يشعر بأنه يتعامل مع أيدٍ آمنة، ويُعد مثال القهوة واحدًا فقط من بين أمثلة كثيرة؛ تنطبق هذه القاعدة على جميع الأشياء، من أشياء بسيطة كمعجون الأسنان والملابس، إلى أشياء أكبر مثل الجامعات التي نختار الدراسة بها.

يعبر شعار شركة جون ليويس: "لن نبيع بأقل من القيمة المستحقة" - الذي لم يعد يستخدم في الوقت الحالي - عن مدى شفافتهم تجاه الطبقة المتوسطة في المملكة المتحدة، حيث لن يستغلوا عملاءهم عن طريق البيع بأسعار مبالغ فيها،<sup>3</sup> كما أن سياسة استرجاع شركة نايكى - التي تصل إلى ستين يومًا - تعتبر وسيلة لطمأنة المستهلكين وإخبارهم: خففوا من توتركم، فنحن نثق تمامًا بكون منتجاتنا عالية الجودة، ونحن واثقون من أنها ستعجبكم وعلى استعداد تام لمنحكم فترة استرجاع قدرها ستون يومًا لكم فيها مطلق الحرية لتغيير رأيكم. هناك بعض الشركات المعروفة بأن لديها سياسة استرجاع لمدة سنة مثل شركة ليفاي شتراوس؛ تحاول الشركة إخبارنا بأنها شرعت في مجال صناعة البناتيل الجينز منذ عام 1853، ما يوحي بأنها شركة جديرة بالثقة، حيث لو لم تكن كذلك لما ظلت متواجدة إلى يومنا هذا، ولما كان عملاؤها في حالة من الرضا تجاه خدماتها".

"إن كانت المعلومات ذات أهمية كبرى في المحافظة على سلامة عمل الأسواق، لم لا تتدخل السلطات؟".

"تتدخل الحكومة بالفعل عند الضرورة؛ هناك بعض الحالات التي يعمل فيها التنظيم الذاتي بشكل فعال، ولكن في بعض الحالات الأخرى، نحتاج إلى الحكومة لاتخاذ الإجراءات والحلول التي تتطلب تنظيمًا رسميًا. أولئك الذين يشيدون بمزايا منظومة السوق الحرة

ويفضلون الحد من تدخل السلطات بقدر المستطاع، دائماً ما يغفلون حقيقة مهمة، وهي أن الأسواق في حاجة ماسة إلى وجود القواعد والتنظيمات والمؤسسات الفعالة حتى تتمكن من العمل بالصورة المطلوبة، تضع الحكومة عادةً بعض القوانين التي تحدد نوعية المعلومات التي يجب الكشف عنها للمستهلكين، فمثلاً: جميع الأطعمة المعلبة في المملكة المتحدة يجب أن يوضع عليها ملصق يُعلم المستهلكين بالمكونات الموجودة في الطعام بالتفصيل، أو عندما تقرر عرض منزلك للبيع، يجب إعلام المشتري بمجموعة كبيرة من المعلومات لربما تؤثر على قرار شرائه، وتتضمن تلك المعلومات أشياء مهمة مثل المشكلات البنائية وصولاً إلى مسائل أخرى كالنزاعات مع الجيران.

علاوة على ذلك، تضع الحكومات قواعد تنظيم الإعلانات، بحيث تتسم بالصدق وتبتعد عن التضليل؛ واجهت شركة دانون بعض المشكلات في عام 2008 بسبب ادعائها أن الزبادي المصنع لديها يحتوي على فوائد صحية، ونتيجة لذلك، دفعت الشركة غرامة قدرها 45 مليون دولار أمريكي، وأمرت بحذف بعض المصطلحات من العبوات المغلفة لمنتجاتهم مثل: "علمياً" و"مثبت بالتجارب السريرية"، كما رُفعت دعوى قضائية ضد شركة ريد بول في عام 2014 بسبب شعارها: "ريد بول يعطيك جوانح" بحجة أن شراب ريد بول في الحقيقة لا يؤدي إلى ظهور أجنحة لدى المستهلكين "4.

"أحقاً ما تقولين؟ هذا جنون!"

"نعم، إنه أمر غير عقلاني بعض الشيء، لكن مع ذلك، تحملت الشركة تكاليف تقدر بـ13 مليون دولار. اضطرت لدفع عشرة دولارات لكل مستهلك في الولايات المتحدة يشتري المشروب منذ عام 2002، وتعتبر هذه الحالة الاستثنائية مثلاً لحقيقة أساسية، وهي أن الأسواق بحاجة ضرورية إلى توافر المعلومات حتى تتمكن من العمل على نحو فعال؛ تتجلى الأهمية القصوى لهذا الأمر بوضوح من خلال مثال على نوعية معينة من الأسواق تعاني بشدة مواطن الخلل المتعلقة بالمعلومات: أسواق التأمين".

"وما المشكلة المتعلقة بها؟".

"حسنًا، هناك مشكلتان رئيسيتان. يواجه الناس بعض الأمور العسيرة في حياتهم مثل حوادث السيارات، وحرائق المنازل، والتعرض لسرقة الهواتف المحمولة، ولهذا، يوجد التأمين لتقديم الدعم والمساعدة في مثل هذه الحوادث. تتعلق المشكلة الأولى بما يسمى "الاختيار السلبي"، بطبيعة الحال، يرغب الأشخاص الذين يحدد بهم خطر التعرض لتلك الحوادث في شراء التأمين، على النقيض، قد يظن الأشخاص الواثقون من كونهم أقل عرضة لتلك المخاطر بأن التأمين صفقة غير مفيدة لهم".

"أنا لا أفهم لماذا يُنظر إلى هذا على أنه مشكلة؟".

"يعتمد التأمين بشكل كامل على الأرقام والإحصائيات، لنأخذ التأمين الصحي مثالًا، هناك بعض الأشخاص (كصغار السن والأصحاء) ذوي حاجة شبه منعدمة إلى وسائل الرعاية الصحية، والعكس صحيح؛ البعض الآخر يعاني أمراضًا مزمنة تتطلب مئات الآلاف من الجنيئات لعلاجها، تجني شركات التأمين الأرباح عن طريق حساب متوسط التكاليف لدى جميع حاملي وثائقها التأمينية، ومن ثم إضافة هامش ربحي إلى هذه التكاليف، لكن، إن أدرك كل فرد مستوى الخطر الذي يمكن أن يتعرض له، فقد يقرر البعض أن الأمر لا يستحق تحمل عناء دفع تلك التكاليف، على الأرجح، سيعزف الأشخاص الذين يتمتعون بصحة ممتازة عن الحصول على هذا التأمين، في الحين نفسه، سيندفع من تفتك بهم الأمراض إلى الحصول على أفضل وأشمل سياسة تأمينية بقدر المستطاع، نتيجة لهذا، سيزداد متوسط التكاليف، وبالتالي سترتفع الرسوم التي يدفعها الأشخاص المؤمنون حتى تتمكن الشركات من تغطية التكاليف الجديدة والعالية (الناجمة عن عزوف الأشخاص الأصحاء عن الحصول على التأمينات)... أتفهم النمط الذي يسير به سوق التأمين؟ كلما ارتفع السعر الجديد، قرر الأشخاص الأصحاء أنهم لن يستفيدوا من صفقة كهذه، وأن السعر لا يستحق الدفع، لذلك ينسحبون جميعهم من الأمر برمته، تتفاقم المشكلة من سيئ لأسوأ حتى تصبح تكاليف التأمين باهظة بشكل فاحش، وينتهي المطاف بوجود فئة كبيرة من السكان لا يمتلكون تأمينًا صحيًا على الإطلاق".

"لكن الأمر لا يصل إلى تلك الدرجة على أرض الواقع، صحيح؟".

"بلى، يحدث في بعض الأحيان، ولكن هناك بعض الطرق للتغلب على هذه المشكلة، تمتلك المملكة المتحدة نظام رعاية صحية ممولاً بالكامل عن طريق الضرائب، حيث تهدف السلطات بهذه الطريقة إلى إجبار الجميع على المساهمة في التمويل، وبالفعل، أثبتت هذه الطريقة فاعليتها المدهشة في تمويل نظام الرعاية الصحية. عندما تقرر الحصول على تأمين صحي خاص، يحبذ مقدمو الخدمة تأمين مجموعات كبيرة من الأفراد مع بعضهم البعض، بحيث لا يمكن لكل فرد على حدة اختيار الالتحاق بالتأمين أو الانسحاب منه كما يحلو له. لهذا السبب، أصبح من الشائع توفير التأمين الصحي للأفراد من خلال أرباب عملهم، حاول قانون الرعاية الصحية في أمريكا (المعروف أيضًا بأوباما كير) التغلب على مشكلة الاختيار السلبي من خلال إلزام الجميع بشراء تأمين صحي؛ سأقولها ثانيةً، الهدف من هذه المحاولة هو منع الشباب والأصحاء من العزوف عن شراء التأمين، وجد الناس في العديد من الدول - عدا الولايات المتحدة التي تعتبر حالة استثنائية جديدة بالذكر - أن المشكلات المتعلقة بالمعلومات فيما يخص أنظمة التأمين الصحي باتت على مستوى عالٍ من الخطورة إلى حد أن السوق الخاصة أيضًا لن تتمكن من توفير حلول فعالة".

"لقد قُلْتُ إن هناك مشكلتين رئيسيتين، فما هي المشكلة الثانية؟".

"يطلق على المشكلة الثانية مصطلح "الخطر الأخلاقي"، وهو يؤكد على فكرة: امتلاك تأمين صحي قد يشجع الأفراد على التصرف باستهتار، لعل هذه ليست مشكلة عويصة تتعلق بالتأمين الصحي؛ مثلاً: من غير المرجح أن يتوقف الناس عن فحص احتياطات الأمان عندما يذهبون لممارسة القفز بالمظلات لمجرد أنهم يمتلكون وثائق تأمينية محدثة من شركة BUPA. لكن، قد يمثل الخطر الأخلاقي مشكلة كبيرة بالنسبة لأنواع أخرى من التأمين، على سبيل المثال: إن كان لديك تأمين على سيارتك، فربما يجعلك هذا غير مبالي فيما يخص مكان ركن السيارة، ألا تذكر عندما ألقت روزي هاتفها المحمول نحو جابريال وحطمت شاشته؟ ما كانت روزي ستصرف بهذه الطريقة الدرامية إن لم يكن لديها تأمين

على هاتفها المحمول، حسب اعتقادي. تُعد الأزمة المصرفية في عام 2008 مثالاً آخر أكثر حدة على مشكلة الخطر الأخلاقي، إن السبب الرئيسي وراء حدوث الأزمة المالية هو منح البنوك قروضًا ذات مخاطر عالية. عندما كانت الأمور على ما يرام، تم سداد تلك القروض وحقق البنك (والعاملون به) أرباحًا هائلة بوتيرة سريعة.

لكن، عندما برزت أخطار تلك القروض على أرض الواقع، لجأ المقرضون إلى البنك المركزي ليساعدهم على الخروج من الأزمة، عوضًا عن أن يتحملوا عواقب حماقتهم بأنفسهم، وبالنهاية، تم سداد الكلفة من خلال الضرائب التي تجمعها الدولة من الشعب".

"هذا ليس عدلاً".

"صحيح، ولكن لم يتوافر أمامنا بديل سوى هذا الحل، حتى لو كان العاملون في البنوك لا يستحقون إنقاذهم من ورطة كهذه، فعدم تخليص البنوك بشكل عام من هذه الأزمة كان سيؤدي إلى حدوث فوضى اقتصادية عارمة تنجم عنها تبعات خطيرة، ويعتبر هذا مثالاً غاية في الوضوح على مفهوم الخطر الأخلاقي؛ لم يضطر العاملون في القطاع المصرفي إلى تحمل العواقب الناتجة عن أفعالهم عندما أخذت الأمور مجرى سيئًا، وهذا ما شجعهم على خوض تلك المجازفات في المقام الأول، حيث تركوا الأمر بالكامل بين أيدي الحظ، تمامًا مثل رميهم عملة معدنية: إذا حطت العملة على الصورة، ربحوا، وإذا حطت على ظهرها، خسرنا نحن".

"إذن كيف تتعامل شركات التأمين مع هذه المشكلات - الاختيار السلبي والخطر الأخلاقي؟".

"فيما يخص التعامل مع قضية الخطر الأخلاقي، تتجه الشركة في بعض الأحيان إلى استخدام سياسة الخصم لتحملك جزءًا من التكلفة، على سبيل المثال: قد يتعين عليك أن تدفع مقدمًا مائة جنيه إسترليني من قيمة أي مطالبة تأمينية تقدمها للشركة. يتميز الخصم بكونه وسيلة غير مباشرة للحصول على بعض المعلومات حول العملاء؛ على الأرجح، فإن

العملاء الموافقين على دفع مبالغ كبيرة مقابل بوليصة التأمين هم الأشخاص أنفسهم الذين يقودون السيارات بحذر، أما عن أولئك الصبية ذوي الثمانية عشر عامًا الذين يريدون تأمين سيارة مستأجرة دون أن يُخصم منهم أي تكاليف، فسلوكهم هذا إشارة للشركة على كونهم غير موثوقين ولا يستحقون خوض أي مخاطر من أجل تأمينهم؛ أما من جهة التعامل مع مشكلة الاختيار السلبي، فتسعى شركات التأمين لجذب مجموعة كبيرة من العملاء، كما يعتبر التأمين على السيارات إلزاميًا في المملكة المتحدة، مما يحد من مشكلة انسحاب الأشخاص قليلي التعرض للخطر".

"حسنًا، لقد فهمت كيف تساهم المعلومات الدقيقة بشكل حيوي في نجاح منظومة التأمين،  
أهناك أمثلة أخرى؟".

"هناك حالة أخرى تبرز فيها المشكلات الناجمة عن تفاوت المعلومات بصورة واضحة كالشمس: سوق تداول العقاقير غير المشروعة. مهما كان منظورك الأخلاقي حول تعاطي المخدرات، فهناك حقيقة ثابتة: يوجد بعض الأشخاص الراغبين في شراء المخدرات، ويوجد البعض الآخر الذي يرغب في بيعها، ودائمًا تؤدي الأسواق دورها في توصيل الطرفين ببعضهما البعض، ظهر اتجاه رائج لتجارة المخدرات من خلال المنصات الإلكترونية، عوضًا عن الطرق التقليدية مثل شرائها من الشوارع المظلمة والمحفوفة بالمخاطر.

وسّعت تلك المنصات بشدة نحو شق طريقها لتصبح ما يماثل متجر أمازون فيما يختص بتجارة المحظورات، لعل المتجر الإلكتروني طريقة أسهل وأكثر أمانًا من التسكع في أماكن مشبوهة بالمدينة ليلاً، ولكن مع ذلك، تبقى قضية توافر المعلومات مشكلة شائعة وشائكة، كيف يتسنى لك التأكد من أنك ستحصل على ما طلبت؟ فربما يكون المخدر الذي طلبته في الواقع مجرد مسحوق خبز مخلوط بمادة أخرى تستخدم لعلاج الديدان في المواشي، كما قد يكون قرص المخدر الذي طلبته مجرد قرص أسبرين، هذا إن حالفك الحظ. إن شراء هذه المواد ليس مثل التسوق من متاجر جون ليويس، حيث توجد وعود و ضمانات



لاسترجاع أموالك في خلال ستين يومًا، فأنت لا يمكنك مقاضاة هذه المتاجر في المحكمة أو تقديم شكوى ضدها لجهاز حماية المستهلك. كتب شخص تعرض للاحتيال عندما حاول شراء بطاقات ائتمانية مسروقة على الإنترنت تعليقًا على موقع في الدارك ويب، يقول فيه: "أرغب في إجراء كم هائل من الصفقات التجارية، ولكني لا أريد أن أتعرض للنصب، أتمنى لو أستطيع التعامل مع مجموعة من المحتالين النزيهين".<sup>5</sup> يلخص هذا التعليق بصورة ما جذور المشكلة".

"إن كيف تستطيع هذه النوعية من الأسواق الصمود في خضم كل ما ذكرته بشأن المشكلات المتعلقة بالمعلومات؟".

"تحتّم على هذه النوعية من الأسواق - كما ينطبق الأمر نفسه على أي سوق آخر - إيجاد سبيل يستطيع من خلاله البائعون والمشترون الوثوق ببعضهم البعض، وتمكن أحد المتاجر من تحقيق هذا من خلال عدة وسائل متنوعة ومألوفة، أنشأ المتجر نظامًا للتقييم كما فعل متجر إيباي، كما قدم المتجر خدمة ضمان مالي في حالة ارتباك الشك حول التقييمات المتاحة على الموقع، تتميز هذه الخدمة بأنها لا تحول المستحقات المالية للبائع إلا عندما تؤكد المنصة أنك حصلت على ما طلبته بعدما انتهيت من عملية الشراء وقمت بدفع المال باستخدام عملة البيتكوين، علاوة على ذلك، طالبت المنصة البائعين المنضمين حديثًا بدفع سند مالي مقابل الحصول على إذن بيع في المنصة، كما أن البائع يخسر حق استرداد هذا السند إذا تقدم عدد كبير من المشتريين بشكاوى ضده".

"وهل كانت هذه الطريقة فعالة؟".

"نعم وأيضًا لا، ظلت هذه المنصة مستمرة في نشاطها في الفترة بين عامي 2011 و2013، وبعدها، أغلق مكتب التحقيقات الفيدرالي الموقع بشكل دائم، ولكن حتى لحظة إغلاق المنصة، بدت هذه الأنظمة تعمل بصورة لا بأس بها. لكن، هؤلاء الأشخاص المديرون لهذه النوعية من الأسواق ليسوا مواطنين مثاليين، فحيازتهم كميات كبيرة من عملة البيتكوين مودعة لديهم، بالإضافة إلى جميع السندات التي اضطر البائعون إلى دفعها حتى

يسمح لهم بممارسة النشاط التجاري، قد يحفزهم على الهروب بهذه المبالغ الطائلة، هذا بالتحديد ما حدث مع منصة إلكترونية أخرى شرعت في تجارة المخدرات، وسُميت بذا شيبب ماركي تبليس،<sup>6</sup> حيث أعلنت المنصة أنها تعرضت للاختراق وسرقة جميع عملات البيتكوين، ولكن ساور الناس الشكوك بأن القائمين على المنصة قد قرروا الاستحواذ على الأموال والهروب بها".

وصلنا إلى قصر كينوود الذي تلون باللون الأبيض الساطع تحت أشعة الشمس الصباحية، وتوجهنا إلى المقهى الذي بُني في مكان بعض الإسطبلات القديمة، وجدنا طاولة منعزلة خارج المقهى، فربطت مونتي بالمقعد، وتوجهت إلى الداخل لشراء الكرواسون والقهوة لنفسني، وبعض النقانق ووعاء من الماء من أجل مونتي حتى أكافئه على هذه المسافة الطويلة التي قطعناها، وقعت عينا مونتي على وجبته، وحاول التظاهر بالهدوء لبضع ثوانٍ، لكن بعدها بدأ في نوبة من النباح المزعج الذي يجعلني في العادة أمنحه الوجبة على الفور، ولكنني قررت هذه المرة أن أجعله يبذل بعض المجهود حتى يحصل عليها.

"ما رأيك يا مونتي أن تعطيني تلخيصًا سريعًا لما تناولناه في الجزء الأول من نزھتنا؟".

"أهذا وقت مناسب للتليخيص حقًا مع وجود إصبع النقانق اللذيذ ذاك؟ حسنًا، لا بأس، لقت قلت إن الأسواق لن تعمل بفاعلية في حالة غياب ما يحتاج إليه الطرفان من معلومات كافية حتى يستطيعا الوثوق في الصفقة التجارية وفهمها، وهناك عدة طرق للتغلب على هذه المشكلة، مثل وجود ضمانات باسترجاع الأموال، ونظام المراجعات على الإنترنت، وبناء الهويات التجارية، وأضيفي إلى ذلك أن الحكومة تتخذ بعض الإجراءات لضمان عمل الأسواق بفاعلية، مثل تشريع وفرض القوانين التي تحدد ما يجب الكشف عنه من معلومات، وتضمن أن الإعلانات التجارية لا تتسم بالتضليل، وأخيرًا، تجد الأسواق غير الشرعية صعوبة في تطبيق هذه التدابير كونها لا تمتلك نظامًا قانونيًا يضمن انصياع الأشخاص للقوانين".

"ممتاز، لقد كنت أفترض حتى الآن أنه إذا امتلك الأفراد المعرفة الكافية، فإنهم سيتمكنون من اتخاذ القرارات الصائبة، واتخذت هذا الأمر على أنه حقيقة مسلم بها، لكن، ماذا لو لم يتمكن الأفراد من صنع القرارات الصائبة مع امتلاكهم المعلومات التي يحتاجون إليها؟ بمعنى آخر: هل يمكننا الوثوق بالناس فيما يتعلق بصنع قرارات حكيمة فيما يتعلق برفاهيتهم؟ هنا، يأتي دور مجال مثير للاهتمام يُسمى الاقتصاد السلوكي".

لم يستطع مونتي سوى المهمة في ذلك الوقت كون وجهه مغطى بالنقانق التي يتناولها.

"يعتبر الاقتصاد السلوكي هو نتاج الدمج بين مجالي الاقتصاد وعلم النفس معًا، يفترض الاقتصاد المتعارف الحديث عليه أن الأفراد على علم تام بما يريدون، وأنهم لا يغيرون آراءهم بطريقة عشوائية بالإضافة إلى أنهم قادرون على صنع قرارات مدروسة وعقلانية، إذا افترضنا أن الأفراد باتوا على قدر كافٍ من العقلانية، أي أنهم أصبحوا واعين بما هو في صالحهم، وعرفوا كيفية تحقيقه، حينها، سيصبح من السهل علينا التنبؤ بالنتائج، تمامًا مثلما يتنبأ العلماء بدقة بما سينتج عندما تصطدم كرة بلياردو بأخرى".

"هذا شيء رائع، أو هكذا أظن...".

"لكن، هناك العديد من الدلائل التي تشير إلى أن قراراتنا تتأثر بعوامل غير عقلانية كثيرة من حولنا، إن البشر بطبيعة الحال كائنات تفتقر إلى المنطق في بعض الأحيان وتقوم بارتكاب الأخطاء، وهذه حقيقة ليست بالشيء المفاجئ لنا، وفي ضوء تلك الحقيقة، قد يعتقد المرء أن الأسس العلمية التي يقوم عليها الاقتصاد عُرضة للانتقاد والتشكيك".

"واو!".

"إلا أنه قد يحدث خلاف ذلك في بعض الأحيان، وهذا هو النهج الذي يتبناه الاقتصاد السلوكي، وهو يؤكد سهولة التنبؤ بنمط السلوك غير العقلاني لدى البشر كونه متكررًا.

إن الفكرة المحورية لا تتمركز حول ارتكابنا الأخطاء، بل تؤكد الفكرة أن العديد من تلك الأخطاء يمكن توقعها بسهولة".

"نعم، فهمت، الأمر كأنك تُمسكين شيئًا بإحدى اليدين، وتُعطي المقابل بالأخرى".

"أكل... أقصد أجل، اكتشف علماء الاقتصاد السلوكي حزمة من النماذج والأنماط المتكررة في سلوك البشر وتتسم بغير المنطقية، وبالتالي يمكن التنبؤ بها بشكل نسبي".

"حقًا؟ فالتنبؤ بالأشياء التي تفتقد القابلية للتنبؤ تبدو مفارقة بالنسبة لي".

"هل قلت مفارقة؟ اختيار موفق للكلمة، ولكنه مدهش بشكل يبعث على الريبة؛ كونه يصدر عن كلب مالطي، هل كنت تتسكع مع ذلك الكلب من فصيلة كولي الذي يقطن في المنزل رقم أربعة عشر؟ على كل حال، هذا صحيح، هناك بعض السلوكيات غير المنطقية (لا يسعى صاحبها بالضرورة لتحقيق منفعة فردية) - يمكن التنبؤ بها".

"وهذه السلوكيات تتمثل في..."

"التأطير، حيث يؤثر التأطير - أو كيفية عرض الخيارات - على قراراتنا بشكل هائل؛ إن كلاً من التسويق والجمود (ميل الأشياء للحفاظ على حالتها دون تغيير) عاملان قويان يؤثران على قراراتنا، لذا يعتبر الخيار الافتراضي (المحدد مسبقًا) عنصرًا مهمًا للغاية، فنحن نتأثر بما يفعله الآخرون كما أننا لدينا ميل صريح نحو الخيارات العادلة. أضف إلى هذا أن هناك بعض العلامات الاعتبارية الصغيرة الموجودة في البيئة من حولنا، وهي تؤثر علينا بصورة تجعلنا نغير قراراتنا".

"أفترض أنك ستتناولين تلك النقاط واحدة تلو الأخرى وتشرحينها..."

"نعم، لنبدأ بالتأطير، إن كيفية عرض الخيارات - أو كيفية وضعها في إطار - عامل مهم، فمثلاً: إذا قيل للناس إن السلامي خالٍ من الدهون بنسبة 90%، فعلى الأرجح، سيتوجه

الناس إلى شرائه بصورة أكبر مما لو قيل لهم إنه يحتوي على دهون بنسبة عشرة في المائة".7

"ممممم سلامي!".

"لنجر تجربة مبنية على تجربة أخرى قام بها كل من كانيما و تفيرسكي، وهما المؤسسان لمجال الاقتصاد السلوكي،<sup>8</sup> أريدك أن تتخيل أن هناك دولة ستعرض لهجوم من مرض نادر، ومن المتوقع أنه سيتسبب في وفاة 600 شخص، هناك برنامجان متاحان لتفادي هذه الكارثة، إذا تبنت الدولة البرنامج "أ"، فستتمكن من إنقاذ مئتي شخص، أما مع تبني البرنامج "ب"، فهناك احتمال بنسبة الثلث أن تتمكن الدولة من إنقاذ 600 شخص جميعهم، وهناك احتمال آخر بنسبة الثلثين ألا تتمكن من إنقاذ أي شخص، تُرى أي برنامج من هذين ستختار؟".

"سأختار البرنامج (أ) كوني لا أحبذ وقع النتائج المحتملة مع البرنامج (ب)".

"هذا ما قاله أغلب الناس عندما طُرح عليهم السؤال نفسه، الآن، أريد أن أطرح عليك سؤالاً آخر مبنياً على الفرضية نفسها: يجب عليك أن تختار مجدداً بين برنامجين... البرنامج "ج"، الذي سيتسبب في وفاة ما يقرب من 400 شخص، والبرنامج "د"، والذي يشير إلى احتمالية إنقاذ الجميع بنسبة الثلث، وهناك احتمالية أخرى تشكل الثلثين بأن يتوفى الجميع، أي برنامج ستختار حينها؟".

"في هذه الحالة، سأختار البرنامج "د"... تمهلي قليلاً، هذه حيلة ما، أليس كذلك؟".

"صحيح يا مونتي، فكر في السؤالين بتأنٍ من جديد، الفرق الوحيد بين المرتين اللتين طرحت فيهما الأسئلة نفسها هو أنني في المرة الأولى تعمدت صياغة الأسئلة في سياق إنقاذ الأرواح، ولكن في المرة الثانية صغت الأسئلة في سياق الخسائر البشرية المحتمل وقوعها، لكن عدا ذلك، كانت الأسئلة متطابقة تماماً في فحواها، الأمر وما فيه أنه تم

صياغتها بإطار مختلف في كل مرة، وضع كل من كانيمان وتفيرسكي تفسيرًا لهذه الظاهرة بأن الأشخاص يميلون بطبيعتهم إلى تجنب المخاطر - أي لا يحبون خوض المجازفات - عندما يتعلق الأمر بجني المكاسب، ولكن عندما يتعلق الأمر بالخسائر، يكونون على استعداد لتكبد المخاطر والمجازفات، إن الأغلبية العظمى من الناس لديهم الرد الحدسي نفسه الذي لديك، خلاصة الأمر: هناك قائمة كبيرة من العوامل غير المنطقية التي من المفترض أنها بلا أهمية، ولكن في الواقع، هي ذات أهمية كبرى".

"حسنًا، لقد فهمت أن هذا أمر مثير للاهتمام بشكل بارز، ولكن هل آراء مجموعة كبيرة من الناس تشكل أهمية كبرى حقًا عند إجابتهم عن هذه الأسئلة الافتراضية؟ فهذا لم يكن موقفًا واقعيًا؛ أنا لست مسؤولًا عن حسم قرار اختيار البرامج الطبية التي سنتصدي بها في وجه هذا المرض الفظيع".

"وجهة نظر ثاقبة يا مونتي، وسيتلخص ردي عليها في نقطتين، الأولى: طرح كانيمان وتفيرسكي هذه الأسئلة على أطباء حقيقيين وأجابوا بالطريقة نفسها، النقطة الثانية: هناك العديد من المواقف التي أثبتت فيها رؤى الاقتصاد السلوكي فاعليتها في تحسين حياة الأفراد بشكل عام، على سبيل المثال: أهمية تأثير الأشياء التي نجعلها خيارات افتراضية للجميع؛ يزداد عدد المسجلين في برامج التقاعد المتاحة في أماكن العمل بشكل ضخم عندما يكون الاشتراك تلقائيًا، ويتعين على الموظفين اتخاذ الإجراءات والإعلان بشكل صريح عن رغبتهم في الانسحاب، يعتبر التبرع بالأعضاء من أحد الأمثلة الجيدة أيضًا؛ هناك بعض الدول التي أنشأت نظامًا يتطلب تسجيل موافقة صريحة من الأفراد بتبرعهم بأعضائهم بعد الموت، وعلى الجانب الآخر، أنشأت بعض الدول أخرى نظامًا تلقائيًا للتبرع حيث يفترض أن الجميع موافقون على التبرع ما لم يصرح أحدهم بشكل رسمي خلاف ذلك، لدى جميعنا نزعة قوية نحو اتباع الخيارات الافتراضية، لهذا، يجب علينا أن نكون حذرين بما نجعله خيارًا افتراضيًا عندما نقوم بتصميم "بيئة لاتخاذ القرارات"، إن المغزى الأساسي وراء هذا: عندما ترغب في دفع الناس للقيام بشيء محدد، فاجعله سهلًا عليهم، مثلًا: لتضع ثمار الفاكهة بدلًا من الشيكولاتة عند نقطة الدفع بالمقصف.

والعكس صحيح أيضًا: عندما ترغب في منع الناس من القيام بشيء، فلتجعله صعبًا عليهم".

"ألهذا السبب تضعين البسكويت في الرف العلوي؟".

"نحن نرى طوال الوقت العديد من الشركات التي تتبنى هذه الاستراتيجية، مثلًا: من السهل جدًا الاشتراك والاستفادة بالتجربة المجانية التي تقدمها الشركة لمدة شهر واحد لمجلة ما، لكن بعد انتهاء الفترة التجريبية، تصبح عملية إلغاء الاشتراك معقدة وعسيرة، في الحقيقة، إن إلغاء الاشتراك في جميع أنواع الخدمات، بدءًا من التأمينات حتى عضوية النادي الصحي، عملية مزعجة لأقصى حد؛ يكاد الناس يتجنبون القيام بها حتى لا يسببوا الإزعاج لأنفسهم".

"يبدو لي أن الاقتصاد السلوكي مجال يتمتع بتأثير قوي للغاية".

"هناك بعض الناقدين له، وهم يزعمون أن الاقتصاد السلوكي لا يقدم أي تنبؤات واضحة أو قابلة للفحص، والتي يجب أن تكون مقياسًا لمدى صحة أي نظرية مقنعة، يميل علم الاقتصاد السلوكي إلى الاعتماد بشكل كبير في دراساته على اكتشاف ما سيفعله الطلاب في بعض المواقف الافتراضية من خلال طرح الأسئلة عليهم، وهذا ليس مقياسًا يُعتمد عليه لأن الأشخاص غالبًا ما يتصرفون بشكل مختلف على أرض الواقع".9

"وما رأيك الشخصي حول هذا؟".

"أنا أعتقد أن الاقتصاد السلوكي يُعد إضافة جيدة للاقتصاد ككل، تساعدنا على فهم ما يجري من حولنا في عالمنا، وهو يركز إلى افتراض رئيسي يشير إلى وجود العديد من العوامل التي بدت هامشية بحسب الظاهر، ولكن تبين فيما بعد أن لها تأثيرًا قويًا على سلوكنا، إن كنا نريد أن نحفز الناس على الادخار، واتباع نظام صحي، والتبرع بأعضائهم، فمن الحكمة أن نأخذ تلك الأدلة على محمل الجد، وأشار ريتشارد ثالر الذي يعتبر واحدًا من

الرواد الأساسيين لعلم الاقتصاد السلوكي إلى أنه لا ينظر إلى هذا المجال المعرفي على أنه الثورة التي ستطيح وتستبدل الاقتصاد التقليدي، ولكنه مرجع للنهج الذي ابتكره آدم سميث في المقام الأول، والذي كان يستند إلى التفكير المنفتح ويحفز من خلال الحدس الشخصي، مع وجود بعض الإضافات العصرية في الوقت الحالي كتحليل البيانات الكمية، وإجراء التجارب العلمية.<sup>10</sup>

أعتقد أننا انتهينا، ما رأيك بأن نعود إلى المنزل الآن؟".

"موافق".



## النزهة ١٠: الناتج المحلي الإجمالي: ليس كل ما هو قابل للعد ذا قيمة

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: نبذة تاريخية عن الناتج المحلي الإجمالي، أي الأرقام التي تم اختلاقها بغرض الإجابة عن سؤال "كيف حالة الاقتصاد الآن؟"، وهي أرقام كبيرة بحق بالإضافة إلى بعض المشكلات المتعلقة بالناتج المحلي الإجمالي، والبدايل المتوافرة لحلها، كيف لا يزال الناتج المحلي الإجمالي - على الرغم من إخفاقاته - مقياسًا مفيدًا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعديد من الأشياء التي تشكل قيمة ثمينة لنا، مثل متوسط الأعمار المتوقع، ومستوى رفاهية الفرد؟

حل يوم جديد ذو طقس جميل، يتسم بهبوب الرياح القوية، ووجود السحب البيضاء التي تتحرك بسرعة عبر السماء الزرقاء، كان يومًا مثاليًا للتنزه حتى نصل إلى مكان ذي أراضٍ مرتفعة وإطلالة خلابة، لقد سبق أن تنزهنا بالفعل إلى تلة بريمرز، لذلك فمن الطبيعي أن نتجه تلك المرة إلى التلة التي تُسمى تلة البرلمان، لقد استقللنا القطار إلى منطقة جوسبل أوك، ومنها، سذهب إلى قمة التلة على أقدامنا في مسيرة مدتها عشر دقائق، ونحن نستمتع بإطلالة رائعة أسفلنا لمدينة لندن بأكملها التي تتسم بالتنوع، بدءًا من أبراج المدينة البراقة، حتى الجمال القوطي التي يتميز به حي ويستمنستر، عُرفت هذه التلة فيما مضى باسم "تلة الخونة" نسبة إلى جاي فوكس وبعض من أصدقائه الآخرين الذين شاركوا في مؤامرة البارود (محاولة جاي فوكس في عام 1605 لتهدية براميل من البارود إلى سراديب مبنى البرلمان بلندن بهدف تفجيرها والتخلص من ملك بريطانيا جيمس الأول وأعوانه)، وخططوا إلى مشاهدة العرض العظيم المصاحب لتفجير المبنى من أعلى التلة، حصلت هذه التلة على الاسم الجديد بعدما احتشدت فيها القوات البرلمانية خلال الحرب الأهلية، ولكن في الوقت الحالي، كل ما يحتشد على أعلى التلة هو جموع السياح المتشبهين بقبعاتهم وسط هذه الرياح القوية.

"حسنًا يا مونتي، لقد تناولنا بشكل رئيسي في جميع نزهاتنا حتى الآن القرارات - التي لا تخرج عن نطاق صغير بشكل نسبي - المأخوذة من قبل الأفراد أو الشركات أو بعض الجماعات الصغيرة، وكيفية تأثيرها على الأسواق بشكل عام. يُستخدم مصطلح الاقتصاد الجزئي للتعبير عن هذا الفرع من الاقتصاد، ولكن في الوقت الحالي، فنحن سنأخذ بعض الخطوات إلى الوراء حتى يتسنى لنا رؤية العجلة الاقتصادية ككل وفهم آلية عملها".

أومأت بيدي في حركة ذات نطاق واسع شملت المشهد البانورامي العظيم الممتد على مدى أبصارنا.

"أتقصد الصورة الكبرى للموضوع؟".

"نعم، بالتحديد، يُسمى هذا الفرع بـ...".

"دعيني أظن، الاقتصاد الكلي؟".

"ممتاز، فلتفضل لتتوحيجك بلقب الأول على صفك!".

"ولكن لا يوجد أحد سواي، ما يجعل الأول على الصف أو الأخير سيان بالنسبة لي؛ هذه عمليات حسابية بسيطة ليس إلا".

"حسنًا، كيفما شئت، لكنك محق على كل حال، الاقتصاد الكلي هو المصطلح الصحيح، سنتناول تحت هذا العنوان بعض الأمور مثل البطالة، والتضخم، والأسباب التي من شأنها زيادة النمو الاقتصادي أو إبطاؤه، ومع كون هذه العوامل تمتد إلى نطاق واسع وتؤثر بشكل عميق على النظام الاقتصادي بأكمله، إلا أنها ما زالت تؤثر بشكل ملحوظ على الحياة اليومية للأفراد".

"فهمتكم، إذن سنتناول الآن بعض القضايا المهمة، ليس النظريات وحسب، يشبه الاقتصاد الجزئي كلبًا صغيرًا نبأًا، والاقتصاد الكلي مثل كلب كبير ذي بنية قوية، كهذا الكلب من

فصيلة نيوفاوندلاند الذي نصادفه في بعض الأحيان عند حديقة هامبستيد هيث، لكن، هناك قاسم مشترك بين النوعين، وهو مقدرتهم على إحداث التأثيرات".

"نعم، أعتقد ذلك. يجدر بنا أن نستهل بالحديث عن (جي دي بي)".

"دعيني أضمن، أهي اختصار للنوم الممل الجميل، أم النسر المخيف الجائع، أم النملة الجالسة تحت المطر؟".

"هل انتهيت؟".

"آسف".

"هذا اختصار للناتج المحلي الإجمالي، يُعرف الاقتصاديون باهتمامهم الشديد بالأرقام والإحصائيات، ولكن الرقم الذي يولونه أكبر قدر من الاهتمام هو الناتج المحلي الإجمالي، وهو يرتبط بصلة وثيقة بالمفهوم الشامل لماهية الاقتصاد ويعتبر جزءًا لا يتجزأ منه".

"يبدو لي أنه أمر ينبغي عليّ العلم به، إذن ما ماهية الناتج المحلي الإجمالي هذا؟".

"تعتبر الفكرة الأساسية التي هي جوهر مفهوم الناتج المحلي الإجمالي أمرًا بسيطًا للغاية؛ تتركز وظيفة هذا المفهوم في حساب قيمة جميع السلع والخدمات التي تنتجها دولة معينة، لعل أخذ لمحة تاريخية سريعة حول المفهوم يساعدنا على فهمه بشكل أفضل، أتت فكرة هذا الشيء الضخم والمجرد الذي يُدعى الاقتصاد، والذي نسعى لتقديره في الوقت الحالي من خلال معيار الناتج الإجمالي المحلي خلال حقبة الكساد العظيم".

"هل يمكنك تزويدي بخلفية تاريخية توضح ما تقولينه؟".

"بدأ الكساد العظيم في عام 1929 وكان أكبر أزمة مالية شهدها العالم في العصر الحديث، لا أريد الدخول في تفاصيل حول مسببات الكساد العظيم لأننا سنقضي اليوم بأكمله في الحديث عنها، كما أن المؤرخين والاقتصاديين لا يزالون مختلفين حولها، لكن بشكل عام،

بدأ الأمر برمته بحدوث انهيار كبير في سوق الأوراق المالية، والذي تسبب لاحقًا في وقوع عواقب أليمة على عاتق المجتمع بأكمله، شلت حركة التجارة بشكل كامل، وارتفعت البطالة إلى معدلات غير مسبوقة، وعم البؤس والشقاء العالم بأسره، وباتت تلك الآثار الكارثية ملموسة وعلى مرأى واضح من العين، ولكنها مع ذلك، بقيت صعبة ومحيرة في فهمها وتحليلها بشكل دقيق من خلال المفاهيم الرياضية التي تتسم بالموضوعية التامة وانعدام الاهتمام بالجوانب الإنسانية، كنا في عوز مُلح خلال تلك الفترة إلى رقم أو معادلة حسابية محددة تستطيع تفسير ما يجري.

توجهت حكومة الولايات المتحدة إلى سيمون كوزنتس - وهو خبير اقتصادي وعالم إحصاء - وكلفته بمهمة تتلخص في إيجاد وسيلة نستطيع عن طريقها تقدير قيمة جميع السلع التي أنتجت في دولة بأكملها خلال سنة معينة، مثل السيارات، والملابس، وكل ما بُني من منازل، وحتى زجاجات شراب الصودا وزيارات الفحص الطبي، كل شيء يجب أن تُقدر قيمته، نشر كوزنتس في عام 1934 تقريرًا بعنوان *National Income*، أي الدخل القومي ما بين 1929-1932، وأصبح الأفضل مبيعًا، بخلاف المتوقع؛ لأول مرة، أصبح لدينا كتاب ذو مرجع للإجابة عن تلك الأسئلة المحيرة: ما الذي جرى لاقتصادنا؟ وما مدى سوء الأوضاع؟ ثرى هل تتحسن الأوضاع أم تزداد سوءًا؟ استبدل كوزنتس المفاهيم الاقتصادية الغامضة بأرقام ملموسة، وسرعان ما بدأ السياسيون بالحديث عن الاقتصاد مستعينين بهذه الأرقام. تبدل الوضع من عالم لم يكن لديه أي فكرة موثوقة حول حقيقة النشاط الاقتصادي، إلى عالم آخر باتت فيه هذه الأرقام بمثابة محور النقاشات بين الناس.

تبنت بعض الدول الأخرى المفهوم نفسه لاحقًا. يكمن جل المميزات الملموسة لهذا المقياس الجديد من وجهة النظر السياسيين في فكرة محددة: ما دما أصبحنا قادرين على تقدير قيمة الأشياء، فمن المرجح أن نمسي قادرين على التحكم بها أيضًا، أخذ جون ماينارد كينز في الحديث عن الاقتصاد باعتباره شيئًا يمكن، بل يجب هيكلته. تحتم على أي دولة في حاجة إلى معونة اقتصادية من الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية تقديم تقرير حول القيمة التقديرية للناتج المحلي الإجمالي لها، وباتت معرفة معدل الناتج المحلي

## الإجمالي

لكل دولة أمراً غاية في الأهمية وعلى علاقة قوية بهويتها الوطنية، تماماً مثل امتلاكها علماً ذا ألوان صارخة أو شركة طيران وطنية تتسبب في تكبد الخسائر. يمكننا الآن بفضل هذا المقياس الموحد تصنيف دول العالم بحسب قيمة الناتج المحلي الإجمالي لكل دولة، إن مفهوم الناتج المحلي الإجمالي ليس مجرد رقم فحسب، بل إنه سلاح ودليل قاطع على الطرف المنتصر في الحرب الباردة التي تصادم فيها الفكر الرأسمالي ضد الفكر الشيوعي.

"أعتقد أنني استوعبت الفكرة العامة، بغض الطرف عن تلك النقطة حول كونه سلاحاً حربياً، فإن الناتج المحلي الإجمالي يُعد مؤشراً على ما يحدث داخل اقتصادات البلدان، لكن، كيف يمكننا قياس قيمته على أرض الواقع؟".

"هذه الجزئية تتسم بأنها فنية بعض الشيء، ولكنني سأبذل أقصى ما بوسعي لتبسيطها، هناك مزحة قديمة في الاقتصاد عن أن هناك شيئين من الأفضل ألا يرى المرء الطريقة التي يُعدان من خلالها، وهما النقائق والإحصائيات الاقتصادية، لهذا، قد يكون شرح هذه الجزئية أمراً فوضوياً قليلاً، لكن على الأقل، سيفيدك الشرح في أن يمنحك فكرة عن بعض التحديات والمشكلات المتعلقة بمفهوم الناتج الإجمالي المحلي. يُعرّف الناتج المحلي الإجمالي بشكل رسمي كالآتي: القيمة المالية لجميع الخدمات والسلع النهائية - أو الاستهلاكية - التي تنتجها الدولة خلال فترة زمنية محددة. من الجدير بالذكر أن الناتج المحلي الإجمالي يعتبر معياراً لقياس التدفق الاقتصادي، وليس لقياس مخزون الدولة الثابت".

"لم أفهم مقصدك وراء هذه النقطة".

"ما أقصده هو أن الغرض من استخدام الناتج المحلي الإجمالي ليس في قياس إجمالي الثروة لكل دولة، أي مجموع السلع والخدمات المُنتجة بها، بل إنه معيار لقياس مدى زيادة الكمية للسلع والخدمات التي تنتجها الدولة على مدار فترة زمنية محددة؛ مثلاً: عندما يبني مقاول منزلاً ما ويبيعه لك، فهذا يحتسب ضمن الناتج المحلي الإجمالي للبلد، لكن، إذا

قمت ببيع المنزل لشخص آخر بعد بضع سنوات، فهذا لا يُحتسب ضمن الناتج المحلي الإجمالي، لأن هذه الصفقة لا تمثل إنتاجًا جديدًا لسلعة أو خدمة.

يجب أن نتذكر دائمًا أن الناتج المحلي الإجمالي يقدر كمية السلع والخدمات المُنتجة داخل حدود الدولة فقط، ولهذا السبب يُطلق عليه مصطلح الناتج المحلي؛ جميع البضائع المستوردة من الدول الخارجية لا تحتسب ضمن الناتج المحلي الإجمالي للدولة".

"أعتقد أنني بدأت أستوعب ما تقصدينه، ولكن ما زلت لا أفهم كيف يُقدَّر هذا الشيء الذي يسمى الناتج المحلي الإجمالي".

"هناك ثلاث طرق - يعد فهمها مربكًا بعض الشيء - يمكن من خلالها تقدير الناتج المحلي الإجمالي، لكن من الناحية النظرية، يجب أن تمدنا جميعها بالإجابة نفسها في النهاية، الطريقة الأولى: أن تجمع القيمة الإجمالية لجميع السلع والخدمات التي تم إنتاجها، وتسمى هذه الطريقة النهج الإنتاجي، تقوم الطريقة الثانية - التي تُعرف بنهج الدخل - على حساب مجموع إجمالي الدخل لدى كل فرد في الدولة، وأخيرًا، يختص النهج الإنفاقي بحساب القيمة الإجمالية لمقدار ما أنفقه الأفراد داخل الإطار الاقتصادي للدولة".

"إذن، تتلخص الطرق الثلاث في حساب إجمالي ما تم إنتاجه أو كسبه أو إنفاقه، ومن المفترض أن تعطينا جميعها الناتج نفسه".

"أجل، بالضبط، وسأوضح لك بمثال بسيط لحد غير معقول: إذا حصد مزارع ما مائة ثمرة من التفاح، وكانت قيمتها في السوق تقدر بجنيه إسترليني لكل ثمرة، فيمكنك حينها حساب قيمتها المساهمة في الناتج المحلي الإجمالي عن طريق إجمالي قيمة الإنتاج كالآتي: 1 جنيه إسترليني  $\times 100 = 100$  جنيه إسترليني، يمكنك أيضًا حساب القيمة المساهمة عن طريق إجمالي قيمة الإنفاق: عندما يشتري المستهلكون مائة تفاحة بسعر جنيه إسترليني للواحدة، ستساوي القيمة المساهمة الناتجة عن إنفاق المستهلكين مائة جنيه إسترليني، كما يمكن استخدام نهج الدخل لحساب القيمة المساهمة؛ يحصل المزارع

على مائة جنيهه إسترليني بعد بيع كمية التفاح بأكملها، نظريًا، يجب أن نحصل دائمًا على الناتج نفسه مع استخدام أي طريقة من الطرق الثلاث.

لعل النهج الإنفاقي أسهل طريقة يمكن لعقلية كلب مثلك استيعابها، لذلك، دعنا نبدأ بشرحها أولاً، الخطوة الأولى: لنأمل معًا في الكيانات المختلفة الموجودة في اقتصاد أي دولة، والتي تشتري السلع والخدمات بأنواعها، فهناك الأسر - مثل أسرتنا يا مونتي - والشركات، والحكومة التي تشتري الكثير من الأشياء، بعد ذلك، يجب أن نضع في حسابنا جميع الصادرات والواردات؛ يجب ألا تنسى أن الناتج المحلي الإجمالي يسعى لتقدير القيمة الإجمالية لجميع السلع والخدمات المنتجة داخل دولة معينة. يتوجه الناس الذين يقطنون في دول خارجية إلى شراء بعض البضائع التي ننتجها هنا في المملكة المتحدة، وهذه البضائع تمثل صادراتنا، لذا يجب أن نضيفها ضمن حساباتنا، على الجانب الآخر، تُصنَّع الكثير من البضائع التي نستهلكها داخل بعض الدول الخارجية، وهذه تمثل وارداتنا، لذا يجب أن تُستبعد من حساباتنا.

دعني أوضح لك بمعادلة، سأرسمها هنا على الأرض باستخدام تلك العصاة، تتلخص معادلة الناتج المحلي الإجمالي في..."

"مهلاً، ماذا تقولين؟ لقد وعدتني ألا تدخل المعادلات الرياضية في الشرح!"

"أعلم هذا، ولكن هذه معادلة سهلة، حسنًا، لنبدأ:

$$(Y = C + I + G + (X - M$$

يمثل الحرف Y الناتج الإجمالي المحلي - ولا تسألني عن السبب، فأنا وظيفتي لا تتعلق بتأليف الرموز - ويمثل الحرف C الأسر التي تنفق الأموال على البضائع الاستهلاكية حديثة الإنتاج - وهذا لا يتضمن المنازل حديثة البناء، حيث إنها تدرج تحت فئة الاستثمار - ويمثل الحرف I جميع النفقات الخاصة بالشركات، ويمثل الحرف G جميع الأموال التي

تنفقها الحكومة في سبيل توفير السلع والخدمات، وهناك الحرفان X و M اللذان يمثلان الصادر والوارد بالتوالي، ويوجد فارق بين قيمتي الصادرات والواردات (X - M) يُسمى صافي الصادرات، أو التوازن التجاري، عندما تقوم بجمع كل هذه العناصر معًا، ستحصل على القيمة التقديرية للناتج المحلي الإجمالي، أفهمت؟".

"لا أعتقد ذلك، ولكنني سأومئ برأسي وأستمر في تشجيعك لإكمال حديثك".

"لا بأس، سأستعين ببعض الأرقام الحقيقية لتفهم أكثر وترى بنفسك مدى أهمية هذا الموضوع، أول ما قد يثير اهتمامنا هو النظر إلى أكبر الاقتصادات في العالم بحسب معيار الناتج المحلي الإجمالي؛ وفقًا لبيانات البنك الدولي، فكانت أكبر اقتصادات في العالم لعام 2020: الولايات المتحدة الأمريكية، والصين، واليابان، وألمانيا والمملكة المتحدة".1

"جاءت المملكة المتحدة في المركز الخامس! هذا أمر جيد نظرًا لكونها جزيرة صغيرة".

"معك حق، وتقدير قيمة الناتج المحلي الإجمالي بالدولار الأمريكي يساعدنا على فهم الفارق في حجم الاقتصادات بين الدول المختلفة؛ قُدِّر الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة بـ20.9 تريليون دولار في 2020، وجاءت الصين في المركز الثاني بـ14.7 تريليون دولار، والمملكة المتحدة 2.7 تريليون دولار".

"ولكن يوجد عدد هائل من السكان في الصين والولايات المتحدة..."

"لهذا السبب، أعتقد أنها فرصة مناسبة للحديث عن نصيب الفرد الواحد من الناتج المحلي الإجمالي<sup>2</sup>. تشكل جميع الأموال التي تُنفق داخل أي اقتصاد دولة مصدر الدخل بالنسبة لشخص آخر، ويعتبر الناتج المحلي الإجمالي للفرد الواحد معيارًا موثوقًا لمعرفة متوسط دخله، على سبيل المثال: تمتلك الصين - التي جاءت في المركز الثاني بالقائمة - ناتجًا محليًا إجماليًا ضخماً يشكل بالتقريب ثلاثة أرباع الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة، ولكن بسبب التعداد السكاني الموهول، قُدِّر نصيب الفرد الواحد من الناتج المحلي



الإجمالي في الصين بـ10,500 دولار فقط في عام 2020، في حين أن نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي في الولايات المتحدة قد وصل إلى 63,500 دولار في عام 2020، ولذلك، من الضروري حقًا أن نأخذ التعداد السكاني للدولة في عين الاعتبار.

على الجانب الآخر، توجد بعض البلدان الأخرى التي تمتلك ناتجًا محليًا إجماليًا زهيدًا للغاية، لنأخذ بعض الأمثلة المتعارف عليها من الدول النامية، مثل جمهورية أفريقيا الوسطى، وجامبيا، حيث يُقدر الناتج المحلي الإجمالي فيهما بـ2,380 مليونًا و1,868 مليون دولار على التوالي.

"ولكنها ليست بأرقام زهيدة لتلك الدرجة..."

"قد يبدو لك الأمر أنها لا تزال أرقامًا كبيرة، ولكن عند النظر إليها من منظور نصيب الفرد الواحد، فستساوي القيمة لكل فرد 492 و77 دولارًا على التوالي، ومن الأشياء التي قد تلفت أنظارنا أيضًا هي تغير معدلات الناتج المحلي الإجمالي مع مرور الوقت؛ عند الرجوع والنظر إلى الفترة الزمنية الممتدة من عام 1952 إلى 2017، سنجد أن نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي في الصين قد ازداد من 1,000 دولار فقط إلى ما يتجاوز 13 ألف دولار، تم تعديل هذه الأرقام مراعاةً للتضخم حتى تعكس مدى التغير الملموس الذي حدث فيما يخص مستويات المعيشة، حيث تعتبر هذه الزيادة غير مسبقة بحد ذاتها".

"ماذا تقصدين بأنه تم تعديلها مراعاةً للتضخم؟"

"يحدث ما يسمى التضخم عندما ترتفع أسعار البضائع بمرور السنوات، عندما كنت صغيرة، كان بإمكانك شراء لوح شيكولاتة من نوع فريبدو مقابل عشرة جنيهاً فقط، الآن أصبح سعرها خمسة وعشرين جنيهاً للوح الواحد، يجب أن تضع تلك التغيرات في الأسعار بحسبانك إن كنت تسعى لتقدير مدى تغير الأوضاع المعيشية على مدار السنين، إذا قيل لك إن معدل الناتج المحلي الإجمالي قد زاد بمقدار الضعف، فحري بك التأكد من ماهية

السبب وراء ذلك؛ هل يرجع السبب لزيادة الأسعار، أم بسبب جهود الدولة في سبيل زيادة معدلات الإنتاج؟ تم الإفصاح عن الأرقام المذكورة في المثال السابق - أن نصيب الفرد الواحد من الناتج الإجمالي المحلي في الصين قد ازداد من ألف دولار إلى 13 ألف دولار - باستخدام معدلات الأسعار لعام 2011، وذلك لضمان مدى كفاءة ودقة المقارنة، ولن يفاجئك الأمر حينما تعلم أن خبراء الاقتصاد يقومون بعملية التعديل هذه من خلال طرق معقدة، ولكن على أية حال، عندما ترى مقارنات خاصة بمعدلات الناتج المحلي الإجمالي، تأكد من أنه تم تعديل الأرقام بما يتناسب مع حجم التضخم".

"حسنًا، لقد فهمت أن الناتج المحلي الإجمالي أمر غاية في الأهمية، لكن، إن فهمت ما قصدته بشكل صحيح، فالناتج المحلي الإجمالي يُحسب فقط من خلال الصفقات التجارية التي تشتمل على تبادل الأموال بين الأطراف، أعرف أنني مجرد كلب لا أكثر، ولكن ماذا عن الأنشطة الاقتصادية الأخرى التي لا تشتمل على تبادل الأموال؟".

"ملاحظة جيدة يا مونتي، مما لا شك فيه أن الناتج المحلي الإجمالي مقياس جيد، ولكنه مجرد رقم ليس إلا، وهناك العديد من الأمور التي لا يُمكن تقديرها بالأرقام، ولكنها ضرورية جدًا لعيش حياة سعيدة، في الواقع، هناك أشياء عديدة من شأنها زيادة معدل الناتج المحلي الإجمالي، ولكنها في الوقت نفسه تعود بضرر على الدولة، مثلًا: عندما تقوم بإزالة غابة كبيرة، فسيرتفع الناتج المحلي الإجمالي عند بيع كميات الخشب المستخرجة، ولكن مع ذلك، لن تحتسب التكلفة البيئية الناجمة عن هذا النشاط ضمن الناتج المحلي، تعتبر الحروب مثلًا موفقًا أيضًا، وهذا لأنها مكلفة بحيث تضطر الحكومة إلى شراء الأسلحة والفولاذ والوقود مما يؤدي إلى زيادة الناتج المحلي الإجمالي للدولة، وجه روبرت كينيدي في خطاب مشهور عام 1986،

بعض الانتقادات اللاذعة لتلك الإجراءات التي تضمنت إنفاق الأموال على شراء الأسلحة وبناء السجون، ولكنها تجاهلت تمامًا احتياجاتنا الحيوية التي تعد أمرًا ضروريًا لعيشنا حياة كريمة: كالصحة العامة، وجودة التعليم، ونزاهة المسؤولين الحكوميين، قال كينيدي: إن الناتج المحلي الإجمالي معيار "يهدف لتقدير قيمة العديد من الأمور، ولكنه لا يأخذ

بعين الاعتبار الأمور الضرورية التي تجعل حياتنا ذات قيمة حقيقة"،<sup>4</sup> لعل ما تفوه به كينيدي قاسٍ بعض الشيء، ولكن بالفعل، هناك العديد من العيوب المصاحبة لهذا المعيار. تتمثل المشكلة الأولى كما أشار لها كينيدي في أن الناتج المحلي الإجمالي لا يشتمل على المؤثرات الخارجية السلبية".

"نعم، أتذكرها، مثل التلوث والضوضاء والجرائم".

"صحيح. مثلاً: إذا قمت بصيد جائر لجميع الأسماك في بحيرة ما حتى أفرغتها تماماً، سيرتفع معدل الناتج المحلي الإجمالي، ولكن لن تحتسب ضمنه التكلفة البيئية أيضاً، والتي تتمثل في حقيقة أن هذا استنزاف للموارد الطبيعية، علاوة على ذلك، فإن جميع التعاملات التجارية التي تحدث داخل إطار اقتصادي غير رسمي، لا تحتسب ضمن الناتج المحلي الإجمالي للدولة".

"أتقصدين بغير رسمي أنه يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً قصير الكُمّين؟!"

"يجب أن تستمر في العمل على تطوير حسك الفكاهي بجهد أكبر! يمثل الاقتصاد غير الرسمي تحدياً لخبراء الاقتصاد يُسمى المعروف المجهول، والمقصود به كل الأنشطة التجارية التي يدري جميعنا بحدوثها، ولكن يصعب علينا حساب قيمتها الحقيقية، ومن الأمثلة عليها: أن يعرض عليك المقاول البناء خصم بضعة جنيهات من قيمة الفاتورة إذا دفعت مستحقاته نقدًا، أو عندما لا يعطيك سائق سيارة الأجرة إيصالًا بالمبلغ المدفوع، هذه النوعية من التعاملات غالبًا لن يتم الإبلاغ عنها للسلطات الضريبية، مما يعني أنها لن تدخل ضمن الناتج المحلي الإجمالي للدولة، وقد يشكل هذا النوع من النشاط غير المسجل نسبة كبيرة من إجمالي النشاط الاقتصادي للدولة، حتى داخل البلدان المتقدمة؛ عندما بدأت إيطاليا في عام 1987 بإدراج هذه التعاملات التي تحدث خفية ضمن إحصاءاتها الرسمية، ازداد معدل الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 18% بين عشية وضحاها.<sup>5</sup>

تؤثر هذه القضية على الدول النامية بصورة أكبر، حيث تحدث الكثير من الأنشطة الاقتصادية بشكل عام خارج النطاق الرقابي للدولة، على سبيل المثال: تتم الغالبية العظمى من التعاملات التجارية في الهند من خلال الدفع النقدي، ما يجعلها تفلت من أنظار السلطات الضريبية بسهولة. يُقدّر الاقتصاد الأسود (أي التعاملات الاقتصادية التي لا تسجل في إحصائيات الدولة) بأنه مسؤول عن 20% على الأقل من إجمالي الناتج المحلي في الهند. في محاولة تهدف للحد من الأنشطة الاقتصادية غير المشروعة، صرح رئيس الوزراء الهندي ناريندرا مودي في عام 2016 بأن العملات الورقية ذات القيم المالية الكبيرة لن يُسمح بتداولها بعد الآن بموجب القانون، وأعطى مهلة من الوقت حتى نهاية العام يستطيع خلالها الناس أن يذهبوا إلى المصارف لتبديل الفئات الورقية الكبيرة بفئات أصغر، أو إيداعها في حسابهم البنكي، بحيث عندما تنتهي المهلة، ستصبح تلك الفئات النقدية عديمة الفائدة مثل أوراق المخلفات، أدى هذا الإجراء إلى انتشار فوضى عارمة بين الجمهور؛ احتشد الناس في صفوف كبيرة لعدة أيام حول مباني المصارف وهم ينتظرون دورهم لتبديل الفئات النقدية القديمة بالفئات الجديدة".

"وما الجدوى من كل هذا؟".

"تكمن الجدوى في إثبات المصدر الذي حصلت منه على أموالك قبل أن تتمكن من استبدالها، هذا في حالة امتلاكك حزمة كبيرة من تلك الفئات النقدية، تحديداً ما يزيد على 250 ألف روبية. عمّل هذا الإجراء كمؤشر تنويري للسلطات الضريبية يشير بوضوح إلى أن هناك بعض الأشخاص الذين قاموا بتعاملات مشبوهة".

"وهل نجح الإجراء حقاً في الكشف عنهم؟".

"ارتفعت نسبة العائدات الضريبية، ما يشير إلى انتقال بعض التعاملات الاقتصادية - ولو بنسبة ضئيلة - من إطار الاقتصاد الأسود إلى الاقتصاد الشرعي، مع ذلك، يوجد بعض الخبراء الذين يعتقدون أن الزيادة الحاصلة في العائدات الضريبية لا تستحق الفوضى الناشئة عن هذا الإجراء، وأنه ما زال هناك من الأهداف الأخرى التي لم تتحقق، مثل

التخلص من جميع الأوراق النقدية المزورة وكشف أولئك الذين يخفون أصولهم. إن السبب وراء عدم تحقيق الهدف الأخير هو أن الأغنياء قد أصبحوا أكثر دهاءً فيما يخص إخفاء ثرواتهم عن أعين السلطات الضريبية، كان هذا مثلاً ممتازاً يوضح أن الناتج المحلي الإجمالي يحتسب فقط من التعاملات الاقتصادية المسجلة لدى الحكومة، وأن هناك بعض الأشخاص الذين يتهربون من دفع الضرائب مستعينين في ذلك بوسيلة اقتصاد الظل التي تخفي جميع تعاملاتهم الاقتصادية.

من نقاط الضعف المتعلقة بتقدير الناتج المحلي الإجمالي عدم اشتماله على التعاملات التي لا تتضمن دفع الأموال في مقابلها؛

على سبيل المثال: إذا دفعت لشخص ما المال مقابل أن يأخذك في نزهة للخارج، فهذا سيُحتسب ضمن الناتج المحلي، ولكن إذا قررت أن أفعل هذا الأمر بنفسني، فإنه لن يُحتسب ضمن الناتج المحلي الإجمالي، من هذا المنطلق: هل ستصبح الدولة في حال أفضل بحق إذا قمنا جميعاً بالاستعانة بأشخاص آخرين من أجل تنزه كلابنا في مقابل أن ندفع لهم مبلغاً من المال؟ عندما تقرر الأم الذهاب إلى العمل، فقرارها هذا يخلق وظيفتين: وظيفتها الخاصة، ووظيفة الشخص الآخر الذي ستدفع له المال مقابل الاعتناء بطفلها، وكلتا الوظيفتين ستساهم في زيادة الناتج المحلي الإجمالي. ملخص الأمر: عندما يقرر الناس ألا يدفعوا المال في مقابل الحصول على شيء ما، كأن يطبخوا الطعام في المنزل عوضاً عن الذهاب للأكل في المطعم، أو يقرروا قص شعورهم بأنفسهم عوضاً عن الذهاب إلى مصفف الشعر، أو يقوموا بزراعة ما يحتاجون إليه من خضراوات عوضاً عن شرائها، ينخفض معدل الناتج المحلي الإجمالي نتيجة لهذه القرارات.

لكن، بأي حق يمكننا الحكم على أن الدولة التي يتمتع أفرادها بالعمل ساعات قليلة بحيث يصبح لديهم متسع من الوقت لطهي طعامهم بأنفسهم - بالإضافة إلى وجود عوامل أخرى مشابهة تؤدي إلى خفض الناتج المحلي الإجمالي - قد تمتلك جودة حياة منخفضة؟ لعل الأمر أصبح واضحاً كالشمس؛ لا يمكن الاعتماد على معيار الناتج المحلي الإجمالي في تقدير قيمة بعض الأشياء مثل وقت الفراغ والراحة".

"أنتم أيها البشر تقضون معظم الوقت في النقر على أزرار لوحة المفاتيح والتحديد في جداول البيانات، فضلاً عن التحدث إلى الشاشات الذي تطلقون عليه مصطلح زومنج - أي التحدث عبر برنامج زووم - وهو مصطلح له وقع يجعلني أشعر بأنكم تقومون بشيء مهم كقيادة مكوك فضائي، لكن في الواقع كل ما تفعلونه هو الجلوس والتظاهر بأنكم على دراية تامة بما تفعلونه، أرى أنكم في حاجة إلى الاقتداء قليلاً بنمط حياة الكلاب".

"أنت محق في هذا الأمر، توجد مشكلة أخرى متعلقة بالنتائج المحلي الإجمالي، وهي أنه لا يُمدنا بأي معلومات عن النمط المتبع في توزيع الدخل بين السكان، لعل نمو الناتج المحلي الإجمالي أمر جيد بصورة عامة، ولكن إن كانت الفئة التي تمثل أغنى 1% من سكان الدولة هي الوحيدة المستفيدة من هذا النمو، فحري بنا التوقف عن التفاخر حول الأمر. أشار أستاذ جامعي في العلوم السياسية، يُدعى أناند مينون خلال استضافته في برنامج "كويستشين تايم" على محطة

"بي بي سي"، بالتحديد خلال الفترة التي اتسمت بالنقاشات الحامية حول انسحاب بريطانيا من الاتحاد الأوروبي - إلى أن هذا الانسحاب سيؤثر بالسلب على معدل الناتج المحلي الإجمالي للمملكة المتحدة، فقاطعته امرأة كانت تجلس ضمن الحضور وقالت: "هذا الناتج المحلي الذي نتحدث عنه لا يمثلنا بشيء".

تكمن المشكلة في أن حساب الناتج المحلي الإجمالي يقوم بشكل أساسي على الاستعانة بمتوسطات وإجماليات قيم الإنتاج الاقتصادي، مما يجعله معياراً غير حقيقي لأنه لا يعكس كم البؤس وانعدام المساواة الموجودة في الواقع، إن جميع المشكلات التي تناولناها حتى الآن تتعلق بمعيار الناتج المحلي الإجمالي وما نستطيع قياسه من خلاله وما لا نستطيع، لكن، أثارت طبيعة المجتمعات المتغيرة بعض المشكلات الأخرى حول مفهوم القياس نفسه. اختلفت الظروف الاقتصادية في العصر الذي تم فيه الإتيان بمفهوم الناتج المحلي الإجمالي؛ اتسمت اقتصادات القرن العشرين بهيمنة الإنتاج الضخم للسلع المادية: كالسيارات، والمكانس الكهربائية، وأجهزة الراديو، وغيرها. يعمل الناتج المحلي الإجمالي كمؤشر جيد للنشاط الاقتصادي بالنسبة لهذا النوع من السلع، ولكن حتى في وضع كهذا، قد

تبرز بعض المشكلات؛ من السهل نسبيًا أن نعرف ما إن كانت هناك زيادة في إنتاج نوع معين من السلع، لكن، كيف يمكننا تقدير مدى تحسن جودة السلع؟ لعل سعر التلفاز الصادر هذا العام أغلى مقارنةً بإصدار العام الماضي، ولكنه على الأرجح ذو جودة أفضل بشكل ملحوظ، كما أنني اشتريت حاسوبًا محمولًا من طراز ماکنتوش في عام 2002 بسعر 1,499 جنيهًا إسترلينيًا، لكنني اشتريت هذا العام جهازًا ذا عتاد أقوى بكثير مقابل 999 جنيهًا فقط، إن لم نضع في حسابنا مدى تحسن جودة السلع، فسنجد أن النسبة المقدرة لمعدل التضخم مرتفعة بشكل مبالغ فيه، هناك بعض السلع التي تتغير بشكل جذري بمرور الزمن إلى حد يجعلنا نعتقد أنها ليست السلعة نفسها التي عهدناها في الماضي، فمثلاً: الهواتف الذكية مثل آيفون لا تشبه بتاتًا الهواتف الثابتة التي كانت موجودة في منزل والديّ، وموضوعة على طاولة مخصصة لها، ولا تشبه حتى الهاتف المحمول الذي امتلكته في عام 2000، والذي كان من طراز موتورولا بريك.

يواجه مفهوم الناتج المحلي الإجمالي بعض المعوقات التي تُصعّب تقدير القيم الاقتصادية للسلع والخدمات الرقمية التي تهيمن على اقتصادنا الحالي بشكل متزايد؛ على سبيل المثال: كيف يمكنك مقارنة إنتاجية طبيب جراح في عصرنا الحالي، بإنتاجية جراح آخر قبل عشرين عامًا؟ وماذا عن الخدمات التي توفرها الحكومة كالصحة والتعليم والبنية التحتية للنقل؟ على مدار عقود عديدة، اعتمدت الحكومات في حساب القيمة الاقتصادية لهذه الخدمات على حساب التكلفة المباشرة الناجمة عن توفيرها، ولكن، هل يمكننا الوثوق في هذا النهج في أن يمدنا بالقيمة الدقيقة لهذه الخدمات؟

إحدى المشكلات المتعلقة بقياس قيم الإنتاج أيضًا هي حساب الأنشطة الاقتصادية التي لا تحمل أي قيمة سعرية، مثل استخدام المنصات الرقمية كويكبيديا، وفيسبوك، وزووم، ويوتيوب؛ بموجب اتفاقية عالمية، جميع السلع التي تساوي قيمتها السعرية صفرًا لا تحتسب ضمن الناتج المحلي الإجمالي، بغض النظر عما نعتقد بشأن هذه الشركات، لا يمكننا إنكار القيمة التي أضافتها لحياتنا من خلال خدماتها، وهي قيمة غير مادية لا تنعكس بشكل دقيق في معدل الناتج المحلي الإجمالي.

أخيرًا وليس آخرًا، تشير خبيرة الاقتصاد ديان كويل إلى أننا نميل إلى اعتبار الناتج المحلي الإجمالي عنصرًا من عناصر الطبيعة - كالجبال - قابلاً للقياس بصورة دقيقة من خلال السُّبل العلمية، وبالطريقة نفسها التي نقيس من خلالها ارتفاع جبل إيفرست، أو مدى ارتفاع مستويات البحر، أو قياس عدد السرعات الحرارية الموجودة بكعكة، لكن مع ذلك، تؤكد كويل على حقيقة، وهي أن الناتج المحلي الإجمالي ليس شيئًا ماديًا كتلك الأشياء، بل هو فكرة مبتكرة، ونتاج لبنية بشرية اختلقناها ثم عدلناها بطرق معقدة جدًا لا حصر لها حتى نتمكن من تحليل وقياس العوامل الاقتصادية مثل التضخم وسعر الصرف.6

خلاصة الأمر: يُعد الناتج المحلي الإجمالي معيارًا مهمًا، ولكن يجب النظر إليه بشكل متحفظ وموضوعي".

"بما أن هناك الكثير من المشكلات المتعلقة بالناتج المحلي الإجمالي، لمَ لا نتخلص منه ونستخدم وسيلة أخرى لمعرفة مدى حسن أو سوء أوضاعنا الاقتصادية؟".

"بلى، لقد حاولنا بالفعل؛ أنتجت دولة بوتان الواقعة عند جبال الهيمالايا ما يعرف بمؤشر السعادة القومية، وهو يهدف إلى إيضاح الصورة المتعلقة برفاهية المواطنين بشكل أكثر شمولية، يقوم هذا المؤشر على أربعة أركان أساسية: التنمية المستدامة، والحفاظ على البيئة، والحكم الرشيد والحفاظ على الثقافة البوتانية".

"يبدو لي أنها فكرة جيدة".

"ربما، ولكن أشار البعض إلى أن مؤشر بوتان للسعادة ما هو إلا مجرد شعارات فارغة تساعد على تشتيت الانتباه عن حقيقة أن بوتان دولة تعيش في فقر مدقع؛ بلغ نصيب الفرد بها من الناتج المحلي الإجمالي ثلاثة آلاف دولار في عام 2020،7 بل الأدهى من ذلك، يعتقد البعض أن هذا المؤشر يعمل كغطاء يحجب المعاملة القمعية إزاء المهاجرين النيباليين، كما أنه يثير بعض التساؤلات: مَنْ الأشخاص الذين يحق لهم تعريف "الثقافة التقليدية" لمملكة بوتان؟ وما العناصر التي يجب أن تتضمنها تلك الثقافة؟ ولكن مع ذلك، لا يوجد الكثير ممن



يختلفون مع فكرة أن السعادة مؤشر جدير بالثقة لتقييم مدى رفاهية الإنسان عوضًا عن الاعتماد على دخل الأفراد وتجاهل العوامل الأخرى.

أعتقد أن مؤشر التنمية البشرية المستخدم من قبل الأمم المتحدة يعد مقياسًا أفضل ويضع في حسابه العديد من العوامل الحيوية، مثل متوسط العمر المتوقع للفرد، والأمية، والتعليم، بالإضافة إلى مستويات المعيشة. على الهامش، يصنف المؤشر بوتان في المركز 129، وتأتي النيجر في المركز الأخير وهو 189.

"وفي أي مركز تُصنّف المملكة المتحدة؟".

"تأتي المملكة المتحدة في مركز جدير بالتقدير، وهو الثالث عشر".

"حقًا؟ قد يظن المرء خلاف ذلك نظرًا لطريقة الفيلسوف في الشكوى والأنين".

"تحتل النرويج - كما هو متوقع - المركز الأول في القائمة، طورت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية مؤشرًا يسمى مؤشر الحياة الأفضل، وهو يعد محاولة أخرى للتغلب على نقائص معيار الناتج المحلي الإجمالي، يتميز هذا المؤشر بأنه يسمح لكل دولة بتخصيص مقياس لها عن طريق ترتيب العوامل الحياتية بحسب أولوياتها، مثل جودة المجتمع والبيئة، ومدى رضا كل فرد عن الحياة بشكل عام، كما يقدم المؤشر إحدى عشرة فئة تهدف جميعها إلى محاكاة صورة شمولية لمدى جودة حياة الأفراد".

"إذن لم علينا أن نتحمل مشقة استخدام الناتج المحلي الإجمالي؟ لقد أعطيتني قائمة مطولة بكل عيوبه، لم لا نتجه للاعتماد على مقاييس أخرى؟".

"إن الناتج المحلي الإجمالي معيار معيب بلا شك، حتى كوزنيتس - الذي قام بابتكاره في المقام الأول - لم يكن راضيًا عن الطريقة التي يُستخدم به مقياسه، ولقد صرّح بشكل واضح أنه يجب عدم الخلط بين قياس الناتج المحلي الإجمالي وتقدير مدى رفاهية الشعوب، لكن، لا يمكن لمعيار واحد فقط أن يعبر بشكل كامل عن جميع جوانب الحياة،

وعلى الرغم من أن الغرض الأساسي وراء الناتج المحلي الإجمالي لا يتمثل في كونه مقياساً لرفاهية الشعوب، إلا أنه يرتبط بشكل وثيق مع مقاييس أخرى تؤثر على مستويات الرفاهية، عند دراسة بيانات وإحصائيات العديد من الدول حول العالم، سنجد أن الدول التي تتمتع بناتج محلي إجمالي عالٍ غالباً ما تسجل مستويات مرتفعة في الأمور التي يتفق جميعنا على أهميتها السحيقة، مثل متوسط العمر المتوقع لدى الفرد، وعلى الجانب الآخر، سنجد أنها تسجل مستويات منخفضة في الأمور التي نراها سلبية، مثل معدل وفيات الرضع. خلاصة القول: من غير المنطقي أن نتوقع من معيار الناتج المحلي الإجمالي أن يقوم ببعض الوظائف التي لم يُصمَّم للقيام بها في المقام الأول، ويجب ألا ننسى أنه من دون هذا المعيار، لما تمكنا بتاتاً من فهم وتحليل الاقتصاد، وبالتالي، سيمسي الأشخاص أمثالي بلا أي وظيفة".

"وأيضاً، لما خرجت أنا في جميع تلك النزعات التي حسنت من جودة حياتي بشكل غير قابل للشك!".

"هذا حقيقي، ولكن هذه النزعة قد استمرت وقتاً طويلاً بما يكفي، لنعد إلى المنزل".

# النزهة ١١: النمو الاقتصادي: كيف يمكننا جعل العالم مكانًا أفضل لعائلات مثل الجاكوتيرا والشاودري؟

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: ما النمو الاقتصادي؟ وكيف يمكننا قياسه؟ وما مدى أهميته؟ وكيف تُوزَّع الفوائد والنتائج الاقتصادية الناجمة عن هذا النمو من الناحية الجغرافية والتاريخية أيضًا؟ كيف يمكننا جعل العالم مكانًا أفضل، نظرًا لأن الغالبية القاطنة فيه تعيش في فقر مدقع؟

"أرغب في أن أحدثك عن النمو أثناء تنزهنا اليوم يا مونتي".

"لقد أخرجتني، فأنا أعلم أنني زدت القليل من الوزن في الآونة الأخيرة، ولكن ربما حري بك الإشارة إلى الأمر بطريقة ألطف".

"أقصد النمو الاقتصادي يا مونتي، أنا واثقة أنك تعلم بالفعل ماهيته".

"أجل، ولكن دعينا نضرب عصفورين بحجر واحد ونذهب للحديقة، وأنا واثق بأنني سأتمكن في يوم ما من اصطيد إحدى تلك الحمامات التي تتسبب في إزعاجنا".

شعرت برغبة في الذهاب إلى حديقة "كيلبورن جرانج" هذه المرة كنوع من التغيير، وهي تقع في الجهة المقابلة لحديقة "هامبستيد هيث". تتميز هذه الحديقة بمزايا عديدة، وتجعلك تشعر كأنك دخلت في عالم آخر، تتسم الحديقة بكونها كبيرة ومفتوحة، وتحتوي على ملاعب تنس بالإضافة إلى مناطق مجهزة جيدًا ومخصصة للعب الأطفال، لكنها في الوقت نفسه محاطة ببعض الأحياء السكنية التي تعتبر من الأشد فقرًا بمدينة لندن، يوجد بالحديقة بعض الأشخاص السكارى المتوارين خلف الأشجار، وهناك آخرون بلا مأوى

ويستلقون على المقاعد، لكن على الرغم من هذا، فهذه الحديقة ليست مكانًا مملوءًا باليأس، بل مكان تملؤه البهجة، حيث يرتفع صوت صياح الأطفال بفرح ليغطي على صوت الدردشة الممتعة بين الأمهات، علاوة على هذا، تسنح الفرصة أمام مونتي لإلقاء التحية على بعض الكلاب العجوزة الموجودة بشوارع كيلبورن، مما يوسع دائرته الاجتماعية التي لا تشتمل على أحد سوى كلاب حي هامبستيد المدللة، بمجرد أن أطلقت عنان مونتي، راح يجري ويلحق شيئًا ما بدا كأنه مزيج بين كلاب الإيرديل وحيوان الومبت، وبعدها، جاء حيوان آخر ليطارد مونتي بدوره، اتسم بكونه ضخم البنية ويتحرك بثقل، ولكنه ذو مظهر ودود كأنه هجين بين فرشاة الشعر وصغير فرس النهر، أخيرًا، نال مونتي كفايته من المرح وعاد إلى مقعدي وهو يلهث بلسانٍ متدلّ نتيجة لركضه.

"هل أنت جاهز لبذل بعض المجهود العقلي؟".

"جميع خلايا عقلي جاهزة وعلى أتم الاستعداد، فلتنطلقى".

"حسنًا، لننتحدث عن النمو الاقتصادي، عبر معظم العصور التاريخية، لم يوجد أي تحسين مستدام لمستويات المعيشة بالنسبة للجنس البشري بشكل عام؛ لم يحظ أي شخص عادي في القرن التاسع عشر بمستوى معيشة أفضل مما حظي به أقرانه في القرون الوسطى، كل من امتلك ما يكفيه بالكاد من مأكّل وملبس ومسكن اعتبر نفسه من المحظوظين في الحياة، وهذا الوضع لم يختلف كثيرًا من مكان إلى آخر حول أرجاء العالم؛ عاش الفقراء في مصر والهند وفرنسا نمط الحياة نفسه المحكوم بمطالب السادة لإنتاج الغذاء والتقلبات المزاجية للحكام القساة.

لكن، أتت الثورة الصناعية لاحقًا وغيّرت هذه الأوضاع بشكل جذري، ومنذ ذلك الحين، تحرر الناس أخيرًا من تلك الحياة التي لا تعرف سوى المشقة والكد والفقر؛ اعتمدت عمالة الرجال بشكل كامل على الأعمال اليدوية المؤلمة والخطيرة، وعملت النساء بجهد متواصل لإنجاز الأعمال المنزلية. بحلول القرن العشرين حدثت تغييرات هائلة وغير مسبوقة في الحياة بالنسبة للغالبية العظمى من الناس؛ ازدادت ثروات الأفراد من الطبقة المتوسطة

بمقدار 6 أضعاف بالتقريب، منذ حلول عام 1900، ولكن انتشر هذا التغيير الإيجابي بشكل غير متساوٍ، مما يثير لدينا العديد من الأسئلة المهمة: لماذا أصبحت الشعوب في أمريكا والمملكة المتحدة وأوروبا أغنى بكثير مما كانت عليه خلال المائة عام الماضية؟ لماذا لا تزال الشعوب القاطنة بمنطقة جنوب الصحراء الكبرى بأفريقيا تعاني الفقر والقحط الشديد؟ تشكل هذه الأسئلة الجوهر الذي تقوم عليه دراسة مفهوم النمو الاقتصادي.

لكن، أولاً وقبل أي شيء، أريد أن أعرفك على عائلة الجاكوتيرا.2

تعيش عائلة الجاكوتيرا في الفلبين، وهي تتكون من المزارع ليو الذي يبلغ الأربعين من عمره، وزوجته ماريا ذات الستة والثلاثين عامًا، وهي تعمل ربة منزل، أنجب ليو وماريا ثلاثة أطفال، ويعمل ليو لمدة تصل إلى ثمان وأربعين ساعة في الأسبوع، وفي بعض الأحيان، يعمل لمدة عشرين ساعة إضافية كحطاب. يعيش أفراد العائلة في منزل مكون من غرفتين بنوه بأنفسهم وبمساعدة بعض الأفراد من أصدقائهم وأقربائهم، ولعل استخدام كلمة "منزل" في وصفه أمر مضلل بعض الشيء، فمع كونه مشيّدًا بذكاء وعناية كبيرين، إلا أنه في الحقيقة مجرد كوخ يحمل طابعًا فاخرًا، ذي سقف مسرب للماء وقدر صغير جدًا من الخصوصية التي لا تقدر بثمن، تمتلك العائلة مرحاضًا، وثلاجة، وهاتفًا محمولًا، وبعضًا من الكهرباء، لهذا، وعلى الرغم من المشاق الكثيرة التي تحيط بهم، إلا أنهم أفضل حالًا مقارنة بأغلب شعوب العالم الذين عهدوا حقبة ما قبل عام 1870. يزرع أفراد العائلة نصف ما يستهلكونه من مواد غذائية بأنفسهم، ويشتررون النصف الآخر، كما أنهم يقضون ساعتين أسبوعيًا في جلب المياه النقية الصالحة للشرب، وسبع ساعات أسبوعيًا في جلب الحطب الذي يستخدمونه في طهي طعامهم، تخطط العائلة لادخار بعض المال من أجل استبدال هذا السقف المسرب، ويساوي دخلها الشهري - عند قياسه بالدولار الأمريكي - ما يقرب من 194 دولارًا لكل فرد بالغ، وسأعود لتوضيح عملية حساب هذا الدخل بشكل مفصل لاحقًا.3

"هل تعتبر أوضاع العائلة المعيشية سيئة على هذه الحال؟  
هل يعيشون في تعاسة؟".

"لدى عائلة جاكوتيرا مستوى معيشي بسيط للغاية مقارنةً مع العائلات الأكثر فقرًا في الدول النامية، ولكن مع ذلك، لا يبدو أنهم يعيشون في تعاسة تامة؛ تجنى العائلة المال بمعدل أكثر قليلًا مما تنفقه، كما أنهم يحظون بمجال في حياتهم للاسترخاء، ويلعب أطفالهم بدمى مصنوعة يدويًا بطريقة مبتكرة ومميزة ولا يعاني أي منهم بسبب الجوع، والأهم أن لديهم أملًا في مستقبل أفضل.

الآن، لتتعرف على عائلة شاودري:4 هي عائلة تعيش في الهند ومكونة من سوريش ذي الأربعين عامًا، وهو يعمل في جمع ثمار الفاكهة، وزوجته بستيني التي تبلغ من العمر ثلاثين عامًا. لدى سوريش وبستيني أربعة أطفال تتراوح أعمارهم بين ثلاث وعشر سنوات، وجميعهم لا يرتادون المدارس، تعيش العائلة في مسكن مكون من غرفة واحدة، يصعب عليّ تحديد كلمة مناسبة لوصفه؛ إذا انجرفنا بخيالنا بعيدًا، فيمكن القول بأنه كوخ، ولكن أعتقد كلمة وكر مناسبة أكثر لوصفه، لا تتوافر العديد من الأمور الضرورية كالكهرباء والمياه والمراحيض في هذا الكوخ، كما أن أقرب مصدر لديهم للمياه يستغرق رحلة مسافتها خمسة كيلومترات ذهابًا وإيابًا، وحتى المياه النابعة منه تعتبر غير صالحة للشرب، يستغرق سوريش مدة تصل إلى سبع عشرة ساعة أسبوعيًا في جلب الماء للعائلة، وأربع ساعات أسبوعيًا لجمع الحطب من أجل طهي الطعام. تحصل الأسرة على دخل يقدر بثلاثين دولارًا أمريكيًا لكل فرد بالغ يتم إنفاقه بشكل كامل على الطعام، ويتطلعون يوميًا ما إلى أن يستطيعوا شراء قطعة أرض يبنون عليها منزلهم وبداخله مصدر يمددهم بالمياه، من المستحيل أن نمتلك القدرة على رؤية ما بداخل نفوس الآخرين، ولكن بلا شك، تعكس هذه الدرجة من الفقر التعاسة على أفراد الأسرة".

"هذا أمر مفجع بحق، أمل أن تكون تلك الدرجة من الفقر شيئًا غير شائع".

"في الحقيقة، هي ليست أمرًا نادرًا كما تأمل؛ عاش ما يقرب من تسعة في المائة من سكان العالم تحت خط الفقر في عام 2017 بمعدل دخل لم يتجاوز 1.90 دولار يوميًا.5

تمكنت البشرية من تحقيق العديد من الإنجازات العظيمة خلال الخمسين عامًا الماضية مستعينة بالتكنولوجيا المتطورة لإحداث نقلة نوعية في حياة الشعوب الموجودة بالدول النامية، لكن، إن كان الأمر كذلك، فلم لا يزال ما يقرب من عشرة في المائة من سكان العالم يعيشون تحت ظل هذه الظروف المذلة؟.

يتلخص السبب الرئيسي وراء هذه الظروف المريرة في فشل اقتصادات تلك الدول في تحقيق أي شكل من أشكال النمو أو الازدهار، حيث تواجدت فترة من النمو الاقتصادي المستدام شهدتها كل من المملكة المتحدة والولايات المتحدة بالإضافة إلى العديد من الدول المتقدمة، لكنها قد مرت مرور الكرام دون أن تستفيد من تلك الشرائح السكانية الفقيرة، عندما أصدر آدم سميث كتابه بعنوان *The Wealth Of Nation* في عام 1776، كانت أكبر اقتصادات العالم في ذلك الوقت أغنى من اقتصادات الدول الفقيرة بفارق الضعف فقط، لكن في الوقت الحالي، ازدادت تلك الفجوة بحيث أصبحت الدول الغنية تتمتع بمعدل ثراء أكبر من نظائرها الفقيرة بأربعين مرة".

"إذن، لماذا تمكنت الدول المتقدمة من تحقيق التقدم بخلاف الدول الأخرى؟".

"هذا سؤال ذو أهمية عظيمة، ولحسن الحظ أننا على مستوى لا بأس به من فهم السبب الذي يجعل الدول الغنية بالصورة التي عليها في الوقت الحالي، ولكن لسوء الحظ، لم نستطع بعد ابتكار الوصفة السحرية التي من شأنها إثراء الدول الفقيرة. الآن، أرغب في شرح بعض الجوانب الفنية قبل الشروع في شيء آخر".

"حسنًا، ولكن بإيجاز".

"سأحاول بقدر ما أستطيع، لنبدأ بالتعريف، يعرف النمو الاقتصادي على أنه عملية لقياس مدى الزيادة في كمية وجودة السلع والخدمات التي ينتجها مجتمع معين، وعادةً ما يُقدَّر عن طريق مراقبة التغير الحادث لمعدل الناتج المحلي الإجمالي من فترة إلى أخرى، يجب تعديل البيانات مراعاةً للتضخم عند إجراء المقارنات عبر فترات زمنية حتى تكون على درجة عالية من الصحة والدقة، وبالتالي يمكننا من تقدير معدل النمو الحقيقي دون تأثير ارتفاع الأسعار.

تكمن المشكلة التالية في كيفية إجراء مقارنات دقيقة بين الدول وبعضها بعضًا، ولنتمكن من إنجاز هذا، يجب علينا تعديل البيانات والإحصائيات لتصحيح الفروق بين تكلفة السلع في كل دولة وأخرى عن طريق الاستعانة بما يعرف بتعادل القوة الشرائية.

"ماذا؟".

"لقد استغرقت بعض الوقت أيضًا حتى أفهم ما يعنيه هذا المفهوم، وإذا أخبرتك أن دخل المواطن الهندي يساوي 126 ألف روبية، ودخل المواطن الأمريكي من الطبقة المتوسطة يساوي 50 ألف دولار، فمن برأيك الأغنى من بين الإثنين؟".

"ليس لدي أدنى فكرة، فأنا لا أعرف الفرق بين الروبية والدولار".

"هذا ما أعنيه تمامًا، ولهذا عند إجراء المقارنات، يجب علينا أن نجد طريقة ما تتيح لنا المقارنة بدقة بين ظروف المعيشة في الولايات المتحدة اعتمادًا على مبلغ 50 ألف دولار، وظروف المعيشة في الهند اعتمادًا على مبلغ 126 ألف روبية، يمكن الاستعانة بسعر صرف العملات في السوق لمعرفة نتائج هذه المقارنة، ومن الجدير بالذكر أن مبلغ 126 ألف روبية كان يعادل حوالي ألفي دولار أمريكي في عام 2017، لكن، هناك بعض المشكلات التي تبرز عند استخدام وسيلة كهذه؛ تكلفة المعيشة في الولايات المتحدة أعلى بكثير منها في الهند، لذلك، يظهر لنا استخدام أسعار الصرف تقديرًا ضخمًا بشكل مبالغ فيه عن مدى الثراء الذي يتمتع به المواطن الأمريكي المتوسط مقارنةً بالمواطن الهندي، ولهذا، يحبذ



خبراء الاقتصاد تقدير سعر الصرف باستخدام تعادل القوة الشرائية لأنه يضع في الحسبان اختلاف أسعار السلع بين دول مختلفة كالولايات المتحدة والهند. عند تحويل قيمة العملة الهندية باستخدام تعادل القوة الشرائية، سنجد أن متوسط الدخل لدى المواطن الهندي في عام 2017 يقدر بما يزيد على 7,000 دولار.

"حسنًا، لقد فهمت الفكرة الأساسية؛ يمكننا أن نرى بالفعل مدى زيادة ثراء الأشخاص المتوسطين مع مرور الوقت، لكن، يمكننا أن نرى أيضًا مدى اتساع الفجوة الواضحة بين الدول الغنية والفقيرة، فما السبب وراء هذا؟".

"يرجع السبب وراء هذا الأمر إلى الفروقات الطفيفة نسبيًا بين معدلات نمو الدول المختلفة؛ يمكن أن يؤدي الفارق الناجم عن نمو الاقتصاد بمعدل 1% في دولة ما مقابل نموه بمعدل 2% في دولة أخرى إلى نتائج متباينة بشكل ملموس بين الدولتين".

"إلى أي مدى يكون التباين ملموسًا؟".

"تخيل معي أن هناك ثلاث دول مختلفة: جوندال وإكسينا وألكونا، وقُدِّر نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بألف دولار في الدول الثلاث عام 1920، إذا افترضنا أن اقتصاد جوندال قد نما

بنسبة 1%، فسيزداد نصيب كل مواطن جوندالي من الناتج المحلي الإجمالي ليصبح 2704 دولارات أمريكية، وذلك بعد مرور مائة سنة. على الجانب الآخر، إذا افترضنا أن اقتصاد إكسينا قد نما بنسبة 4%، سيصبح نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي 50,504 دولارات بحلول عام 2020، ينتج عن هذا الفارق البسيط بين النسب المئوية نتائج مختلفة بشكل مهول نلاحظها بوضوح مع مرور الوقت".

"يا له من أمر مدهش!".

"معك حق، هناك شيء يعرف بـ"قاعدة السبعين"، وهي تستخدم لتقدير الزمن الذي سيستغرقه معدل النمو ليزداد بمقدار الضعف، عن طريق قسمة العدد 70 على معدل النمو الحالي؛ لنفترض أن معدل النمو الحالي يساوي 2%، إذا قسمنا 70 على 2 سيكون الناتج 35، وعلى هذا، سيزداد الدخل بقرابة الضعف كل 35 عامًا في حالة ثبوت معدل النمو على 2% لكل سنة، وبما أن 35 عامًا تعتبر الفترة التقريبية لطول الجيل الواحد، فهذا يعني أن كل جيل سيكون أغنى من سابقه بمقدار الضعف.

باختصار: السبب وراء تخلف بعض البلدان هو فشلها في تحقيق ازدهار اقتصادي كافٍ. باتت الولايات المتحدة الأمريكية أغنى دولة في العالم بسبب أنها شهدت فترة استثنائية ومستدامة من التوسع الاقتصادي؛ بلغ متوسط معدل النمو السنوي ما يقرب من 2% على مدار القرن العشرين بأكمله، قُدِّر نصيب الفرد من الناتج المحلي في الولايات المتحدة بـ4,637 دولارًا في عام 1865، وذلك بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية، ولكن بحلول عام 2018، ازداد نصيب كل فرد ليصل إلى 55,335 دولارًا، وهذا كله بفضل ثبوت معدل النمو السنوي على نسبة 2% على مدار تلك السنين.

"وماذا حل ببقية الدول حول العالم؟".

لم يُتَح لنا الوصول إلى أي بيانات موثوقة قبل عام 1960، لذا، لننظر الآن إلى بيانات الأوضاع الاقتصادية في منطقة جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا خلال الفترة الممتدة بين 1960 و2009. اتسمت هذه المنطقة بكونها فقيرة منذ قديم الأزل، ولكن لم تختلف معدلات الفقر فيها عن بقية الدول بشكل كبير، عانت المنطقة معدلات نمو منخفضة للغاية على مدى السنوات، حتى باتت أفقر نطاق جغرافي موجود في العالم، حظيت الدول الآسيوية في بدايتها بأحوال اقتصادية جيدة إلى حد طفيف مقارنةً بمنطقة جنوب الصحراء الكبرى، كما أنها شهدت معدلات عالية من النمو الاقتصادي على مدار السنين مما جعلها تُصنف من ضمن الدول ذات الدخل المتوسط، أما عن منطقة أمريكا اللاتينية، فهي تمتعت بأحوال اقتصادية جيدة نسبيًا في عام 1960، ولكن ظلت معدلات نموها

الاقتصادي أدنى من المعدل المتوسط، لذلك لم تحرز أي تقدم وبقيت ضمن مجموعة الدول ذات الدخل المتوسط، عند النظر إلى دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية - وهي عبارة عن منتدى دولي يبلغ عدد أعضائه 38 دولة أغلبيتها من الدول التي تتمتع بالثراء وتقوم بشكل كامل على الصناعة: مثل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا - سنجد أنها تمتعت منذ البداية بمكانة اقتصادية عالية ومتقدمة، وهي لا تزال حتى الآن تحتل المكانة ذاتها فضلاً عن أن هناك بعض الدول الأخرى التي انضمت حديثاً إلى صفوف القمة".6

"لقد فهمت بالفعل مدى أهمية النمو الاقتصادي، ولكن هذا لم يُجب بعد عن تساؤلي: لماذا تتمكن بعض الدول من تحقيق النمو الاقتصادي دون الأخرى؟".

"سؤال ممتاز يا مونتي؛ لا يوجد ما يشغل حيزاً عملاقاً من اهتمامنا سوى التفكير في كيفية تخليص الدول الفقيرة المتبقية من أوضاع الفقر المدقع التي تعيش تحت ظلها، ويحاول خبراء الاقتصاد تحليل وفهم الإنتاجية الاقتصادية عن طريق دراسة ثلاثة عوامل أساسية تؤثر على الإنتاج بشكل رئيسي: رأس المال البشري، ورأس المال المادي، ومدى الكفاءة التقنية".

"عليك أن تشرحي تلك المصطلحات بشكل مفصل أكثر".

"لنبدأ برأس المال البشري، وهو يبدو مصطلحاً ذا وقع قاسٍ كونه مهيناً للبشر ويجردهم من جوهرهم الإنساني، وكأنهم مجرد عناصر إنتاجية من معدات المكاتب، مثل الماسح الضوئي، لكن مع ذلك، يبرز هذا المصطلح فكرة أساسية بأن الأشخاص الذين يتمتعون بصحة جيدة وعلى درجة عالية من العلم يتميزون بكونهم أكثر إنتاجية، والإنتاجية هي العنصر الرئيسي الذي يحدد على أساسه مستوي معيشتنا.

لننتقل إلى العنصر التالي، وهو رأس المال المادي، يتمثل هذا العنصر في جميع الآلات والمعدات التي نحتاج إليها لإتمام عملية إنتاج السلع المختلفة، لنأخذ مصنع السيارات على

سبيل المثال، فهو يتكون من عدة مبانٍ، وخطوط إنتاج مختلفة، وماكينات للحام الآلي بالإضافة إلى الحواسيب والطابعات التي لا غنى عنها في إدارة المصنع بشكل عام.

"أخيرًا، هناك عامل يُسمى مدى الكفاءة التقنية، ويُعرف أيضًا بالإنتاجية الكلية للعوامل، بصورة عامة، يشمل هذا المصطلح جميع العوامل والجوانب التي تؤثر في الكفاءة العامة للإنتاج؛ لا يقتصر فقط على التطورات التقنية البارزة مثل خطوط التجميع المتحركة أو المصباح الكهربائي، إنما يمتد ليشمل جميع العوامل الأخرى التي تساهم في تحسين الكفاءة الإنتاجية، بدءًا من بعض التحسينات الطفيفة وصولًا إلى مدى جودة الحكم في الدولة، سنتناول هذا الموضوع بشكل تفصيلي فيما بعد، ولكن هناك بعض الدول التي تعاني سوء الإدارة بكل المقاييس، وعلى العديد من المستويات، مثل البنية التحتية للنقل، والأنظمة القانونية، والسياسات الضريبية، ومدى الفساد المنتشر بها".

"وهل بإمكاننا حقًا تقدير هذه الأشياء: رأس المال البشري، ورأس المال المادي، ومدى الكفاءة التقنية؟".

"نعم، يمكننا إجراء حسابات تقديرية لمعرفة حجم رأس المال البشري والمادي، ولكن لا توجد وسيلة نستطيع من خلالها تقدير مدى الكفاءة التقنية بشكل مباشر، ولهذا السبب لُقِّب هذا العامل بأنه "مقياس لجهلنا"<sup>7</sup> لكن مع ذلك، يمكننا الكشف عن مدى الكفاءة التقنية للدولة إن كنا نعلم معدل ناتجها المحلي الإجمالي واستطعنا تقدير العاملين الأولين بنجاح، لعله من المفيد أن نتجه إلى التفكير في الإنتاجية بهذا النهج: إذا لوحظ أن هناك انخفاضًا حادًا في رأس المال البشري في دولة معينة عند مراجعة البيانات والإحصائيات في العديد من الدول، فقد يعتبر هذا مؤشرًا قويًا على أن الدولة بحاجة ماسة إلى استثمار المزيد من الأموال في الميزانية التعليمية".

"يوجد شيء من الغموض في كل ما نقولينه، علاوة على هذا، إن كان خبراء الاقتصاد يملكون جميع النظريات والمعادلات التي تفسر ماهية النمو الاقتصادي، فلماذا لم يتمكن العالم بأسره من إحراز التقدم والنمو؟".

"لا أستطيع لومك على هذا النقد، ولكن هناك بعض الفرضيات التي حاولت الإجابة عن هذا السؤال، وبينما بعض منها يزعم أن جغرافيا بعض الدول لها دور كبير في تقليص إمكانية نموها، ويؤكد البعض الآخر أهمية الدور الثقافي، مثل النزعة القوية للشعب الصيني نحو ادخار المال، كما أن هناك شكًا كبيرًا حول مدى قدرة الأجهزة الفعالة - مثل السياسات الاقتصادية - في إحداث تغيير إيجابي".

"لماذا قد تشكل الجغرافيا فارقًا كبيرًا إلى هذا الحد؟".

من الأمور اللافتة للانتباه بشكل بارز أنه عند النظر إلى خريطة العالم ستجد أن معظم الدول الفقيرة تقع بالقرب من المناطق الاستوائية، في حين أن الدولة ذات الدخل العالي تتميز بمناخات أكثر اعتدالًا.

يشير جاريد دايموند في كتاب بعنوان *Guns, Germs and Steel* إلى أن جغرافيا الدول تُعد بمثابة القدر الذي لا مفر منه؛<sup>8</sup> تقع بعض الدول في مواقع جغرافية تتمتع بوفرة الموارد الطبيعية، وتُعرف قارة أفريقيا بأنها موطن لمركز الفقر المدقع؛ عندما نستعرض الدول العشر الأكثر فقرًا في العالم، سنجد أن الدولة الوحيدة التي لا تقع في قارة أفريقيا هي أفغانستان، أكد الخبير الاقتصادي جيفري ساكس أن هذا الأمر ليس مجرد مصادفة بحتة، ولا يمكننا تجاهله بإيجاد تفسيرات ثقافية مثل: "شعوب تلك الدول متراخية ولا يتمتعون بإنتاجية" أو بالإتيان ببعض المبررات السياسية مثل: "انتشار الفساد بين الحكام". يتلخص الوضع السائد بهذه الدول كالاتي: يحاول بعض المزارعين ذوي رأس المال المحدود للغاية الزراعة على بضع أراضٍ ذات نطاق ضيق، ولكن حتى هذه الأراضي تنسم بكونها شديدة الاستنفاد إلى حد لا يسمح بالزراعة عليها في نمط إنتاجي منتظم، فضلًا عن أنهم لا يملكون مياهًا صالحة للشرب، بجانب الوجود الدائم والمنتشر لبعض الأمراض مثل الملاريا وغيرها من الأمراض الاستوائية، يشير ساكس أيضًا إلى أن ما يبقي تلك الدول على حالتها الفقيرة ليس تراخيهم أو الفساد المتفشى بينهم، بل هو البعوض المنتمي لجنس الأنوفيلة الجامبية (المتسبب في مرض الملاريا).

يعيش عدد كبير من تلك المجتمعات الفقيرة في عزلة تامة ويبتعدون بمسافات كبيرة عن الموانئ، ما يشل قدرتهم على الاشتراك في حركة التجارة العالمية؛ لن تغامر شركات عالمية مثل مايكروسوفت وجاب بالوثوق وتفويض أطراف أخرى لإدارة عمليات تصنيع منتجاتها في مناطق منعزلة في عمق القارة الأفريقية.

يمكن الحل بالنسبة لساكس في أن تقوم الدول المتقدمة بمساعدة الدول النامية في التغلب على هذه التحديات؛ لن تصلح اليد الخفية للسوق وحدها لإنقاذ الناس من حفرة الفقر تلك، ينبغي على الأمم التي حالفها الحظ في التمتع بموقع جغرافي جيد أن تقدم معونات مالية للسيطرة على الملاريا ومساندة المزارعين لإنتاج الغذاء عن طريق توفير الأسمدة لهم، ومساعدتهم على حل مشكلات الري، وتشبيد الطرق".

"كلام مقنع".

"بالفعل، ولكني لا أعتقد أنه يغطي كل الجوانب المتعلقة بالأمر دون استثناءات، فهو مجرد حجة تفترض أن الزراعة هي حبل النجاة الوحيد لإنقاذ تلك الدول من فقرها المدقع، ولكن ليس بالضرورة أن يكون هذا هو جوهر الأمر، خاصةً في ظل العالم الحديث والمتصل ببعضه الذي نعيش فيه".

"وهذا يأخذنا إلى..."

"الفرضيات الثقافية، وهي تزعم أن اختلاف القيم والمعتقدات الثقافية بين الدول مسئول بشكل أساسي عن اختلاف مستويات الثراء والازدهار بين بعضها البعض، بمعنى آخر: تعتبر القيم الثقافية التي نعتنقها عنصراً مهماً للغاية، بمستوى أهمية المعرفة التقنية نفسه. أشار عالم الاجتماع الألماني ماكس ووبر (1864 - 1920) إلى أن المعتقدات البروتستانتية لعبت دوراً محورياً ساعد على تصاعد المفهوم الرأسمالي، وتتلخص فرضيته في أن المذهب البروتستانتية يشجع على اعتناق مجموعة من القيم أدت إلى ظهور ما يعرف بـ"روح الرأسمالية"، وهو الأمر الذي ساهم بشكل رئيسي لاحقاً في تحقيق التقدم

الاقتصادي. حدث تحول جذري للثقافة بشكل عام، حيث تبدل اهتمام الأشخاص من تركيزهم على الحياة الآخرة إلى التركيز على الحياة الدنيا كوسيلة لتعظيم الإله، وبهذا، أمسى العمل الدؤوب من حميد الأفعال، وإضاعة الوقت من ذميم الخطايا، كان يُنظر إلى التبذير في استهلاك السلع والموارد بما يتخطى احتياجات الإنسان الأساسية على أنه من عظيم الذنوب، وهذا أدى إلى انتشار مفهوم الادخار والاستثمار، مما ساهم بدوره في تعزيز التيار الرأسمالي".

"وهل هذا الكلام صحيح حقاً؟".

"تعرض نهج ويبر لانتقادات لازعة على نطاق واسع، حيث أشار العديد من المؤرخين والاقتصاديين إلى أن الثورة الصناعية لها جذور في هذا الأمر تعود إلى فترة زمنية تسبق ظهور المذهب البروتستانتي، وأن هناك العديد من العوامل الاقتصادية والتقنية ذات تأثير عميق كانت أهم من التحول الثقافي الذي أشار إليه ويبر، لكن مع ذلك، يعترف الجميع بأن العامل الثقافي له دور حتى إن كان على نطاق هامشي، على سبيل المثال: يعتبر النهج الادخاري المتبع من قبل رواد الأعمال البريطانيين المنتمين للطائفة المنهاجية أو الكنيسة الكويكرية (كلتا الطائفتين تعتبران من المسيحيين البروتستانتين) خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر له الفضل - ولو بصورة جزئية - في نجاحهم، لكن على كل حال، لا يوجد العديد من الأشخاص في الوقت الحالي الذين يتبنون تحليل الظاهرة باستخدام العامل الثقافي بمفرده".

"وهذا يتركنا مع..."

"آخر تفسير لدينا، وهو مؤسسات الدولة، وأعتقد أنه عامل ذو أهمية كبرى لفهم ماهية الاختلاف في مستويات الازدهار بين الدول، إن وضع تفسير لمعجزة النمو الاقتصادي التي شهدتها الصين مؤخراً بناءً فقط على أنها سعت لزيادة رأس مالها المادي بجانب تبنيها لوسائل تكنولوجيا أجنبية، سيجعلنا نفتقد الجوهر الأساسي لحقيقة الأمر، ألا وهو أن

السبب الرئيسي في الحقيقة راجع إلى قرار سياسي اتخذه "دينج شياوبينج" بالتحول إلى اعتماد منظومة السوق الحرة".

"أيمكننا أن نرجع خطوة للوراء حتى تشرحي لي معنى مصطلح "مؤسسات" الذي تستمرين في ذكره؟".

"عندما يستخدم خبراء الاقتصاد مصطلح "مؤسسات"، فهم يشيرون من خلاله إلى جميع القوانين الرسمية وغير الرسمية التي تشكل سلوكنا وتوجهه، أضف إلى ذلك أن الطريقة التي نحدد ونفرض من خلالها تلك القوانين لها أهمية وتأثير كبيران، هل فهمت ما قصدته؟".

"أجل، إلى حد ما... في الحقيقة، لم أفهم".

"استخدم دوجلاس نورث مصطلحه الشهير "قوانين اللعبة" 9 للإشارة إلى المؤسسات؛ تتمثل القوانين الرسمية في أمور مثل قانون الملكية، وقانون الشركات بالإضافة إلى اللوائح التي تنظم حركة التوظيف والعمل وتشرف على إبرام العقود. من الناحية الأخرى، تتكون القوانين غير الرسمية من جميع العادات والتقاليد والاتفاقيات الاجتماعية التي تلعب دورًا حاسمًا في تنظيم وهيكلية التعاون بين أفراد المجتمع، إن المحفز الأساسي الذي يدفع الأفراد للاستثمار والعمل بجد هو ثقتهم في أنهم سيحصلون على جزء من أرباح وثمار عملهم؛

ما المغزى من تكبد عناء العمل الجاد إن أتت الحكومة - أو أي شخص ذي نفوذ قوي - واستولت على كل شيء لنفسها؟ إن وجود جهاز قضائي فعال أمر لا غنى عنه في تعزيز وتنظيم التعاون اللازم الذي يساعدنا على إقامة شراكات تجارية مع الآخرين، تصبح مزاولة الأعمال التجارية أمرًا شاقًا للغاية عندما لا تُفرض الالتزامات المتفق عليها في العقود؛ وتميل الأسواق للعمل بكفاءة أكبر عندما يبني أفراد المجتمع مستوى جيدًا من الثقة بين بعضهم البعض. فضلًا عن هذا، نحن نحتاج إلى التشريعات واللوائح من أجل حماية حقوق



الملكية ووضع معايير للجودة، وهذه أمور تطلب جهدًا كبيرًا من السلطات لتطبيقها ويصعب علينا تقدير مدى فاعليتها".

"إذن كلما زادت القوانين والضوابط المفروضة، حصلنا على نتائج أفضل؟".

"الزيادة لا تعني بالضرورة حصولنا على نتائج أفضل طوال الوقت، في بعض الأحيان، تصبح اللوائح المعقدة والمُرهِقة حجة للحصول على الرشاوي. وقد أجرى الخبير الاقتصادي من دولة بيرو "هيرناندو دي سوتو" تجربة يقدم من خلالها المزيد من التوضيح حول هذه القضية؛ قرر أن يكتشف المدة المستغرقة في إنشاء مصنع صغير للقمصان إذا التزم بجميع الإجراءات واللوائح المطبقة في دولة بيرو، وقد استغرق إنشاء المصنع 289 يومًا عصيبًا، واضطر هيرناندو، لاستخراج أحد عشر تصريحًا مختلفًا من سبع وزارات مختلفة، أضف إلى ذلك أنه طوّل عشر مرات خلال هذه العملية بدفع الرشاوي، حاول هيرناندو إكمال التجربة دون أن يدفع أية رشاي، ولكنه اضطر لانتهاك قواعده في مرتين حتى لا يتفادى فشل التجربة برمتها.

أنشأ البنك الدولي مؤشرًا يسمى "سهولة مزاولة الأعمال" استلهاً من تجربة هيرناندو، ويهدف هذا المؤشر لقياس مستويات البيروقراطية والفساد الموجودين بمختلف الدول، والخبر السار هنا هو أن دولة بيرو حصلت على مجموع نقاط بلغ 68.7، وهو شيء يستحق الثناء، حيث إن متوسط مجموع النقاط لدول منظمة التعاون الاقتصادية ذات الدخل العالي بلغ 10.78.4

يمكنني الاستمرار في الحديث عن أهمية القوانين لساعات، ولكني أعتقد أنك فهمت المغزى العام، لعل جغرافية الدول أمر يستعصي علينا حله، ولكن لحسن حظنا، فالقوانين شيء نستطيع تغييره حتى لو بصعوبة في بعض الأحيان، وهذا يمنحنا أملًا لتغيير أوضاع الاقتصادات المتدهورة لأنها ليست بالأمر الثابت الذي لا رجعة فيه".

"حسنًا، لقد فهمت أن النمو الاقتصادي شيء جيد، ويمكننا تعزيزه من خلال الاستثمار لزيادة رأس المال البشري، وتطوير البنية التحتية وتشريع القوانين، ولكن هل يمكن أن تستمر الاقتصادات بالنمو إلى الأبد؟".

"من الناحية المنطقية، سيأتي علينا الوقت، عاجلاً أم آجلاً، الذي يبلغ فيه النمو الاقتصادي مرحلة تنبئنا بأن استهلاكنا من الموارد الطبيعية والبيئية قد بلغ حده الأقصى؛ لن نتواجد الغابات والأشجار، وستنضب المحيطات من أسماكها، ستمسي الأرض مجرد كتلة صخرية جرداء لم يتبقَّ عليها شيء سوانا، وستتزاحم عليها الصراصير وتتسلل إليها الفئران والحمامات المتهالكة".

"هذا وصف مبالغ فيه بعض الشيء، وكأنك ترسمين صورة لما سيحل بعد نهاية العالم".

"أعتذر عن هذا، ولكني كنت أتأمل حقيقة: على مدار التاريخ، تمكنا من تحقيق النمو الاقتصادي، ولكن حدث هذا على حساب تدهور الأوضاع البيئية بشكل خطير، ولا يمكننا الاستمرار على النهج نفسه لفترة طويلة، يستمر الجدل حول القضية نفسها عندما ننظر إليها على المدى القصير، ليس البعيد فقط؛ على سبيل المثال: الأشياء المحتملة وقوعها خلال بضعة عقود مقبلة، من الجدير بالذكر مجدداً أن خبراء الاقتصاد يختلفون فيما بينهم بشأن ما إن كانت ستستمر معدلات النمو الاقتصادي في المستقبل بنمط الزيادة والقوة نفسه الذي عهدناه في الماضي أم لا!".

"خبراء الاقتصاد مختلفون؟ يا له من أمر مفاجئ!".

"نحن نعيش في عالم معقد، ولكننا سنعرف الإجابة عن هذا التساؤل بطريقة أو بأخرى عما قريب، يشير البعض إلى أن مع كل هذه الضجة والاهتمام المفرط المثارين حول ما نراه من تقنيات جديدة إلا أننا سندخل في عصر آخر بالمستقبل لن نشهد به ارتفاعاً في معدلات النمو الاقتصادي بالمستوى نفسه الذي كان عليه خلال الأعوام الذهبية في القرن العشرين؛

كما قال بول كروجمان: 'مع كون هناك الكثير من التقنيات الجديدة، إلا أن الناتج المحلي الإجمالي يظل ضئيلاً للغاية' 11.

"ولماذا يظن الخبراء أن معدلات النمو أخذت بالتباطؤ؟".

"يعتقد البعض أن الوضع الحالي مجرد اضطراب مؤقت، وأن جميع التقنيات المبتكرة ستحدث تغييرات جذرية، ولكنها تتطلب القليل من الوقت حتى تتمكن من التكيف مع عالمنا قبل أن تكشف عن فوائدها الحقيقية، أبدى الخبير الاقتصادي "روبرت جاي جوردن" عدم اهتمامه بما يزعمه أولئك المتفائلون بالمكاسب التي سنحققها من خلال التكنولوجيا، وقدم بعض الحجج التي تشير إلى أن معدلات النمو الاقتصادي - بالنسبة للولايات المتحدة على الأقل - قد بلغت ذروتها في منتصف القرن العشرين، 12 كما أنه صرح بأن لديه شكوك حول إمكانية ارتفاع مستويات معيشة الجيل الحالي من الشباب الأمريكي بمقدار الضعف مقارنةً بجيل آبائهم. في كتاب بعنوان *The Rise and Fall of American Growth* أكد جوردن أن القرن العشرين كان فترة مميزة واستثنائية من المستحيل أن تتكرر مرة أخرى".

"ماذا يعني بكونها مميزة؟".

"يعتقد جوردن أن التحول الهائل الذي حدث للمستويات المعيشية في مطلع القرن العشرين يختلف بشكل جذري عن أي شيء آخر جاء قبله أو بعده، (تركز فرضيات جوردن بشكل كبير على أوضاع الولايات المتحدة، ولكن يمكن أن تنطبق على العديد من الدول الأخرى أيضًا)، في عام 1870، لم تكد توجد أية منازل في الولايات المتحدة تتمتع بوجود مياه جارية أو مراحيض ذات تفريغ مائي أو أي مصادر للضوء والدفء، فضلًا عن أن الأمراض انتشرت على نطاق واسع، وكان 75% من السكان يعيشون في مناطق ريفية، علاوة على ذلك، لم تتوافر أجهزة المذياع والهواتف، وانعدمت خدمات البريد في المناطق الريفية إلى جانب أن الطرق المعبدة لم تكن موجودة إلى حد كبير.

لكن العالم قد شهد تحولاً غير مسبوق بحلول عام 2019، تركزت معظم الاختراعات والتطورات في مجالي الترفيه والاتصالات، ومع كون جهاز آيفون اختراعاً فائقاً، إلا أن وجود مرحاض يمتلك خاصية تفريغ المياه كان بلا منازع أمراً يفوق الآيفون أهمية فيما يخص رفاهية الإنسان وراحته، يعتقد جوردن أن هناك بعض الاختراعات ذات أهمية أكبر من غيرها، كما أنه تراوده بعض الشكوك حول إمكانية ظهور اختراع ما قادر على إحداث تغييرات جذرية بالدرجة نفسها التي شهدناها في الماضي".

"على ذكر الراحة، أظن أنني أحس بتساقط بضع قطرات من المطر..."

"أنت محق، لنعد أدراجنا، لكن دعنا نختم الموضوع ببعض من التساؤلات التي تعد الأهم في تاريخ الاقتصاد بأكمله: لماذا نهضت اقتصادات العالم بشكل مفاجئ بعد قرون من السبات؟ وكيف يمكننا أن نساعد البلدان التي تعيش بها عائلات مثل عائلة شاودري التي لا تزال تعيش محاصرة في فقر ميئوس منه على الرغم من استمرارهم في العمل والكد؟ كيف يمكننا أن نضمن لأبنائهم الحصول ولو على نفحة من الحياة الكريمة في المستقبل؟".

## النزهة ١٢: العمل المتواصل دون الترفيه عن نفسك يجعلك شخصًا مملًا

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: الحياة العملية، وكيف تغيرت بمرور الوقت؟ وهل تغيرت إلى الأفضل أم للأسوأ؟ كما أننا نتساءل عن مدى أحقية الأفراد للاختيار في العمل بوظيفة "سيئة" بالإضافة إلى تسليط الضوء على عمالة الأطفال، ولماذا ينبغي أن نشكك ونحذر من الإحصائيات المقدمة حول معدلات البطالة؟ ولماذا يحتاج النظام الرأسمالي لوجود البطالة في المقام الأول؟ وهل يمكن أن تكون الإعانات الحكومية فعالة ومبالغًا فيها في الوقت نفسه؟ وأخيرًا، سنتناول أوضاع الحياة العملية في المستقبل: ترى هل سيقوم البشر الآليون بسلبنا وظائفنا؟ لعل هذا صحيح، ولكنه أمر قد يأتي بمنفعة علينا أيضًا.

عثرت على مونتي يتمدد في مكانه المفضل للراحة، وهو البقعة الدافئة بفراش روزي التي تركتها بعدما ذهبت إلى المدرسة، فتح مونتي إحدى عينيه، ونظر إليّ ثم أغلقها مجددًا، إن كنت تسعى لشرح ماهية مفاهيم الكسل والاسترخاء والراحة، فمن الأفضل الاستعارة بمونتي كمثال حي كونه يجسد مفهوم الكسل بعينه، وهذا ما دفعني لاختيار الموضوع الذي سأتناوله اليوم.

"حسنًا يا مونتي، سنخرج اليوم في نزهة سواء رغبت في هذا أم لا، وسنتحدث في نزهتنا عن العمل والبطالة".

"ألا يمكنني أن أحظى بمزيد من الوقت للاسترخاء؟".

"لا يمكنك، فلتكف عن التراخي واستيقظ حتى نبدأ، لا تقلق، لن أجعلها نزهة مرهقة، فنحن سنذهب إلى حديقة الروث".

جلسنا على مقعدنا المعتادين عليه، وباشرنا بالعمل في الحال.

"نظرًا لكونك كلبًا مدللًا يا مونتي، فهذا الأمر لا يشغل جانبًا كبيرًا من حياتك بطبيعة الحال، ولكن بالنسبة لمعظم البشر، يمثل العمل أهم شيء في حياتنا بعد عائلاتنا".

"هذا أمر محبط".

"صحيح، ولكن ليس بصورة قاطعة، فالعمل أمر غاية في الأهمية، ليس لأنه يساعد المرء على سداد نفقاته المعيشية وحسب، بل لأنه يمثل جزءًا كبيرًا من الهوية الشخصية بالنسبة لمعظم البشر، عندما يُسأل الأشخاص عن أنفسهم، غالبًا ما تتمحور إجاباتهم المعتادة حول طبيعة عملهم: كأن يكونوا أطباء، أو معلمين، أو مهندسين، أو مصنفين للشعر".

تمكن مونتي بنجاح من كبت أول تثاؤب له خلال ذلك اليوم، ثم قال: "إذن، أخبريني عن هذا الشيء المسمى العمل، فهو يبدو مثيرًا للاهتمام".

"لنبدأ بالحديث عن الجوانب الإيجابية؛ انخفضت ساعات العمل بشكل هائل على مدار الخمسين عامًا الماضية بالنسبة للعامل العادي الذي يقطن في دولة متقدمة. لنأخذ ألمانيا كمثال: انخفض متوسط عدد ساعات العمل السنوية بنسبة تفوق خمسين في المائة - أي انخفضت من 3,284 ساعة حتى بلغت 1,354 ساعة - خلال الفترة الممتدة بين عامي 1870 و2017، وعلى مدار المدة الزمنية ذاتها، انخفضت ساعات العمل في المملكة المتحدة بمقدار أربعين في المائة.1 تشير هذه البيانات على الجانب الآخر إلى وجود أوضاع غير مرضية بالنسبة لمعظم بلدان العالم النامي، ولكن حتى في هذه البلدان، لا تزال ساعات العمل أقل بكثير مقارنةً بتلك المدة القاسية التي شاعت خلال الثورة الصناعية - مع أنها لا تزال تُعد طويلة في بعض الأحيان عند مقارنتها بعدد الساعات في الدولة المتقدمة. علاوة على انخفاض ساعات العمل، تحسنت ظروف العمل - سواء داخل المنزل أو خارجه - بصورة كبيرة لا يمكن تقديرها.

إذا نظرنا إلى طبيعة العمل بالولايات المتحدة قبل القرن العشرين، سنجد أن الغالبية العظمى من الناس عملت بالزراعة أو بالصناعات الثقيلة أو الخدمات المنزلية. كانت ظروف

العمل بالنسبة للرجال شاقة ومحفوفة بالمخاطر، حيث اضطروا للعمل في بيئات ملوثة وتحت درجات حرارة عالية، أما النساء، فاضطررن للكد بشكل مستمر إلى حد التعب. بحلول القرن الحادي والعشرين، تبدلت ظروف العمل من كونها تجربة بغيضة إلى تجربة ممتعة - على الأقل بالنسبة لدول العالم المتقدم - وذلك عند قياسها من حيث مدى الجهد البدني المطلوب، ومدة التعرض لعوامل الطبيعة، وخطر التعرض للإصابات أو الموت".2

"وعلى الجانب الآخر...؟"

"لا يزال هناك العديد من الوظائف البغيضة، أجرت منظمة العمل الدولي تقديراً في عام 2017 وتبين أنه لا يزال هناك ما يقرب من أربعين مليون شخص يعملون تحت ظروف تشبه العبودية، ولكن بطابع حديث؛ إن العديد من الأشخاص في تلك النسبة محصورون في العمل داخل قطاعات معينة مثل الأعمال المنزلية، والزراعة، والبناء، كما أن النساء والفتيات يشكلن النسبة الأكبر من ضحايا العمل في هذا النوع من الوظائف، تعرضت أوزباكستان لضغط من المجتمع الدولي بسبب استخدامها سياسات العمل القسري، وحدث ذلك منذ فترة قريبة؛<sup>3</sup> أن جميع موظفي الدولة - بمن فيهم من أطباء وممرضين وطلاب، بالإضافة إلى الأطفال الذين لم يتجاوزوا سن التسعة أعوام أُجبروا جميعهم على العمل في حقول القطن لمدة شهرين من كل سنة بالتقريب.<sup>4</sup> في حين أن ظروف العمل تحسنت بشكل مهول بالنسبة للعديد منا، إلا أن هناك فئة من الأشخاص الذين لا يزالون يعيشون تحت واقع مظلم فيما يخص حياتهم العملية".

"لماذا لا تشرع الحكومة في وضع قوانين تضمن للناس ألا يُعاملوا معاملة سيئة أثناء تأديتهم وظائفهم؟".

"هذا سؤال ممتاز يا مونتي، في دول العالم المتقدم غالباً ما يخضع العمل إلى التنظيم الصارم؛ هناك العديد من الجوانب التي تخضع للقوانين والتشريعات مثل مدة ساعات العمل اليومية، والسلامة في مكان العمل، والاستقرار الوظيفي، والحد الأدنى من الأجور، لكن، لا يحبز خبراء الاقتصاد الاعتماد على هذه النوعية من معايير العمل المحددة، حيث

تقوم حجتهم على أن الأشخاص قد يقبلون بالعمل في أي وظيفة بغض النظر عن مدى صعوبتها وانخفاض أجرها، بناءً على ظن منهم بأن العمل سيحسن من وضعهم المعيشي.

لنأخذ ظاهرة عمالة الأطفال على سبيل المثال، فهي أمر يمثل كابوسًا بالنسبة لنا ويتمنى جميعنا القضاء عليه بصورة نهائية،

قدمت حكومة الولايات المتحدة مشروع قانون في عام 1993 يهدف إلى حظر استيراد السلع من الدول التي تستعين بعمالة الأطفال، لخص بول كروجمان النتائج التي تترتب على هذا القرار في أن المصانع بدولة بنجلادش توقفت تمامًا عن توظيف الأطفال، هذا جانب إيجابي بلا شك، ولكن هؤلاء الأطفال الذين انقطعوا عن العمل لم يرتادوا المدرسة مجددًا ولم يعيشوا في منازل سعيدة، ووفقًا لمنظمة أوكسفام انتهى المطاف بأولئك الأطفال إلى العمل في وظائف ذات ظروف أسوأ، أو التسول في الشوارع، فضلًا عن أن هناك عددًا كبيرًا منهم أُجبر على العمل في البغاء".5

"تمهلي لحظة، هل تقصدين أن عمالة الأطفال شيء مفيد بخلاف المتوقع؛ فأنا ما زلت أشعر بالاستياء حقًا حول هذا الأمر...؟"

"نعم، أتفق، لكن المغزى أنه ينبغي علينا أن نضع في عين الاعتبار العواقب الحقيقية المترتبة على قراراتنا النابعة من ردود أفعالنا الفورية التي نشعر بها تجاه قضايا أخلاقية معينة، ويجب أن نعرف أيضًا أننا قد لا نحصل في بعض الأحيان على الإجابات التي تحلو لنا وتتماشى مع قيمنا الأخلاقية، من الصعب أن يأتي منا منظور آدم سميث - الذي يؤكد أن أي اتفاق يشارك فيه طرفان بكامل إرادتهما، سيستفيدان منه بلا شك، وإلا لن يحدث في المقام الأول - بالإجابة التي نبحث عنها، لكن، عوضًا عن أن نتساءل إن كان القرار نابغًا من محض إرادة الشخص، لعله ينبغي علينا أن نتساءل إذا تم اتخاذ القرار في الأساس تأثرًا بظروف محيطة يجب - ويمكن - تغييرها؛6 هل يمكننا حقًا اعتباره خيارًا نابغًا من الإرادة الحرة عندما يوضع الشخص في ظروف تحتم عليه القبول بأي فرصة عمل تتوفر له حتى



لا يموت جوعاً؟ صحيح أن تجربة العمل في العالم المتقدم تغيرت بشكل جذري للأفضل، ولكن يجدر بنا أن نتذكر بأن هذا ليس الحال بالنسبة للجميع.

هذا كل شيء متعلق بالعمل يا مونتي، الآن أريد أن أتحدث عن غياب العمل، وهو ما يعرف بالبطالة، في البداية وقبل أي شيء، أريد أن أوضح بأن البطالة ظاهرة سلبية، ولا يوجد أي شك في ذلك".

"لماذا؟ فهي تبدو أمراً لا بأس به بالنسبة لي؛ أنا لم أتمكن قط من فهم السبب الذي يجعلكم تهرعون نحو العمل بجد هكذا، لكن هذا الكلام لا ينطبق على جابريال بالتأكيد، فأنا لم أره يهرع نحو شيء إلا عندما يهم بالذهاب في موعد للقاء أصدقائه".

"صدقني يا مونتي، الأمر ليس بتلك المتعة التي تتصورها، عندما يفقد المرء وظيفته، فهو لا يفقد ما يحصل عليه من دخل وحسب، بل يفقد أيضاً مكانته الاجتماعية، ومعارفه، ونمط حياته اليومي الذي اعتاد عليه.<sup>7</sup> أضف إلى هذا أن البطالة لها تأثير سلبي على المجتمع بشكل عام، فهي تعني أن اقتصاد الدولة ينتج السلع والخدمات بكميات أقل مما كان سينتجه إذا انضم الأشخاص العاطلون لقوة العمل، إلى جانب إنفاق المزيد من الأموال على الإعانات الاجتماعية. ويصنف خبراء الاقتصاد البطالة إلى ثلاثة أنواع: البطالة المؤقتة، والهيكلية، والدورية.

تحدث البطالة المؤقتة عندما ينتقل الفرد من وظيفة إلى أخرى، أما البطالة الدورية فهي تحدث نتيجة للتقلبات الاقتصادية عندما ينخفض الطلب على العمالة بشكل مؤقت، مثل الأزمات التي أثرت على الاقتصاد وزادت معدلات البطالة كالأزمة المالية التي حدثت عام 2008، وجائحة فيروس كوفيد - 19.

لكن هذين النوعين لا يشكلان مخاطر بدرجة تؤرق الاقتصاديين والسياسيين، تُعرّف البطالة الهيكلية على أنها تباين كبير بين مهارات ومؤهلات العمال، ومتطلبات سوق العمل الحالية، ويعتبر هذا النوع هو أسوأ أنواع البطالة. انهارت صناعات الفحم والفولاذ في عقد

الثمانينيات من القرن العشرين بالمملكة المتحدة، وفقًا للنظريات الاقتصادية النمطية، ينبغي على أولئك العمال في مناجم الفحم ومصانع الفولاذ التحرك على قدم وساق من أجل البحث عن وظائف في قطاعات متنامية، مثل قطاع التكنولوجيا وقطاع الخدمات، لكن، من العسير حدوث هذه التنقلات بين قطاع إلى آخر على أرض الواقع، تلقت المجتمعات التي تعتمد بشكل كامل على العمل في قطاع صناعي واحد فقط - تعرض للانهدام فيما بعد - صدمة اقتصادية قوية لم يتعاف منها البعض حتى يومنا هذا، وتضررت أجيال بأكملها بسبب البطالة والفقر وما يصاحبهما من آثار اجتماعية سلبية، هناك قصة يحكيها الفيلسوف عن فقدان بلدة التعدين الصغيرة التي نشأ بها لمناجمها التي تشكل مصدر رزقها الأساسي. بعد مرور ستة أشهر على ذلك الحادث، افتتحت أربعة محال لبيع مستلزمات الصيد في البلدة، وتم تمويلها من خلال مبالغ التعويض التي تسلمها العمال، كان عدد المحال من هذه النوعية كبيرًا، بحيث تساوى بالتقريب مع عدد الصيادين الموجودين في البلدة بأكملها، بمعدل محل واحد لكل صياد بمفرده".

"حسنًا، إذن هناك أنواع من البطالة حتمية الحدوث، ولكنها ليست سيئة على الإطلاق، مثل ذاك النوع المسمى البطالة المؤقتة الذي ذكرته منذ وهلة، وهناك أنواع أخرى سيئة، ولكنها تستمر بشكل مؤقت، مثل البطالة الدورية التي تتميز بتأرجح معدلاتها بين الارتفاع والانخفاض مع حدوث بعض الصدمات والانتعاشات على المدى القصير، وأخيرًا، هناك بعض الأنواع السيئة على جميع النواحي، مثل البطالة الهيكلية".

"بالضبط".

"أتساءل في الوقت الحالي عن كيفية قياس معدلات البطالة، فإجراء التقديرات دائمًا ما يشكل تحديًا بالنسبة لكم أيها الاقتصاديون".

"لقد تفاجأت قليلًا عندما علمت أنهم يقومون بهذا الأمر في المملكة المتحدة من خلال إجراء استطلاعات الرأي؛ تختار الهيئة القومية للإحصاءات عينة عشوائية تتكون من مائة ألف فرد بالغ تتجاوز أعمارهم جميعًا السادسة عشرة، ثم تطلب منهم تقديم معلومات حول

أوضاعهم الوظيفية، وإذا تبين أن هناك بعض الأشخاص دون عمل، ولكنهم يبحثون عن وظيفة في الوقت الحالي، تعتبرهم الهيئة عاطلين ويُحتسبون ضمن معدلات البطالة".

"يا لها من إجابة سهلة على عكس المتوقع!".

"نعم إنها سهلة، ولكن النتيجة النهائية قد تكون مضللة أو غير دقيقة".

"لماذا؟ فهذه الطريقة تبدو واضحة كالشمس بالنسبة لي".

"هذا لأن معدلات البطالة تتضمن فقط مَنْ هم عاطلون عن العمل، ولكن يبحثون بتفانٍ عن وظيفة، وعلى الجانب الآخر لا تتضمن مَنْ هم عاطلون عن العمل، ولكن لا يبحثون عن وظيفة رغبةً منهم في ذلك، لعل هذه الوسيلة عادلة بما فيه الكفاية، ولكنها تغفل عن بعض الأشخاص الذي حري بنا احتسابهم ضمن معدل البطالة".

"مثل مَنْ؟".

"قد يجيب طالب ما أثناء عطلته الصيفية، أو والد يقضي كامل وقته في رعاية طفله على استطلاع الهيئة بأنه لا يعمل خلال الوقت الحالي ولا يبحث عن وظيفة أيضًا، وحينها سيكون من المنطقي استبعاده من معدل البطالة. لكن، على سبيل المثال: ماذا عن أولئك الأشخاص الذي بقوا عاطلين عن العمل لمدة عام بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية التي أدت بدورها إلى إضعاف آفاقهم المهنية مما جعلهم يستسلمون ويتوقفون عن البحث عن عمل؟ ونظرًا لأن تلك الفئة من الأشخاص لا تبحث بجدية عن وظيفة في الوقت الحالي، فلن تندرج تحت معدل البطالة، أو ماذا عن أولئك الأشخاص الذين حظوا بتدريب مهني ممتاز أصقل مهاراتهم، ويريدون العمل في وظيفة بدوام كامل، ولكن كل ما استطاعوا العثور عليه هو وظيفة بدوام جزئي في مجال خدمة العملاء؟ قد يظن البعض أن تلك الفئات التي فقدت الأمل في العثور على وظيفة أو تعمل بوظائف غير متلائمة مع كفاءتهم المهنية يجب أن يظهروا ضمن إحصاءات معدلات البطالة، ولكن في الواقع، فهم يُستبعدون

منها، المغزى الأساسي هنا: ينبغي على المرء أن يشكك في بعض الأحيان في إحصائيات البطالة كونها لا تعكس الحقيقة الكاملة الموجودة في الواقع".

"أجل، وأنا أتفق معك، إنها مجرد أكاذيب، اللعنة على الأكاذيب والإحصائيات!".

"لا أصدق أنك انتظرت حتى النزهة الثانية عشرة لاستخدام هذا الاقتباس! على كل حال، ما يشكل تحديًا حقيقيًا بالنسبة لخبراء الاقتصاد هو إيجاد تفسير لوجود البطالة في المقام الأول".

"ماذا؟".

"ينظر خبراء الاقتصاد لسوق العمل على أنه يشبه أي نوع آخر من الأسواق؛ يتألف من جانبين، وهما العرض والطلب، تمثل المشاريع التجارية والشركات جانب الطلب؛ تقرر عدد الأشخاص الذين ستوظفهم بهدف تحقيق أقصى قدر من الأرباح، على النظير، نمثل نحن العاملين جانب العرض؛ نتخذ القرارات بشأن كمية الأعمال التي نرغب في تقديمها، يجب أن يحدد أجر العمل - كأي سلعة أخرى في السوق كالذهب والسيارات والقهوة - بناءً على النقطة التي يتساوى فيها العرض والطلب على العمالة، وهذا تحت ظل سوق المنافسة المثالية، تقدم هذه النظرية حججًا قوية تؤشر بأنه ينبغي ألا نرى وجودًا للبطالة إذا تحقق هذا الشرط، ولكن هذا ليس هو الحال في واقعنا بكل تأكيد".

"إذن أين تكمن المشكلة؟".

"تتلخص الإجابة عن هذا السؤال في وجود بعض الظواهر الخفية التي تحدث داخل سوق العمل ولا يتمكن المبدأ البسيط القائم على التوازن بين العرض والطلب البسيط من وضع تفسير لها، قد تتواجد بعض القطاعات الوظيفية التي تعمل بنجاح داخل إطار سوق المنافسة المثالية، مثل السائقين العاملين بشركة أوبر، لكن، هذه الحالة لا تنطبق على معظم القطاعات الوظيفية".

"وما السبب؟".

"اقترح خبراء الاقتصاد وجود سببين محتملين لهذا: جمود الأجور - يعرف أيضًا بلزوجة الأجور - ونظرية البحث عن العمل".

"لنبدأ بما يعرف بلزوجة الأجور".

"إن مصطلح جمود الأجور يعني - لسبب ما - وضع معدل للأجور بمستوى أعلى من سعر التوازن الموجود في السوق".

"ماذا تقصدين بهذا؟".

"لنأخذ القهوة كمثال؛ القهوة سلعة لا تعاني أبدًا من البطالة أي أنها سلعة يدوم الطلب عليها، ولذلك إن وجد أي فائض منها، ينخفض سعرها حتى يتساوى الطلب مع العرض، على الجانب الآخر، يمنع جمود الأجور تحقيق هذا التوازن الطبيعي بين العرض والطلب على العمالة، مما يتسبب في حدوث البطالة".

"ولكن لم يحدث هذا من الأساس؟".

"هناك أربعة من التفسيرات".

"أربعة!".

"عذرًا، فدائمًا ما ينغمس خبراء الاقتصاد في تقديم الأمور بصورة معقدة بالنسبة لك، أول تفسير هو أن هناك العديد من الدول التي اتجهت لفرض حد أدنى من الأجور؛ وجب على كل رب عمل في المملكة المتحدة بدءًا من شهر أبريل بعام 2022 دفع 9.50 جنيه إسترليني في الساعة بحد أدنى لكل عامل، باستثناء من لم يتجاوز عمرهم الثالثة والعشرين، أتتذكر ما درسناه بشأن قانون الطلب؟ بصفة عامة، هي قاعدة تنص على أنه عند زيادة سعر السلعة، ينخفض الطلب عليها.

يشير بعض خبراء الاقتصاد إلى أنه إذا ارتفع الحد الأدنى للأجور بصورة مبالغ فيها، فستكون البطالة هي النتيجة الحتمية، هناك بعض الفائزين من وضع هكذا: من لا يزالون يعملون في الوظائف ويحصلون على أجر مرتفع، وعلى النقيض، وسيكون هناك بعض الخاسرين: الأشخاص الذين فقدوا وظائفهم، مع أن هذا السبب يعتبر ناجحًا بدرجة ما في وضع تفسير لوجود البطالة - حتى إن كان موضعًا للجدل 8 - إلا أنه لا يمكن اعتباره تفسيرًا كاملاً يوضح كل شيء، حيث إن قانون الحد الأدنى للأجور لم يطبق في المملكة المتحدة إلا بحلول عام 1999، وبالتأكيد، شهدت الدولة وجود معدلات للبطالة قبل هذه الحقبة.

السبب الثاني الذي تعزى إليه ظاهرة جمود الأجور هو وجود النقابات العمالية التي تتمتع بنفوذ هائل، تكمن المهمة الرئيسية للنقابات العمالية في المفاوضة من أجل زيادة الأجور، وعند اتباع المنطق نفسه المستخدم آنفًا، سنجد أن هناك بعض الفئات الفائزة التي ستحقق مكاسب بفضل وضع هكذا، وهم العمال المنتمون للنقابات ويعملون بوظائف تمنحهم أجرًا مرتفعًا، وسنجد أيضًا بعض الفئات الخاسرة، وهم الأشخاص الذين كانوا على استعداد للقبول بوظيفة ذات أجر أقل من الحد الأدنى، ولكنهم الآن عاجزون عن الحصول على أي وظيفة على الإطلاق.

"لا يمكن اعتبار هذا العامل أيضًا السبب الوحيد المسئول عن البطالة؛ مثلاً: تشكل نسبة العمال المنتمين إلى نقابات في الولايات المتحدة ما يقرب من 10% فقط من القوى العاملة بأكملها، لذلك، من الصعب اعتبار النقابات العمالية تشكل التفسير الكامل والحقيقي وراء الأمر. 9

هناك سبب ثالث يفسر ظاهرة لزوجة الأجور، وهو اتجاه أرباب العمل - بدافع المصلحة الشخصية ليس بدافع الإيثار - إلى دفع أجور عالية لعمالهم بصورة أكبر مما هو ضروري."

"أنا لا أفهم، إن كان الهدف الأساسي الذي يسعى إليه أرباب العمل هو تحقيق الأرباح، فلماذا يدفعون أجور عامليهم بمعدل أعلى مما يضطرون لدفعه؟".

"لأن أرباب العمل يهتمون بمعدلات الإنتاجية أيضًا، وعلى الأرجح، سيتحفز العمال الذين يرغبون في البقاء بوظائفهم، مما يدفعهم للعمل بجد أكبر وتحقيق معدلات إنتاج عالية، وبالتالي سيقبل معدل تغيير الموظفين الذي يعتبر أمرًا مزعجًا ومكلفًا لصاحب العمل.

يُعد هنري فورد أحد الأمثلة الكلاسيكية لزيادة الأجور؛ حيث أعلن فورد في عام 1914 أنه سيضاعف أجر العمل اليومي ليصل إلى 5 دولارات، وهيمن هذا الخبر على عناوين الصحف الرئيسية حول العالم، وتسبب في تزامم العديد من الحشود المتقدمين للعمل لدى فورد خارج مصنع هايلاند للسيارات. لعب ابتكار فورد لتقنية خط الإنتاج المتحرك دورًا حاسمًا في اتخاذ هذا القرار، ويرجع لها فضل كبير في زيادة الكفاءة الإنتاجية، حيث إنها قللت الوقت المستغرق في تصنيع سيارة فورد طراز T من أكثر من اثنتي عشرة ساعة إلى ساعة وثلاث وثلاثين دقيقة فقط."10

"وهذا شيء جيد بالتأكيد، صحيح؟".

"قد يعتقد المرء كذلك، ولكن هناك بعض الآثار السلبية التي ترتبت على استخدام تقنية الخط المتحرك: الوظائف التي تطلبت في السابق مهارات محددة باتت الآن مملة ومتكررة بشكل لا يحتمله بشر، ولم يكن لدى العمال أي نية لمجاراة هذا النمط الرتابي والمتكرر من العمل على خط الإنتاج، ولذلك أدى هذا إلى تأخير العمال، وارتفاع نسبة الغيابات حتى إن هناك نسبة منهم استقالت عن العمل بشكل تام.

من هذا المنطلق، لم يكن قرار فورد بزيادة الأجور إلى 5 دولارات يوميًا نابغًا من لطفه أو سخائه، بل هدفه الرئيسي هو منح العمال حافزًا إضافيًا يجعلهم يرغبون في البقاء في العمل ويراجعون أنفسهم مرات عديدة قبل أن يفكر أحدهم في الاستقالة؛ عندما لا يتوافر لديهم أي بديل آخر سوى الانضمام لصفوف البطالة أو القبول بوظيفة تدفع لهم أجرًا أقل مما كانوا يحصلون عليه، سيتصرف العمال بانضباط، ويمتنعون عن الإضرابات ويكونون على استعداد للتنازل عن بعض من مطالبهم مقابل الحصول على ذلك الأجر المرتفع. بناءً على ما سبق، يمكن التوصل لفكرة أن الرأسمالية في حاجة ضرورية إلى البطالة حتى

تتمكن السلطات من امتلاك أداة ضغط تتحكم من خلالها في سلوك العمال؛ إذا فشل أي شخص في تأدية مهامه الوظيفية المطلوبة، فمن السهل للغاية أن يُفصل عن العمل في الحال، وذلك لأن صاحب العمل واثق تمامًا من وجود العديد من الأشخاص الآخرين الذين على استعداد تام لأن يحلوا محله، وقد أطلق كارل ماركس على هؤلاء العاملين العاطلين مصطلح "الجيش الاحتياطي".

"يا إلهي، كل ما قلته للتو يحمل طابعًا مظلمًا للغاية".

"هناك حجة أخرى أعتقد أنها مقنعة أكثر في تفسيرها لظاهرة لزوجة الأجور، طرحها خبير اقتصادي يدعى ترومان بيولي، أراد بيولي أن يكشف لغز عدم انخفاض الأجور حتى أثناء فترات الركود الاقتصادي، إن كنا نعتقد أن سوق العمل ينصاع حقًا لقوانين العرض والطلب التقليدية، فمن الطبيعي أن يتوقع المرء انخفاض معدلات الأجور في خضم تدهور الأوضاع الاقتصادية؛ من المفترض أن تنخفض نسبة الطلب على العمالة مثلما نرى فيما يخص السلع العادية، لكن، هذا ليس ما نراه يحدث في الواقع. أراد بيولي أن يعرف السبب الغامض الذي يجعل أصحاب العمل يعزفون عن خفض الأجور، بل يميلون إلى تثبيتها خلال فترات الركود.

يعتبر بيولي خبيرًا اقتصاديًا غير تقليدي، حيث إنه أجرى بحثًا ميدانيًا، وسأل الناس عن الأمر بشكل مباشر، عوضًا عن الاعتماد على تحليل الأرقام ودراسة النماذج النظرية، وتبين له أن السبب وراء عدم انخفاض الأجور لا ينسب إلى النقابات المناضلة كما يعتقد البعض، بل السبب في الأساس نابع عن قلق أصحاب العمل من الأثر السلبي على روح ومعنويات العاملين الذي سينتج عن خفض أجورهم، لذلك، فضّل أصحاب العمل انتقاء بعض الموظفين وإقالتهم بشكل خاص، وذلك لتجنب خلق حالة من الاستياء المتزايد في بيئة العمل بشكل عام".

"حسنًا، بحسب ما فهمت، فإن أحد مسببات البطالة هو ارتفاع الأجور بصورة أعلى مما هو ضروري، وهذا يرجع إلى مجموعة من الأسباب المتنوعة، على كل حال، ما هو السيناريو



الآخر الذي يفسر وجود البطالة؟".

"إنها نظرية البحث عن العمل، وهي عبارة عن منظور يركز على فكرة أساسية: هناك مستوى معين من البطالة يعتبر وجوده أمرًا حتميًا داخل أي اقتصاد، نحن جميعًا نمر بفترة من حين إلى آخر حيث يتعين علينا البحث عن وظيفة، ودائمًا ما نتواجد بعض فرص العمل الشاغرة، ودائمًا ما يتواجد عدد معين من الناس يبحث عن أي فرصة، فالأمر يشبه كأنك تمر بمرحلة المواعدة من جديد في حياتك، ولكنها بالتأكيد أقل متعة بكثير من المواعدة الحقيقية، إن مطابقة الوظائف المتاحة مع الأشخاص المتقدمين للعمل عملية معقدة ولا تمر بسلاسة، وهذا يرجع إلى افتقار أحد الطرفين إلى المعلومات اللازمة، أو انعدام التناسب بين مهارات العاملين ومتطلبات الوظيفة، لكن هناك بعض الإجراءات التي يمكن أن تتبعها الحكومة من أجل تيسير العملية، قد يتخوف أصحاب العمل من توظيف صغار السن الذي لم يحظوا بأي تدريب مهني، ولهذا السبب، تزداد معدلات البطالة في بعض الأحيان بين الشباب الصغار، يكمن الخطر الحقيقي في أن تتحول البطالة تدريجيًا إلى فقدان هؤلاء الأشخاص العاطلين لقابلية توظيفهم بسبب فقدانهم المهارات الضرورية مع مرور الوقت، لذلك، تقدم حكومة المملكة المتحدة العديد من البرامج والمبادرات التي توفر دعمًا ماليًا لأصحاب العمل، أحدها، برنامج "كيكستارت". وفقًا لهذا البرنامج، إذا وظّف صاحب العمل شابًا لا تتوافر لديه أي خبرة عملية، فستغطي الحكومة تكاليف راتبه بشكل كامل لأول ستة أشهر من تعيينه.

هناك اقتراح آخر، وهو موضع جدل بأن يتم تقليل الفوائد وإعانات البطالة التي يحصل عليها الأفراد العاطلون، عندما يقرر شخص قبول وظيفة أو رفضها، فهناك العديد من العوامل والمدخلات التي تؤثر على قراره: مدى تقديره لقيمة أوقات الاسترخاء والتسلية، كما أن قضاء الوقت في المنزل مع العائلة قد يمثل قيمة كبرى بالنسبة لبعض الأفراد، علاوة على ذلك، تؤثر توقعات الشخص بما قد يحصل عليه إذا استمر في البحث عن وظيفة لوقت أطول على قراره أيضًا؛ على سبيل المثال: قد يستمر محاسب ما حظي بتدريب مهني ممتاز في البحث لفترة أطول من الوقت حتى يجد وظيفة تتناسب جيدًا مع مهاراته،

لعل أهم عامل يؤثر على القرار هو مقدار ما يملكه الشخص من مال في الوقت الحالي، وهذا يلفت نظرنا إلى حقيقة حتمية: كلما زادت مبالغ إعانات البطالة التي تقدمها الحكومة، أصبح الأفراد أكثر تطلبًا وانتقائية عندما يتعلق الأمر بقبولهم لوظيفة أو رفضها؛ ولهذا السبب تحديدًا، تعتبر معاشات البطالة في المملكة المتحدة محدودة للغاية، فهي لا تتجاوز خمسة وسبعين جنيهًا إسترلينيًا أسبوعيًا للفرد الواحد، بل قد تقل عن هذا الحد إن كان الشخص تحت سن الخامسة والعشرين".

"يا إلهي! مع كوني كلبًا، إلا أنني واثق بأن هذا المبلغ ضئيل للغاية".

"توجد مفاضلة في موقف كهذا يجب أن تُحسم؛ في المجتمعات المتحضرة، يجب علينا أن نساعد الأشخاص المحتاجين، وفي الوقت نفسه، نشجع الأفراد بشكل عام على العمل بدلًا من الاعتماد على إعانات البطالة التي تحفزهم على التراخي ما داموا يحصلون على المال بدون الحاجة إلى العمل، هناك بعض الآثار السلبية المترتبة على هذا الدعم الاجتماعي؛ قد يشعر بعض الأشخاص بالإحباط كونهم يعملون بجد من أجل دعم أولئك الكسالى، علاوة على ذلك، فإن ذلك يشكل خطرًا على الصحة النفسية والبدنية لمن لا يعملون بأي وظيفة ويبقون بمنازلهم طوال الوقت لا يفعلون شيئًا سوى مشاهدة التلفاز، هناك الكثير من الدلائل الحاسمة التي تشير إلى أن بقاء الشخص عاطلًا عن العمل لمدة تزيد على ستة أشهر، يجعل أصحاب العمل غير مهتمين بتأثًا بتوظيفه؛ 11 نتيجةً لهذا، اتجهت العديد من الدول إلى تقليص فوائد الإعانات الاجتماعية للبطالة بهدف الحفاظ على حافز قوي يشجع الأفراد على العمل".

"هذا يشعرني بالاستياء قليلًا، أمن الصعب عليكم لهذه الدرجة إيجاد طريقة لتقديم الإعانات للعاطلين دون تقويض حافزهم للبحث عن عمل؟".

"إن ما يتم ترديده بشكل متكرر حول كون الإعانات الاجتماعية السخية تحفز الأفراد على التراخي والعزوف عن العمل بجد هو اعتقاد شائع للغاية خاصة بين التيار السياسي اليميني، كما أنه غير محصور فقط على السياسيين وخبراء الاقتصاد، بل هو رأي شائع بين

الناخبين أيضًا، من النادر أن تكون إعانات البطالة السخية إستراتيجية يجذبها الناخبون ليصوتوا عليها، وهذا فكر تسعى الصحافة اليمينية إلى تعزيزه بطبيعة الحال من خلال تسليطهم الضوء على بعض الحالات التي تقوم بالغش والتحايل على منظومة الإعانات الاجتماعية وانتقادها بشكل علني ومثير للجدل، مثل شخص يزعم بأنه مريض ويتلقى دعمًا ماليًا طويل الأمد، في حين أنه في الحقيقة يمارس حياته بشكل طبيعي - في سرية - ويتسلق الجبال، أو يمارس الغوص، أو يتدرب على مصارعة الثيران أو رقص الباليه."

"ألا يوجد من استطاع بنجاح تحقيق هذا النوع من التوازن؟".

"بلى، تمكنت الدنمارك في الواقع من ابتكار نظام إعانة يتسم بسخائه وفاعليته في آن واحد؛ تساوي إعانات البطالة الاجتماعية في الدنمارك ما يزيد على 80% من نسبة الدخل السابق لكل فرد،

أما بالنسبة للآباء، فيمكن أن تصل الإعانات إلى ما يقرب من 100% من نسبة دخلهم السابق، قد يظن البعض أن هذا السخاء المبالغ فيه يكلف الدولة الكثير من الأموال وهو ضرب من الإسراف، ولكن في واقع الأمر، تنفق الدنمارك على إعانات البطالة أقل بكثير من المعدل المتوسط، ويبلغ متوسط ما تنفقه دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية على إعانات البطالة 0.59% من ناتجها المحلي الإجمالي، وبينما تنفق المملكة المتحدة نسبة ضئيلة على الإعانات لا تتجاوز 0.15% من ناتجها المحلي الإجمالي، تنفق الدنمارك 0.07% فقط." 12.

"وما السر وراء نجاحهم الملموس هذا؟".

"يكمن سر نجاحهم في مرونة سوق العمل بالبلاد؛ يمتلك أرباب العمل الدنماركيون حرية كبيرة لفصل ما يشاءون من موظفيهم،

وهذا يساهم - بشكل متناقض وبخلاف المتوقع - في الحفاظ على معدلات العمالة بمستويات قوية؛ إذا لم تقلق الشركات بشأن عدم قابلية فصل موظفيها، فمن الوارد أن تقدم على المجازفة بتوظيف بعض الأفراد الجدد في المقام الأول، حتى إن كانوا ذوي

مهارات محدودة أو خبرة مهنية قليلة، وكما قال إحدى معلمي الاقتصاد القدامى: "إن كنا نسعى للحفاظ على معدلات عالية من الزواج، فهل حظر الطلاق يعتبر حلاً فعالاً لهذا حقاً؟".

إن الجانب السلبي لسياسة الفصل عن العمل دون سابق إنذار في الدنمارك هو أنها تمثل شبكة أمان اجتماعية سخية بصورة بارزة، لكن مع ذلك، عندما يخسر أحد الدنماركيين وظيفته، فإنه يعثر على غيرها بسهولة وسرعة تفوق أي دولة أخرى في العالم، 13 وهذا يرجع إلى وجود فريق متخصص يعمل بجهد حتى يتأكد من عدم اعتياد الناس على التراخي والبقاء بلا عمل، يجب على الجميع تقديم سيرتهم الذاتية للمستشار المتخصص، وإذا لاحظت الدولة أنك لا تبحث عن عمل بجدية ملموسة، فستكون عرضة لفقدان الدعم والحقوق المالية التي تتلقاها. يمكن أن يوصف النظام الاجتماعي بالدنمارك بأنه مزيج بين الصرامة والرعاية، بحيث توفر الدولة نظاماً سخياً يعمل على تأمين الأفراد من أجل الدعم والحفاظ على مرونة سوق العمل، ولكنه في الوقت نفسه يفعل هذا بضوابط لا تسمح بانتشار الكسالى في المجتمع".

"إن كان الأمر هكذا، فلم لا تتبنى بقية الدول هذه السياسات الدنماركية بحذافيرها؟".

"هذا سؤال لا يمكنني الإجابة عنه يا مونتي، ولكن بغض الطرف عن هذا، أعتقد أن السبب يرجع إلى تخوف السياسيين الشديد من الظهور بصورة تجعلهم كأنهم يسعون إلى زيادة معدلات الإعانات الاجتماعية. من الجدير بالذكر أن عبارة "تطبيق النموذج الدنماركي" باتت مفهوماً يحظى بقبول على نطاق واسع كونه يشرح كيفية النجاح في بناء هيكل اجتماعي مزدهر.

أعتقد يا مونتي أننا اكتفينا من الحديث عن البطالة، لذا، أرغب في التحدث قليلاً قبل أن نعود إلى المنزل عما قد ينتظرنا في المستقبل من ناحية الحياة العملية".

"أهو وقت الحديث عن قدوم البشر الآليين ووجودهم بيننا في المستقبل؟ فأنت تعرفين جيداً شعوري حيال الآليين".

"عذراً يا مونتي، أنا أعلم بأنه لا يحق لي الضحك حول خوفك غير المبرر من مكنسة الأرضيات الآلية بالمنزل!".

"هذا ليس خوفاً غير مبرر، فهذا الشيء يسعى لأذيتي؛ لقد رأيت ما فعله بدمية الأرنب وهي ثاني أكثر لعبة أفضلها: لقد ابتلعها ثم بصقها مجدداً، هذا الشيء عبارة عن وحش قاتل!".

"أعدك بأنه لن يلحق بك ضرراً بأي شكل من الأشكال، ولكنك محق فيما قلته، هذا هو وقت الحديث عن قدوم الآليين.

لا يقتصر الخوف من الآليين فقط على خوفك من رومبا (المكنسة الآلية)، بل عاش البشر هذا الخوف من التحول الآلي منذ عصر الثورة الصناعية، رفضت الملكة إليزابيث الأولى منح وليام لي براءة اختراع على ابتكاره لآلة الحياكة عام 1589، حيث خافت الملكة أن تتسبب هذه الآلة في فقدان الكثير من صفوف العمال في حفرة البطالة، فقام العمال المسؤولون عن تشغيل آلات حياكة الجوارب بتدمير جميع الآلات التي كانت تشكل مصدر تهديد لوظائفهم، ويعتبر هؤلاء العمال حجر الأساس الذي نشأت عليه الحركة اللاضية فيما بعد، يرتعد البشر خوفاً في العصر الحالي من فكرة تقدم الذكاء الاصطناعي بوتيرة سريعة إلى حد يجعله قادراً على استبدال البشر، ولكن هل يجدر بنا الخوف حقاً؟ يجيب خبراء الاقتصاد عن هذا التساؤل بالإجابة التقليدية، وهي أن تلك المخاوف مبالغ فيها؛ يشير الخبراء إلى ظاهرة عصا الهوكي المنحنية التي شهدناها في الماضي (وقد تم ذكرها فيما قبل وقيل إنها تمثل خطأ بيانياً مستقيماً ذا نهاية مرتفعة بشكل بارز، وهذا ينم عن ارتفاع شديد في نسبة الإنتاجية) مجادلين بأن التحول الآلي للصناعات أدى إلى زيادة مهولة في نسبة الإنتاجية وتحسين مستويات المعيشة، وبناءً على هذا، لا ينبغي أن نقلق بشأن ما قد نشهده في المستقبل".

"ولكن؟".

"لكن، هناك مشكلتان متعلقتان بهذه الحجة، وكلتاها تحملان تداعيات محتملة على مستقبلنا، المشكلة الأولى، أن التقدم التكنولوجي كان أمرًا رائعًا بالنسبة لدول الغرب، ولكن هناك بعض التبعات السلبية التي ترتبت عليه وتحملتها معظم دول العالم النامي؛ على سبيل المثال: كانت الزيادة الهائلة في إنتاجية النسيج بالمملكة المتحدة بمثابة كارثة حلت على دول كمصر والهند اللتين تميزتا فيما مضى بريادتهما وصادرتهما في هذا النوع من الصناعة، عندما انهارت تجارة القطن في الهند بثلاثينيات القرن التاسع عشر، خرج الحاكم البريطاني للهند وصرّح: بـ"إن عظام نساغي القطن تتحلل على أراضي الهند".

المشكلة الثانية، هي أن ارتفاع مستويات المعيشة الذي نجم عن التقدم التكنولوجي لم يحدث بين عشية وضحاها، كما أن الخسائر والأرباح التي ترتبت عليه لم توزّع بشكل عادل على الجميع، لقد وُصف أنصار الحركة اللاضية بأنهم ذوو فكر رجعي ولا يستند إلى المنطق، ولكن حقيقةً، تسببت بالفعل آلات النسيج الجديدة التي كانت تعمل بالبخار في ذلك الحين في انقطاع قوتهم اليومي، بحلول عام 1820، خسر خمسة وسبعون في المائة من نساغي مدينة بلاكيرن وظائفهم، وخلال تلك الفترة، لم يعنِ هذا سوى شيئين: إما العيش في مؤسسات الرعاية وتحمل ما يصاحبه من ذل ومهانة، أو الموت جوعاً".14

"أنتِ تتحدثين كثيرًا عن أشياء حدثت بالماضي مع أنه من المفترض أن نناقش ما قد يحدث بالمستقبل".

"لأن هناك مثلاً يقول: "قد لا يعيد التاريخ نفسه بكل تفاصيله، ولكن في بعض الأحيان نلاحظ وجود تشابهات بين الأحداث المختلفة على مر التاريخ".15 من المتوقع أن يسفر عن التقدم التكنولوجي في المستقبل وجود فئة من الأفراد الفائزين وأخرى من الخاسرين، مثلما حدث تمامًا أثناء فترة التحول الآلي في الماضي، إن قدوم الآليين وأنظمة الذكاء الاصطناعي المعقدة بشكل متزايد هو حقيقة لا مفر منها، ولن يوجد طائل من أي محاولات تسعى لإيقافها، بل قد تؤدي تلك المحاولات إلى نتائج عكسية وغير مرغوب فيها، إن كانت

السيارات ذاتية القيادة يمكنها التنقل بمعدلات أمان أعلى وتكلفة أرخص من السيارات التقليدية، فهل الحفاظ على وظائف سائقي سيارات الأجرة سبب كافٍ حقًا لحظرها؟ لقد تعلمنا على مر التاريخ حقيقة مهمة،

وهي أن بعض الوظائف الحديثة تظهر محل الوظائف المندثرة - التي كانت تشتمل على العديد من المهمات المملة أو الخطيرة - ولكن هذه الحقيقة ليست بعزاء يكفي لمواساة من فقدوا وظائفهم وتعويضهم حتى يكفوا عن الشكوى، من ناحية أخرى، إذا تعمقنا في النظر على المدى البعيد، سنجد أن أحوال المجتمع ستتحسن بشكل عام في المتوسط، ولكن، كما أحب جون كينز أن يقول: "على المدى البعيد، سنكون جميعًا أمواتًا".

"ولكن إن فقدنا العديد من الوظائف بالفعل، فكيف يمكننا التأكد من عدم حدوث تراجع في عدد الوظائف بشكل عام؟ وهو أمر مريع بالمناسبة نظرًا لما قلته عن مدى سوء وفضاعة البطالة".

"في هذه الحالة يجب عليّ أن أشرح مغالطة شائعة تعرف بثبات كمية فرص العمل، وهي تشير إلى أن فرص العمل المتوافرة محدودة بطبيعتها وذات كمية ثابتة لا تزيد، ولكن مع ذلك، أثبت لنا التاريخ أن هذا الافتراض ليس له أساس من الصحة، لنأخذ الولايات المتحدة مثالاً مرة أخرى: عمل ستة وأربعون في المائة من الشعب الأمريكي في الزراعة خلال عام 1870، ولكن بحلول عام 2009، تقلصت تلك النسبة إلى واحد في المائة فقط. 16 انضمت ملايين النساء إلى صفوف العمالة على مدار المدة الزمنية نفسها، حيث ازداد معدل المشاركات النسائية في العمل من واحد وعشرين في المائة إلى ما يقارب ستة وسبعين في المائة، أضف إلى ذلك أن معدلات الهجرة إلى الولايات المتحدة ارتفعت بشكل ملموس أيضاً، ومع ذلك لم تشهد الدولة ارتفاع البطالة بنسب حادة، ما السبب إذن؟ يرجع السبب إلى زيادة نسبة الطلب على السلع مع انخفاض تكاليف الإنتاج الناجم عن التحول الآلي؛ باتت المنتجات متوافرة بأسعار أقل للمستهلكين، مما أتاح لهم أن ينفقوا مزيداً من الأموال على سلع وخدمات أخرى، أدت الزيادة على طلب السلع إلى خلق فرص عمل جديدة بدورها في العديد من القطاعات. قد تتغير احتياجات سوق العمل في المستقبل، بحيث

نحتاج إلى القليل من موظفي الخزانة المسؤولين عن الدفع بمتاجر البقالة، والمزيد من الممرضات ومعلمي اليوجا".

"أنا ما زلت غير واثق من المغزى المقصود وراء كل هذا الكلام، هل التقدم التكنولوجي المتزايد أمر جيد أم سيئ؟".

"في الواقع، هو جيد وسيئ في الوقت نفسه؛ جميع الخبرات التي تعلمناها على مر التاريخ تشير إلى أن هناك بعض التكاليف التي يجب أن نتحملها في سبيل تحقيق التقدم، من المحتمل أن نشعر بالعواقب السلبية بصورة مؤلمة وفورية، ولعل المكاسب ستستغرق بعض الوقت حتى تتجلى لنا في صورة يمكننا أن نستفيد منها بشكل حقيقي، وفي كلتا الحالتين، يجب علينا أن نوفر حماية لمن سيتعرضون للخسارة في خضم هذه التغييرات.

تستطيع الآن أن تغفوا لبقية اليوم، أما أنا فلدي..."

"بعض الأعمال لتنجزها".



# النزهة ١٣: الجزء ١: الجانب النظري من الأسواق المالية - لماذا من الضروري أن نحب العاملين بالمصارف؟

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: كيف ينبغي أن يعمل النظام المالي؟ ولماذا كان يتحتم علينا ابتكار فكرة البنوك إن لم تكن موجودة بالفعل؟ سنناقش أيضًا العناصر الرئيسية الثلاثة التي يتكون منها أي نظام مالي: سوق الأسهم، وسوق السندات، والبنوك، ولماذا تعتبر البنوك قائمة على كذبة؟ كما أننا سنتناول العوامل التي تؤدي إلى فشل الأنظمة المالية: البنوك الاستثمارية، والابتكارات المالية والأزمة المالية لعام 2008، وأخيرًا، سنأخذ استراحة خفيفة لنحدث عن كيفية تحقيق الثراء بوتيرة سريعة.

إن لنزهة اليوم غرضًا محددًا وحقيقياً يفوق الغرض المعتاد الذي يتمحور حول الخروج مع مونتني، حتى يتمتع بالهواء ويلبي احتياجاته الحيوانية، حيث إنني اليوم في حاجة إلى سداد شيك مصرفي،

وهي بلا شك وسيلة قديمة وغير فعالة على نحو مزعج لنقل الأموال، ولكن على كل حال، هذا يعني أنني سأضطر للسير حتى أصل إلى الشارع الرئيسي بحي "هامبستيد" لزيارة أحد فروع البنوك التقليدية، التي انتشرت فيما مضى على نطاق واسع للغاية، ولكنها أصبحت الآن شيئًا نادرًا وغريبًا بالمرّة، كان الأمر برمته تقليديًا وقديم الطراز إلى حد جعلني أشعر كأنني بحاجة إلى ارتداء لباس البلומר (زي نسائي انتشر في القرن التاسع عشر) مع أحد أغطية الرأس الكبيرة تلك، والذهاب إلى البنك على متن واحدة من تلك الدراجات التي تتميز بعجلة ضخمة في الأمام، مع أن ركوب هذا النوع من الدراجات سيكون أمرًا صعبًا برفقة مونتني.

هناك افتراض شائع بيننا بأن الكلاب تحب أن توجد حول الطبيعة الخضراء، حيث نتصور أنها تشعر بسعادة غامرة عندما تتبول عند الأشجار، مثل أشجار البلوط الكبيرة أو أشجار الصفصاف النضرة، لكن مونتي يبدو راضيًا وسعيدًا أثناء التواجد حول البيئة الحضرية، فالتبول على أعمدة الإنارة وإشارات المرور يعتبر بديلاً ممتازاً للتبول على الأشجار، يبدو لي أيضًا أن مونتي يستمتع كثيرًا بشعور العزيمة والإحساس بالغاية الذي يعتريه كلما خرج معي لإنجاز مهمة بسيطة؛ يشعر بأنه عنصر ذو أهمية كبرى وأن غرضه الأساسي هو حمايتي من اعتداء وسطو اللصوص المسلحين والتصدي لهجمات الذئاب المفترسة.

كان مونتي في حالة تأهب وتوتر شديدين عندما اقتربنا من البنك، مما جعله ينبح في وجه ثلاثة أشخاص من الحركة البيئية المعروفة باسم تمرد على الانقراض، كانوا واقفين خارج البنك، وينظمون احتجاجًا صغيرًا يعتبر جزءًا من تظاهر واسع النطاق يحدث بالمدينة، يتكون هؤلاء الأشخاص من رجل أبيض ذي شعر مجعد ومنقسم لعدة ضفائر طويلة إلى جانب زوجين بدا كأنهما في سن التقاعد، لقد شعرت بالقليل من الارتياح عندما رأيت أن الفيلسوف ليس من بينهم، فهو يحب المشاركة في تلك الأمور كثيرًا، كان كل محتج يحمل لافتة كُتب عليها شيء مختلف عن غيرها؛ كُتب على اللافتة الأولى: "المال لن يغنينا عن الغذاء"، وكُتب على الثانية: "حماية كوكبنا أهم من تحقيق الأرباح"، أما اللافتة الأخيرة فكُتب عليها: "النظام الحالي سيتسبب في مقتلنا" عندما نبح مونتي عليهم، نظرت إلى وجوههم ببسمة على وجهي ثم اعتذرت، ورد عليّ أحدهم متمنيًا لي أن أحظى بيوم لطيف.

انتهيت من دفع الشيك، وتابعنا تنزهنا في الشوارع الخلفية الأخاذة بهامبستيد، اشتهرت هذه المنطقة في الماضي بأنها بقعة يتجمع فيها العديد من الكتاب والفنانين، ولكن في الوقت الحالي، السكن في شقة بهذا المكان أمر مكلف للغاية ولا يقتصر إلا على الأشخاص فاحشي الثراء والعاملين بالمصارف، ولعلني أظهرت احتجاجي على هذا الأمر بضع مرات وعلى نحو لا يختلف كثيرًا عن جماعة تمرد على الانقراض.

"أخبريني إذن، لماذا العاملون بالمصارف مكروهون من قبل الجميع؟".

"دائمًا ما يشتهر العاملون بالبنوك وإقراض المال بـ... أنا لست واثقة تمامًا من الطريقة المناسبة للتعبير عن الأمر، لكن لنقل إنهم يحظون بسمعة سيئة؛ وصورهم دانتي في روايته بأنهم معاقبون إلى أبد الدهر بجانب القتلة والمنتحرين".

"وماذا كان جزاؤهم؟".

"تحولت الأرض من تحتهم إلى رمال ملتهبة".

- هذا يبدو عقابًا قاسيًا بعض الشيء.

"صحيح، ولكن أظن أنه من السهل أن نفهم السبب وراء عدم القبول الذي تحظى به تلك الفئة من العاملين في القطاع المالي، حيث يفرض المقرضون أسعار فائدة عالية على الفلاحين الفقراء بمدينة شامبار الواقعة جنوب شرق باكستان، حيث يبلغ متوسط نسبة الفائدة 80%، وبطبيعة الحال، يضطر المزارعون إلى سداد هذه النسبة كونها الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من شراء البذور اللازمة لزراعة محاصيل العام المقبل، حيث إنهم إن لم يحصلوا على البذور، لن يتمكنوا من إنتاج احتياجاتهم الغذائية، وبالتالي سيعانون وطأة الجوع. إن كنت تعتقد أن نسبة الفائدة في هذا الموقف مرتفعة بصورة مبالغ فيها، فدعني أعرفك على شركة وونجا التي اشتهرت بتقديم خدمات ائتمانية قصيرة المدى وعالية التكلفة للأشخاص الذين لا يستطيعون الحصول على قروض من أي مصادر أخرى، دعك الآن مما قلته بشأن نسبة الفوائد في باكستان؛ في بعض الأحيان، فرضت شركة وونجا رسوم فائدة سنوية تجاوزت 5000% من نسبة القرض، مما دفع العديد من المدينين - بشكل حزين وساخر في الوقت نفسه، ويعكس أسلوب دانتي - إلى الانتحار، وفي ضوء هذا، خسرت العديد من المؤسسات المالية الأخرى مكانتها المرموقة وشعبيتها، كتب مات تايبى - وهو صحفي يعمل في مجلة ذا رولنج ستون - في مقالة شهيرة أن بنك جولدمان ساكس عبارة عن حبار مصاص للدماء وملتف حول وجه البشرية".<sup>1</sup>

"أنتظر منك أن تقولي كلمتك الشهيرة 'ولكن'".

"أنت محق يا مونتي، بالتأكيد سأضع كلمة "لكن" في السياق، فأنت تعرف أسلوبِي جيدًا،  
لعلنا نمقت مقرضي المال، ولكن هذا لا يغير حقيقة أننا في حاجة إليهم، إلى جانب ذلك،  
كان سيتحتم علينا ابتكار مفهوم البنوك بطريقة أو بأخرى إن لم تتواجد في حياتنا من  
الأساس".

"لماذا؟".

"لأننا في حاجة ضرورية إلى أسواق الائتمان مثلما نحتاج إلى الأسواق العادية لتداول  
السلع والخدمات؛ هناك فئة من الناس ترغب في اقتراض الأموال، وهناك فئة أخرى ترغب  
في ادخارها، لذلك، تؤدي البنوك دورًا مهمًا في الاقتصادات من خلال إيصال الفئتين  
بعضهما البعض. عند العودة للنظر ثانيةً إلى أحوال المزارعين الباكستانيين الذين نعتقد  
أنهم ضحايا للجشع والاستغلال، سيتبين لنا أن مشاريعهم الزراعية عرضة للانهييار لولا  
الأموال التي يأخذونها من المقرضين لشراء البذور".

"أنا في حيرة من أمري، فهذا الكلام يبدو منطقيًا للغاية، لكن إن كان الأمر كذلك حقًا، فلم  
يحظى المقرضون بسمعة سيئة لتلك الدرجة؟".

"إن وجود نظام مالي يعمل بكفاءة عالية هو شرط أساسي لتحقيق الازدهار بأي دولة،  
بحيث يمكننا الاعتماد عليه في توجيه رأس المال للمؤسسات المعنية التي يمكنها إدارته  
بأفضل الطرق لتحقيق أعلى عائد ممكن، علاوة على ذلك، وجود نظام مالي فعال يوفر  
للأفراد وسيلة آمنة لادخار أموالهم وتوزيعها بتدفق متساوٍ على مدار حياتهم، كما أنه يوفر  
لهم آليات حماية ضد المخاطر والأزمات المالية المحتملة، لكن، كل شيء إذا زاد عن حده  
انقلب إلى ضده،<sup>2</sup> وهذا بالتحديد ما شهدناه في ضوء الأزمة المالية التي حدثت في عام  
2008.

من الضروري فهم الأساسيات قبل الخوض في ذلك الموضوع العميق، لذلك سأبدأ أولاً  
بشرح الآلية التي ينبغي أن تعمل بها أسواق رأس المال، وسأسلط الضوء أيضًا على كيفية

عملها بشكل عام خلال النصف الثاني من القرن العشرين، بعدها، سنحلل معًا الأسباب والدوافع التي أدت لانتهيارها في ذلك الحين، وسنختتم موضوعنا بالحديث عن كيفية تحقيق الثراء بشكل سريع".

"لقد أعجبني ذلك الموضوع الأخير".

"سنبدأ بالأهم فالمهم، تتألف الأسواق المالية في جوهرها من ثلاثة مكونات رئيسية: النظام المصرفي، وسوق الأسهم وسوق السندات، وبالنظر إلى كم التعقيد الذي قد تبدو عليه تلك الأنواع الثلاثة من الأسواق، إلا أنها في النهاية تلبي ثلاثة احتياجات أساسية لدينا، أولاً: تحتاج الشركات إلى جمع رؤوس الأموال اللازمة لبناء المصانع وشراء المعدات، كما يحتاج رواد الأعمال إلى اقتراض الأموال حتى يستطيعوا الشروع في أعمالهم التجارية، إلى جانب ذلك، تحتاج الأسر للاقتراض أيضًا حتى تتمكن من شراء منزل أو سيارة أو دفع تكاليف التعليم العالي؛ أصبح الاقتصاد الحديث قائمًا بشكل كبير على الخدمات الائتمانية".

"فهمت، إذن يتركز الاحتياج الأول حول اقتراض الأموال من أجل الحصول على بعض السلع والخدمات التي لا نستطيع تحمل تكاليفها".

"ثانيًا: يساعد النظام المالي الأفراد على إدارة وتنظيم ثرواتهم على مدار حياتهم؛ مثلاً: ترغب الغالبية العظمى من الناس في ادخار الأموال من أجل فترة ما بعد التقاعد، ولذلك هم بحاجة إلى طريقة ما يستطيعون من خلالها استثمار ثرواتهم حتى يستفيدوا منها في المستقبل، هناك فئة من الأشخاص ترغب في الاحتفاظ بأموالها في منازلها، ولكن هذا الخيار قد تترتب عليه بعض المخاطر فضلًا عن كونه غير ملائم تمامًا".

"أتقصد اللصوص؟ لن يجرؤوا على الاقتراب منا أبدًا طالما أن كلبك الشرس متأهب للحراسة ويتواجد دائمًا للخدمة".

"توقف عن هذا، فكل ما سيتطلبه الأمر منهم هو قطعة من النقانق لرشوتك، لكن التهديد الحقيقي لا يقبع وراء اللصوص على كل حال، بل يقبع وراء التضخم؛ يتميز التضخم بقدرته على التقليل من قيمة النقود بشكل تدريجي، وكأنها تمثال مصنوع من الجليد ويبدأ بالذوبان ببطء في خضم حفل مزدحم،<sup>3</sup> ولكن لا أحد يلاحظ هذه الحقيقة، من ناحية أخرى، وإذا استغل المرء ما لديه من فائض أموال في أغراض إنتاجية واستثمارية، فهذا قد يساعده بشكل كبير على نمو قيمتها عوضاً عن تقلصها، لعل هناك العديد من الأشخاص حول العالم يريدون الاقتراض لتمويل ما لديهم من أفكار خلاقة ومشاريع متميزة، ولذلك هم على استعداد تام لتحمل تكاليف الفائدة بغرض الاستفادة من ميزة اقتراض الأموال".

"حسنًا، بذلك يتلخص الاحتياج الثاني في استثمار وإدارة الأموال حتى لا تتلاشى قيمتها، ماذا عن الاحتياج الثالث؟".

"ثالثًا: تتيح لنا الأسواق المالية إمكانية إدارة المخاطر، ويعتبر التأمين واحدًا من أكثر الأمثلة شهرة على ذلك، لكن، هناك شيء يميز الأسواق المالية، وهو سهولة التحكم بالمخاطر عبر توزيعها؛ لنفترض أنك تمتلك خمسة آلاف جنيه إسترليني ترغب في استثمارها، لذلك قمت بشراء مجموعة من الأسهم بشركة معينة، إذا تعرضت هذه الشركة لبعض التعثرات المالية، فستخسر جميع أموالك المستثمرة، على النقيض، عندما تستثمر مدخراتك في صندوق استثماري مشترك، فأنت بذلك تشتري حصة صغيرة من صندوق كبير يحتوي على العديد من الشركات والأصول المتنوعة، وبهذا، يمكن القول إنه تم توزيع المخاطر المحتملة على العديد من الجهات، بحيث إذا واجهت إحداها بعض التحديات المالية، فلا داعي لأن تقلق؛ هذا يعني أنك خسرت نسبة ضئيلة فقط من أموالك.

المحصلة: إن العناصر الرئيسية الثلاثة التي يتكون منها النظام المالي - المصارف، وسوق الأسهم، وسوق السندات - تعمل جميعها بطرق مختلفة لتلبية هذه الاحتياجات الأساسية: تجميع رؤوس الأموال، وتنظيم الدخل، والتحكم في المخاطر، هذا كل ما في الأمر، في

الحقيقة، هناك عنصر رابع: المضاربة، ولكننا سنؤجله إلى حين أن نصل إلى الحديث عن الأزمات المالية".

"أعتقد أن هذا الكلام منطقي بصورة عامة، ولكنني ما زلت أود أن تشرحي لي وظيفة البنوك بالتحديد، بالإضافة إلى سوق الأسهم وسوق السندات أيضًا، فأنا بصراحة لا أملك أدنى فكرة عن ماهية هذه الأمور".

"سأشرحها جميعًا، واحدًا تلو الآخر، ولنبدأ مع سوق الأسهم، حيث يعتبر سوق الأسهم وسيلة تتيح للشركات نمو رأس مالها من خلال بيع الأسهم - وهي عبارة عن أجزاء صغيرة من حصة الشركة الإجمالية - لجميع المستثمرين الراغبين في ذلك، على سبيل المثال: أنا أمتلك جزءًا من شركة فيسبوك".

"حسنًا، فهمتك أيتها المتباهية!".

"أو بالأحرى، وبشكل متناهي الدقة، أنا أملك سهمًا واحدًا فقط من شركة فيسبوك؛ تساوي قيمة السهم الواحد في الشركة - التي تُعرف في الوقت الحالي باسم منصات ميتا - 340 دولارًا، ونظرًا لإجمالي عدد الأسهم بالشركة الذي يصل بالتقريب إلى 2.8 مليار سهم، فأنا أمتلك جزءًا ضئيلاً للغاية مما يُعرف بفيسبوك أو ميتا، وتساوي قيمة هذا الجزء بالضبط واحداً على مليارين وثمانمائة مليون، فهكذا تجري الأمور فيما يخص شراء الأسهم. في كثير من الأحيان، يقرر بعض الأشخاص تأسيس شركة بغرض استثمار أموالهم، وقد يستعينون بمساعدة بعض من عائلاتهم وأصدقائهم؛ على سبيل المثال: أسس جيف بيزوس شركة أمازون في مرآب منزله المستأجر، وقد اقترض من والديه مبلغ 250 ألف دولار حتى يتمكن من إطلاق المشروع.

إذا نجحت الشركة في الصمود في وجه التحديات التي قد تواجهها خلال المراحل الأولى من تأسيسها، فقد ترغب في زيادة رأس مالها بغرض توسيع نطاق عملها، وذلك من خلال ما يُسمى "الطرح العام"، وهو أن تتجه الشركة إلى طرح أوراقها المالية أمام عامة الجماهير

بغرض البيع، تستطيع الشركة المتاجرة في أسهمها عن طريق تداولها بسوق الأسهم، وبهذا يتمكن الأفراد ذوو الدخل المتواضع - أمثالي - من شراء أسهم في شركات عملاقة مثل فيسبوك".

"حسنًا، فهمت".

"لننتقل الآن إلى سوق السندات؛ يعتبر سوق السندات ثاني أهم عنصر من عناصر النظام المالي".

"أظن أنني أعرف ماهية السوق بالفعل، لكن ما هي تلك الأشياء الغريبة المسماة بالسندات؟".

السندات هي عبارة عن وسيلة تلجأ لها الحكومات أو الشركات الكبيرة لاقتراض الأموال، لتعتبرها الآن وثيقة تفيد بأن طرفًا ما مدين لآخر بمبلغ محدد من المال؛ مثلاً: إذا قدمت قرضًا لشركة ما يساوي مائة جنيه، فإنك ستحصل في المقابل على وثيقة ورقية تحتوي على تعهد بأن الشركة مدينة لحامل هذه الوثيقة بمبلغ مائة جنيه وستقوم بسداده في غضون عشرة أعوام، وهناك أمر مهم تتميز به السندات، وهي أنها قابلة للتداول".

"لماذا يُعد هذا أمرًا مهمًا؟".

"قابلية التداول تعني أنه يمكن بيع ونقل ملكية هذا السند إلى أشخاص آخرين. تُحدد قيمة السند في السوق عند البيع اعتمادًا على سعر الفائدة ومدى تخلف الشركة عن سداد الديون الذي قد يؤدي بها في نهاية المطاف لإعلان إفلاسها. بناءً على هذا، يعتبر السند بحد ذاته شيئًا قابلاً للمتاجرة، وهذا يعني ضرورة وجود سوق لتداوله.

بينما سوق الحصص - وهو مصطلح آخر يُطلق على سوق الأسهم - تُعد وسيلة تتيح للشركات زيادة رؤوس أموالها عن طريق بيع أسهمها، فسوق السندات وسيلة مختلفة تمامًا تمكن الشركات من جمع الأموال أيضًا، ولكن عن طريق الديون، إنه بمثابة اقتراض، ولكن



بنمط مختلف بحيث يفسح المجال أمام وجود سلعة قابلة للتداول: السندات، أفهمت ما أقصده؟".

"نعم فهمت، على عكس المتوقع".

"بهذا، لم يتبقَ لنا سوى الحديث عن البنوك، إن الفكرة الأساسية التي يقوم عليها جوهر النظام المصرفي هي مجرد أكذوبة".

"ماذا؟!".

"في الحقيقة، هي ليس بالضرورة أكذوبة بقدر ما هي نوع من التضليل، لتأمل في الموضوع من جديد، ما الوظيفة الأساسية للبنوك؟ لقد قلت آنفاً إن النظام المالي موجود بهدف ربط حلقة الوصل بين المقرضين والمقترضين، والبنوك وغيرها من المؤسسات المالية تؤدي دوراً حيوياً في تنفيذ هذه المهمة، إن للبنوك ثلاث وظائف رئيسية: أولاً، البحث عن فرص لإقراض الأموال يمكن تحقيق الأرباح من ورائها، وثانياً، الاستفادة من الودائع قصيرة المدى من أجل استثمارها في مشاريع طويلة الأجل، وثالثاً، التحكم والحد من التعرض للمخاطر".

"ما قلته للتو يبدو لي أنه مجرد كلمات غامضة لا أكثر".

"أعلم هذا بالفعل، سأشرحها تفصيلاً بعد وهلة، أولاً: تبدأ البنوك بالبحث عن فرص محتملة للإقراض يمكن أن تدر الأرباح، بعدها تقوم بمطابقة تلك الفرص الربحية مع الأفراد الراغبين في الادخار، يشبه الأمر في جوهره مفهوم المواعدة، والبنوك تلعب دور الوسيط الذي يقوم بإيصال الطرفين ببعضهما البعض، من الناحية النظرية، يمكن الاستغناء عن البنوك في القيام بهذه المهمة؛ مثلاً: إذا أردت استثمار بعض الأموال، فيمكنني أن أبحث بنفسني عن شخص ما يملك في جعبته بعض الأفكار الإبداعية للقيام بمشروع ناجح، والذهاب إليه مباشرة لإقراضه المال، لكن، لعله من الواضح أمامنا أن هذه فكرة ليست

فعالة مطلقًا، فأنا لا أملك الوقت أو المعرفة أو الاتصالات الكافية للبحث عن أشخاص لديهم الأفكار الجيدة لمشروعات تستحق الاستثمار بها؛ من الأفضل بشكل عام وجود مؤسسة تؤدي دور الوسيط وتتخصص في تسيير هذا النوع من العمليات، إلى جانب قدرتها على جلب حفنة كبيرة ومتنوعة من الأشخاص الذين يرغبون في الاقتراض أو الاستثمار.

ثانيًا: تتميز البنوك بقدرتها على تحويل الودائع قصيرة المدى إلى استثمارات طويلة الأجل، وهناك مصطلح فني ومتخصص لهذه العملية: تحويل الاستحقاق".

"أعتقد أنني لم أفهم سوى ثلاث كلمات فقط من هذا..."

"معذرةً يا مونتي، سأترجم الكلام إلى صورة أبسط، ما أحاول إيصاله هنا هو أننا ينبغي أن نعمل على تطابق مدة الاستثمار التي يرغب فيها الشخص مع مدة الاقتراض، لنفترض أنني أريد شراء منزل في ظل عدم وجود البنك، في حالة كهذه، سيتعين عليّ إيجاد شخص ما على استعداد تام لأن يقرضني المال بمدة سداد طويلة قد تصل إلى خمس وعشرين أو ثلاثين سنة، وهذا طلب لا يسهل تنفيذه، ويجدر بي التأكيد مجددًا على أهمية توسط البنوك بين الأفراد؛ يمكن أن تتدخل البنوك وسط مجموعة كبيرة من الناس تتنوع حاجاتهم بين الاقتراض والاستثمار، وتقوم بجمع حزمة كبيرة من القروض قصيرة الأمد وتحويلها إلى استثمارات تدر الأرباح لفترات ممتدة من الوقت، هناك شيء آخر أريد توضيحه: عندما تقوم بإيداع شيك الصرف الخاص براتبك الشهري في البنك، فأنت بهذا - سواء إن كنت تعلم أم لا - تقرض أموالك للبنك".

"لنأمل أن صديقك دانتي كان مخطئًا بشأن ما تصوره عن عقاب العاملين بالمصارف، وكيف سقطت عليهم رمال حارقة وألقي بهم في الدرك السابع من الجحيم..."

"اصمت! تستخدم البنوك المال الذي أودعته لإتمام عمليات الإقراض، من المعروف أن البنوك تمتلك محفظة كبيرة من القروض طويلة الأمد - كالرهون العقارية - التي تساوي العدد نفسه من القروض قصيرة الأمد التي تتلقاها وتتجدد باستمرار بفضل ودائع العملاء،

مع ذلك، قد يتسبب ذلك الوضع في حدوث واحدة من أكبر العقبات التي تواجه البنوك؛ تعتبر الثقة عاملاً رئيسياً لا تقوم البنوك من دونه، وعندما تتلاشى موثوقية البنك، فإنه يواجه ما يعرف بهروب الودائع، وستتناول هذه القضية تفصيلاً بعد قليل.

ثالثاً: تساعدنا البنوك على التقليل من الضرر الناجم عن المخاطر المالية من خلال تنويع وتوزيع الاستثمارات، ولقد تحدثنا عن هذا الموضوع بالفعل في البداية، لنعد مرة أخرى إلى المثال، حيث قلت إنني أرغب في شراء منزل في ظل الغياب التام للمؤسسات البنكية؛ بافتراض أنك المقرض في هذه الحالة، فأنت تقدم على مخاطرة كبيرة بإقراض المال، ماذا لو كنت من نوعية الأشخاص الكسالى عديمي الجدوى ولم أسد لك القرض لاحقاً؟ أما ما يميز البنوك فهو أنها تقرض المال لمجموعة كبيرة ومتنوعة من المشروعات، وبهذا تقلل من خطر الخسارة لأن المال تم توزيعه بالفعل على جهات استثمارية مختلفة، بناءً على هذا، تكون العوائد المحصلة من قبل المودعين ناتجة ومدعومة من مجموعة متنوعة من الاستثمارات التي نفذها البنك".5

"حسناً، أظنني فهمت هذا، ولكنك ذكرت منذ قليل شيئاً ما عن تلاشي موثوقية البنوك، فماذا قصدت بذلك؟".

"هناك مشكلتان خطيرتان من الممكن أن تعرقلا سير العمل بالبنوك: إحداها تخص الملاءة المالية، والأخرى تخص السيولة.

تحدث أزمة الملاءة عندما تنخفض قيمة الأصول البنكية - أي الممتلكات التي تخص البنك ولها قيمة مالية - إلى معدل أقل من قيمة التزاماته المستحقة، أي الديون التي يدين بها البنك للآخرين.

أما أزمة السيولة فتحدث عندما ترتفع قيمة الأصول البنكية إلى معدل يفوق قيمة التزاماته، ولكن يعجز عن بيع تلك الأصول وتحويلها إلى نقود سائلة بسرعة كافية حتى يتمكن من تلبية سداد التزامات واحتياجات عملائه.

هناك أمر لطالما تعثر عليّ فهمه، وهو أنه عندما تقوم بإيداع أموالك في حسابك البنكي، مثل راتبك الشهري فإن هذه الوديعة تحتسب من ضمن الالتزامات البنكية، بمعنى آخر: يصبح البنك مدينًا لك بمبلغ المال هذا ويجب عليه توفيره لك وقتما تحتاج إلى سحبه، وذلك على النقيض، عندما يقدم البنك قرضًا لشخص ما، فإن هذا القرض يحتسب من ضمن الأصول البنكية".6

"إن ما السبب الذي يقبع وراء حدوث مشكلات السيولة في البنوك؟ ألا يمكنهم الاحتفاظ بكمية معينة من النقود السائلة للضرورات حتى يتمكنوا من سداد الأموال لعملائهم في أي وقت؟".

"تحقق البنوك أرباحها من خلال إقراض الأموال الذي يقوم العملاء بإيداعها إلى أشخاص آخرين، ويعتمد البنك بشكل كبير على حقيقة أننا لن نرغب في سحب جميع أموالنا في آن واحد وبشكل فجائي، وهذا شيء إيجابي من الناحية الاجتماعية، فجميعنا يرغب في أن تقدم البنوك قروضًا لأشخاص لديهم الأفكار أو المشروعات المبتكرة.

الإشكال الأساسي هو أن البنوك تمتلك أصولًا ذات طبيعة طويلة الأمد، ما يجعل تحويلها إلى نقود سائلة أمرًا صعبًا، وفي هذه الحالة تتسم الأصول بكونها جامدة.7 عندما يمتلك البنك حزمة كبيرة من القروض العقارية التي قدمها لعملائه في وقت ما، فإنه لا يمكنه مطالبتهم بشكل مفاجئ بسداد قيمة القرض كاملاً.

على النقيض، فإن الأموال التي يودعها العملاء في البنك عادةً ما تكون قصيرة الأمد؛ يستطيع العملاء الذهاب إلى البنك في أي وقت وسحب كامل أموالهم، يُمكن القول - من ناحية فنية متخصصة - إن البنوك تقترض لمدة قصيرة، ولكن تقرض لفترات طويلة. بشكل عام، فإن نمط العمل هذا لا ينتج عنه أية مشكلات، ولكن إذا فقد جميع مودعي البنك - لسبب ما - ثقتهم به واتجهوا جميعهم لسحب أموالهم، فإن البنك يواجه مشكلة تعرف بهروب الودائع؛ ما دام العملاء لديهم ثقة كبيرة في قدرة البنك على سداد أموالهم في أي وقت، فإنهم سيحتفظون بها هناك دون وجود أي داعٍ للقلق، لكن، عندما يشعر الناس بأن

البنك متجه للإفلاس، فإنهم يصطفون في طوابير عند ماكينات الصراف الآلي لسحب أموالهم حتى تنفذ كمية الأوراق النقدية كلها، وبعدها يحدث ذلك، يتوجهون إلى موقع البنك نفسه ويحاولون تحطيم زجاج النوافذ من أجل الدخول عنوة، حتى تأتي قوات مكافحة الشغب لفض هذه الفوضى وإبعاد الناس بالقوة من خلال استخدام المدافع المائية وقنابل الغاز المسيلة للدموع".

"هدئي من روعك!".

"أسفة يا مونتي، لقد انغمست بشدة في تخيل الأمر، لهذا السبب قد نوهت في البداية إلى أهمية عامل الثقة في قيام البنوك بوظيفتها؛ انعدام الثقة يمكن أن يتحول فيما بعد لنبوء خطيرة تتحقق ذاتيًا".

"أنت تقولين إن الأمور تتدهور وتخرج عن السيطرة عندما تنعدم الثقة بين البنك وعملائه، ولكن ما يحيرني حقًا هو السبب الذي يدفع الناس للوثوق بالبنوك في المقام الأول، فمن البديهي ألا آمن كلبًا آخر لا أعرفه على طعامي".

"تساؤل في محله يا مونتي، ولكن هذه المشكلة متأصلة منذ القدم، لذلك تعمل الحكومة على تعزيز عامل الثقة لدى الأشخاص عن طريق اتخاذ الإجراءات اللازمة التي تمنع البنوك من خوض المجازفات المالية الخطيرة. علاوة على ذلك، تقدم الحكومة عادةً خدمة تأمين للودائع البنكية، على سبيل المثال: يصل مبلغ تأمين الودائع في بنوك المملكة المتحدة إلى 85 ألف جنيه، كما أن الدعم الحكومي على أرض الواقع يمتد إلى مستويات أكثر تقدمًا عن هذا؛ يمكن للبنك المركزي أن يلعب دور المقرض كمالأخيراً في الحالات الطارئة، بمعنى آخر: عندما يواجه البنك أزمة في السيولة، فإن البنك المركزي يقوم بإقراضه المبلغ الذي يريده حتى يتمكن من الوقوف على قدميه مجددًا، وسنخصص بعض الوقت للحديث عن البنك المركزي لاحقًا.

لقد واجه بنك نورثيرن روك موقفًا مشابهًا لهذا في عام 2007؛ حيث انتشر الذعر بين العملاء عندما انتشرت شائعات تفيد بأن البنك وجه للحكومة طلبًا للمساعدة، مما أدى إلى اصطفاف الناس بطوابير طويلة عند ماكينات الصراف الآلي بالقرب من زوايا الشوارع حتى يسحبوا ودائعهم من البنك، وكان هذا أول هلع مصرفي يشهده بنك في المملكة المتحدة منذ مئة وخمسين عامًا. لكن، ما يشكل تحديًا حقيقيًا للبنوك هو مواجهتها أزمات الملائة المالية".

"ذكريني مجددًا، ما هو ذلك الشيء؟".

"الملائة المالية هي انخفاض قيمة الأصول التي يمتلكها البنك حتى تصبح أقل من قيمة التزاماته، وحينها، لا يمكن أن تُحل المشكلة بإقراض البنك مبلغًا من المال لتغطية عجز السيولة المؤقت الذي يشهده، بل يصبح البنك أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يتدخل البنك المركزي لإنقاذ البنك المتعثر، أو يعلن البنك إفلاسه.

لا يمكنني التأكيد على أهمية تلك النقطة بشكل كافٍ، ولكن القطاع المصرفي يعمل بكفاءة بفضل وجود الضمانات الحكومية سواء بصورة واضحة أو ضمنية؛ إن البنوك عبارة عن شركات خاصة مسجلة في بورصة الأوراق المالية، وفي نهاية المطاف، يعتمد هيكل النظام المالي - عندما تسوء الأوضاع بدرجة توجب اتخاذ الإجراءات العاجلة - على دعم الحكومات المركزية".

"وهل هذا ليس شيئًا جيدًا؟".

"إنه يؤدي بنا إلى مشكلة معقدة، لأنه يمثل حافزًا قويًا يدفع البنوك إلى المجازفة لكونها واثقة بوجود كيانات أخرى تدعمها وتحمل تكاليف أخطائها إذا أخذت الأمور مجرى سيئًا، وتلك الكيانات تتمثل في مواطني الدولة الذين يبدو أنهم في محض لعبة قرعة بالعملية النقدية مع البنوك؛ إذا ظهر وجه العملة، يفوز البنك، وإذا ظهر الجزء الخلفي منها نخسر نحن، وهذا ما حدث بالتحديد ودفع بنا إلى الأزمة المالية في عام 2008.

للحظات، تذكرت بعضًا من الأحداث التي تخص عام 2008، حيث كان كل من روزي وجابريال لا يزالان في المدرسة الابتدائية، واعتدت أن أوصلهما إلى المدرسة التي تقع في حي هامبستيد هيث في أثناء ذهابي إلى العمل، وحينها لاحظت شيئًا غير مألوف تمامًا: امتلأت الشوارع بالكثير من الرجال في منتصف أعمارهم، كانوا يرتدون ملابس غير رسمية، وبدا أنهم ينتمون إلى طبقة اجتماعية لا بأس بها، ولكن ظهرت على وجوههم مظاهر البؤس وعدم الارتياح، استغرقت بعض الوقت حتى أدركت أنهم رجال يعملون في القطاع المالي، ولكنهم خسروا أعمالهم بسبب الانهيار الاقتصادي، كان هذا الحدث الدافع الرئيسي للعديد من التغييرات التي طرأت على حي هامبستيد هيث، ودائمًا ما اعتدنا أن نمر بجوار العديد من المنازل التي عُلق عليها العديد من اللافتات الزرقاء التي تظهر أنها في السابق كانت مسكنًا للكثير من الفنانين والكتاب: دايفيد هربرت لورانس، روبندرونات تاجور، إيدث سيتول وبن نيكلسون، لم يكن هناك أثرياء يشبهون الذين يسكنون المنطقة في الوقت الحالي، على كل حال، الحديث بحق عن مدى انعدام العدالة الاجتماعية ليس من اختصاصي، بل هو من اختصاص الفيلسوف، أعتقد أن تكوين الثروات هو السر الرئيسي لازدهار أي مجتمع في هذا العالم، ولكن في رأيي الشخصي، من العسير على المرء أن يظن أن موظفي البنوك سيساهمون بشكل كبير في تقدم مجتمعاتهم وتحقيق المنافع في المستقبل - مع كونهم يمتلكون ثروات تقدر بالملايين - بدرجة كافية لأن يستحقوا أن تُعلق تلك اللافتات الزرقاء على المنازل تكريمًا لإنجازاتهم، لذلك، حتى الأشخاص الذين يعتنقون مبادئ السوق الحرة مثلي لا يشعرون بالأسف مطلقًا عندما يشاهدون تدهور أوضاع العاملين بالقطاع المصرفي".

سألت مونتي: "هل اكتفيت من التنزه في هامبستيد؟".

"نعم اكتفيت"

"إنن لنعد إلى المنزل".

## النزهة ١٣: الجزء الثاني: الأسواق المالية على أرض الواقع - ما الدوافع التي تؤدي لانهيائها؟ وكيف يمكنك تحقيق الثراء بوتيرة سريعة؟

"حسنًا يا مونتني، بما أننا سنمر على منحدر في طريق عودتنا إلى المنزل، فأعتقد أنه يجدر بنا أن نتحدث عن انحدار وتدهور السوق المالي بأكمله فيما مضى، وكما عهدنا في كثير من الأحيان: نحن لا نطلع على خفايا الأمور وطريقة سير عملها الحقيقية إلا عند انهيارها أو مواجهتها لبعض التحديات".

"مثلما حدث مع محمصة الخبز سابقًا!".

"أجل، بالضبط، حتى الآن، عندما وصفت الوظيفة الأساسية للبنوك وآلية عملها، ما قصدته حقًا كان البنوك التي تراها في الشوارع التجارية الرئيسية، أو ترى إعلاناتها على التلفاز، وهذه النوعية مسماة بالبنوك التجارية أو بنوك التجزئة، لكن، هناك نوعية أخرى تُعرف ببنوك الاستثمار وتتميز بتعقيدها وصعوبة فهم سير عملها، وهذه البنوك لا تتعامل مع أفراد عاديين كأمثالنا، إنما تتعامل مع المستثمرين المؤسسين إلى جانب الأفراد فاحشي الثراء".

"ومن هم المستثمرون المؤسسون؟".

"هم عبارة عن منظمات مثل صناديق التقاعد التي تستثمر الأموال التي قام الأفراد بادخارها لتوفير مصدر دخل مستقبلي خلال فترة التقاعد، أو صناديق الثروة السيادية كصندوق النفط النرويجي المصمم لاستثمار الأموال التي تم جمعها من إيرادات النفط وتحويلها إلى فوائد وخدمات ويستفيد بها جميع أفراد المجتمع. سُميت البنوك الاستثمارية بهذا الاسم لأنها اشتهرت بمساعدة الشركات على جمع رؤوس الأموال من كبار المستثمرين المؤسسيين عن طريق إصدار الأسهم والسندات. إن البنوك الاستثمارية لا تقتصر فقط على بيع الأسهم والسندات لعملائها، بل هي تقوم أيضًا بشراء الأسهم والسندات بأموالها الخاصة بهدف تحقيق الأرباح، ويشار إلى هذا النشاط بمصطلح "تداول الملكية الاستثمارية".



حدثت بعض التحولات التدريجية في النظام المالي منذ بداية ثمانينيات القرن الماضي، حيث بدأت البنوك الاستثمارية وغيرها من المؤسسات المالية في الابتعاد عن النمط التقليدي و"الممل" في مزاوله الأعمال المصرفية، وبدأت الانخراط بشكل متزايد في ابتكار وتداول منتجات مالية جديدة، مثل الديون المورقة والمشتقات المالية".

"لقد بدأ رأسي يؤلمني من كثرة التعقيد، هل أنا في حاجة حقًا إلى المعرفة عن الديون المورقة والمشتقات المالية؟".

"عذرًا يا مونتي، تتسم هذه الجزئية بالتعقيد فعلاً، ولكن يمكن تلخيص الأمر كالآتي: ضعف الإشراف والتنظيم الحكومي أدى إلى تطوير وابتكار منتجات مالية جديدة ومعقدة على نحو متزايد، علاوة على موجة من جنون وهوس بالمضاربة اجتاحت الأسواق المالية مما أدى في النهاية إلى إفلاس بعض البنوك وتركها دون ورقة نقدية واحدة في خزائنها، لكن، إن كنت لا تفهم تمامًا الفكرة من وراء تلك المنتجات المالية الجديدة، فلا تشعر بالإحباط؛ إذ تبين لنا أثناء ذروة الأزمة المالية بعام 2008، أنه حتى المسؤولين التنفيذيين في بورصة وول ستريت لم يفهموا بدورهم تلك المنتجات حديثة الابتكار مع كونهم الأشخاص الذين يشترونها ويبيعونها في المقام الأول.

دعني أحاول أن أقدم المزيد من الإيضاح حول الأمر، عندما اعتاد أن يقترض الناس في الماضي مبلغًا من البنك من أجل شراء ما يريدون شراءه - كمنزل أو سيارة - كانت الأمور بسيطة وتنتهي فورًا بعد إتمام عملية الاقتراض دون أي تعقيدات إضافية؛ على سبيل المثال: عندما تقترض المال من بنك برادفورد أو بينجلي بيلدنج سوسايتي، فأنت ستقضى خمسة وعشرين عامًا مقبلة في سداد قيمة هذا القرض بشكل تدريجي، لذلك، كان لدى تلك البنوك الدوافع القوية للتأكد من أنك تمثل بالنسبة لهم مخاطرة ائتمانية ممتازة، بمعنى آخر، أنك قادر على سداد قيمة القرض وتمتلك تاريخًا ائتمانيًا جيدًا، لكن، تكمن المشكلة فيما حدث بعد ذلك؛ اتجهت البنوك إلى توريق الرهون العقارية ومن ثم إعادة بيعها من جديد".

"إعادة البيع تبدو لي أمرًا بسيطًا ومباشرًا، لكن ماذا عن التوريق؟".

"تخيل معي أن هناك بنكًا ما قام بمنحك رهناً عقاريًا من أجل شراء منزل، لنسميه البنك (أ)، وفي مقابل هذا، فأنت تعهدت بالالتزام بتسديد هذا القرض على دفعات شهرية للبنك طوال فترة الرهن، لنعتبرها ألف جنيه شهريًا لمدة خمسة وعشرين عامًا، يمثل التزامك للدفع بالنسبة للبنك (أ) أن تدفق الدخل سيستمر لفترة معينة من المستقبل، مما يجعله يُحتسب من ضمن الأصول البنكية، وبالتالي، يمكن للبنك أن يبيع هذا الأصل لأي بنك آخر، لنفترض أن بنك (أ) قد باع هذا الأصل للبنك (ب)، وفي الوقت ذاته، يقوم البنك (ب) بشراء كمية ضخمة من أصول الرهون العقارية من بنوك أخرى، ويجمعها معًا، في النهاية سيصبح لدى البنك (ب) مجموعة مهولة من الرهون العقارية لنقل إنها تدر عليه ما يقرب من عشرة ملايين جنيه شهريًا، يمكن للبنك (ب) توريق هذه الحفنة الضخمة من أصول الرهون العقارية، وكلمة توريق تعني أن يقسم البنك هذه الحفنة الضخمة من الرهون إلى عدة صكوك - لنقل إنها ألف صك - تحمل قيمة مالية صغيرة يمكن بيع وشراء كل منها على حدة، وإذا قام أي شخص بشراء صك واحد من تلك المجموعة، فهو يحق له نسبة من الدخل الشهري الذي يحصل عليه البنك من الرهون العقارية تساوي واحدًا على ألف، وهذا ما يعرف بالسندات المدعومة بالرهن العقاري.

"حسنًا، لقد فهمت الآن".

"إذا تمكنت من فهم هذا حقًا، فأنت بذلك يا صغيري تفهم النظام المالي وتعرفه بصورة أفضل مما يفعل 99% من الناس! إن التوريق ليس بالضرورة فكرة سيئة على الإطلاق، فهي وسيلة تسمح للأفراد بالاستثمار في الرهون العقارية بنسبة منخفضة من التعرض للمخاطر؛ إذا تعثر أحد مقترضي الرهون العقارية في السداد، فذلك لن يؤثر بشكل كبير على البنك لأن المخاطر قد وُزعت بشكل متنوع بين العديد من الأطراف المختلفة".

"إذن أين تكمن المشكلة في خضم كل هذا؟ فأنا أشعر بوجود مشكلة ما..."

"المشكلة أن البنك (أ) - وهناك الكثير من البنوك التي وقعت على شاكلته - منح كمية ضخمة من القروض لمجموعات من الأشخاص لم تقدر على سدادها، واشتهرت هذه القروض فيما بعد على نطاق واسع نظرًا لما سببته من أضرار، وأُطلق عليها "الرهون العقارية عالية المخاطر"، وتُعد رغبة حكومة الولايات المتحدة في التشجيع على امتلاك المواطنين للمنازل هي حجر الأساس الذي بُنيت عليه الأزمة كلها؛ تراخت الحكومة في تنظيم عملية اقتراض الرهون العقارية، وقللت من مدى صرامة قوانينها مما يسّر على البنوك إقراض أشخاص ذوي سجلات ضعيفة من النشاط الائتماني. بدأت البنوك على نحو متزايد تقديم قروض ذات نسبة عالية من المخاطر وبمعدلات فائدة مبدئية منخفضة بشكل مغرٍ للمقترضين؛ بلغت نسبة فائدة ما إلى خمسة في المائة بالتقريب، وذلك خلال السنوات الخمس الأولى".

"مرحى!".

"ولكنها ازدادت بعد ذلك لتصل إلى سبعة عشر في المائة على مدار الفترة المتبقية من مدة القرض".

"يا للحسرة!".

"أعتقد الناس أن خمسة في المائة نسبة لا بأس بها من الفوائد، وأنه إذا تدهورت الأوضاع إلى حد عدم مقدرتهم على سداد الأقساط العالية خلال الفترة المتبقية من القرض، فبإمكانهم بيع المنزل وسداد القرض بأكمله، وكانت هذه الإستراتيجية تعمل بشكل سليم ما دامت أسعار المنازل في ارتفاع مستمر".

"يخالجني شعور بأن شيئًا فظيئًا على وشك الحدوث".

"شعورك في محله، لقد سبق أن شرحت لك بالفعل ما هي السندات المدعومة بالرهون العقارية، ولكن هذه البداية فقط؛ قامت البنوك بتحويل تلك السندات إلى ما يُسمى التزام

الدين المضمون (واختصاره بالإنجليزية CDOs)، وهي سندات تقوم البنوك ببيعها وشراؤها، ولكنها متباينة فيما يخص مستوى المخاطر والعائدات المتوقعة، بحيث هناك بعض السندات ذات نسبة من المخاطر أعلى من غيرها، ينطبق المبدأ نفسه ليس على الرهون العقارية وحسب، بل على أنواع أخرى من القروض الاستهلاكية أيضًا، مثل القروض التي تمنحها بطاقات الائتمان، فضلًا عن مجموعة كبيرة تحتوي على الكثير من حزم الديون المعقدة والمتنوعة، وجميعها تُباع وتُشتري في الأسواق المالية. بدأت الحلقة الأولى من سلسلة الأحداث هذه في الولايات المتحدة، ولكنها اتسعت فيما بعد ليشمل نطاقها العديد من الدول الأخرى المتقدمة، بعدما تم إبطال اللوائح التنظيمية التي قيدت قدرة البنوك المقرضة على بيع قروضها لأطراف ثالثة.

هناك شيء آخر - قد يضيف المزيد من التعقيد - يُسمى مقايضة الائتمان الافتراضي، وهو عبارة عن نوع من أنواع التأمين الاستثماري يدفع الأموال للمستثمرين لتعويض الخسائر في حالة انهيار قيمة السندات المدعومة بالرهن".

"أوليس التأمين فكرة جيدة؟ ألا يعمل على توفير الحماية والأمان في أوضاع كهذا؟".

"هذا صحيح، من الناحية النظرية، الهدف الأساسي من تلك الابتكارات المالية الجديدة هو توفير الحماية من خلال تنويع الاستثمارات، أو إذا صح القول، الهدف من جميع تلك الأشياء هو تحقيق ثروات وهمية للأشخاص الذين ابتكروها وباعوها للناس، وقد حظيت مقايضات التأمين الافتراضي هذه بسمعة سيئة كونها أتيحت للشراء حتى في حالة عدم امتلاك الفرد سندًا لتأمينه، ونتيجة لهذا،

باتت مقايضة التأمين الافتراضي وسيلة غير أخلاقية راهنت من خلالها البنوك والمضاربون على إفلاس الشركات. تركت الحكومة تداول هذا النوع من التأمين بلا تنظيم أو رقابة، مما شجع المؤسسات المالية على إصدار ما تشاء من العقود التأمينية - وهي مجرد رهانات في جوهرها - وبيعها، مع أن التنويع في الاستثمارات كان هو الهدف المُعلن لتلك الابتكارات الجديدة.

إلا أن النتيجة الفعلية التي نجمت في نهاية المطاف هي إتاحة المضاربة الجامحة على نطاق واسع؛ عندما وقعت الكارثة، تعقدت الأمور لدرجة أنه لم يتمكن أحد من فهم مَن هم الأشخاص المدينون، وبماذا ولمن يدينون<sup>1</sup>.

"لقد قلت إن كل هذا حدث جراء أفعال البنوك الاستثمارية، إذن، هل تأثرت البنوك التقليدية - التي أراها في الشوارع الرئيسية - بهذا الوضع؟".

"نعم، لأن العديد من تلك البنوك التجارية قامت بشراء تلك الأوراق المالية المدعومة بالأصول - بالإضافة إلى شبيهااتها الأكثر تعقيداً - وبالتالي، وجدت نفسها تمتلك مجموعة من الأصول التي انهارت قيمتها بشكل مفاجئ لم يكن بحسبانها، وتدهورت الثقة بين جميع المؤسسات المالية بشكل عام؛ وكانت كل مؤسسة محاطة بشكوك أقرانها حول مدى قدرتها على تحمل الوضع الحالي، واجهت البنوك أزميتين في الوقت ذاته: أزمة في الملاءة المالية، وأزمة في السيولة، وشكلتا معاً صدمة قوية ذات تأثير مضاعف على البنوك التي تقوم بشكل أساسي في أعمالها على الإقراض والاقتراض من بعضها البعض. كان النظام المالي بأكمله على وشك الانهيار، فبالرغم من تعقيده إلا أنه ذو بنية هشة كالأوراق، شعرت الحكومات بأنه لا يمكنها السماح بانهيار النظام المالي ببساطة هكذا، لذا تدخلت لإنقاذ الموقف وبدأت في تنفيذ إجراءات لإعادة تعزيز النظام المصرفي مرة أخرى.

استطاع القائمون على البنوك ورجال المال الذين صنعوا وحققوا الأرباح من هذا النظام المعقد والخطير بدرجة جنونية الإفلات من هذا الوضع دون أن تتأثر أملاكهم أو ثرواتهم الشخصية ولو بأقل الخسائر، تشير التقديرات إلى أن أعلى خمس مراتب من المسؤولين التنفيذيين في شركة بير ستيرنز - وهي واحدة من الشركات التي تعرضت لخسائر فادحة في بداية الأزمة - تمكنوا من الاستحواذ على 1.4 مليار دولار في شكل نقدي أو أسهم بين عامي 2000 و2008؛ هناك مقولة شهيرة تنص فيما معناه على أن الأرباح تُخصص وتقتصر على كيانات معينة في حين أن الخسائر تُعمم وتقع أعباؤها على عاتق الجميع".

"هذا فظيع! لا عجب في أن أولئك الأشخاص المحتجين كانوا يلوحون بلافتاتهم أمام البنك".

"لعلك محق، إن الازدهار الذي شهده النظام الرأسمالي - وربما النظام الديمقراطي الغربي بأكمله - لم يكن ليحدث بالوتيرة السريعة نفسها لولا تطور الأنظمة المالية والمصرفية؛ إن انتشار البنوك التجارية، والشركات الاستثمارية إلى جانب أسواق الأسهم والسندات وكل ما يتعلق بها أتاح للشركات تجميع رؤوس الأموال وتوزيع المخاطر، وهذا شيء يعود بالنفع على مجتمعنا، فنحن لا ننكر حقيقة أننا في حاجة إلى البنوك، مع ذلك، ضعف التنظيم والرقابة على الأسواق المالية الذي بدأنا ملاحظته منذ ثمانينيات القرن الماضي كان بلا شك خطأً فادحاً عند النظر إلى الأمر مرة أخرى، وفي أواخر عقد التسعينيات، أنشئت العديد من البنوك العملاقة التي كانت ذات أثر وأهمية كبيرة على الاقتصاد إلى حد أن الحكومة لم تسمح أبداً بتعرضها للخسارة أو الفشل؛ إذا قام العاملون بها بالمضاربة والمخاطرة، وربحوا رهانهم، فإنهم يأخذون الأرباح لأنفسهم، ولكن إذا ضاربوا وخسروا، فإن الحكومة تتحمل تكاليف خسارتهم".

"الآن فهمت السبب وراء شعور الناس بالغضب".

"إذا نظرت للأمر من عدة زوايا، أعتقد أنه سيتضح لك أن الناس لم يكونوا غاضبين بما يكفي، أنت تعرفني تمام المعرفة يا مونتي، وتعلم أنني مؤمنة بمنظومة الأسواق، ومؤمنة باستجابة الناس للمحفزات الاقتصادية المختلفة، وأن جميع تلك الجهود والمسئوليات بشكل عام يجب تشجيعها وتقديرها، لكن مع هذا، فإن مدى عمق مستويات الفساد وانعدام الكفاءة المهنية الذي اتضح أنه موجود بين رجال المال كان صادمًا بحق، إن الحظ حالفهم فعلاً لأن هذا النظام برمته معقد للغاية، ولم يرد الشعب تكبد عناء فهم ماهية التزامات الديون المضمونة أو آلية التنظيم والرقابة على النظام المالي، أظن إذا فهم الناس حقاً كيفية عمل هذه الأشياء، لطالبوا بمعاقبة أولئك المجرمين عقاباً مستحقاً جراء ما ارتكبوه".

"حسنًا، لقد أخبرتك أن رأسي يؤلمني بالفعل، ألا يمكننا الحديث عن موضوع مبهج بعض الشيء؟ لا أعرف كيف، ولكنني أتذكر أنك قلت شيئًا عن كيفية تحقيق الثراء بسرعة؟".

"صحيح، لقد قلت ذلك بالفعل، ولكنها بصراحة كانت مجرد كذبة بيضاء لأجعلك تنصت لشرح تلك الأمور المعقدة كالالتزامات الديون المضمونة ومقايضات الائتمان الافتراضي، إن ما يؤسفني أن أبلغك به يا مونتي أنه لا وجود لأي برامج أو مخططات سحرية تجعلك تحقق الثراء بسرعة مثلما لا توجد حميات غذائية ذات تأثير سحري لفقدان الوزن"

"أنت شخصية مزعجة للغاية في بعض الأحيان".

"آسفة يا مونتي، ولكن كلامي هذا وفقًا لـ "قوانين" الاقتصاد الأساسية، ولقد وضعت كلمة قوانين بين علامات الاقتباس لأن هذه قوانين اقتصادية وليست قوانين فيزيائية، وهذا يعني أنها ليست صارمة وذات نتائج أكيدة، ولكنها مرنة وتنطبق بطرق مختلفة في ظروف مختلفة، السبب في صعوبة تحقيق الثراء من خلال الاستثمارات هو محدودية فرص الاستثمار الجذابة، ويرجع هذا إلى سبب واضح جدًا، وهو حتى إن وجدت تلك الفرص، فعلى الأرجح يتسابق إليها العديد من الأشخاص لاستغلالها قبلما يصل إليها الآخرون".

"ولكن لماذا يحدث هذا؟".

"لنفترض أنك تبحث عن منزل جديد للشراء لأن تلك الكلبة المدللة التي تدعى "بيكي بينولبي" قد وافقت على أن تنتقل للعيش معك، ولذلك أن تبحث عن منزل فخم وملائم لكما يتكون من ثلاث غرف".

"أنا كلي آذان صاغية..."

"لنقل إن ميزانيتك الحالية تساوي خمسمائة ألف جنيه إسترليني، وإن بعض المنازل الراقية في المنطقة التي ترغب بالسكن فيها يصل سعرها إلى 550 ألف جنيه، والبعض

الآخر يحتاج إلى أعمال صيانة ولكن سعره يبلغ 450 ألف جنيه، لكن بشكل عام، فإن سعر السوق لنوعية المنزل الذي ترغب في شرائه يقترب من هذا السعر. في يوم ما وبشكل مفاجئ، تجد وكيل العقارات المعروف بين الأوساط المشهورة أمثالك يتصل بك ليقول: "عزيزي مونتي، لقد وقع بين يدي منزل متاح للشراء ورائع جدًا وذو مواصفات تطابق ما تريده تمامًا؛ وبالحجم نفسه والمنطقة نفسها اللذين تريدهما، وبنصف سعره فقط. بلا شك، سوف تعتبر هذه فرصة ذهبية لا تضاهى، علاوة على ذلك، يمكنك بيع المنزل أيضًا خلال الأسابيع المقبلة بضعف السعر الذي اشتريته به..." ما رأيك في هذا يا مونتي؟".

"أعتقد أنني سأتساءل عن السبب الذي يدفع البائع لبيع هذا المنزل بسعر أقل مما يمكن أن يحصل عليه، وعندما عرف وكيل العقارات أنه بإمكانه بيع المنزل بضعف الثمن بين ليلة وضحاها، لماذا لم يسعَ بدوره لشرائه؟ وإذا افترضنا أنه لا يقدر على شرائه لسبب ما، فلماذا لا يسعى غيره من المشتريين لشراء ذلك المنزل؟ فلو كان هناك اهتمام كافٍ من قبل العديد من المشتريين لشراء المنزل، لارتفع سعره حتى يصل إلى سعر السوق الطبيعي".

"لا أصدق حقًا أن هذا الكلام يصدر منك!".

"ماذا تقصدين؟".

"لا تهتم، ولكنك محق بشأن كل ما قلته. لا يوجد شيء يأتينا بالمجان في هذا العالم، وهذه القاعدة تنطبق بحذافيرها على سوق الأسهم أيضًا؛ بلا شك يعكس سعر الأصول جميع المعلومات المتاحة عنها في ظل سوق يتسابق ويسعى فيها كل فرد بجهد لربح الأموال. يُعرف هذا في الاقتصاد بفرضية السوق الفعالة، وهي ما نستنتج من خلالها أنه من النادر جدًا العثور على فرص استثمارية جيدة وحقيقية، ومن هذا المنطلق، يصبح تحقيق الربح السريع أمرًا غاية في الصعوبة".

"حسنًا إذن، إن لم يكن باستطاعتك إخباري بكيفية تحقيق الثراء بشكل سريع، فهل يمكنك إخباري بكيفية تحقيقه بشكل تدريجي؟".



"نعم، يمكنني المحاولة، لعله أمر ممل قليلاً، ولكن هناك مجموعة من القواعد الأساسية والمنطقية.

"القاعدة الأولى: ادخر، استثمر، وقم بتكرار ذلك. إنه نمط قديم وقد أخبرنا به السيد ميكاوهر بالفعل (شخصية خيالية في رواية لتشارلز ديكنز)، حيث قال: "إن كان يأتيك دخل يساوي عشرين جنيهاً، ونفقاتك الشهرية تساوي تسعة عشر جنيهاً وتسعة عشر شللاً وستة بنسات، فالنتيجة النهائية لهذا أنك ستعيش في سعادة، ولكن إن كان دخلك الشهري عشرين جنيهاً، ومعدل إنفاقك الشهري عشرين جنيهاً، زائد ستة بنسات، فالنتيجة النهائية هي التعاسة". يجب على كل فرد أن يدخر ولو قليلاً من المال، الخطوة الأولى في تحقيق الثراء هي تجنب الاقتراض، لا بأس أن تقترض من أجل شراء منزل أو دفع تكاليف للتعليم العالي، ويجب عليك ألا تلجأ أبداً إلى قروض بطاقات الائتمان إلا في حالة شراء منزل أو الاستثمار في مشروعات مربحة؛ تعتبر بطاقات الائتمان "المخدر" الخاص بعالم المال، واستخدامها بشكل غير مسئول قد يدفع الفرد إلى حافة الديون ويوقعه في مشاكل جسيمة، إن كنت تعتقد أن هذا الكلام يحمل وقعاً قاسياً، فعليك أن تنظر إلى الأمر بهذا المنظور: إن كل جنيه تدفعه لسداد فوائد شركات الائتمان يعتبر بمثابة سرقة أموال من ذاتك المستقبلية.

القاعدة الثانية: الشروع في استثمار يستمر على المدى البعيد في أبكر وقت ممكن، وهذا من أجل غرض أساسي وهو تحقيق معجزة الفائدة المركبة، أتذكر قاعدة السبعين التي تحدثنا عنها سابقاً؟ تنطبق هذه القاعدة على التخطيط المالي الفردي أيضاً، حيث نقوم بقسمة الرقم 70 على معدل الفائدة السنوي الذي نحصل عليه بفضل الاستثمارات، والنتيجة عن هذه العملية هو عدد السنوات التي سيستغرقها معدل فوائد الاستثمارات حتى يتضاعف، سأجري لك اختباراً سريعاً يا مونتي: إن كنت تحصل على معدل فائدة يساوي 7% فكم عدد السنوات التي سيستغرقها حتى يتضاعف؟".

"لقد وعدتني بأن نتجنب كل ما يخص الرياضيات، ولكنني أعتقد أن الإجابة عشر سنوات؟ فئات قسمة سبعين على سبعة هو عشرة، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح يا مونتي، إن كانت نسبة الفوائد تساوي سبعة في المائة، فستستغرق قرابة عشر سنوات حتى تزيد الضعف، وهذه هي المعجزة التي يمكن تحقيقها من خلال الوقت والفوائد المركبة، دعني أعطك مثالاً آخر: تخيل أن الجدة بيتي قد تركت لك في وصيتها مالاً يقدر بعشرين ألف جنيه وأنت في الخامسة والعشرين من عمرك، يمكنك إنفاق هذا المال في شراء سيارة أو السفر لقضاء عطلات فاخرة وباهظة الثمن، لكن سنفترض أنك شخص يفكر بحس المنطق وأنت قررت إنشاء حساب استثماري من أجل استثمار هذا المبلغ، إذا نما هذا الاستثمار بنسبة عشرة في المائة لكل سنة، فستزداد قيمته لتصبح مليون جنيه بحلول بلوغك خمسة وستين عاماً من عمرك، حتى إن لم تودع بنساً إضافياً في حسابك الاستثماري، من المؤكد أن نمو العوائد بنسبة عشرة في المائة كل سنة أمر جليل، ولكن يجب أن يوضع في الحسبان أن قيمة المليون جنيه بعد مرور خمسة وعشرين عاماً لن تساوي القيمة نفسها التي هي عليها خلال الوقت الحالي؛ سيقبل التضخم من القوة الشرائية لهذه الأموال،<sup>3</sup> ولكن مع ذلك فالنتيجة النهائية تعتبر مرضية ولا بأس بها بشكل عام".<sup>4</sup>

"على الأقل سيكفيني هذا المبلغ لشراء عظمة أو اثنتين، ماذا عن القاعدة الثالثة؟".

"القاعدة الثالثة: يجب أن تقوم ببعض المخاطر".

"هممم، ألم تقولي إن الغرض الأساسي من النظام المالي - إذا أدى وظيفته بالصورة المطلوبة - هو تقليل نسبة التعرض للمخاطر؟".

"نعم، هذا صحيح، وبالمناسبة، أحسنت صنعاً كونك أنصت جيداً لما قلته، لكن دعني أوضح لك، من المنطقي أن تقدم الأصول التي تحتوي على نسبة عالية من المخاطر عوائد أعلى من المتوقع من أجل جذب المستثمرين، وإلا لن يفكر أي شخص في الاستثمار فيها، إذا

خُيِّرَت بين إقراض مائة جنيه لرجل ما تعرَّفت عليه في المقهى، أو إقراضها للحكومة علمًا بأن كليهما يعرض عليك نسبة الفوائد نفسها، أي طرف ستختار إقراضه من بينهما؟".

"أعتقد أنني سأجنب إقراض الرجل الذي قابلته في المقهى".

"بعبارة أخرى: إن كنت ترغب في الاستثمار في أصول ذات نسبة مخاطر منخفضة، فعليك أن تقبل بنسبة عوائد منخفضة أيضًا، وإقراض الأموال للحكومة - وهو ما يحدث عندما تشتري السندات الحكومية - يعتبر خيارًا استثماريًا على درجة قصوى من الأمان".

"هذا رائع".

"ولكن لا يوفر عائدات مرتفعة للمستثمرين".

"هذا سيئ".

"بنسبة كبيرة، سيدر عليك الاستثمار في السندات الحكومية مالم أقل - في المتوسط - مما سيدره الاستثمار في الأسهم، كما أن الاحتفاظ بأموالك في حساب توفير نقدي بالبنك يعتبر خيارًا أكثر أمانًا من كل هذا، ولكن يجب الأخذ في عين الاعتبار بأن التضخم يقتنص من قيمة أموالك بشكل تدريجي؛ فكما قلنا في السابق: تأثير التضخم يشبه تمثالًا جليديًا في خضم حفل مزدحم، فهو يذوب بشكل تدريجي دون أن يلحظ أحد.

سأوضح بمثال آخر: لنفترض أنك تحتفظ بمبلغ ألف جنيه إسترليني تحت فراشك، وأن نسبة التضخم الحالية تبلغ 5%؛ خلال عشر سنوات، ستتقلص قيمة ألف جنيه - من ناحية قدرتها الشرائية - إلى ما يساوي 570 جنيهًا، وبهذا، يخسر استثمارك الآمن قرابة نصف قيمته بسبب آثار التضخم، ومن الجدير بالذكر أن خمسة في المائة ليس معدلًا سيئًا من التضخم نظرًا لما شهدناه على مر التاريخ؛ في عقد السبعينيات من القرن الماضي، ارتفعت نسبة التضخم في المملكة المتحدة حتى بلغت 24%".

"آخ!"

"من الممكن أن تسوء الأمور عن هذا، حيث إنه في جمهورية فايمار التي نشأت في ألمانيا، وصل معدل التضخم في عام 1923 إلى تسعة وعشرين..."

"في المائة؟ هذا معدل ضخّم؟!"

"لا، بل وصل إلى 29,525%".

ارتعد مونتي خوفًا مما سمعه.

ثم أكملت: "وهذا لا يزال الأسوأ على الإطلاق؛ بلغت نسبة التضخم في دولة المجر عقب الحرب العالمية الثانية إلى 41.9 كوادريليون في المائة".

"سأثق في كلامك وأعتبر أن هذا رقم ضخّم".

"وهو كذلك فعلاً، الكوادريليون هو عدد يليه خمسة عشر صفراً، ولكن دعنا ألا ننحرف بعيداً عن الموضوع الأساسي، من المؤكد أن التضخم سينتقص من قيمة المدخرات، ولكنه احتمال مستبعد أن يصل إلى المعدلات نفسها التي كان عليها في فايمار بألمانيا أو المجر عقب الحرب العالمية الثانية، إن الاستثمار في شراء الأسهم يحمل نسبة مخاطر أعلى من الاحتفاظ بالأموال في حساب بنكي؛ تتميز قيمة الأسهم بكونها متقلبة، ومن الوارد أن تنخفض مثلما ترتفع، وفي بعض الأحيان تنخفض قيمتها بشكل حاد؛ عندما ضربت جائحة كوفيد - 19 عالمنا لأول مرة في عام 2020، انخفضت أسعار الأسهم إلى قرابة الثلاثين في المائة، لكن عند النظر على المدى البعيد، سنجد أنه لطالما زادت قيمة الأسهم بثبات واستدامة".

"حسنًا، إذن الاحتفاظ بالأموال في صورتها النقدية فكرة سيئة، ويجب أن نقوم بالمجازفة قليلاً في الاستثمار، وما هي القاعدة التالية؟".

"القاعدة الرابعة: التنويع، كلما خطر ببالك أن تستثمر مبلغًا كبيرًا من المال في سهم واحد فقط، يجب أن تذكر نفسك وتكرر: إنرون، إنرون، إنرون".

"مَن هذه؟".

"كانت إنرون سابع أكبر الشركات الموجودة في الولايات المتحدة خلال فترة ما، كما أنها كانت المفضلة لدى بورصة وول ستريت، لقبت مجلة فورتشن شركة إنرون بأنها أكبر شركة إبداعية موجودة بأمريكا لمدة سنوات متتالية، بلغت قيمة أسهم الشركة في عام 2001 وهي في قمة مجدها 90 دولارًا لكل سهم، ولكن أعلنت الشركة إفلاسها بشكل مفاجئ في عام 2001، وقد اتضح فيما بعد أن الشركة أخفت ديونها الضخمة تحت اسم "الابتكارات المالية"، حيث كانت هذه الابتكارات في الواقع مجرد عمليات احتيال، إذا كنت استثمرت جميع أموالك في شركة إنرون، لذهبت جميع أموالك في عداد الخسارة.

لذلك، يجب عليك أن تتأكد من توزيع استثماراتك على عدة جهات متنوعة، لا ينبغي أبدًا أن تستثمر جميع ما تملكه من مال في شركة واحدة أو سهم واحد، بغض النظر عن مدى إيمانك أو اعتقادك بسلامة وصحة هذا التصرف، وهذا تنبيه مهم جدًا يجب الالتفات إليه، يجب أن تحرص على أن تكون جميع استثماراتك متنوعة بحق وبدقة؛ على سبيل المثال: إذا استثمرت جميع أموالك في مجموعة متنوعة من الأسهم الرقمية على الإنترنت، وعلى الرغم من أن تلك الأسهم قد تنتمي إلى عدة شركات مختلفة تقدم سلعة مختلفة وتدار من قبل مديرين مختلفين، إلا أن هذا لا يعد تنوعًا في الاستثمارات، حيث إن جميع أموالك لا تزال موضوعة في مكان واحد، وهو الإنترنت.

إن كنت ترغب في الاستثمار في الأسهم - مع أنه حري بك أيضًا الاستثمار في تشكيلة متنوعة من الأصول - فالنصيحة الأكثر عقلانية ومنطقية هنا هي أن تتوجه للاستثمار في صندوق استثماري - وهو عبارة عن صندوق يحتوي على مجموعة متنوعة ومختلفة من الأسهم - ذي نسبة منخفضة من الرسوم، 5 لذا يا مونتي، وببساطة شديدة، ببساطة الشيء لا

تعني بالضرورة سهولته، الآن، دعنا نسترجع ما تناولناه بشكل سريع، ما هي القواعد الأربع؟".

"اممم، أن ننفق أموالاً بصورة أقل مما نجني، وأن نفكر ونخطط على المدى البعيد، وأن نتخذ بعض المخاطر، وأن نحصر على التنوع في استثماراتنا، إلى جانب شيء آخر كان ينص على ندرة الفرص الجيدة، ويُسمى الفرضية الفعالة أو شيئاً من هذا القبيل".

"ممتاز، إذن، إذا اتصل بك أحد ما من دون موعد مسبق وبغرض تسويقي ليقنعك بأن تستثمر في شركة جديدة وثرورية في مجالها متخصصة في بيع بسكويت الكلاب، وستدر عليك عوائد كبيرة جداً لحد يثير الشكوك، لنقل إنه عشرة في المائة، فلا بد أن حقيقة الأمر مخفية وراء سبب من ثلاثة: السبب الأول، عثور هذا الشخص السخي واللطيف مصادفة على فرصة استثمارية ممتازة لم يكتشفها أحد بعد، وهو يريد أن يشارك هذه الفرصة العظيمة معك عوضاً عن أن يقتنصها لنفسه ويحقق من ورائها الأرباح، السبب الثاني، أن يحمل هذا الاستثمار نسبة عالية من المخاطر مع وجود احتمال قوي لخسارة جميع أموالك، السبب الثالث: أن يكون هذا الشخص يفتقر إلى النزاهة والكفاءة المهنية، وفي غالب الأحيان، يتبين لنا أن هذا هو السبب الحقيقي".

"ألا يمكن أن يكون السبب الأول هو الحقيقي؟".

"هذا أمر لا يحدث على الإطلاق تحت أي ظروف، لقد قاربنا من الوصول إلى المنزل يا مونتي، هل تريدني أن أقدم لك تلخيصاً يشمل جميع ما ناقشناه؟".

"نعم، أفضل أن تفعلني هذا بنفسك عوضاً عني".

"إن وجود بنية تحتية مالية عنصر لا غنى عنه لتسيير عجلة الاقتصاد الحديث؛ دائماً ما نحتاج إلى البنوك كونها قادرة على لعب دور الطرف الوسيط الذي يستطيع إيصال الأشخاص الذين يرغبون في الادخار، بالأشخاص الذين يرغبون في الاقتراض والاستثمار،

لكن مع ذلك، ينبغي على البنوك العودة إلى العمل بالنظام التقليدي والاعتيادي، لأنه خلال الفترة التي سبقت الأزمة المالية، تواجدت العديد من المؤسسات المالية الكبيرة التي عملت بشكل أساسي من أجل تحقيق المصالح الشخصية لمديريها فقط، وبصفة عامة، فهم لا يزالون يرتكبون الشيء نفسه في الوقت الحالي، ولهذا السبب يجب تشديد التنظيم والرقابة على النظام المالي كاملاً، وكما أشار العديد من الأشخاص بعد وقوع الأزمة: من الصعب ألا نفكر بأن قاداتنا المسؤولين عن أمور عديدة في هذا العالم من بينها النظام المالي لم يعرفوا - أو يرغبوا في معرفة - حقيقة ما كان يحدث بالضبط من حولهم.

وبالمناسبة، إن أفضل طريقة لتحقيق الثراء بسرعة هي سرقة بنك، وهذا أمر سهل للغاية طالما أنك مصرفي".

## النزهة ١٤: المال

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: المال، وما طبيعته الأساسية، وكيف تطور على مدار السنين حتى أصبح بالشكل الحالي الذي نعرفه؟ إلى جانب هذا، سنتناول أيضًا قاعدة الذهب والتضخم، والتسهيل الكمي وعملة البيتكوين.

لا يوجد ما يثير حماس مونتي أكثر من سماعه صوت القعقة المفاجئ والمتبوع بصوت التناثر والتصادم الخافت لتوصيل الرسائل البريدية، ولا أعلم بالضبط ما هي الغريزة العتيقة والبدائية التي تُحفّز عند سماع تلك الأصوات، لعل تلك الأصوات تشبه صوت انقراض الحيوان المفترس بفكيه على فريسته؟ أو تشبه صوت الصراعات اليائسة الصادرة عن حيوان يحاول النجاة، ولكنه ذو حجم صغير للغاية إلى حد يجعل منه فريسة بالنسبة لحيوان في ضالة مونتي؟ على كل حال، اندفع مونتي بسرعة وهو ينبح بصخب نحو الباب الأمامي، وقد واصل النباح في وجه ساعي البريد الذي تراجع بعيدًا بمجرد أن قام بإيصال الرسائل، وبعدها بدأ يصدر أصوات دمدمة وزمجرة وهو يقترب من الرسائل، ثم استمر بخدشها لبضع لحظات بأظافره - التي حتمًا يجب علينا ألا ننسى قصها - وبعدها انتهى من كل هذا، استعداد مونتي لتوجيه ضربته القاضية: العبث بالرسائل بأسنانه، لكن للأسف الشديد، لم تعد أسنانه بالقوة نفسها التي قد تتسبب في حدوث تلف أو تمزيق، لذا، كل ما فعله هو مضغها بلطف حتى ملّ وتركها بلمس لزج ورائحة تشبه رائحة أنفاسه.

لم يوجد أي شيء جديد بالرسائل البريدية التي تحمل آثار عدوان مونتي؛ كل ما جاء كان قائمة بمجموعة الملابس الجديدة الصادرة عن شركة بودين، بالإضافة إلى منشور دعائي من أحد الأحزاب السياسية يحمل صورة لرجل يبتسم ابتسامة باهتة، وله مظهر ضمني يشبه أحد مرتكبي الجرائم الجنسية الذي شعر بارتياح شديد عندما حكم عليه بعقوبة دون حبس. إلى جانب ذلك، كان هناك رسالة تبدو مثيرة للاهتمام، ولكن أعتقد أنها موجهة



للجيران، بالإضافة إلى كشف حسابي البنكي، وشعرت برغبة في فتحه، ولكنني عدلت عن رأيي في النهاية وألقيت به على طاولة الرواق.

"أترغب في التنزه؟".

أحضر مونتي حبله المخصص للمشى. في بعض الأحيان أشعر بأنني قاسية فيما يخص تقديرى لمهارات مونتي وحيله المحدودة، هل يعتبر إحضار حبله بنفسه شيئاً مميزاً أساساً؟ ربما، لكن في بعض الأحيان، يبدو على مونتي أنه قد نسي ما كان ينوي فعله، ويبدأ التصرف بغرابة معتقداً أن الحبل هو في الحقيقة ثعبان، لذا يستعد ويعود لوضع الهجوم والتأهب، ويمسك الحبل ويهز به بشدة حتى يطمئن ويهدأ.

"إلى أين سنذهب؟".

"لنذهب إلى المقهى، فأنا أشعر برغبة في إنفاق المال على قدح من القهوة ذي سعر لا يتناسب مع جودته بالإضافة إلى بعض الكرواسون الجاف".

"موافق حتى النخاع"

"ماذا قلت؟".

"آآآه، هذا ما تقوله روزي".

"ولكن ما معناه؟".

"لا أعلم، فأنا مجرد كلب ولست فتاة مراهقة، لنتحرك الآن".

"شعرت اليوم أنه سيكون من الجيد إن تحدثنا عن شيء بسيط وسهل نسبياً، فحتى الآن، نحن ناقشنا أشياء مثل الناتج المحلي الإجمالي، وانعدام المساواة، والأسواق، والضرائب، والإنفاق إلى جانب الجشع المقزز لأصحاب البنوك. جميع هذه المفاهيم تشترك - بطريقة أو

بأخرى - في شيء واحد فيما بينها، وهو المال، قد يجادل الكثير من الناس بأن المال ليس أهم شيء في الحياة؛ فهناك الصداقة، والمحبة، والعائلة..."

"والكلاب؟".

"كنت على وشك ذكرها، لكن، قلة قليلة من الناس تعتقد بأن المال ليس شيئاً مهماً، وعلاوة على ذلك، فهو شيء نظن بأننا نفهمه جيداً، أو بالأحرى، هو شيء واسع الانتشار ومتجذر في حياتنا بشكل عميق لدرجة أننا اعتبرناه أمراً مسلماً دون أن نتأمل أو نفكر به مطلقاً، وأنا في هذا السياق أقصد المال بمفهومه الحقيقي وليس النقود التي أستخدمها لشراء القهوة، ولهذا، غايتنا الأساسية اليوم هي فهم المعنى الحقيقي للمال".

"هذا جيد، إذن ما هو المال؟ أريد إجابة سريعة وسهلة من فضلك".

"لا يوجد ما يسمى في الاقتصاد إجابة سريعة وسهلة. إن الطريقة الوحيدة لفهم الطبيعة الحقيقية للمال أن نتأمل في وظيفتها الأساسية؛ إذا قرأت أي كتاب تعليمي يتناول المبادئ الأساسية للاقتصاد، ستجد أنه يخبرك بأن للمال ثلاث وظائف أساسية: أنه وسيلة للتبادل، ووسيلة لتخزين القيمة والثروة، ووحدة حساب. هناك شيء مهم جداً يجب فهمه، وهو أن المال بحد ذاته لا يمثل الثروة الحقيقية، فالثروة الحقيقية هي جميع ما تنتجه الدول: كالأرض الزراعية، والطعام، والمأوى، والملابس. والمال ليس إلا وحدة تمثيلية مشتركة - تم اختيارها باتفاق الجميع - تدل على قيمة هذه الأشياء، إن القصة التقليدية والكلاسيكية لنشأة مفهوم المال يمكن سردها كالاتي: في بداية تاريخ البشر، لم يكن هناك أي وجود للمال، كانت المقايضة هي الطريقة الوحيدة الموجودة؛ مثلاً: أنت تملك كمية من الأسماك، وأنا أملك حفنة من الجزر، ومن ثم نقوم بتبادل ما لدينا من سلع، وكانت هذه وسيلة ناجحة بدرجة ما.

لم توجد أي وسيلة للتجارة طوال فترات كثيرة من تاريخ البشر سوى المقايضة، ولكنها لم تكن بالضرورة وسيلة فعالة؛ هناك مصطلح تقني يقول إننا في حاجة إلى "مصادفة

مزدوجة تجمع بين رغبات الطرفين المتبادلين " أي بعبارة أخرى، ينبغي أن تكون في حاجة للحصول على ما أملكه، وأنا في حاجة للحصول على ما تمتلكه، وإلا فلن تُبرم صفقة المقايضة من الأساس. بصفة عامة، تسبب هذا الوضع في الكثير من الانزعاج والمتاعب، حتى أتت أحدهم فكرة عبقرية: لماذا لا نتفق جميعًا على شيء ما - أي شيء بغض الطرف عن ماهيته أو طبيعته - لنستخدمه كوسيلة مشتركة بيننا للتبادل؟ تم استخدام العديد من الأشياء المختلفة في الماضي على أنها شكل من أشكال المال، مثل فراء القندس، والملح، والأبقار، والسجائر، وأُطلق مصطلح "المال السلعي" على جميع تلك الأشياء.

"ماذا؟".

"المال السلعي هو أي شيء له قيمة واستفادة حقيقية يمكن استخدامه كوسيلة للتبادل؛ استفاد الناس بشكل كبير من الملح وفراء القندس".

"وماذا عن السجائر؟".

"تستخدم السجائر منذ وقت طويل كعملة للتبادل داخل السجون، وذلك لكونها صغيرة الحجم، ويسهل حملها وإخفاؤها إلى جانب أن لها قيمة محددة ومعروفة؛ عندما ترغب في الحصول على أي شيء في السجن، يجب عليك تقديم كمية من السجائر في المقابل،<sup>1</sup> وقد استمر هذا الحال حتى تم حظر تداول السجائر داخل سجون الولايات المتحدة قرابة عام 2004، وعندها باتت علب سمك الأسقمري (الماكريل) العملة الأساسية الجديدة؛ مثلاً، كان سعر حلاقة الشعر يساوي علبتين من السمك الأسقمري، ويندرج السمك الأسقمري تحت تصنيف المال السلعي تمامًا كالسجائر كونه بالنهاية سلعة يمكن استهلاكها، حيث إن الغرض الأصلي منها لا يزال قائمًا ويمكن الاستفادة منه، من حيث المبدأ، يمكنك على سبيل المثال استخدام العظام اللحمية اللذيذة كشكل من أشكال المال السلعي".

"هذا ما كنت أتوق إلى سماعه!".

"تُعد المعادن الثمينة - والذهب بشكل خاص ومميز - أسمى وأعلى أشكال المال السلعي، وهي تدرج تحت هذا التصنيف لأن لديها العديد من الاستخدامات المفيدة مثل تشكيلها لصناعة الأدوات المختلفة والأسلحة، أو استخدامها لأغراض التزيين، أضف إلى ذلك أن هناك العديد من الخصائص التي تتميز بها المعادن، مثل قابلية التشكيل، وسهولة الحمولة، وثبات كميتها المعروضة في الأسواق - بشكل معقول على الأقل - وتعتبر الأخيرة أهم خاصية فيما بينها، وذلك لأن الذهب ببساطة لا يمكن إحضاره وقتما رغبت، فهو يُنقَب عنه ويُستخرج من المناجم أولاً، وهذه عملية تستغرق الكثير من الوقت والمجهود، إن كانت كمية النقود الموجودة ثابتة مثل المعادن، لأمسى من السهل للغاية الاتفاق على تسعير السلع بشكل موحد.

التطور التالي في تاريخ المال هو ابتكار الأوراق النقدية التي تمثل قيمًا محددة من تلك العملات الذهبية".

"يا للعجب! لماذا قد يرغب الناس في امتلاك بعض الأوراق عوضًا عن الذهب؟".

"لأن الذهب وغيره من المعادن ذات أوزان ثقيلة، فمثلاً إن كنت تاجرًا وتسافر بنمط متكرر، ستجد أنه من المزعج والمتعب حمل حقيبة ضخمة مملوءة بالكثير من العملات المعدنية الثقيلة، تُعد الصين أول دولة ابتدعت فكرة الأوراق النقدية، وذلك خلال القرن الحادي عشر، هناك فصل في التقرير الذي قدمه ماركو بولو عن رحلاته الاستكشافية في الصين خلال القرن الثالث والعشرين يحمل عنوانًا وصفيًا هو: *How the Great Khan Causes the Bark of Trees, Made into Something Like Paper, to Pass for Money All Over His Country*؛ أي (كيف تمكن الخان العظيم من تحويل ألحية الأشجار إلى شيء يشبه الورق بات عملة منتشرة تداولها في جميع أنحاء بلاده؟)، أحيطت الصين بالعديد من الدول المعادية لها في هذا الوقت، وانتشرت المخاوف بين حكام تلك الدول من فقدان معادن ثمينة كالذهب والفضة، لذلك أصدرت تعليمات لشعوبهم باستخدام عملات ذات قيمة منخفضة مصنوعة من معادن أرخص كالحديد، وكان استخدام العملات الحديدية غير

عملي على الإطلاق كونك ستحتاج إلى كميات كبيرة منها عند شراء أي شيء، أكبر مما ستحتاج إليه إن دفعت باستخدام الذهب؛ مثلاً: إن أردت شراء حصان، فستحتاج إلى عربة جر ممتلئة بالعملات الحديدية".

"أتعلمين أن الصينيين هم من اخترعوا هذا النوع من العربات التي تجر باليدين؟".

"ماذا تقول؟ هل هذا حقيقي فعلاً؟ كيف أصلاً... لا عليك، لا تهتم. ابتكر التجار في إقليم سيشوان في الصين فكرة استخدام سندات الديون؛ عوضاً عن ملء عربة جر بالعملات الحديدية لكي تدفع مستحقات تاجر الحصان، فأنت تكتب له في ورقة وعداً منك بأن تدفع له كمية معينة من العملات في وقت لاحق مناسب لك".

"وهل صدق التجار الصينيون هذا؟ يا لهم من أشخاص مفعمين بالثقة!".

"ملاحظة ثابتة يا مونتي؛ صحيح، هناك اعتماد كبير على الثقة والجدية في إبرام اتفاقيات كهذه، كما أن معرفة بعض المعلومات عن الشخص الذي يصدر السند لها دور مهم في نجاح فكرة السندات، مثل محل إقامته، ومقدار ثروته، ومدى نزاهته، بعد ذلك، اتجه التجار لتداول سندات الدين كوسيلة للتجارة بين بعضهم البعض عوضاً عن حصر استخدامها مع الصادر الأصلي لها فقط؛ يمكن لتاجر الأحصنة أن يستخدم سند الدين الخاص به لشراء عربة جديدة، ويمكن لبائع العربة استخدام هذا السند لشراء وشاح حريري، طالما أن الجميع لديهم ثقة قوية في كل من يكتب تلك السندات، فيمكن استخدام تلك القطع الورقية كعملة خاصة للتبادل التجاري.

علاوة على هذا، هناك ميزة يستفيد بها الشخص الذي كتب السند في المقام الأول: إذا استمرت سنداتك في التداول بين التجار، ولم يأت أي شخص فعلياً للحصول على نقوده من صاحب السند، فإنه بذلك يستمتع بقرض خالٍ تماماً من الفوائد.

استجابت الحكومة الصينية لهذه الظاهرة التي تجلت بوضوح من حولها، وقررت حظر استخدام تلك العملة الخاصة بموجب القانون، ولكنها أصدرت بعد ذلك نسختها الخاصة منها وأطلقت عليها "الجياوزي"، ولاقت هذه العملة نجاحًا ضخمًا في بدايات ظهورها، وهي بدورها تقدم لنا شرحًا مفصلاً عن الجزء التالي من قصتنا الذي يتناول ابتكار مفهوم النقد الإلزامي".

"وما النقد الإلزامي؟".

"النقود الإلزامية هي شكل من أشكال المال غير المدعوم بأي نوع من أنواع السلع، كالذهب على سبيل المثال، فعندما بدأ التجار الصينيون في إصدار سندات الدين، كان يمكن تبادلها بكميات محددة من العملات الذهبية، وعندما تولت الحكومة الصينية زمام هذه المهمة من التجار وأصدرت الجياوزي، استطاع التجار استبدال تلك العملة بالذهب أيضًا، ولكنهم توقفوا عن فعل هذا بعد مرور فترة زمنية قصيرة، ومنذ ذاك الحين، لم توجد أي سلع تدعم قيمة تلك العملات النقدية، وتم تحديد قيمتها بناءً على القيم الحقيقية التي أعلنت عنها الحكومة بشكل رسمي. اشتق هذا المصطلح من كلمة "Fiat" اللاتينية والتي تعني: "يجب أن يتم". هناك بعض المخاطر المحتملة تحقق بحكام البلدان الذين يطبعون الكثير من الأوراق النقدية دون امتلاك احتياطي كافٍ من الذهب أو الفضة لدعم قيمة العملة، يمكن أن تشعر الحكومة بالإغواء لطباعة كمية إضافية - ولو قليلة - اعتقادًا منها أنها لن تؤثر عليها بالسلب، وفي النهاية، النتيجة المترتبة على هذا هي النتيجة الطبيعية والمتوقعة عند طباعة كميات كبيرة من الأوراق النقدية: التضخم، واضطرت الحكومة بنهاية المطاف إلى التخلي عن عملة الجياوزي".

"هذا هو وضع الأوراق النقدية في عصرنا الحالي؛ لا توجد أي عملة قيمتها مدعومة بالذهب في الوقت الحالي، وتبين أن لهذا بعض المميزات والعيوب، ولكننا سنتناول العيوب فيما بعد عندما نصل إلى الجزئية الخاصة بقاعدة الذهب. حتى الآن، كنت أشير إلى الذهب بشكل رئيسي خلال معظم الحديث.

استخدمت العملات الذهبية في أوروبا والشرق الأوسط كنوع من العملات، ولكن اقتصر استخدامها فقط على التعامل مع التجار الأجانب، بالإضافة إلى شراء السلع ذات القيمة العالية، لكن، اعتمدت معظم الاقتصادات منذ عصر الإمبراطورية الرومانية حتى القرن الثامن عشر معدن الفضة كعملة نقدية؛ واستُخدمت العملات الفضية على نطاق واسع من العالم في التعاملات التجارية اليومية كشراء الأطعمة، والملابس، والشموع، والمشروبات، وكانت تحتوي على وزن معين ومعلوم من المعدن، لكن، بدأت الفضة تفقد رونقها الخاص خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، إذ إن العملات الفضية قد خضعت في ذلك الوقت إلى تخفيض في قيمتها وفي جودة المعدن المستخدم في صنعها".

"تخفيض؟ وكيف ذلك؟".

"كان الناس يقومون بتقليم العملات وتعريضها للاحتكاك الشديد حتى يستخرجوا جزءًا ولو ضئيلاً من المعدن الثمين المصنوعة منه. لذا، أتى الذهب ليحل محل الفضة على أنه عملة جديدة بالثقة فضلاً عن وجود نقص حاد في الفضة خلال تلك الفترة بسبب الحروب اللانهائية التي حدثت في الفترة ما بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، إلى جانب ذلك، فإن تدفق العملات الفضية من أوروبا إلى الصين من أجل شراء المنتجات الصينية يعتبر أحد العوامل التي ساهمت بشكل كبير في استنزاف ونقص معدن الفضة؛ لم يكن التبادل التجاري خياراً متاحاً في ذلك الوقت، لأن الدول الغربية لم تمتلك شيئاً قد يرغب فيه الصينيون، في حين أننا في العالم الغربي كنا بحاجة إلى ما يملكونه من حرير وبورسلان. اتخذت بريطانيا قراراً رسمياً في عام 1821 باعتماد الذهب كأساس للعملة ودعم الأوراق النقدية بالدولة، ونظراً لكون بريطانيا قوة اقتصادية وتجارية عظمى في تلك الفترة، تأثرت العديد من الدول بقرارها وبدأت بالانضمام إلى قاعدة الذهب".

"بناءً على ما أخبرتني به حتى الآن، فالانتقال إلى قاعدة الذهب يبدو خطوة منطقية للغاية؛ لماذا قد نثق في عملات غير مدعومة بشيء ذي قيمة حقيقية كالذهب؟".

"نعم، أنت محق، باتت قاعدة الذهب بلا شك تقليدًا متعارفًا عليه بين الدول، ومن دون الثقة والدعم اللذين توفرهما، لما استطعنا إقناع الناس باستخدام وتداول الأوراق النقدية؛ شعر الجميع بالاطمئنان كونهم واثقين بقدرتهم على الذهاب إلى البنوك - كبنك إنجلترا على سبيل المثال - وتبديل أوراقهم النقدية بكمية معينة ومتفق عليها من الذهب، ومن هنا، جاءت فكرة العبارة المطبوعة على الأوراق النقدية التي تقول: "نعد بأن ندفع لحامل الورقة النقدية عند الطلب"، لكن، يوافق بنك إنجلترا في الوقت الحالي فقط على تبديل الأوراق النقدية بفئات أخرى من الأوراق أو العملات المعدنية، لذا إن ذهبت إلى البنك لطلب كمية من الذهب مقابل النقود، لن يستطيع البنك تحقيق أمنيته، إن الميزة الرئيسية التي نستفيد منها عند تطبيق قاعدة الذهب هي الحفاظ على قيمة الأموال، فكل قطعة نقدية موجودة في الدولة مدعومة بكمية معينة من الذهب؛ من دون وجود هذا الضمان القوي والملموس، فقد تشعر الحكومة برغبة مغرية - بشكل لا تكاد تقاومه - لطباعة ما تشاء من الأموال، وهذا سيؤدي بنا إلى التضخم الذي رأينا في نزهتنا السابقة كم الأضرار والآثار المدمرة القادر على إحداثها".

"صحيح، هكذا أخبرتني بالفعل، لكن، هناك سؤال أود طرحه: إن كان التضخم شيئًا سيئًا وشريرًا لهذه الدرجة، فلماذا لم تلتزم الدول بتطبيق قاعدة الذهب؟".

"لأن الكساد العظيم أحدث بعض التبعات السلبية التي أضعفت فاعلية النظام النقدي المعتمد على الذهب، لقد تناولنا عنه نبذة بالفعل في بعض النزهات السابقة؛ أضحى الكساد العظيم موضوعًا محوريًا للعديد من النظريات الاقتصادية التي تنافست باحتدام على تفسيره، لكن، الغالبية العظمى من خبراء الاقتصاد يعتقدون أن النظام النقدي المعتمد على الذهب ساهم بشكل كبير في تحويل انهيار سوق الأسهم الذي حدث في عام 1929 إلى أكبر أزمة مالية في تاريخ البشرية.

بدا لنا أن العالم قد سقط من على حافة الانهيار في عام 1931؛ واقترض العديد من الناس المال من أجل الاستثمار في الأسهم، وعندما انهارت أسعار الأسهم لم يكن أمامهم أي



طريقة يستطيعون

من خلالها سداد القروض، وانتشر الذعر بين الناس ودفعهم إلى سحب جميع ودائعهم من البنوك بسبب خوفهم - الذي كان في محله - من أن البنوك لا تملك ما يكفي من الاحتياطيات النقدية، وما سرّع من انتشار الهلع البنكي المتعلق بهروب الودائع بين الناس - خلال الفترة التي تمتد بين ذروة الكساد الاقتصادي وأخف مستوياته - هو انخفاض الناتج المحلي الإجمالي في الولايات المتحدة بنسبة ثلاثين في المائة فضلاً عن ارتفاع معدلات البطالة بطرق لم نرَ لها مثيلاً بعد ذلك بفترة وجيزة".2

عمّت الفوضى وانتشرت إلى العديد من الدول خارج الولايات المتحدة؛ وامتلكت المملكة المتحدة في ذاك الوقت أهم بنك مركزي على مستوى العالم، ولكنه كان على وشك أن ينفذ من احتياطي الذهب الموجود به. عند اعتماد نظام نقدي مرتبط بالذهب، فإن الطريقة للحد من تبديل الناس أوراقهم النقدية بالذهب هو رفع سعر الفائدة".

"وما العلاقة بين الأمرين؟".

"إن ذهب جميع الناس إلى البنوك وقاموا بسحب ودائعهم واستبدالها ببضع سبائك من الذهب للاحتفاظ بها في بيوتهم، فهذا لن يدر أي عوائد أو فوائد عليهم، لكن ارتفاع سعر الفائدة بما يكفي لإغواء الناس، سيحفزهم للاحتفاظ بمدخراتهم في البنك عوضاً عن سحبها".

"فهمت".

"لذلك، قامت البنوك المركزية برفع سعر الفائدة مع أنها في حاجة يائسة للحفاظ على احتياطيات الذهب بأكبر قدر ممكن".

"هل هذا شيء... جيد؟".

"قطعًا لا! هذا تضاد تام لما يتوجب فعله خلال الأزمات؛ إذ يجب خفض سعر الفائدة عندما نواجه بعض الأوقات العصيبة، وذلك حتى نيسر على الشركات وأصحاب الأعمال اقتراض الأموال للمحافظة على سير العمل والوظائف".

"آه..."

"إن الأنظمة النقدية المدعومة بالذهب - ومن الواضح أمامنا أننا رأينا الدول تتعافى بالفعل من آثار هذا الركود الكبير بحلول التوقيت الذي تخلت فيه عن هذه الأنظمة - أدت بنا إلى هذا..."

"دعيني أخمن... التضخم؟".

"أنت كلب ذكي! عندما تختفي الضوابط القسرية التي يفرضها النظام النقدي المعتمد على الذهب، نجد الحكومة تميل إلى طباعة كميات كبيرة من المال، وعند زيادة كمية الأموال المطبوعة دون وجود كمية تكافئها من السلع والخدمات المُنتَجة، فإن التضخم هو النتيجة الحتمية التي تنتظرنا، حيث شهدت المملكة المتحدة بالإضافة إلى أنحاء أخرى حول العالم على مدار العقود الثلاثة الماضية انخفاضًا في معدلات التضخم بنسب غير مسبقة في التاريخ؛ وارتفعت الأسعار بنسبة واحد أو اثنين أو ثلاثة في المائة بحد أقصى سنويًا، لكن، كما تبين لنا في الوقت الحالي استنادًا إلى الأحداث الجارية، فقد انخفض التضخم إلى هذا الحد الذي لم يكن وضعًا طبيعيًا أو شائعًا طوال الوقت؛ كان التضخم جزءًا لا يتجزأ من الحياة اليومية خلال العقود التي أعقبت الحرب العالمية الثانية حتى سبعينيات القرن نفسه، يجدر بنا أن نذكر أن معدلات التضخم حين ذاك لم تكن بالجنون والفظاعة نفسيهما اللذين كانا في المجر أو فايمار بألمانيا، ولكنها كانت تعمل على مدار السنوات على تقليل القوة الشرائية بشكل تدريجي لكل جنيه تملكه في جيبك، ويمكنك أن تعتبر التضخم كأنه لص ماهر، أو نشال، أو محتال خفي".

"يبدو أن التضخم شيء فظيع فعلاً، ولكن نظرًا لأنني أحفظ طباعك عن ظهر قلب، يخالجنني شعور قوي بأن هناك جانبًا آخر من تلك القصة".

"حسنًا، أنت محق، يمكنك القول إن هناك فئة من الفائزين وأخرى من الخاسرين جراء حدوث هذا التضخم".

"كنت أعرف!".

"يسمى هذا التأثيرات التوزيعية في اللغة الاصطلاحية، تخيل أنني أريد اقتراض ألف جنيه إسترليني منك، وقد أخبرتك بأنني على استعداد لسداد القرض خلال السنة المقبلة مع فائدة بنسبة عشرة في المائة، هذا يعني أنك ستحصل على 1100 جنيه في السنة المقبلة، فهل ستقبل بهذا العرض؟".

"أولاً، أنا مجرد كلب، وهذا يعني أنني لن أغير اهتمامًا للأمر طالما أننا نتحدث بلغة المال وليس بلغة الطعام، وثانيًا: أنا واثق بأن هناك حيلة كامنة وراء هذا".

"دعك من هذا وسأيرني فيما أقول، إن وافقت على هذا العرض، مع اعتبار أن نسبة التضخم في ذاك الوقت تساوي 2%، فهذا يعني أن الفائدة الصافية التي ستحصل عليها تساوي 8%، وهذه بالتأكيد صفقة رابحة، لكن، إن كانت هناك حكومة مستهترة سمحت بارتفاع معدلات التضخم حتى انفجرت في وجوهنا، لنقل إنها بلغت مائة في المائة، فالمبلغ الذي وعدت بسداده لك خلال السنة المقبلة ستقل قيمته بشكل أكبر مما تتصور، إذ قد تهبط قيمته إلى النصف. بصراحة تامة، إن النوبات المتقلبة من التضخم يمكن أن تُفيد المقترضين وتضر بالمقرضين".

"أي أن هناك فائزين وخاسرين!".

"بالضبط، ولكن المشكلة الكبرى هي أن التضخم يقوم بإعادة توزيع الثروة والدخل بنمط عشوائي للغاية؛ ويمكن أن يؤدي إلى محو تام لقيمة مدخرات مواطن بسيط، مثل أرملة

قضت حياتها بأكملها في الادخار والإنفاق بزهة حتى تنقذ نفسها من فتك الفقر أثناء فترة تقاعدها، يعد الأفراد ذوو الدخل المتوسط أكثر عرضة من غيرهم لأخطار التضخم كونهم يحتفظون بأموالهم في صورة نقدية سائلة، على النقيض، يحتفظ الأغنياء بمعظم مدخراتهم على هيئة استثمارات في أصول متنوعة مثل الممتلكات أو الأسهم، وكلاهما يتميزان بمقدرتهما على الاحتفاظ بقيمتها بصورة أفضل من النقود، لهذا، قد يكون التضخم في نظر هذه الفئة مكسبًا كبيرًا، خاصةً إذا اتخذوا قرارًا في ذلك الوقت تحديدًا باقتراض رهن عقاري كبير لشراء منزل.

هناك مشكلة معقدة إلى جانب هذا: عندما يتوقع الجميع حدوث تضخم، يمكن أن يدخل الاقتصاد في حلقة مفرغة يصعب الخروج منها فيما بعد؛ تجنبت الولايات المتحدة الدخول فيها بشكل أساسي عن طريق تحفيز الركود الاقتصادي وتقليص الطلب على السلع والخدمات حتى تتمكن من كسر حلقة التضخم، وقد نجحت تلك الخطة بالفعل، ولكن كان لها تداعيات قاسية ومؤلمة للغاية. وراء تلك المحاولات للسيطرة على الأسعار، يحوم شبح التضخم المفرط بشكله المرعب".

"أخبريني بالمزيد عن التضخم المفرط، فأنا أحب قصص الرعب المثيرة".

"لقد تحدثنا بإيجاز في النزهة السابقة عما حدث في ألمانيا خلال الفترة الممتدة بين عامي 1922 و1923: اقترضت ألمانيا مبالغ ضخمة حتى تستطيع تحمل تكاليف الحرب التي كانت في خضمها، واعتقدت أنها ستتمكن من سداد القروض بسهولة بمجرد فوزها بالحرب واستيلائها على ثروات أعدائها المهزومين، ولكن ما حدث هو أنها خسرت الحرب، وفرضت عليها الدول الحلفاء تعويضات مالية كبيرة للخسائر التي أصابتها، لجأت ألمانيا - التي فتكت بها وطأة الحرب - إلى طباعة النقود بكميات ضخمة حتى تتمكن من سداد تلك الديون، وتسبب التدفق المفاجئ لتلك الكمية الضخمة من الأوراق النقدية إلى الاقتصاد في فقدان السيطرة على الأسعار؛ بات سعر رغيف الخبز - الذي كان 250 ماركا في شهر يناير - 200 مليون مارك بحلول شهر نوفمبر، يذكر أن الأشخاص الكبار في السن كانوا من

بين الأكثر تضرراً؛ هناك امرأة باعت منزلها حتى تتمكن من العيش بالمبلغ التي ستحصل عليه من البيع، ولكنها اكتشفت في القريب العاجل أن هذا المبلغ لا يكفي حتى لشراء رغيف من الخبز، على الجانب الآخر، هناك بعض من تمكنوا من تنمية ثرواتهم؛ كل من حالفه الحظ وقام بأخذ قرض في ذلك الوقت للاستثمار في الأصول الثابتة، تمكنوا من سداد القرض كاملاً باستخدام النقد الذي لم يعد يحمل أي قيمة حقيقية".

"عسى أن تكون الحكومات تعلمت شيئاً من هذا الدرس".

"ليس بالطريقة التي تتصورها، لدينا مثال آخر في دولة فنزويلا وهو حدث منذ مدة قريبة: حيث تعين على أي فرد حمل حقيبة من المال تزن 14.6 كيلوجرام من أجل شراء دجاجة واحدة، وبلغ سعر اللفة الواحدة من ورق المرحاض 2.6 مليون بوليفار؛ وهو ما يساوي وزن 2.6 كيلوجرام".

"صحيح أن هذا المجال ليس من اختصاصي، ولكن لماذا لم يستخدموا الأوراق النقدية حينذاك؟".

"ربما استخدموها بالفعل، بشكل مثير للاهتمام، أشار فرويد إلى وجود روابط عميقة بين المال والغائط، وهي ليست محصورة فقط على الناحية الفردية، ولكن تتسع لتشمل المعتقدات والاحتياجات والثقافة التي تسود المجتمع؛ أطلق على الذهب لقب "غائط الشيطان"،

عندما نأخذك إلى حديقة الروث لكي تتغوط، ألا نقول لك "اذهب اقض حاجتك؟".

"على كل حال، لماذا تستمر الحكومات في ارتكاب الخطأ نفسه؟".

"عندما ترغب الدولة في إنفاق الأموال، فهي تفعل ذلك من أجل أسباب وجيهة جداً مثل انتشارها من أزمة كبرى كالكساد العظيم، ولهذا، يتعين على الدول إيجاد مصادر للحصول على التمويل منها. في حالة عدم توافر مصدر سهل وغير مكلف للحصول على المال،

كشجرة نقود سحرية أو ما شابه، تُترك الدولة أمام خيار واحد من ثلاثة: الاقتراض، أو فرض الضرائب على الشعب، أو طباعة الأموال. طباعة الأموال تبدو الحل الأسهل للحكومات، ولهذا، أنشأت الدول البنوك المركزية بسلطة مستقلة عن الحكومات حتى تستطيع مقاومة الضغوط التي تواجهها كي تقوم بطباعة المزيد من الأموال، على سبيل المثال: استقل بنك إنجلترا عن حكومة المملكة المتحدة في عام 1997، ومن الأهداف الرئيسية التي يسعى البنك جاهداً لتحقيقها، الحفاظ على معدل تضخم لا يتجاوز اثنين في المائة لكل سنة، وإذا أخفق البنك في مهمته وارتفع أو انخفض معدل التضخم عن اثنين في المائة، فيجب على مسؤولي البنك أن يكتبوا رسالة إلى وزير المالية لشرح الأسباب وراء ذلك وتوضيح الإجراءات التي سيتبعونها لتصويب الوضع".

"ثمة خاترة أريد طرحها: إن كان التضخم شيئاً سيئاً إلى هذا الحد، لماذا لا نهدف إلى جعل نسبته صفراً في المائة؟".

"يا له من سؤال ممتاز يا مونتي، ولقد خطر ببالي وجعلني في حيرة من أمري أيضاً، إن اثنين في المائة من التضخم تبدو نسبة صغيرة للغاية إلى حد يجعلنا نكاد ألا نلاحظ تغير الأسعار بمرور سنة تلو الأخرى، ولكن مع ذلك، فهي نسبة تنم عن أن الأسعار سترتفع لتزداد قرابة الضعف كل خمسة وثلاثين عاماً، لتجسيد ذلك بشكل أكثر واقعية، إذا تقاعدت عن العمل في عامك الستين وكان لديك بعض المدخرات في صورة نقدية، فستقل قيمة مدخراتك بمقدار النصف بحلول بلوغك عامك الخامس والتسعين.

على كل حال، لنعد الآن إلى الأسباب التي تدفع الحكومة للسعي وراء الحفاظ على نسبة اثنين في المائة من التضخم، وأحدها تجنب حدوث الانكماش المالي - وهو انخفاض أسعار السلع عن المعدل المتوسط - والسبب الآخر هو اقتناص الامتيازات التي تأتي عند تحقيق نسبة منخفضة من التضخم، وإن كان بعضها خبيثاً وملتويًا، دعنا نبدأ الآن بمشكلة الانكماش".

"مشكلة؟ كيف هذا، فالانكماش يبدو أمرًا رائعًا، لماذا قد يشكل انخفاض الأسعار مشكلة؟ أنا لا أفهم حقًا هذه الأمور المتعلقة بالاقتصاد".

"لقد ظننت الشيء ذاته عندما علمت بأمر الانكماش لأول مرة، لكن، دعني أشرح لك، لقد تناولنا بالفعل موضوع التضخم، ولكن الانكماش ينجم عنه مجموعة من المشكلات الاقتصادية والنفسية التي تختلف بطبيعتها عن التضخم".

"مشكلات نفسية؟! لقد ظننت أننا نتناول موضوعات اقتصادية".

"من الصعب حقًا فصل الجانب النفسي عن الجانب المتعلق بالاقتصاد والأموال، حتى إن تجنبنا الخوض في نظرية فرويد. إن أحدث مثال على التضخم يتمثل فيما حدث مع اليابان، حيث بدأ الأمر كله مع حدوث أزمة مصرفية، وفقد الناس وظائفهم وتوقفوا عن شراء السلع، يتنامى الانكماش تدريجيًا وتنخفض الأسعار ببطء، واستمر الوضع على هذه الحال سنة تلو الأخرى، حتى بدأ الناس يلاحظون ما يجري، وهذا هو الجزء المتعلق بالجانب النفسي. بدأ المستهلكون يشعرون بأن الأسعار ستهبط بحدة، وبالتالي يعزفون عن شراء السلع؛ لماذا قد تتوجه لشراء منزل وأنت تعلم أن سعره سينخفض في العام المقبل؟ ولم يقتصر الأمر على المستهلكين وحسب، بل شعرت الشركات وأصحاب الأعمال التجارية بما يجري؛ لماذا قد تقترض الشركات أموالاً للاستثمار وهي على علم تام بأن المال الذي يجب عليها سداؤه سترتفع قيمته الفعلية مقارنة بقيمة الأموال التي اقترضتها في الوقت الحالي؟ غياب النشاط الاستثماري في هذا الوقت إلى جانب انخفاض الأسعار قد يؤدي إلى انخفاض أجور العاملين، وهذه تطورات غير مواتية وسيئة بدرجة أكبر حتى بالقياس إلى حال الأفراد الذي اشتروا منزلًا في خضم تلك الظروف، أضف إلى هذا أنه من الصعب للغاية محاولة تغيير توقعات الناس الدائمة بانخفاض الأسعار في الفترة المقبلة مثلما هو من الصعب كسر عجلة التضخم.

لهذا، فإن الهدف الذي ترغب الحكومة في تحقيقه بشدة هو استقرار الأسعار وزيادة دخل الأفراد، وبهذا، تتمكن من إرضاء الناس جميعًا وضمهم إلى صفوف الناخبين لأحزابها أيا

كانت".

"لقد قلت منذ قليل إن هناك سببًا ملتويًا يجعل الحكومات تسعى إلى تحقيق نسبة تضخم تساوي اثنين في المائة وليس صفرًا".

"السبب الذي يعد ماكراً بعض الشيء، هو أن السماح بوجود نسبة ضئيلة من التضخم يعتبر في جوهره شكلاً من أشكال الضرائب؛ إن التضخم لا يقتصر تأثيره فقط على تخفيض قيمة الأموال، بل يمتد ليشمل جوانب أخرى وإن كانت غير مباشرة، حيث يمكن أن تستخدم الحكومات التضخم في صالحها لزيادة عوائدها الضريبية بطريقة ماهرة، كون هناك العديد من الكيانات التي تدرج تحت تصنيف الضرائب التصاعدية، على سبيل المثال، فيما يخص ضريبة الدخل: كلما زادت نسبة دخل الأفراد، زادت معها نسبة الضرائب التي يتعين عليهم دفعها، وإذا أبقت الحكومة على المستويات الضريبية ذاتها من دون أي تغيير، فإن الأفراد الذين يزداد دخلهم كل سنة بما يتناسب مع معدل التضخم، سيسقطون تحت شرائح ضريبية عالية، لكن، ينبغي أن تضع في اعتبارك أن الزيادة التي حصلت عليها حتى يتمشى دخلك مع معدل التضخم الحالي لا تعني أبداً أنك تحصل على راتب ذي قيمة فعلية أكبر مما سبق، ولكنها طريقة ملتوية لجعلك تدفع ضرائب أكبر ليس إلا، وكما قال كينز: "إن الحكومة تحافظ على التضخم من أجل أن تتوافر لديها وسيلة - سرية أو خفية - لتحصيل جزء كبير من ثروة مواطنيها"، أو كما قال ميلتون فريدمان أيضاً: "التضخم ما هو إلا ضريبة تحصل عليها الحكومة من دون حق تشريعي".

"أنت محقة، هذا أسلوب مكر للغاية".

"لا تحب الحكومة التصريح بهذا الشأن للعامة، ولذلك، فإن التفسير المعتاد الذي يقدمه البنك المركزي هو أن هناك نوعاً من الصلابة يؤثر على الاقتصاد، ولهذا يجب الإبقاء على نسبة صغيرة من التضخم حتى تحفز من استجابة الاقتصاد للتغيرات".

"تمهلي، فأنا ما زلت مرتبكاً، ماذا تقصدين بالصلابة؟".



"إنه مصطلح آخر لظاهرة خبيثة أخرى تتسلل ببطء نحو اقتصادنا، ترى الحكومة أن التضخم طريقة تسمح للشركات بخفض الأجور بسهولة عند الضرورة؛ إن ازداد راتبك بمعدل 2% في وقت يبلغ معدل التضخم الحالي فيه 4%، فهذا يعني أنك في الواقع أصبحت تملك دخلاً أقل بنسبة 2% كون القيمة الفعلية لراتبك انخفضت بالنسبة نفسها، لعلك قد لا يسر قلبك لوضع كهذا، ولكنك ستتغاضى عنه على كل حال وتقبله، لكن مع ذلك، إذا أعلن رئيسك في العمل عن خفض الرواتب بنسبة 2% في حالة غياب التضخم، فإنك قد تفكر في الإضراب عن العمل والانخراط في الاحتجاجات والتظاهرات، هذا ما قصدته عندما تحدثت عن أهمية الجانب النفسي لميدان الاقتصاد، سنتحدث بشكل مركز أكثر على البطالة في وقت لاحق، ولكن المغزى الأساسي هنا هو أن إفساح المجال أمام الشركات للتكيف وإجراء ما تراه مناسباً من تعديلات سيساهم بشكل كبير في تقليل نسبة البطالة، إذ قد تضطر الشركات حينئذ إلى تسريح موظفيها إن توافر لديها البديل.

وأخيراً، يجدر بنا ذكر أن التضخم شيء جيد تستفيد منه الحكومة كما هو جيد بالنسبة لأصحاب الديون؛ وجدت المملكة المتحدة نفسها مثقلة بدين عام بلغت نسبته 200% من نسبة الناتج المحلي الإجمالي في خمسينيات القرن الماضي، وذلك ما تكبدته الدولة في الحروب العالمية. أشار توماس بيكيتي إلى أن الفضل يرجع إلى موجات التضخم التي حدثت في عقد الخمسينيات - حيث تجاوز معدل التضخم 4% سنوياً - وعقد السبعينيات - الذي بلغ فيه معدل التضخم قرابة 15% - حيث تراجع بسببها معدل الدين العام للمملكة المتحدة حتى بلغ أقل من 40% فقط من نسبة الناتج المحلي الإجمالي بحلول عقد الثمانينيات. أخذ الدين الوطني للمملكة المتحدة في الارتفاع مجدداً، حيث بلغت نسبته في يومنا هذا - في شهر أغسطس عام 2021 - 106% من الناتج المحلي الإجمالي، لهذا، لن أتفاجأ على الإطلاق إن سمحت الحكومة بارتفاع معدل التضخم من جديد حتى يزيح من على كاهلها بعضاً من كومة الديون تلك."

كنا نجلس في ركننا المعتاد بالمقهى حتى احتسيت كوباً كاملاً من القهوة، وأكلت قطعة الكرواسو حتى تقلصت إلى حفنة ضئيلة من الفتات التي أعطيتها إلى مونتي حتى

يتخلص منها.

"بما أننا نتحدث عن المال، أعتقد أنه يجدر بنا الحديث عن العملات الرقمية قبل أن نعود إلى المنزل، خاصة العملة التي تُعرف بالبيتكوين".

"أليست تلك العملة هي التي يحب تجار المخدرات التعامل بها؟".

"أجل، بالضبط. سنصب كامل تركيزنا عليها كونها أكثر عملة رقمية رائدة ومنتشرة، ولكن هناك الكثير من العملات الأخرى التي تحاول تقليدها، إن تاريخ تطور عملة البيتكوين مغمور بالغموض، لكن ما نعرفه أن ساتوشي ناكاموتو - وهو اسم مستعار لشخص أو مجموعة من الأشخاص - قام بإنشاء أول خمسين عملة في عام 2008، وكان الغرض الأساسي من تطويرها في المقام الأول هو وجود عملة رقمية لا مركزية - بمعنى أنه لا وجود مادي لها سواء على هيئة أوراق أو عملات معدنية - لا تخضع لتدخل أو سيطرة الحكومات والبنوك المركزية، ومنذ ذاك الحين، تأرجحت قيمة البيتكوين بشكل جامح؛ لم يكد أن يكون لها أي قيمة فعلية قبل عام 2010، ولكن بحلول نوفمبر 2021، بلغت قيمة العملة الواحدة ما يعادل خمسين ألف جنيه إسترليني".

"أقولين لي حقًا إن عملة واحدة فقط من البيتكوين تساوي قيمتها خمسين ألف جنيه؟".

"صحيح، نحن نعيش في عالم مجنون بحق، ففي وقتنا الحالي، تساوي قيمة العملة الواحدة من البيتكوين 32,587 جنيه إسترليني، وهذا في نظري يتجاوز القيمة التي يستحقها هذا النوع من العملات بمقدار 32,587 جنيه، وإن لم يكن الأمر واضحًا بما يكفي، فأنا بلا أدنى شك منضمة لفئة الأشخاص الذين لا يزالون عاجزين عن فهم الضجة المثارّة حول البيتكوين".

"لقد أثرت انتباهي بكلامك هذا، فلتشرحي لي ما القصة".

"إن العملات التقليدية تصدر في الوضع الطبيعي من قبل البنوك المركزية التي تمتلك حقًا احتكاريًا لطباعة الأموال، إلى جانب أنها تقوم بتنظيم ومراقبة النظام المالي بشكل عام، لكن، عند النظر إلى عملات البيتكوين، سنجد أنها لا تخضع إلى أي سلطة مركزية، وخصوصًا عن ذلك، تقوم البيتكوين بشكل كامل على تفاعلات المستخدمين الفرديين مع بعضهم البعض من خلال الحاسوب وباستخدام قاعدة بيانات تعرف بسلسلة الوحدات المجمعة، ويتم تعدين عملات البيتكوين باستخدام الحاسوب من خلال تلك الشبكة، حيث تعمل الحواسيب على حل مشكلات ومعضلات معقدة جدًا تستغرق الكثير من الوقت والطاقة، إن نمط تلك المشكلات تم ضبطه بطريقة معينة ليصبح أصعب وأصعب مع مرور الوقت حتى يضع حدًا لعدد عملات البيتكوين المحتمل تعدينها، وبهذا يصبح من المستحيل على أي حكومة طامعة الحصول على عدد كبير من تلك العملات وخفض قيمتها. ولكن يجب دائمًا أن نتذكر بأن ندرة الشيء لا تعني بشكل تلقائي أنه ذو قيمة كبيرة؛ يزعم الفيلسوف أنه الشخص الوحيد في العالم الذي يستطيع التصفير والتجشؤ في الوقت نفسه، ولكن عند النظر إلى القيمة المالية لهذا العرض الفني سنجد أنها تساوي أدنى حد ممكن.

عذرًا لهذا، لنعد إلى حيثما توقفنا، نستخدم أيضًا شبكة البيتكوين من أجل مراقبة عمليات تعدين العملات الجديدة والاحتفاظ بسجل دقيق لجميع التعاملات التي تمت من خلال الشبكة، يتسابق جميع منقبو البيتكوين على التحقق من مدى صحة وصلاحيات الصفقات التي تتم على الشبكة، إذ إنهم يحصلون على بعض عملات جديدة من البيتكوين كمكافأة على جهودهم، كل من هو جزء من تلك الشبكة يمتلك الصلاحية لمعرفة جميع التعاملات التي تجري من خلالها، كما أنه يمكنه المساعدة في عملية تنظيمها بشكل عام، وهذا يعني أنهم بغير حاجة إلى إزعاج السلطات الخارجية - مثل الحكومات أو البنوك المركزية - حتى تساعد على فرض القوانين".

"حسنًا، لقد أمسى لدي فكرة تقريبية عن ماهية البيتكوين، ولكني ما زلت لا أفهم لماذا قد يفضل البعض استخدامها على الدولارات أو الذهب أو الأسهم؟".

"ينجذب الناس نحو استخدام البيتكوين لثلاثة أسباب رئيسية، السبب الأول: يفضل الأشخاص الغامضون ذوو النزعة الأناركية المعادية للحكومة استخدامها نظرًا لأن هذا النوع من التعاملات المالية لا يخضع لمراقبة وتنظيم البنوك المركزية الشريرة أو المؤسسات المالية الاحتكارية التي قد ترغب في اقتناص قسم من تلك الغنائم، السبب الثاني هو أن هذا النوع من العملات يتميز بأن كميته محددة بطبيعتها، أي أن الكمية المتوافرة من البيتكوين دائمًا ما تتسم بثباتها ولا يمكن أن تخضع للزيادة على نقيض العملات التقليدية التي يمكن أن تقوم الحكومات المتهورة بطباعة كميات كبيرة منها؛ لهذا، لا داعي أبدًا للقلق من حدوث التضخم الذي ينتقص من قيمة العملة، السبب الأخير - ولعله العامل الرئيسي وراء ظهورها في المقام الأول - هو سحر إخفاء الهوية؛ ينجذب المحتالون إلى التعامل بالبيتكوين من أجل هذا السبب بالتحديد، لا يوجد شك حول أن النقود الورقية أكثر تخفيًا من البيتكوين، ولكنها ضخمة وحملها ليس بالشيء السهل، إلى جانب أن هناك حدًا أقصى لكمية الأموال التي يُمكنك وضعها وحملها داخل حقائب السفر.

هناك قصة مسلية عن فرانك سيناترا الذي شاع عنه عام 1947 أنه قام بنقل حقيبة صغيرة مليئة بالنقود إلى كوبا بالنيابة عن شركائه في المافيا، وقد زُعم أن الحقيبة احتوت على مبلغ يقدر بمليون دولار أو 3.5 مليون دولار، جميعها من الأوراق النقدية فئة 100 دولار، وقد سخر سيناترا حول ما تردد عنه من شائعات مبررًا أنه من المستحيل أن تكفي حقيبة صغيرة لحمل هذا المبلغ الضخم، وقد عرض هذا المبلغ المذكور نفسه في الشائعات على أي شخص يقدر على هذا الفعل، ووفقًا لصحيفة نيويورك تايمز، قام الروائي نورمان ميلر بإجراء بعض العمليات الحسابية، واكتشف أنه يمكن وضع مليوني دولار في حقيبة كهذه مع القليل من الضغط على النقود بداخلها لتتناسب مع حجمها الصغير، مع ذلك، من المستحيل أن تكفي الحقيبة لوضع 3.5 مليون، وعلاوة على هذا، لا يُعتقد بأن سيناترا أوفى بالرهان الذي قطعه".

"وما المغزى الذي تحاولين إيصاله من كل هذا؟".

"إن تحويل مبلغ 3.5 مليون باستخدام البيتكوين سيكون عملية أيسر بفارق كبير بالنسبة للمافيا مقارنةً باستخدام النقود.

لكن، هناك بعض المشكلات المعقدة حول عملة البيتكوين، حتى إن غضنا الطرف عن هذا الجانب المتعلق بالجريمة، دعنا أولاً نفكر بالأسباب التي تدفع الناس لشراء الأصول، يمكن أن يتجه الناس لشراء الأصول بسبب ما تحمله من قيمة حقيقية يمكن الانتفاع بها؛ سواء عن طريق التدفق النقدي الذي سيتمتعون بكسبه على مدار السنوات، أو من خلال المتعة النفسية التي يستمدونها من امتلاك الأصل بحد ذاته، يفترض أن شراء الأسهم في شركة ناجحة يعود عليك بالأرباح، وحينئذ، يمكن أن تبتاع منزلاً وتعيش فيه - أو تقوم بتأجيرها لشخص آخر - كما يمكنك أن تستمتع بالتأمل في اللوحات الفنية الجميلة على حوائط منزلك، وهناك أسباب أخرى لشراء الأصول نابعة من طبيعة البشر المحبة للمضاربة؛ إنهم يعتقدون أن سعر الأصل سيرتفع في المستقبل، وبالتالي يمكنهم بيعه لشخص آخر والحصول على ربح عالٍ، وبالنسبة للعديد من أنواع الأصول الأخرى، نرى مزيجاً بين العاملين السابقين، ولكن بالنسبة للبيتكوين، فإن قيمتها الحقيقية الوحيدة تقوم بشكل أساسي على المضاربة، حيث إن العملة لن يكون لها أي قيمة إن لم تستطع بيعها بسعر أعلى من سعر شرائها، هذا يعني أن عملة البيتكوين بشكل خاص عرضة لحدوث الفقاعات الاقتصادية، ما يجعل منها مثلاً قيماً لنظرية "الأحمق الأكبر".

"إنها تبدو من نوعي المفضل من النظريات".

"إن الفكرة الرئيسية وراء نظرية الأحمق الأكبر هي أن سعر الأصل يُحدد على أساس إمكانية بيعه بسعر أعلى في المستقبل، وأن القيمة الفعلية للأصل ليست بالشيء المهم، كون الطلب هو العامل الوحيد المؤثر؛ سيظل الأصل محتفظاً بقيمته ما دام هناك بعض الحمقى الذين يرغبون في الاستثمار فيه، أنا لا أشك في حقيقة وجود الأشخاص الذين يحققون ربحاً من خلال الاستثمار في البيتكوين، ومن منظورهم، فلا يوجد أحمق في هذا

الموقف برمته سواي، لكن مع ذلك، فإن استمرارية القيمة الكبيرة للبيتكوين تعتمد بدورها على استمرارية الطلب المتزايد عليها بالسوق من قبل بعض الحمقى الكبار".

"ولكن ماذا عن الأشياء الثمينة الأخرى كالذهب والألماس؟ هل تعتمد قيمتها الكبيرة أيضًا على مجرد اعتقادات شائعة بين الناس؟".

"هذا السؤال بمثابة عود حميد لمهاراتك، لكن الذهب له قيمة كبيرة في التزيين كما ذكرنا آنفًا، والألماس له استخدامات صناعية مهمة للغاية لا تقتصر فقط على صناعة القلائد الجميلة. تم وصف العملات الرقمية بأنها عبارة عن ذهب رقمي، ومن المنطقي أن يتساءل المرء عن السبب وراء القيمة المرتفعة للبيتكوين، ولماذا تعتبر مبالغًا فيها إلى حد مثير للسخرية بالقياس إلى القيمة الحقيقية للذهب والألماس؟.

هناك مشكلة تتجلى عند إجراء المقارنة بين البيتكوين والذهب؛<sup>4</sup> كان للذهب أهمية مالية عظيمة استمرت لأكثر من ستة آلاف سنة، كما أنه يحافظ على حالته الفيزيائية دون أن تتدهور جودته، على النقيض، فإن البيتكوين مجرد إدخال إلكتروني في سجل، يتطلب متابعة مستمرة ونشطة وإجراء بعض العمليات اللازمة من قبل المنقبين المحفزين والمهتمين بالأمر، ومع أن الذهب لم يعد وسيلة للتبادل التجاري، إلا أننا نتوقع بنسبة كبيرة تواجده بهيئته الفيزيائية الحالية على مدى الألفية المقبلة - على الأقل - ولا يمكنني القول إنني واثقة من بقاء نظام يتكون من سجلات إلكترونية لا مركزية حتى هذه المدة الطويلة، بل في الحقيقة، يمكن القول إن بقاء البيتكوين يعتمد كليًا على الهياكل المالية الاجتماعية التقليدية التي تحاول تلك العملة الجديدة تقويضها والاستقلال عنها".

"كلام جدير بالإعجاب".

"المشكلة الأخرى يمكن تلخيصها في أن البيتكوين عديمة الجدوى عند محاولة الانتفاع منها كمال حقيقي، بغض النظر عما تعتقده من كونها استثمارًا جيدًا وطويل الأمد".

"كيف هذا وهي تصنف عملة في النهاية؟".

"أتذكر عندما تحدثنا عن وظائف المال وقلنا إنه وسيلة للتبادل إلى جانب أنه وحدة حسابية؟ ببساطة، البيتكوين عملة متقلبة للغاية إلى حد يعوقها من أن تؤدي وظائف المال الحقيقي؛ على سبيل المثال:

إذا رغبت أي شركة في تسعير سلعها باستخدام البيتكوين، فهي بهذا تقدم على اتخاذ رهان ضخم: ماذا سيحل بها إن انهار سعر البيتكوين بشكل مفاجئ؟ كأنما قمتَ ببيع مجموعة العظام النفيسة التي تمتلكها مقابل عملة واحدة من البيتكوين، لأن سعرها حينذاك كان 50 ألف جنيه، ولكنك فجأة تجد سعر العملة يهبط حتى يبلغ 32,587 جنيهًا فقط".

"بصراحة، كنت لأقبل بهذا المبلغ، فأنا امتصت معظم نكهة اللحم من جميع العظام على أي حال".

"حسنًا، لعله مثال غير موفق، ولكنك فهمت المعنى الذي أسعى لإيصاله، هناك ثغرة في الحجة التي تنص على أن استقرار البيتكوين نابع من عدم قدرة الحكومات على طباعة المزيد منها؛ صحيح أن هناك حدًا أقصى لعدد عملات البيتكوين التي يمكن تعدينها، ولكن هذا يتجاهل حقيقة الانتشار المتزايد لبعض العملات الرقمية الأخرى مثل إيثريوم ولايتكوين، لعل ثبوت كمية العملات الافتراضية أمر ينطبق على عملة واحدة فقط، ولكن إن كان بوسع أي شخص الدخول إلى هذا المجال، فمن الصعب حقًا فهم محدودية العرض للعملات الافتراضية بصورة عامة.

"لا أعلم إن كان هذا عيبًا أم ميزة، ولكن البيتكوين ليست على مستوى عالٍ من المجهولية والتخفي كما أعتقد أو تمنى البعض في الماضي عند بدايات ظهورها؛ إن عنوان البيتكوين - الذي تستقبل إليه أو ترسل منه العملات - مجهول بالفعل، ولكن إذا نجح أي شخص في اكتشافه - عندما تحاول مثلاً في تحويل تلك العملات الافتراضية إلى شيء يمكن الانتفاع منه، كعملة حقيقية أو ما شابه - فستظهر سلسلة الوحدات المجمعة سجلًا كاملاً يحتوي

على جميع التعاملات التي أتمها المستخدم على الشبكة، إلى جانب هذا، فهناك مشكلة أخرى..."

"يا إلهي، من الواضح حقًا أنك تكرهين عملة البيتكوين، ألسن محقًا؟".

"لا يمكن إنكار أنني شخصية متشككة بطبعي، ولكن إن لم يقنعك أي مما سبق، فعلى الأرجح يجدر بي إخبارك بأن نظام البيتكوين يستهلك كميات هائلة من الطاقة؛ إن منقبي البيتكوين يتسابقون للحصول على عملات جديدة، وذلك من خلال التحقق من صحة وصلاحيه التعاملات التي تتم بداخل الشبكة، وذلك يتطلب إجراء عمليات حاسوبية شاقة تؤدي إلى إهدار الطاقة بسبب استخدامها بصورة مكثفة. وفقًا لدراسة أجرتها جامعة كامبريدج، فإن منظومة البيتكوين تستهلك طاقة أكثر من التي تستهلكها دولة الأرجنتين".

"ولكن العملة الواحدة تساوي خمسين ألف جنيه، من المؤكد أن هذا ليس مجرد فقاعة اقتصادية. أنا أظن أنك شخصية قديمة الفكر و متمسكة بوجهات نظر تقليدية تعميك عن رؤية المستقبل".

"ربما، في نهاية المطاف، أعتقد أن التهديد الأكبر لمستقبل البيتكوين على المدى البعيد هو تهديد سياسي، حيث إن التحكم في الكمية المعروضة من العملة، يعني التحكم في الاقتصاد بشكل عام، لعل وجود عملة افتراضية لا مركزية متحررة من سيطرة وتنظيم الحكومة فكرة عبقرية، ولكن هناك سبب منطقي وراء كون البنوك المركزية الكيان الوحيد الذي يمتلك السلطة لطباعة الأموال، ولا أظن أن الحكومة ستسمح لأنصار العملات الرقمية بالتدخل في شئون وسلطة التحكم بالعملة بأي حال، لكن، يظل هناك حقيقة لا غبار عليها: لا ينبغي على أي شخص الاستثمار في البيتكوين بمبلغ كبير لن يقدر على تحمل خسارته بالكامل، حسنًا، حان الوقت لأن ندفع الفاتورة ونغادر، هل تعتقد أنهم سيقبلون عملة البيتكوين عند الدفع؟".

"أعتقد أن هناك إمكانية أكبر للدفع باستخدام مجموعتي القديمة من العظام!".



# النزهة ١٥: الجزء ١: الكساد والركود، وما يمكن أن تفعله الحكومات للتصدي لآثارهما: السياسة المالية

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: الركود الاقتصادي ومسبباته، والإجراءات التي يمكن أن تتخذها الحكومة لتقليل حدة الأوضاع. هل الإنفاق الحكومي - أو السياسة المالية - هو طوق النجاة للخروج من أزمات الركود؟ أم أن اللجوء للسياسة النقدية حل أفضل نظرًا لأنها تعمل على تخفيض أسعار الفائدة وزيادة السيولة؟ وما التيسير الكمي الذي يعتبر سياسة حديثة لطباعة النقود؟ وما شبيهته الأكثر تطرفًا: النظرية النقدية الحديثة؟ هل هذه السياسات مجرد محاولات يائسة لتنشيط حركة الاقتصاد، أم أننا سينتهي بنا المطاف مثل زيمبابوي حيث يستخدمون الأوراق النقدية كوقود؟

تساقطت الأمطار من السماء بشكل كبير وغير مستقر يبعث على الاكتئاب، كان جابريل في حالة من الحزن، وبحسب ما نعرفه، فالأمر له علاقة بأصدقائه، وكانت روزي تمر بالحالة نفسها، ولكن الأمر هذه المرة له علاقة بالمعادلات التربيعية ومنحنيات الدوال الجيبية، وحال الفيلسوف لم يختلف عن حال سابقه، إذ إن هناك تشقّقًا في حشوة ضرسه سبب له الانزعاج والحزن، وبعد المرة الثالثة أو الرابعة من سماع صوت قرع الأبواب بقوة، نظر إليّ مونتي بحزن شديد يعتلي عينيه.

"حسنًا يا مونتي، لنخرج من هنا، ما رأيك أن أذهب بك إلى واحد من تلك الصالونات الخاصة بتجميل الكلاب حتى تظهر بمظهر أنيق إذا حدث أن صادفت الكلبة بيكي بالشارع؟".

إن القيام بأي شيء سيكون أفضل من البقاء هنا، فالجميع مكتئبون للغاية، ارتديت معطفي  
الواقي من المطر، وألبسته معطفه بدوره، ثم أخذت مظلة كبيرة بما يكفي لأن تسعني أنا  
ومونتي معًا وخرجنا، لأول مرة، يسير مونتي إلى جانبي بطريقة منضبطة ومنظمة، ولكنه  
يفعل ذلك فقط من أجل أن يبقى تحت المظلة.

"أتعلم... إن الانغماس في فترات من الاكتئاب أمر لا ينطبق على الناس فقط؟".

"لقد ظننت أن هذه النزهة مقررة حتى تشعرني بالبهجة! ألم تنالي كفايتك من الحديث عن  
الكساد العظيم؟".

"لقد شعرت برغبة في أن نخوض حديثًا تفصيليًا أكثر عن الأزمات الاقتصادية، وكيف  
تتعامل معها الحكومات والبنوك المركزية للتقليل من حدة تداعياتها، كما أننا سنلقي نظرة  
على السياستين المالية والنقدية، وكيف تستغلها الحكومات للخروج بالاقتصاد من فخ  
الركود".

"سياستان مالية ونقدية؟ أنت تُسمعينني مصطلحات جديدة في كل مرة، وجميعها  
يشعرني بالضجر".

"أنا أعلم أن السياستين النقدية والمالية لا تبدوان ذواتي وقع مثير للاهتمام على المستوى  
السطحي، ولكن صدقني ستعلم أنها أمور غاية في الأهمية، علاوة على هذا، فنحن نعيش  
حاليًا في عصر تتداخل به السياسة مع الاقتصاد بشكل ملموس، حيث يجب على  
الاقتصاديين التعامل مع الواقع المرير بكل جدية وحزم، إن الاحتجاجات السياسية التي  
نراها غالبًا في سياق معارك من أجل الحرية أو الديمقراطية، هي في الواقع ناجمة عن عدم  
الرضا بالأوضاع الاقتصادية. اشتعلت احتجاجات ساحة تيانانمن في الصين - بشكل جزئي  
- بسبب ارتفاع الأسعار بوتيرة جنونية، حيث بلغ معدل التضخم ثمانية عشر في المائة،  
ومع ذلك لم يصدر قرار بارتفاع الأجور حتى يستطيع الشعب مواكبة تلك الأوضاع، قبل  
عام من وقوع تلك الاحتجاجات، قامت الصين برفع الضوابط عن الأسعار بالسوق، مما أدى

إلى انتشار حالة من الهلع الشرائي بين الناس، واندفاعهم مسرعين نحو البنوك لتبديل أوراقهم النقدية بالذهب،<sup>1</sup> إلى جانب هذا، كان الارتفاع الحاد في أسعار الخبز عاملاً حاسماً في تحفيز اندلاع ثورات الربيع العربي؛ عندما تخفق الحكومات في معالجة هذا النوع من القضايا، فإنه غالباً ما ينتهي باندلاع الثورات".

"حسناً حسناً، سأعيرك انتباهي، ولكن هلاً شرحت لي معنى الركود الاقتصادي قبل أن نشرع في الحديث عن تلك السياسات المالية والنقدية!".

"بشكل عام، يحدث الركود بسبب تراجع مستويات النشاط الاقتصادي، ولا يوجد تعريف محدد ومتفق عليه بشكل دولي للركود، لكن كقاعدة عامة، يُعرّف الركود على أنه تراجع ملحوظ في الناتج المحلي الإجمالي لمدة ربعين متتاليين في السنة".

"والكساد هو... فترة من الركود السيئ للغاية؟".

"أجل، نوعاً ما. هناك مزحة قديمة تقول إنه عندما يفقد جارك وظيفته، فيوصف الوضع على أنه تباطؤ اقتصادي، وعندما تفقد أنت وظيفتك، يوصف على أنه ركود، أما عندما يفقد الخبير الاقتصادي وظيفته، فيتحول الوضع إلى كساد! في بعض الحالات، يصعب علينا للغاية التنبؤ بحدوث نوبات الركود، ولكن مع ذلك، فهناك نمط غريب من الانتظام في حدوثه؛ حدث الركود الاقتصادي مرة كل ستة أعوام بدايةً من عام 1929، وفي كل مرة، استمر الركود سنة كاملة.

إن سلسلة الزيادات والانكماشات التي تحدث في الناتج المحلي الإجمالي - والتي نسميها الدورة الاقتصادية - تتسبب في تبعات سلبية تقع على عاتق الشعوب، ومن المفترض أن تعمل الحكومة جاهدة على الحد من تداعيات تلك التبعات مستعينة بإرشادات الاقتصاديين".

"فهمت، إذن، ما مسببات الركود؟".

"بشكل عام، يحدث الركود نتيجة صدمة قوية تضرب الاقتصاد، قد تتمثل هذه الصدمة في ارتفاع حاد لأسعار الوقود - مثل صدمة أسعار النفط في عام 1973 - أو انهيار سوق الأسهم - كما حدث خلال أزماتي عام 1937 و 2007 - أو انفجار فقاعة عقارية، كما يمكن أن يحدث الركود في الدول النامية بسبب انخفاض مفاجئ في أسعار بعض السلع الذي يُعتمد عليها بشكل كبير، مثل القهوة أو المشروبات الغازية، أو بسبب انتشار فيروس خبيث، كما شهدنا جميعًا منذ فترة قريبة، أيًا كانت الأسباب وراء الركود، ستترب عليه النتيجة نفسها: اضطرار جميع البشر إلى خوض المعاناة والمشاق، إن أخطر ما في الركود الاقتصادي هو قدرته على الانتشار، حيث يمكن بسهولة أن يتطور ويتفاقم ركود صغير حتى يصبح كبيرًا ومنتشرًا على نطاق واسع.

"لماذا؟".

"فكر في الأمر على أنه تفاعل تسلسلي؛ تخيل أنه لسبب ما، شعر الناس بالقلق والتوتر حيال الوضع الاقتصادي، ولذلك، راحوا يدخرون نقودهم عوضًا عن إنفاقها، مما أدى إلى توقف العملية الإنتاجية في المصانع وبدء المحال التجارية في تسريح موظفيها، ونتيجة لهذا، ارتفعت معدلات البطالة مما حفز شعور الناس بالقلق أكثر حيال وضعهم في المستقبل، إنها نبوءة ذاتية التحقيق: إذا اختلجنا جميعنا شعور قوي بأن الأوضاع الاقتصادية ستسوء عما قريب، فإنها ستسوء بالفعل.

تُعد جائحة كوفيد - 19 أحدث مثال عهدناه على سوء الأوضاع الاقتصادية؛ شهد الناتج المحلي الإجمالي في المملكة المتحدة - إلى جانب العديد من الدول الأخرى - انخفاضًا حادًا في فبراير 2020، وهبطت أسعار الأسهم بشكل هائل وفجائي، وزادت معدلات البطالة مما دفع العديد من الدول إلى الدخول في نوبة من الركود، ووصف صندوق النقد الدولي الظروف آنذاك بأنها أسوأ انخفاض شهدناه للنشاط الاقتصادي منذ عصر ريفينا الأقدم: الكساد العظيم،<sup>2</sup> ارتعدت الحكومات خوفًا من أن يؤدي الموقف الحالي إلى

الدخول في دوامة من العواقب الكارثية، لذلك عملت مسرعة على وضع حد لتفاقم الأوضاع".

"ماذا فعلوا؟ وهل نجح ما فعلوه؟".

"سأبدأ بالإجابة عن السؤال الأول، عند النظر إلى الأدوات الاقتصادية التي تحتفظ بها الحكومات داخل صندوق الأدوات الخاص بها، سنرى أن هناك سياستين متاحيتين: السياسية المالية، والسياسة النقدية".

"إذن هناك أداتان، ولكن ما الداعي لامتلاك صندوق كامل للأدوات من أجل الاحتفاظ بأداتين فقط؟".

"بغض الطرف، أيها المتحذلق، لكن في الحقيقة، إنها أدوات متعددة الاستخدامات كسكين الجيش السويسري الشهير، أو السكاكين التي تصنعها شركة ليذرمان، إن الأداة الأولى من هذا النوع هي السياسة المالية، والتي تختص بحساب الأموال التي تنفقها الحكومة أو تجمعها عن طريق الضرائب، أما الأداة الثانية، فهي السياسة النقدية التي تختص بمعرفة ودراسة كمية الأموال التي يتم تدفقها إلى الاقتصاد، إلى جانب أنها تسعى إلى خفض معدلات الفائدة، الهدف الرئيسي من كلتا السياستين هو تحفيز الأفراد والشركات على الاستثمار والإنفاق. عندما تنجح في فهم آلية عمل السياستين، ستصبح فجأة تلك المقالات الطويلة والمخيفة الموجودة في قسم الاقتصاد بالصحف أسهل لاستيعابها مما سبق.

لننطلق بدءًا بالسياسة المالية، الفكرة الرئيسية من هذه السياسة هي التحكم في كمية الطلب على السلع من خلال السياسات الضريبية والإنفاقية التي تتبناها الدولة؛ إن كان الاقتصاد يمر بفترة متعثرة، فيمكن للحكومة اعتماد السياسة المالية الحرة، بحيث تزيد من معدلات إنفاقها، أو تقوم بخفض ضرائبها وذلك بهدف تحفيز النمو الاقتصادي. على الجانب الآخر، فإن السياسة المالية الصارمة - كما هو متوقع - تعمل عملاً معاكساً لسابقتها، حيث

تقلل الحكومة من معدلات إنفاقها أو تقوم برفع الضرائب، وهذه الإجراءات تحد من وتيرة النمو الاقتصادي".

"لماذا قد تحتاج الحكومة إلى تطبيق سياستين متضادتين تمامًا على الاقتصاد نفسه؟".

"بغرض مسابقة الدورات الاقتصادية المتقلبة، ولقد ذكرنا في البداية أن هناك نمطًا غريبًا ومنتظمًا من الركود الاقتصادي، وعلى العكس، هناك نمط مماثل له من الازدهار؛ لذلك، تقترح النظرية أننا بحاجة إلى سياسة مالية مضادة للتذبذبات الاقتصادية تعمل للحفاظ على استقرار الاقتصاد وبقائه عند مستوى متزن، ينبغي على الحكومات عندما تتدهور الأوضاع الاقتصادية زيادة معدلات الإنفاق العام أو تقليل الضرائب، وغالبًا ما تمول هذه الإجراءات من خلال الاقتراض، عندما يتوقف المستهلكون القلقون عن إنفاق المال أو استثماره، يجب على الحكومة أن تنفق نيابةً عنهم لتعويض النقص الحادث في معدل الطلب الاستهلاكي أو الاستثماري؛ نأمل أن تشجع هذه الإجراءات على بدء دورة اقتصادية إيجابية، أو على الأقل، تحد من تفاقم الأمور، على العكس، عندما يمر الاقتصاد بفترة من الازدهار، فيجب على الحكومة أن تقلل من معدل الإنفاق العام أو تفرض زيادة ضريبية".

"إن السبب وراء سعي الحكومة للخروج بالاقتصاد من دورة الركود أمر مفهوم، لكن ما السبب العجيب الذي يجعلها ترغب في تحييد وتيرة النمو الاقتصادي؟!".

"الإجابة عن هذا السؤال هي أنه من الطبيعي أن تسعى أي حكومة جديرة بالثقة والمسؤولية بجد للحد من خطر موجات النمو غير المستدام والتي غالبًا ما تتبع بانكماش اقتصادي قاسٍ، فالأمر كله يتمحور حول تحقيق التوازن؛ عندما يتسم الاقتصاد بالبرود، فإنك توقد المرجل لتحفيزه، ولكن عندما يمر بفترات من الحيوية، فمن الطبيعي أن تبعده عن النيران حتى تحميه من خطر الاحترار المفرط، إن الفكرة التي تنص على أن الحكومة يمكن - بل يجب - أن تستخدم السياسة المالية لتصحيح نصاب الأوضاع الاقتصادية ترجع في الأساس إلى كينز، وقد ظهرت كإجراء فعال ضد تداعيات..."

"دعيني أأخمن، الكساد العظيم؟".

"أنت كلب ذكي، أشار كينز، إلى أن الاستثمار الحكومي يمكن أن يؤدي دورًا حاسمًا في تحفيز الاقتصاد عندما يمر بفترات من الركود أو التعثر، وهذا راجع - جزئيًا - إلى شيء يسمى التأثير المضاعف".

"وما التأثير المضاعف؟".

"في الحقيقة، إنه شيء معاكس لتلك الدوامة الكارثية والمميتة التي يقع بها الاقتصاد عندما يختلج الناس شعور بعدم اليقين حيال الأوضاع الاقتصادية، تخيل أننا نمر بفترة من الركود الاقتصادي، والتوتر منتشر بين الناس مما يدفعهم إلى ادخار نقودهم بدلًا من إنفاقها، هذا يعني أن هناك طاقة إنتاجية غير مستغلة؛ هناك أشخاص عاطلون عن العمل ويبحثون عن وظائف في حين أن هناك مصانع تعمل بمعدلات إنتاج أقل من قدرتها الحقيقية، لكن، إذا اقترضت الحكومة الأموال لتشبيد الطرق وبناء المستشفيات، فيمكننا حينئذ إيجاد مخرج لهذه الحلقة الوحشية، عندما ينفق الأشخاص العاملون رواتبهم لشراء السلع المختلفة كالأحذية أو الوجبات الجاهزة من المطاعم، أو حتى لشراء السيارات، فإن جميع عمليات الشراء هذه تدر بدورها أموالًا على خزائن أشخاص آخرين، وفي النهاية فإنها تعود بالنفع الملموس على الاقتصاد بشكل عام، ومن ثم، نجد أنفسنا أخيرًا عائدین إلى مسار النمو والنشاط الاقتصادي من جديد، بتعبير أكثر رسمية، التأثير المضاعف هو حدوث تغير في معدل الناتج المحلي الإجمالي نتيجة حدوث تغير في السياسة الإنفاقية للحكومة، وهذا ملخص سريع للنظرية الكينزية في الاقتصاد".

"وما مدى قوة هذا الشيء المسمى بالتأثير المضاعف؟".

"هنالك جدل محتدم حول هذا الشأن؛ في الأنظمة الاقتصادية المعقدة حيث تجرى العديد من التفاعلات والأحداث، من الصعب للغاية - إلى حد يقترب من الاستحالة - إثبات وتحديد القيمة الدقيقة للتأثير المضاعف، لكن، هناك إجماع عام على أن التأثير المضاعف

تزداد قيمته عندما يحقق الاقتصاد معدلات نمو أدنى من المعتاد، وتقترب قيمته إلى الصفر عندما تعمل العجلة الاقتصادية بقدراتها الإنتاجية الكاملة، هناك أيضًا إجماع عام بشأن ضرورة اعتماد الدول سياسة مالية فعالة ضد التذبذبات الاقتصادية الدورية؛ ينبغي على الحكومات أن تنفق أموالها بحذر خلال فترات الازدهار الاقتصادي، وأن تتحلّى بالجرأة الكافية لفتح صنبور الإنفاق عند مواجهة الأزمات، ويعتبر هذا النهج من السياسات المتفق عليها بشكل واسع ولا تسبب أي جدل بين مختلف الاقتصاديين".

"إذن، عند تطبيق تلك السياسة الحرة أيهما يحقق فاعلية أكبر، تخفيض الضرائب أم زيادة الإنفاق؟".

"نظريًا، كلاهما سيؤديان الغرض، ولكن ما تفضل الحكومة تطبيقه ناجم بشكل كبير عن توجهاتها السياسية؛ الحكومة ذات التوجهات اليمينية تميل إلى خفض الضرائب، أما الحكومة ذات التوجهات اليسارية فتميل إلى زيادة معدلات الإنفاق، لكن مع ذلك، ومن ناحية موضوعية، من الأسهل تحفيز النشاط الاقتصادي عن طريق زيادة الإنفاق عوضًا عن تخفيض الضرائب، إذ إن المال الإضافي الذي سيوفره الأفراد من خفض الضرائب - خاصة الأغنياء منهم كونهم يدفعون ضرائب بنسبة أكبر من غيرهم - سينتهي به المطاف في خزانة المدخرات، والمغزى الأساسي من تحفيز النشاط الاقتصادي هو تشجيع الأفراد على إنفاق المال.

اتبعت الكثير من الدول هذا النهج خلال أزمة جائحة كوفيد - 19، حيث زادت الحكومة معدلات إنفاقها بشكل ضخم، وفي المملكة المتحدة، جاءت تلك الزيادة على حساب الدين العام؛ ارتفع الدين العام للدولة بصورة كبيرة حيث بلغ خلال الفترة ما بين عامي 2020 و2021 ما يقرب من 106% من نسبة الناتج المحلي الإجمالي، وهذا ضعف المعدل الذي بلغه خلال سبعينيات القرن الماضي، في حالات الركود المعتادة، سُمح للشركات بإعلان إفلاسها، وللأشخاص بفقدان وظائفهم، حتى لو حاول السياسيون تخفيف حدة الصدمة، لكن هذه المرة لم يُسمح بأي من هذا؛ دفعت حكومة المملكة المتحدة ما يصل إلى ثمانين



في المائة من رواتب الموظفين الذي عُلق عملهم بصورة مؤقتة، كما أنها عملت على توفير المنح والقروض الرخيصة للشركات كمحاولة هادفة لمنعها من إعلان إفلاسها، إلى جانب هذا، تبنت الحكومة سياسة نقدية توسيعية، حيث قامت بخفض أسعار الفائدة واتخاذ العديد من التدابير الجذرية الأخرى التي سنناقشها في وقت لاحق".

"إذن، بماذا تقدر قيمة تلك النفقات والضرائب وكل هذا الهراء الكينزي الذي نتحدث عنه؟".

"إن أردت معرفة الأرقام الحقيقية، فيجدر بي إخبارك بأن إيرادات الحكومة من الضرائب ستصل إلى ما يقرب من 814 مليار جنيه إسترليني خلال السنة المالية 2021/2022، وبناءً على هذا التقدير، سيبلغ متوسط المساهمة لكل أسرة على حدة من تلك الإيرادات 28 ألف جنيه بالتقريب، لكن بلا شك، ستدفع الأسر الفقيرة مبالغ أقل من هذا، في حين أن الأسر الغنية ستدفع مبالغ أكبر، على الجانب الآخر، من المتوقع أن تنفق الحكومة 1,053 تريليون جنيه إسترليني، بمتوسط 36 ألف جنيه لكل أسرة".3

"أنا مدرك تمامًا بأنني لست كلبًا خارق الذكاء من فصيلة بوردر كولي، ولكن حتى أنا يمكنني أن ألاحظ بسهولة وجود فجوة بين الرقمين".

"أنت محق يا مونتي، ففي الوقت الحالي، تنفق الحكومة أموالاً أكثر مما تحصل من خلال الضرائب، كما أن البرنامج الذي يكفل دفع رواتب الموظفين الموقوفين مؤقتًا عن العمل بسبب الجائحة قُدِّر أن تصل تكاليفه إلى أكثر من مئة مليار جنيه،4 ولكن معظم خبراء الاقتصاد يؤمنون بأن هذا الإجراء لا غنى عن اتخاذه، يقدر عجز الميزانية العامة للدولة - أي الفارق بين الإيرادات والنفقات - في السنة المالية 2021/2022 بـ 234 مليار جنيه، وهذا ثاني أعلى معدل شهدناه لعجز الميزانية منذ الحرب العالمية الثانية (حيث كان العجز الموجود في سنة 2020/2021 هو الأعلى)، من المتوقع أن يبدأ العجز الحكومي في الانخفاض خلال السنوات الخمس المقبلة حتى يصل إلى قرابة 73 مليار جنيه، ولكن يجب ألا تنسى أبدًا أن العجز والدين أمران مختلفان تمامًا عن بعضهما البعض".

"ماذا؟ هَلَّا شرحت لي هذا من فضلك؟".

"الدين العام للمملكة المتحدة هو المبلغ الإجمالي الذين تدين به الدولة على مر التاريخ، أما العجز فهو مقدار ما يُضاف كل عام إلى إجمالي الدين، لنتخيل أن الدين العام لأسرتنا يساوي 200 ألف جنيه - وهذا يشمل قرض الرهن العقاري، وفواتير البطاقات الائتمانية وأي ديون أخرى يجب سدادها - وأنا أنفقنا خلال العام الحالي ما يتجاوز الدخل الذي حصلت عليه أسرتنا بمقدار خمسة آلاف جنيه، من هذا المنطلق، فإن دين الأسرة يساوي 200 ألف جنيه، في حين أن عجزها يبلغ خمسة آلاف جنيه، ومن ثم، سيرتفع دين الأسرة في العام المقبل ليصبح 205 آلاف جنيه، لا بأس بما إن كنت تشعر بالارتباك وتخلط بين العجز والدين، أنت لست وحدك، فدائمًا ما يفعل السياسيون الأمر ذاته".

"ألا توجد أي عقبة على الإطلاق؟ بالتأكيد، لا يمكن للحكومة أن تستمر في اقتراض المزيد والمزيد من الأموال، ففي النهاية، سيتحتم عليها سداد جميع تلك المبالغ، أليس كذلك؟".

"نحن نميل بطبيعتنا إلى التفكير في الاقتراض على أنه شيء سيئ بشكل عام، ولكن الاقتراض من قبل الحكومة ليس بالضرورة فكرة سيئة؛ إذا تم استغلال القروض للاستثمار في أمور من شأنها تعزيز النمو الاقتصادي، مثل الاستثمار في التعليم أو البنية التحتية، فيمكننا تحقيق منافع كبيرة للاقتصاد على المدى البعيد، كما أنه ليس من الضروري على الحكومات أن تحاول طوال الوقت تحقيق التوازن فيما يخص ميزانيتها، حيث إنه من المنطقي أن تحاول تحقيقه على مدار دورة اقتصادية كاملة، بأن تعمل على زيادة العجز خلال فترات الركود، وتحقيق فائض في الميزانية خلال فترات الازدهار".

"إذن نستنتج من هذا أنه ينبغي على الحكومة الإنفاق للخروج من فترات الركود؟".

"هناك بعض الاقتصاديين الذين يظنون أن التحفيز المالي فكرة سيئة للغاية، وتستند حجتهم إلى أن كل هذا الكلام عن التأثير المضاعف ما هو إلا ضرب من المبالغة غير الواقعية، حيث إن سياسة الإنفاق الحكومي تأثيرها ضئيل للغاية بالقياس إلى الصورة التي

يحاول أنصارها الترويج لها،<sup>5</sup> لكن، على الأقل من الناحية النظرية، يتفق معظم الاقتصاديين على ضرورة تبني الحكومات سياسة مالية مضادة للتذبذبات الاقتصادية، أي بمعنى آخر: أن تقتصر الحكومة الأموال لتنفقها بغرض إنعاش الاقتصاد خلال فترات الركود، مع ذلك، قد يكون تنفيذ هذه السياسة أصعب عند التطبيق العملي، دعني أوضح لك ثلاث مشكلات محتمل حدوثها، المشكلة الأولى، قد ألمحت إليها بالبداية يا مونتي عندما قلت إنك لا تفهم السبب الذي يدفع السياسيين إلى تحييد النمو الاقتصادي".

"يا لفظنتي! حكمتي لا تنضب".

"نحن بلا شك ندلي بأصواتنا الانتخابية لصالح الأشخاص الذي يسمعوننا الكلام المحبب لنا سماعه، الفكرة الرئيسية من تطبيق السياسة المالية المضادة للتذبذبات الاقتصادية هي توسيع إنفاق الحكومة خلال فترات الركود، وتقليصها عندما ننعم بفترات الازدهار، المشكلة الأساسية هي أنه خلال فترات الازدهار، يصعب على الحكومة تقليص الإنفاق بسبب ما يتعرضون له من ضغط العامة؛ على سبيل المثال: هل سبق أن رأيت فيما قبل مرشحًا سياسيًا يقود حملة لدعوة الحكومة من أجل تقليل الإنفاق على النظام الصحي؟ هذه المشكلة تعني أنه عند حدوث فترات الركود، سيكون المجال أمام الحكومة لتوسيع الإنفاق محدودًا للغاية، في كثير من الأحيان، عندما تتدهور الأوضاع الاقتصادية، تشعر الحكومة بأنها في حاجة إلى تقليص إنفاقها،

في حين أن العكس هو ما ينبغي فعله في الواقع، وهذا ما حدث بالضبط عندما فرضت حكومة الائتلاف في المملكة المتحدة برنامجًا تقشفيًا بعد مرورنا بالأزمة المالية في 2007، ويذكر أنه كان له آثار كارثية ومدمرة، حيث تقلص حجم التمويل عن الخدمات العامة بشكل حاد من قبل الحكومة التي عازمت على تقليل الاقتراض مع أن الاقتصاد كان بحاجة ماسة إلى وجود تدفق نقدي.

الفكرة الرئيسية هنا أنه يجب على الحكومات ألا تثقل نفسها بعبء كبير من الديون، حتى تأتي التدابير المضادة للتذبذبات الاقتصادية بأكلها عند تنفيذها".

"حسنًا، هذا كلام منطقي".

"هناك عقبة أخرى تتعلق باللجوء لسياسة التحفيز المالي، وهي أنه يجب على الحكومة التأكد من أنها تعاني فترة ركود ملموسة بالفعل؛ إن لم يكن هناك فائض غير مستغل من الطاقة الإنتاجية - بمعنى آخر، أشخاص يبحثون عن عمل أو مصانع ترغب في توسيع نشاطها - فإن الإنفاق الحكومي سيتسبب بالنهاية في إشعال لهيب التضخم.

وعلى ذكر المشكلات المتعلقة بالتوقيت، فهناك مشكلة أخرى تتعلق بالتحفيز المالي، وهي أنه يتطلب الكثير من الوقت للتنسيق، حيث يجب على السياسيين الاتفاق عليه، وبعد ذلك، يجب أن يجدوا البرامج المناسبة لتمويله، وبالنهاية، من الوارد أن تنتهي فترة الركود بحلول الوقت الذي تنتهي فيه الحكومة من إنجاز تلك المهمات. تُعدّ جائحة كوفيد - 19 ظرفًا استثنائيًا، حيث كان هناك إجماع على نطاق واسع بأننا نمر بظروف خاصة تملي علينا سرعة التصرف، ولذلك تم تطبيق سياسة التحفيز المالي في وقت قياسي، إن تخفيض الضرائب سياسة سريعة في تنفيذها بشكل عام، ولكن كما ذكرت مسبقًا، فهي تشجع الناس على ادخار المال الإضافي، لا على إنفاقه، مما يعرقل الهدف الأساسي المرجو منها.

حسنًا يا مونتي، بهذا، نكون قد انتهينا من السياسة المالية، ولقد وصلنا بالفعل إلى صالون التجميل، سيجعلك العامل تبدو ذا مظهر أنيق في وقت قصير جدًا".

"حسنًا، ولكن أخبريه ألا يضع أشرطة زخرفية في شعري، فأنت تعلمين أن هذا حد لا أسمح بتجاوزه".

"كما تريد".

## النزهة ١٥: الجزء ٢: الكساد والركود، وما يمكن أن تفعله الحكومات للتصدي لآثارهما: السياسة النقدية

ذهبت في جولة تسوق سريعة حينما كان مونتي في صالون التجميل لتصفيف شعره والعناية بأظافره. عندما ذهبت لإحضاره، بدا مونتي بمظهر شاذ للغاية وكأنه يشبه بعض النساء المحبات للبهرجة؛ كان شعره منتفشًا بعد تجفيفه بمجفف الشعر، ناهيك عن أنه زُيّن بوضع شريطة زخرفية وردية اللون، وقد توقعت أنني سأرى وجهه الصغير وهو يستشيط غضبًا، ولكنني وجدته هادئًا وساكنًا على نحو مفاجئ؛ لأنه إما أنه قد تناول شرابه المفضل أثناء العناية به في الصالون، أو أنه لم ينظر إلى نفسه في المرآة حتى الآن. على كل حال، قررت أن ألتزم الصمت.

عندما بدأنا مسيرنا نحو المنزل، قلت له: "في رأيك يا مونتي، مَنْ أهم شخصية في هذا العالم؟".

"أنتِ، بكل تأكيد".

"هذا لطف بالغ منك، لكن الغالبية العظمى من الناس ستجيب عن هذا السؤال بالقول إن رؤساء الوزراء أو رؤساء الدول هم أهم الشخصيات في العالم: كونهم يملكون أكبر قدر من السلطة والنفوذ، وهناك أيضًا حُجة منطقية تقول إن أهم أشخاص في العالم هم جيروم باول، وأندرو بيلي، وكريستين لاجارد".

"لم أسمع بهم من قبل".

"هؤلاء الأشخاص هم الرجال والنساء الذين يمتلكون السلطة لتقرير مدى سهولة حصولك على وظيفة، وتكلفة حصولك على رهن عقاري، ومدى صعوبة اقتراضك الأموال من أجل شراء سيارة - جميع هؤلاء الأشخاص يشغلون مناصب رئاسية في البنوك المركزية، إلى جانب أنهم مسئولون عن توجيه السياسة النقدية. تعتبر السياسة النقدية إحدى الرافعات الرئيسية التي تلجأ إليها الحكومة للتأثير على الاقتصاد، وسنبدأ أولاً بالتركيز على معدل الفائدة نظراً لأنه أسهل جزئية يمكن استيعابها من السياسة النقدية، وبعدما ننتهي منه، سننتقل لكي نتعامل مع الجوانب الأكثر تعقيداً، إذا شعرت البنوك المركزية بأن الاقتصاد متوجه نحو نوبة من الركود، فإنها تقوم بخفض معدلات الفائدة، والعكس صحيح؛ إذا أرادت البنوك المركزية تثبيط النمو الاقتصادي، فإنها تتجه لرفع معدلات الفائدة، يجب ألا تنسى حقيقة مهمة: أن معدلات الفائدة هي في جوهرها السعر الذي ندفعه عند اقتراض الأموال، ولذلك كلما ارتفعت معدلات الفائدة، كلما ازدادت تكاليف الاقتراض، مع تغير تكاليف الاقتراض - سواء ارتفعت أو انخفضت - فإن الشركات والأسر تقوم بضبط نفقاتها بما يتناسب مع معدلات الفائدة الجديدة، على نقيض السياسة المالية التي تتطلب أولاً إيجاد برامج أو مشروعات مناسبة لكي تمولها الحكومة، فإن السياسة النقدية يمكن تطبيقها بوتيرة سريعة قد تتجاوز سرعتك في خطف قطعة من النقانق الباردة".

"مرحى! لقد قلتِ نقانق؟".

"آسفة يا مونتي، هذه نقانق مجازية ليس إلا".

"يا للحسرة! على كل حال، ما هو البنك المركزي".

"توصلت معظم الدول المتقدمة إلى نتيجة واحدة، وهي أنه يجب إبقاء السياسة النقدية مستقلة تماماً عن أي تدخلات سياسية، وهذه هي المهمة التي تؤديها البنوك المركزية، تمتلك الولايات المتحدة النظام الاحتياطي الفيدرالي، ودول أوروبا لديها البنك المركزي الأوروبي، ويوجد في المملكة المتحدة بنك إنجلترا المركزي، هناك مهمتان أساسيتان تؤديهما البنوك المركزية، المهمة الأولى: الحفاظ على الاستقرار المالي، وهذا تعبير منمق

لقول إن البنوك المركزية متواجدة من أجل الحفاظ على سلامة النظام المالي حتى نتمكن نحن من شراء السلع وتحويل الأموال وما إلى ذلك، المهمة الثانية هي أنها تضع البنوك التجارية تحت مراقبتها إلى جانب أنها تقرضها المال كحل أخير خلال الأزمات لكن، ما أرغب في التحدث عنه في الوقت الحالي هو الوسائل التي تستخدمها تلك البنوك للسيطرة على التضخم".

"وكيف تتمكن من تحقيق مثل تلك المعجزة؟".

"تنوع الوسائل التي تستخدمها البنوك المركزية بحسب طبيعة كل دولة، ولكن المبادئ الأساسية لا تختلف كثيرًا؛ تعمل الحكومة على تحديد كمية الأموال المتدفقة إلى الاقتصاد بالإضافة إلى أنها تحدد قيمة تكاليف الاقتراض (أي سعر الفائدة)".

"فهمت، وهل هذا ما يمكنهم من السيطرة على التضخم؟".

"أجل، إذا أصدرت حكومة غير جديرة بالمسؤولية تعليمات للبنك المركزي بطباعة كميات ضخمة من الأموال، فسيصبح لدينا فائض كبير من المال دون وجود كميات مقابلة له من السلع، وهذا سيناريو قد سبق أن شهدنا ما ترتب عليه بالفعل، مثلما حدث مع ألمانيا في عشرينيات القرن الماضي، أو فنزويلا في الآونة الأخيرة، بناءً على هذا، فإن الهدف الرئيسي لبنك إنجلترا المركزي هو التحكم في المخزون النقدي المتدفق داخل الاقتصاد مع الحفاظ على استقرار التضخم وإبقائه عند مستويات منخفضة".<sup>1</sup>

"حسنًا، يخالجنني شعور بأنه يجدر بي معرفة ما يعنيه مصطلح "مخزون نقدي" ولكنني لا أستطيع فهمه بشكل واضح".

"ببساطة، المخزون النقدي هو الكمية الإجمالية من الأصول النقدية التي يتم تداولها في الاقتصاد، وهذا يتضمن جميع الأوراق النقدية، أو العملات المعدنية بالإضافة إلى جميع الودائع البنكية التي يمكن سحبها بسهولة وإنفاقها.

إن كمية المال التي تتم طباعتها داخل أي اقتصاد تعتمد في النهاية على النهج المتبع من قبل البنك المركزي".

"حسنًا، هذه هي ماهية المخزون النقدي، ولكن ماذا عن كيفية تسيير تلك العملية؟".

"لدى بنك إنجلترا المركزي وسيلتان رئيسيتان للتحكم في سعر الفائدة على الاقتراض وكمية المخزون النقدي المتداول داخل الاقتصاد، الوسيلة الأولى: يرفع البنك المركزي معدل الفائدة على البنوك التجارية التي ترغب في الاقتراض منه، أما الوسيلة الثانية: فتقوم البنوك المركزية بشراء السندات بغرض تخفيض معدل الفائدة على القروض والمدخرات من خلال ما يعرف بالتسهيل الكمي،<sup>2</sup> سأبدأ بشرح الوسيلة الأولى كونها أسهل نسبيًا في فهمها.

إن سعر البنك هو معدل الفائدة الذي يدفعه بنك إنجلترا للبنوك التجارية مقابل احتفاظها بالاحتياطيات التابعة للبنوك المركزية - مثل بنك باركليز أو نات ويست - ويعتبر سعر البنك في حد ذاته أهم معدل فائدة موجود بالمملكة المتحدة، علاوة على هذا، فهو يُطلق عليه أيضًا "معدل الفائدة الأساسي لبنك إنجلترا" أو حتى في بعض الأحيان، يُطلق عليه معدل الفائدة دون أي إضافات أخرى. يؤثر المعدل الأساسي هذا على سعر الفائدة العام الذي تسمح البنوك بالاقتراض عليه بين بعضها البعض في سوق النقد، هناك نشاط مالي يحدث بنمط يومي في جميع حساباتنا البنكية، حيث تتدفق الأموال داخلها وخارجها بصورة مستمرة، وبنهاية كل يوم، تقوم البنوك بإجراء روتيني حيث تقارن إيراداتها مع مصروفاتها؛ قد تواجه بعض البنوك عجزًا، والبعض الآخر قد يجد لديه فائضًا. بشكل معتاد، تقرض البنوك أو تقترض من بعضها البعض في نهاية اليوم من أجل تحقيق التوازن وسد تلك الفجوة، عندما يُتاح للبنوك الاقتراض من البنك المركزي - أو من بعضها البعض - بمعدل منخفض من الفوائد، فستتمكن البنوك بدورها من إقراض عملائها - سواء أفرادًا أو شركات - بمعدلات منخفضة، كذلك، وعند انخفاض معدلات الفائدة، ستزداد أعداد الناس العازمين



والقادريين على الاقتراض، وكلما ازدادت معدلات الاقتراض من البنوك، ازداد المخزون النقدي المتداول في الاقتصاد بشكل عام".3

"لنر الآن إن كنت تمكنت من فهم هذا أم لا. أنت تقولين إنه إذا خفّض بنك إنجلترا معدلات الفائدة، فسيصبح اقتراض المال أمرًا غير مكلف، مما يحفز البنوك التجارية لإقراض المال على نطاق واسع، وبالتالي يزداد المخزون النقدي التي تعتبر زيادته أمرًا جيدًا لأنه يعني أننا سننفق المزيد من الأموال، وهذا الإنفاق له تأثير إيجابي على الاقتصاد؟".

"نعم، من ناحية نظرية. المشكلة أن البنوك المركزية استمرت في تخفيض معدلات الفائدة بعد الأزمة المالية التي حدثت في عام 2007، حتى اقتربت المعدلات من أن تبلغ صفرًا، ومع ذلك لم يحفز هذا الإجراء شرارة الانتعاش الاقتصادي، لذلك، أجرت البنوك المركزية بعض التجارب حتى تمكنت من تطوير ما يعرف بالتسهيل الكمي، حيث تنشئ البنوك أموالاً إلكترونية لا تقوم بطباعتها على أرض الواقع،

بل ما تفعله هو عبارة عن إدخال بعض الأرقام في الجداول المالية ليس إلا، ثم تستخدمها في شراء الأصول - التي تتكون بشكل رئيسي من سندات حكومية - من البنوك التجارية وغيرها من المؤسسات المالية الضخمة. الفكرة من وراء هذا الإجراء أن تمتلك البنوك المركزية بعضًا من الأصول عوضًا عن كونها تؤدي دور المقرض فقط، وإلى جانب هذا، فإنه يزيد من السيولة النقدية للبنوك مما يجعلها على أتم الاستعداد لإقراض الشركات، على أمل أن يتسبب هذا في تحفيز النمو الاقتصادي من جديد".

دعنا نبدأ بتوضيح بعض من تلك المصطلحات الفنية، في بعض الأحيان يشير الناس إلى التسهيل الكمي عند الحديث عنه بـ "عمليات شراء الأصول" أو "توسيع الجدول المالي" وأطلق عليه بن برنانكي - الذي كان رئيسًا للبنك المركزي الأمريكي والمعروف أيضًا بنظام الاحتياطي الفيدرالي - اسم التسهيل الائتماني".

"لماذا يطلقون عليه جميع تلك الأسماء الغريبة؟ هل يحاولون عن عمد جعل الأمر صعب الفهم؟".

"قد يخبرك شخص ذو منظور ساخر بأن هذا ما كانوا يحاولون فعله بالتحديد، يعتمد المال بشكل أساسي على ثقة الناس، كما أن طباعة الأموال تعتبر غالبًا ملاًدًا أخيرًا للدول المنهارة أو الدول التي تعرف بـ "جمهوريات الموز"، إذا أعلن البنك المركزي بشكل صريح أنه سيقوم بطباعة النقود، فقد يتسبب هذا في تزعزع ثقة الناس بالعمل، لكن مع ذلك، يمكن إبراز بعض الحجج الثاقبة لتبرير الأمر... (جمهوريات الموز هو مصطلح ساخر يطلق لوصف الدول التي تعاني انعدام الاستقرار وليس لها أي ثقل سياسي بين دول العالم)".

"تمهلي قليلًا، ألا تخبريني دائمًا بأن طباعة الأموال فكرة غاية في الفظاعة؟".

"صحيح، فهذا هو الحال في أغلب الأحيان، لكن مع ذلك، فالسر يكمن في الاعتدال، تنص النظرية الكمية للنقود على أنك إذا طبعت الكثير من الأموال، فسترتفع الأسعار على المدى البعيد نظرًا لثبوت كمية السلع المعروضة مع زيادة كمية الأموال المتداولة، لكن، إن ارتفعت معدلات الإنتاج بالاقتصاد، وازدادت كمية السلع المعروضة مع ثبات كمية الأموال المتدفقة لاقتصاد الدولة، فعلى الأرجح سنحتاج إلى تزويد المخزون النقدي لتحقيق التوازن، وإذا سعت السلطات النقدية نحو تحقيق معدل تضخم مساوٍ للصفر، فيجب تزويد المخزون النقدي بنسبة دقيقة ومعينة تتلاءم مع معدل النمو الاقتصادي، لكن، إن أرادوا الحفاظ على التضخم بمستويات منخفضة، فينبغي أن يهدفوا لتزويد المخزون النقدي بوتيرة أسرع بقليل من وتيرة النمو الاقتصادي،<sup>4</sup> هناك حجة تفيد بأن زيادة المخزون النقدي للدولة لها آثار إيجابية على المدى القصير مثل تحفيز نمو الاقتصاد خلال الفترات التي قد نشعر فيها باقتراب موجات من الركود أو الكساد، ولكن بشرط ألا يطبعوا النقود بكميات مفرطة".

"حسنًا، لا يزال هذا الكلام يبدو غامضًا بعض الشيء بالنسبة لي، لكن على كل حال، ما هو التأثير الحقيقي الذي يحدثه التسهيل الكمي؟".

"هناك جدل قائم بخصوص تلك النقطة، ولكن مع هذا، فهناك إجماع عام على أن التسهيل الكمي له فضل كبير في تهدئة الذعر الاقتصادي الذي انتشر على نطاق واسع بعد الأزمة العالمية، حيث انتشر الظن بأننا على حافة انهيار اقتصادي مروع، وكانت سياسة التسهيل

الكمي خطوة أفضل من عدم القيام بشيء مطلقًا، كما أنها وجّهتنا بعيدًا عن خطر مواجهة كارثة كالكساد العظيم من جديد.

لم تثبت صحة المخاوف من أن التسهيل الكمي سيتسبب في حدوث تضخم؛ لم يهرع الناس لشراء كميات كبيرة من السلع الاستهلاكية، وعوضًا عن ذلك شرعوا في شراء الأصول المختلفة كالأسهم والمنازل مما أدى إلى ارتفاع أسعارها، وبالتالي الحفاظ على التضخم عند مستويات منخفضة إذ إن ارتفاع أسعار الأصول لا ينعكس في مؤشر الأسعار على المستهلك".

"إنّ، هل تقصدين أن التسهيل الكمي - أو طباعة الأموال - لا يؤثر على أسعار البضائع الاستهلاكية، ولكن يتسبب في ارتفاع أسعار الأصول التي لا يظهر ارتفاعها في مؤشرات التضخم؟ أليست هذه فكرة مضللة بعض الشيء؟".

"نعم، أنا أعتقد ذلك أيضًا، أظهرت تحليلات بنك إنجلترا المركزي لتأثيرات سياسة التسهيل الكمي أنه - على الجانب الإيجابي - من دون وجود هذه السياسة، ستضطر العديد من الشركات لإعلان إفلاسها؛<sup>5</sup> ربما ساعد التسهيل الكمي على دعم النمو الاقتصادي، وزيادة الأجور، وإبقاء البطالة عند معدلات منخفضة بشكل أفضل مما كان متوقعًا في حال غياب تنفيذه".

"وماذا عن الجانب السلبي؟".

"لقد قلّ مسبقًا إن أسعار الأسهم والممتلكات قد ارتفعت، وهذا شيء إيجابي للغاية بالنسبة للأفراد الممتلكين لها - كالأغنياء وكبار السن - ولكنه جانب سلبي بالنسبة للأفراد الراغبين في شراء أول منزل لهم، أو يريدون الادخار من أجل تأمين مستقبلهم، وجميعهم من فئة الشباب والفقراء، بعد أزمة كوفيد - 19، شهدنا موجة ضخمة على نطاق واسع من اعتناق سياسة التسهيل الكمي، ما أثار القلق لدى بعض الأشخاص من أن تعتمد الحكومة هذه السياسة بشكل دائم لتصبح جزءًا لا يتجزأ من منظومتها، بعدما بدأت في المقام الأول

كمجرد تدبير طارئ؛ وذلك لأنها تتيح للحكومة فرصة للاقتراض كلما شعرت بحاجة إلى ذلك دون أن تضطر لمواجهة العواقب الناتجة عن تراكم الديون".

"إذن ماذا يمكننا أن نستنتج بشكل نهائي بعد الاطلاع على هذه الحقائق؟".

"بشكل تلقائي، فإن سياسة التسهيل الكمي تصيبني بالقلق والتوتر، أشار جون كاي - وهو أحد خبراء الاقتصاد المرموقين - إلى أن سياسة تخفيض معدلات الفائدة إلى مستويات متدنية للغاية قد أدت لحدوث تضخم في أسعار الأصول؛ بات شراء المنازل خارج القدرة المادية للعديد من الأفراد، إلى جانب أنها جعلت ادخار المال على المدى البعيد أمرًا يكاد يكون يائسًا وبلا أي قيمة، بحسب قوله، فإن التأثير الرئيسي الذي أحدثته السياسة النقدية منذ عام 2008 هو زيادة ثروة الأشخاص الممتلكين بالفعل لأصول طويلة الأمد - سواء إن كانت مالية أو عقارية - على حساب أشخاص آخرين لن يتمكنوا أبدًا من امتلاك مثلها في الوقت الحالي. 6

لعل أكبر المشكلات التي نواجهها هو أنه لا يوجد من يفهم حقًا ماهية التسهيل الكمي، وبالتالي فإننا نحصل على كم ضئيل جدًا من نقد وتعليق للعامة على سياسة مهمة كهذه، أضف إلى هذا أن الأمر لا يقتصر على العامة فقط، فمعظم السياسيين لا يفهمون ماهية التسهيل الكمي كذلك، والقلة القليلة التي تفهمه لا تتفق فيما بينها على مدى تأثيره أو قيمته. مع ذلك، التسهيل الكمي هو أفضل حل لدينا على الرغم من جميع مخاطره، حيث إننا لا نمتلك بديلًا آخر سوى المعاناة. إن التسهيل الكمي أشبه بمخدر المورفين: ذو تأثير عظيم عندما تكون في أمس الحاجة له، ولكن إدمانه شيء خطير وفي غاية السهولة".

"في الحقيقة، يبدو التسهيل الكمي أمرًا غير عقلاني بالنسبة لي".

"إن كنت تعتقد أن التسهيل الكمي شيء جنوني وغريب، فهو ليس على مستوى غرابة ما سأحدثك عنه في الحال: النظرية النقدية الحديثة، وتعتبر ستيفاني كيلتون أبرز وجه

معروف للنظرية،<sup>7</sup> تنص الفكرة الأساسية للنظرية على أنه ينبغي على الحكومة تحديد الجوانب التي تريد الإنفاق عليها بدقة، وبعد ذلك، يمكنها طباعة ما تشاء من الأموال".

"ماذا؟ ولكن ألا يتعارض هذا مع كل الأشياء التي قلّتها من قبل؟ ماذا عن التضخم و... و... الأفراد الذين اضطروا لحمل عربة محملة بالنقود بين أيديهم حتى يتمكنوا من دفع تكلفة رغيف واحد من الخبر؟".

"لم تزعم كيلتون أو أي من أنصار النظرية النقدية الحديثة بأن التضخم ليس بالأمر الجلل، ولكن حجتهم تقول إنه ما دام هناك فائض من القدرات الإنتاجية باقتصادنا بالإضافة إلى نسبة من العمالة لم توكل بأي وظيفة، فإن تطبيق النظرية النقدية الحديثة لن يتسبب في التضخم بأي شكل، وإذا بدأ التضخم في الزيادة بالفعل، فيمكن أن تسيطر عليه الحكومة بسهولة من خلال تقليص معدل إنفاقها، أو بشكل أفضل، من خلال فرض الضرائب على الأغنياء، وبالتالي التخلص من فائض القدرة الإنفاقية المتسبب في ارتفاع التضخم".

"هممم، كلام مقنع بدرجة لا بأس بها، أظن أن هناك حُجة معارضة لهذه السياسة، فما هي؟".

"لعلك قد لاحظت أن النظرية النقدية الحديثة تتمتع بتأييد كبير من التيار السياسي اليساري، ولهذا، يمجتها التيار اليميني بطبيعة الحال، إن النظرية النقدية الحديثة - من منظور التيار اليميني - عبارة عن أداة تتمكن من خلالها الدولة بتوسيع سلطتها والتدخل في الشؤون الاقتصادية،<sup>8</sup> كما أن ناقدى النظرية يرفضون الاعتراف بأنه يمكننا السيطرة على التضخم من خلال هذه السياسة، ما يعيدنا إلى الحُجة السابقة التي تجادل بأن التضخم ما هو إلا ضريبة مستترة في الحقيقة.

يجادل نقاد النظرية النقدية الحديثة أنه في الواقع، عند تمويل الحكومة لمشروعات من خلال الاستعانة بطباعة النقود، فإنها لن تستهدف العمالة العاطلة أو المصانع الشاغرة فحسب، بل ستستعين بنسبة من العمالة والمواد الخام الخاصة بالقطاع الخاص، مما يخلق

ظروفاً ملائمة لارتفاع معدلات التضخم، علاوةً على هذا، هناك حُجة ثاقبة تقول إنه إذا اعتنقت الدول السيادية النظرية النقدية الحديثة بشكل مكثف أكثر من اللازم، فقد تجد نفسها في نهاية المطاف غير قادرة على الاقتراض من الدول الأخرى بعملتها الوطنية؛ هناك سبب وجيه دفع اليونان لاعتماد اليورو كعملة رسمية، وفنزويلا لاقتراض الكثير من المال بعملة الدولار الأمريكي بدلاً من عملتها".

"وما هو رأيك الشخصي بهذا الشأن؟".

"إن كان التسهيل الكمي يصيبني بالتوتر، فإن النظرية النقدية الحديثة تجعلني أرتعد خوفاً بطبيعة الحال، مع ذلك، أنا لست واثقة تماماً من وجود فارق جوهري بين كلٍّ من النظرية النقدية الحديثة والتسهيل الكمي، إذ إنهما في حقيقة الأمر، متداخلان مع بعضهما البعض، عند تطبيق النظرية النقدية الحديثة - بحسب منظور كيلتون - ستستطيع الحكومة - بل ينبغي عليها - طباعة ما تشاء من المال ما دام الأمر لن يؤدي بها إلى ارتفاع معدلات التضخم، ويبدو أننا اعتنقنا هذا المبدأ بالفعل؛ لذلك فإن الفارق الجوهري بين السياستين هو اختلاف نسبي يتغير بحسب احتياجات الدولة، بمعنى آخر: إلى أي مدى تسعى الحكومة لزيادة المخزون النقدي، وبأي وسيلة ستستعين لتحقيق ذلك؛ إما أنها ستحقق ذلك بطريق غير مباشر من خلال البنوك، أو بشكل مباشر عن طريق توسيع نطاق إنفاقها".

"لقد بدأت أشعر بقليل من التشتت، حتى الآن، لقد تحدثنا في هذه النزعة عن كيفية تحكم السلطات بكمية النقود المتدفقة بالاقتصاد، حيث ذكرنا أن هناك وسيلتين: السياسة المالية التي تتمحور حول فرض الضرائب ومعدلات الإنفاق الحكومي، والسياسة النقدية التي تتمحور حول معدلات الفائدة وتحديد كمية الأموال التي تحتاج الحكومة لطباعتها أو ضخها إلى داخل الاقتصاد من خلال ذلك الشيء المسمى التسهيل الكمي، علاوة على هذا، تقوم الحكومات والبنوك المركزية بالتجريب والتبديل بين هاتين السياستين، من أجل منع وقوع الكساد وإبقاء الدول بعيدة عن خطر الركود، هل يمكن القول إنني فهمت ما قصدته بشكل صحيح إلى حد ما؟".

"هذا ممتاز يا مونتي، فضلاً عن أننا شارفنا على الوصول إلى المنزل، لذلك، حان الوقت لختام هذا النقاش، هيمنت النظرية الكينزية على الفكر الاقتصادي حتى ستينيات القرن الماضي، حيث يُنسب إليها فكرة أن السياسة المالية هي أفضل طريقة للسيطرة على نوبات الركود، إذ إن توسيع الإنفاق الحكومي هو السبيل الوحيد للخروج بالاقتصاد من الركود، أو منعه من الدخول في حالة ركودية بالمقام الأول، وذلك في حالة ضعف الطلب على السلع من قبل المستهلكين. بحلول عقد السبعينيات من القرن نفسه، لم تعد النظرية الكينزية محل اهتمام أو تطبيق على نطاق واسع؛ بدأت الاقتصادات الأوروبية والأمريكية - التي اتبعت نهج المبادئ الكينزية بشكل بارز - في التعثر والتراجع، بحيث انخفضت معدلات النمو، وارتفعت نسب كل من البطالة والتضخم.

أوشكت الأوضاع حينئذ على أخذ مجرى مختلف؛ وأصبحت السياسة النقدية هي المبدأ الاقتصادي السائد وذلك بقيادة حكومتي ثاتشر وريجان في المملكة المتحدة والولايات المتحدة على التوالي، قُدِّمت حُجة جديدة في ذاك الحين تفيد بأن تخفيض معدلات الفائدة من شأنه تحفيز الأفراد على إنفاق أموالهم في شيء إنتاجي ونافع، سواء من خلال إنفاقها أو استثمارها، انخفضت معدلات الفائدة بحلول العقد الأول من القرن الحادي والعشرين إلى مستويات لم نشهد لها نظيراً على مدار التاريخ، وبعد حدوث الأزمة المالية، انتهت الحكومة من جميع الإجراءات والأدوات الفعالة التي يمكن استخدامها للتصدي لتلك الظروف، بذلت الحكومة كل ما لديها من جهد لتخفيض معدلات الفائدة إلى أن قاربت على بلوغ الصفر، ومع ذلك، لم يكن هذا كافٍ لتحفيز المستهلكين لإنفاق المال، أو المستثمرين لتشغيل عجلة الاستثمار، أمست الأوضاع حينذاك - بحسب ما وصف كينز - مثل "النفخ في قربة مثقوبة"، ولذلك، طبقت الحكومة بشكل تجريبي بعض السياسات النقدية المتطرفة مثل التسهيل الكمي، بعد ذلك، أتت أزمة كوفيد - 19 التي كانت ظرفاً استثنائياً جعل البنوك المركزية تهتم بالمناداة بتنفيذ السياسة المالية عوضاً عن أي بديل آخر. هل من الممكن أن تخبئ لنا جميع تلك التدابير المالية والنقدية التي اتخذناها كي نتصدى لأزمة كوفيد - 19 المتاعب والمعاناة في المستقبل؟ نعم، بالتأكيد، يجب أن نضع في اعتبارنا

دائمًا أن الثراء الحقيقي لا يتمثل بالضرورة في امتلاك المال، وأن العملات الرسمية الحديثة لا تزال محتفظة بقيمتها فقط لأن الأشخاص الذين يتاجرون ويمتلكون موارد ذات قيمة فعلية لا يزالون يقبلون بها كوسيلة للتبادل، إن العملات الرسمية تحمل قيمة فعلية فقط عندما تكون على مستوى ما من الندرة، والوظيفة الأساسية للبنوك المركزية هي التحكم في تلك الندرة. لكن، من الحق أن نعترف بأنه إذا لم تزد الحكومة معدلات إنفاقها بشكل ملموس (السياسة المالية) وتخفّض معدلات الفائدة وتعتنق سياسة التسهيل الكمي (السياسة المالية) لساءت الأزمة بشكل مروع وخاضت أعدادًا مهولة من الناس المعاناة القاسية نتيجة لذلك.

والآن، استرخ، فقد وصلنا أخيرًا إلى المنزل."

"لقد لاحظت شيئًا: صادفنا كلبًا من فصيلة الدشهند في طريقنا، وقد أطل عليّ بنظرة غريبة، وكنت متأكدًا تمامًا من أنه... أنه ضحك في وجهي ساخرًا! إن التعرض للسخرية من قبل كلب الدشهند هو كأن يلقبك مهرج بأنك أحمق".

نظرت نظرة خاطفة إلى الشريطة الزخرفية وردية اللون على شعر مونتي.

ثم قلت له: "هذا مجرد توهم يا مونتي".



# النزهة ١٦: العولمة: لماذا تسهم التجارة العالمية في زيادة رخائنا (باستثناء البعض)؟

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: ثلاث فترات مختلفة من العولمة، السياسة الحمائية: هل تجعل الشركات - ذات الصلات الوثيقة - غنية ومترامية؟ أم أنها تمنح الصناعات الناشئة الوقت الكافي للنمو؟ لماذا يمكن أن تدر التجارة الحرة الاستفادة والربح على جميع الأطراف؟ (إذ إنها تفسح المجال أمام التخصص، وتطبيق اقتصادات الحجم، والتنافس دون أن تطلق النار على عميلك)، سنتناول أيضًا سلبيات التجارة الحرة، حيث هناك حُجة سديدة عن سلبياتها إلى جانب حجتين سيئتين، وأخيرًا: كيف يؤثر جميع ما سبق على تدفق الأموال بالاقتصاد؟ وكيف يؤثر على الحركة السكانية؟

إن نباح مونتي بشكل مضطرب لا يعني سوى شيء واحد، لعلك خمنتَه بالفعل: مجيء ساعي البريد، أو بالأحرى - كوننا في عام 2021 - مندوب التسليم التابع لشركة DHL، وقد سلّمني طردًا يحتوي على شيء مرن أو لين بداخله، علمت فورًا ما يحتويه الطرد، فقلت: "إنه من أجلك يا مونتي".

راح مونتي يشم الطرد بسرعة وحماس، ولكن تلاشى اهتمامه بالأمر بعد ذلك؛ علم مونتي ما يحتويه أيضًا.

فتحت الطرد، ثم قدمت إلى مونتي معطفه الخارجي الأنيق والجديد من ماركة Pucci (وأعتقد أنها على وزن ماركة Gucci ولكن سميت هكذا نسبة إلى كلمة Pooches التي تعني كلاب).

"نعم، إنه يليق بي بالتأكيد، مثلما تليق صلصة الخردل بالنقانق!".

"بغض النظر عما إن كان يليق بك أم لا، دعنا نخرج في نزهة ونستعرضه أمام الجميع".

"أنا أشعر بقليل من التعب اليوم؛ يبدو أنني لا أستطيع الحركة بشكل طبيعي بأرجلي المتعبة".

"لا تقلق، سنذهب في نزهة قصيرة لا تتعدى السير في الشارع الرئيسي ذهابًا وإيابًا، كما أنني قررت بالفعل الموضوع الذي سنناقشه".

قلت له هذا أثناء ما كنت أنظر إلى الملصق التجاري الموجود على المعطف حيث كُتب عليه "صنع في الصين".

بعد مرور خمس دقائق، خرجنا تحت أشعة الشمس المنعشة، حيث كان مونتي يبدو بمظهر أنيق للغاية إلى جانب أنه شعر بالارتياح والدفع بمعطفه الجديد.

"أخبريني إذن، كيف ستربطين حصولي على معطف جديد بما سنتحدث عنه اليوم؟ أتوقع أن لديك خطة محكمة بالفعل".

"لقد قطع معطفك مسافةً طويلة يا مونتي حتى يصل إليك ويمنحك الشعور بالدفع، لذلك شعرت برغبة للحديث عن التجارة العالمية أثناء تنزهنا معًا للمرة الأخيرة تقريبًا".

"نزهتنا الأخيرة؟ أهنأك شيء لا أعلمه بعد؟".

"لم أقصد نزهتنا الأخيرة على الإطلاق، بل نزهتنا الأخيرة في الحديث عن الاقتصاد".

"هذا يبعث على الارتياح! لقد قلت التجارة العالمية؟ يبدو أمرًا مثيرًا للاهتمام".

"هذا صحيح. حتى الآن، كانت آفاقنا ضيقة، حيث صبنا كامل تركيزنا على اقتصادات أوروبا وأمريكا الشمالية فقط، لكن، كما أظهر لنا معطفك الجديد، فإن شراء أي شيء تقريبًا في الوقت الحالي، بدءًا من البقوليات المعلبة حتى السيارات الكهربائية، يجعلك تندمج داخل شبكة تجارية كبيرة تمتد لتشمل العالم بأسره. في بعض الأحيان، لا يعي المرء تمامًا هذه الحقيقة إلا عند حدوث مشكلة ما".

"أخبريني كيف".

"في الثالث والعشرين من شهر مارس عام 2021، علقت سفينة إيفرجيفين - وهي تُعد من أكبر سفن الحاويات التي بُنيت على الإطلاق - على أحد جانبي قناة السويس، مثلما تعلق عظام الدجاج في حلق كلب صغير".

"لا تُذكّرني، كانت هذه حادثة مروعة جعلتني أمتنع عن تناول دجاج كنتاكي المقلي إلى الأبد".

"لقد توسلنا إليك مرارًا وتكرارًا بألا تلتقط أي طعام تجده ملقى في الشارع".

"في بعض الأحيان، يشعر الكلب برغبة مُلحة للتصرف بحسب غريزة الكلاب الطبيعية".

"على كل حال، باتت سفينة إيفرجيفين التي يبلغ وزنها 200 ألف طن رمزًا عائمًا يمثل جميع المشكلات التي يمكن أن تحدث بسبب العولمة، تمر نحو 12% من جملة التجارة العالمية في قناة السويس، ولذلك، تحمل القطاع التجاري خسائر مالية ضخمة بشكل لا يصدق عقل، حيث قدرت بسبعة مليارات جنيه إسترليني لكل يوم ظلت فيه السفينة عالقة في القناة".

"يا لها من فوضى... ألم يستطيعوا إخراج السفينة بالقوة، مثلما استخرجت تلك العظمة المزعجة من حلقي؟".

"لقد حاولوا فعل ذلك، ولكن استغرق الأمر ستة أيام".

"ومن المعلوم على هذه الكارثة؟".

"إن كان مقصدك أن تعرف الكيان المنسوبة إليه ملكية هذه السفينة، فيجب أن تعلم أن هذا موضوع شديد التعقيد والتشعب، ولكنه في الوقت نفسه يكشف لنا العديد من الخبايا الخاصة بطبيعة الحركة التجارية العالمية. بُنيت سفينة إيفرجيفين في حوض بناء سفن

ياباني، وبعدها، تم تأجيرها لشركة تايوانية ومن ثم تشغيلها من قبل شركة شحن ألمانية، ومع ذلك، لا تُنسب جنسية السفينة إلى اليابان، أو تايوان، أو ألمانيا، إذ إنها تحمل علم دولة بنما، وبالتالي تعمل وفقًا لقوانين بنما التي تعتبر مرنة إلى حد معين، وبالنسبة لطاقم السفينة، فهو يتكون بشكل رئيسي من عمال هنود، صدق أو لا تصدق، هذه القصة التي على وشك أن أقصها عليك ما هي إلا جزء بسيط نسبيًا من القصص المعقدة المتعلقة بعالم الشحن والتجارة العالمية. غرقت الناقلّة النفطية - وكانت تُدعى إريكا - في عام 1999 قبالة سواحل بريطانيا الفرنسية؛ ما أدى إلى تلوث شديد للمياه المحيطة بالمنطقة. استغرق الأمر عدة أسابيع حتى تمكنوا من اكتشاف المالك الأصلي للناقلة الذي كان متخفيًا بين اثنتي عشرة شركة من الشركات السورية".1

بشكل عام، إن سفينة إيفرجيفين ليست مجرد رمز للعولمة، ولكن هناك أبعاد أخرى كما سنتناول بعد قليل؛ كانت وسائل النقل الرخيصة، بما فيها الشحن بشكل خاص، واحدة من القوى الدافعة الرئيسية وراء حركة العولمة".

"العولمة؟ ما الذي تقصدينه تحديدًا بهذه الكلمة؟".

"العولمة هو مصطلح يطلق على عالمنا المترابط والمتداخل ببعضه على نحو متزايد، وفي هذه المحادثة، سأستخدم هذا المصطلح للإشارة بشكل رئيسي إلى نقل السلع والخدمات حول أرجاء العالم".

"إذن، أنتِ تقصدين التجارة العالمية بهذا المصطلح؟".

"نعم، ولكن المصطلح يشمل أيضًا التدفق المالي والسكاني من مكان إلى آخر في عالمنا، علاوة على هذا، هناك جانب آخر - غير مادي - من العولمة يشمل انتقال الأفكار والثقافات بين مختلف الشعوب".

"حسنًا، فلتخبريني، أنا أعلم أن لديك خطة، ما البرنامج المحدد لنزهتنا اليوم؟".

"لنبدأ بمناقشة بعض الجوانب التاريخية، إن التجارة ليست شيئاً جديداً على البشر؛ لقد قلث فيما سبق إن البشر زاولوا الأنشطة التجارية وقايضوا البضائع مع بعضهم البعض على مدار آلاف السنوات، وفي بعض الأحيان، كانت تمتد تلك الأنشطة إلى مسافات بعيدة حول العالم. منذ أربعة آلاف عام، جلبت القوارب الياقوت الخام من تايوان إلى جزر الفلبين حيث تم تحويله إلى مجوهرات بغرض التجارة والبيع إلى مجتمعات تقطن بعض الجزر الأخرى، لكن المستجدات التي طرأت حديثاً على الأمر هي نوعيات وكميات السلع التي تتم تجارتها في العصر الحالي؛ زادت نسبة صادرات العالم في وقتنا هذا بمقدار أربعين مرة بالقياس إلى ما كانت عليه في عام 2.1913

في الآونة الأخيرة، ظهر اتجاه يميل إلى تقسيم العولمة لثلاث فترات مختلفة، امتدت الفترة الأولى، منذ قرابة سبعينيات القرن التاسع عشر، حتى أواخر عشرينيات القرن العشرين، وتميزت هذه الفترة بسهولة وقلة تكاليف نقل البضائع والمعلومات - التي تشغل القدر نفسه من الأهمية - حول العالم، امتدت الفترة الثانية، من العولمة منذ عام 1929 حتى الحرب العالمية الثانية، وخلال هذه الفترة، واجهت العولمة الكثير من التحديات وتوقفت حركتها بالكامل، حيث عانت العديد من الدول مرارة الآثار التخريبية التي نجمت عن الحرب العالمية الأولى إلى جانب الكساد العظيم، مما جعلها تنغلق على نفسها وحفزها لتبني سياسات حمائية متطرفة".

"حمائية؟".

"هذه سياسة تعني أن تقوم الدولة بحظر استيراد السلع من الخارج، أو بفرض رسوم جمركية على السلع المستوردة حتى تجعلها باهظة الثمن بهدف تشجيع الصناعة المحلية.

أما عن الفترة الثالثة من العولمة، فبدأت من بعد الحرب العالمية الثانية، حيث بدأت الدول في اعتناق الانفتاح الاقتصادي من جديد وشهدت التجارة انتعاشاً منقطع النظير. ويرجع الفضل في ازدهار حركة التجارة إلى بعض التطورات التكنولوجية: مثل تكنولوجيا الشحن باستخدام الحاويات التي خفضت بشكل كبير تكاليف نقل البضائع حول العالم حتى إنها

تكاد لا تذكر. أفسح هذا التقدم المجال أمام المصنعين لإنشاء المصانع في أي مكان يتميز برخص العمالة، إذ إن التكاليف الإضافية الزهيدة للنقل يمكن دفعها بكل سهولة من خلال المال الموفر من ميزانية القوى العاملة، وبعد هذا، جاءت تكنولوجيا الإنترنت التي حطمت جميع الحدود والعوائق التي يمكنها أن تعطل نقل المعلومات بين مختلف أرجاء العالم".

"أليست السياسة الحمائية تقف في وجه كل هذا التطور؟ لماذا قد يحبذون استخدامها إذا؟".

"على مر العصور، كانت التجارة العالمية مجرد حالة من حالات المجموع الصفري، إذ إن الناس قدروا ثروة الدولة بمقدار ما تملكه من ذهب، وكل شيء فعلته الدولة حينئذ، كان لصالح تزويد مخزونها من الذهب، وإشباع تلك الشهوة للحصول على الذهب، ساد اعتقاد معين حينذاك بأنه يجب على كل دولة أن تصدر كميات ضخمة من السلع بقدر المستطاع، وتستورد كميات زهيدة بقدر الإمكان، ومن هنا، أتت فكرة فرض الرسوم والضرائب على السلع المستوردة، كان آدم سميث - الذي دائماً ما تميز برؤياه الثورية الحديثة - أول من يشير إلى أن ثراء الدولة لا يُقاس بمقدار ما تملكه من ذهب، إنما يُقاس بالمستويات المعيشية لشعبها، كما أنه طالب بإلغاء الرسوم الجمركية وحصص الاستيراد المحددة حتى تنخفض أسعار الغذاء وترتفع المستويات المعيشية لدى الأفراد، بكل تأكيد، ستحمل تلك التدابير تداعيات سلبية على بعض المصنعين المحليين، ولكنهم سيبحثون عن فرص أخرى في مجالات جديدة تمتاز البلاد بالريادة والبراعة فيها".

"وهل اتبع الناس إرشاداته؟".

"حظيت الحجج التي طرحها بنفوذ وتأثير كبير في المملكة المتحدة؛ كان إلغاء الرسوم والقوانين التي تحد من استيراد الحبوب - المعروفة بقوانين الذرة - نقطة محورية في هذا الصراع الفكري".

"قوانين الذرة؟".

"تواجدت في بريطانيا رسوم جمركية باهظة على استيراد الحبوب من الخارج في عام 1815 يمكن أن تصل إلى ما يقرب من ثمانين في المائة من سعر الحبوب المستوردة، وذلك لأن مالكي الأراضي الزراعية الذين حظوا بنفوذ أرادوا منع استيراد الذرة الرخيصة من الخارج وإدخالها السوق البريطانية حتى لا تباع بسعر أقل من محاصيلهم وتتسبب في خفض سعرها، لكن، عانى المستهلكون - خاصة الفقراء منهم - مرارة هذا الوضع، وأخذت الأمور في التفاقم حتى بلغت مرحلة حرجة عندما تراجعت كمية المحصول؛ ما أدى إلى حدوث مجاعة البطاطا الأيرلندية في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر.

بينما عانت أيرلندا قسوة المجاعة، عانت بريطانيا ندرة الموارد، حيث لم يقدر الفقراء حينئذ حتى على شراء الطحين، بات استيراد الذرة الرخيصة من الخارج أمرًا لا غني عنه كي لا تعصف المجاعة التي قضت على أيرلندا بالأراضي البريطانية، وأُلغيت قوانين الذرة ببريطانيا في عام 1846، مما دشن عصرًا جديدًا من التجارة الحرة تفردت به السياسة الاقتصادية البريطانية طوال الفترة المتبقية من القرن التاسع عشر،<sup>3</sup> وترتبط التجارة الحرة في الوقت الحاضر بالشركات الضخمة والبغيضة متعددة الجنسيات التي تستغل عاملها، ولكن قبل 175 عامًا، كان الغرض الأساسي من هذه السياسة هو مساعدة الشعوب الجائعة، وليس مساعدة الأثرياء".

"وهل هناك دول أخرى سارت على خطى بريطانيا وأفسحت المجال أمام التجارة الحرة؟".

"لم يحدث هذا إلا بعد مرور فترة طويلة، كانت بريطانيا القوة الصناعية الأولى على مستوى العالم في القرن التاسع عشر، ما أتاح لها القدرة على فتح أبواب التجارة الدولية، على الجانب الآخر، كانت الأولوية القصوى لبعض الدول الأخرى هي حماية صناعاتها الناشئة، عندما نعمت الولايات المتحدة الأمريكية باستقلالها، اعتمدت تدابير حماية متطرفة كي تفسح المجال أمام قطاعها الصناعي للتطور، لم تعتنق الولايات المتحدة سياسة التجارة الحرة إلا فيما بعد الحرب العالمية الثانية، فعلت ألمانيا الأمر نفسه، إذ إنها

وفرت الحماية لقطاعها الصناعي المتنامي من خلال فرض رسوم جمركية عالية شكّلت عائقًا يقف في وجه التجارة الدولية.

لا تزال التجارة الحرة موضوعًا شائكًا ومثيرًا للجدل؛ كانت السنوات الأخيرة فترة عصيبة على من يؤمنون بسياسة التجارة الحرة، قاد الرئيس دونالد ترامب الولايات المتحدة إلى حرب تجارية ضد الصين، وكتب تغريدة على موقع تويتر يقول فيها: "قامت دولتنا منذ القدم على الرسوم الجمركية، وإن الرسوم الجمركية المفروضة في الوقت الحاضر ستقودنا إلى صفقات تجارية استثنائية وجديدة من نوعها، بعكس الصفقات الشنيعة وغير العادلة التي انتقلت إليّ عن الإدارة السابقة بصفتي رئيسًا للبلاد، نحن لن نعطي الفرصة مجددًا للدول الأجنبية لاستغلال خيرات أمريكا العظيمة، ليس بعد الآن!"،<sup>4</sup> يمكننا اعتبار التصويت لصالح البريكسيت في المملكة المتحدة نوعًا من الاحتجاجات ضد تأثيرات العولمة والتجارة الحرة".

"إذن، بحسب فهمي، فالسياسات الحمائية أمر سيئ، لكن، لماذا تحظى بمساندة بعض الناس؟".

"هنالك حجة منطقية بأن فرض قيود حمائية على حركة الاستيراد يساعد الدول النامية على تطوير قطاعات صناعية جديدة، ولقد رأينا هذا يحدث بالفعل مع ألمانيا وأمريكا في القرن التاسع عشر، إلى جانب كوريا واليابان في القرن العشرين. ولكن يجب توخي الحذر عند فرض هذه النوعية من القيود، إذ إن الفقراء هم من يتحملون عواقبها في حين أن الأثرياء يتمتعون بفوائدها، وهذا بالتحديد ما شهدناه عند فرض قيود على استيراد الذرة، هناك شكل آخر من أشكال السياسات الحمائية، وهو منح إعانات مالية للمصنعين المحليين؛ منحت كل من أوروبا والولايات المتحدة مبالغ ضخمة بغرض دعم الإنتاج الزراعي المحلي، ولكن في النهاية، اقتصرت منافع تلك الإعانات على المزارعين الأثرياء بشكل خاص. حصلت الفئة التي تمثل أغنى واحد في المائة من المزارعين بالولايات المتحدة على 25% من إجمالي الإعانات المالية في عام 2019. يجب أن نطرح على أنفسنا بعض السياسات



المالية المهمة قبل اتخاذ أي تدابير حمائية: على أي فئة ستعود سياسة فرض الرسوم الجمركية بالنفع؟ وهي تلك الفئة بحاجة ماسة إلى المساعدة حقًا؟".

"حتى الآن، يبدو لي استنادًا إلى كلامك أن العولمة نعمة ونقمة في آن واحد، ظننت أن هناك العديد من الجوانب الإيجابية للعولمة".

"سأبدأ بالحديث عنها في الحال، تُنسب أول حُجة تناولت فوائد العولمة إلى ريكاردو (أتذكره؟ هو صديق مالتوس الثري، ولقد تحدثنا عنه في إحدى نزهاتنا السابقة)، طرح ريكاردو من خلال تلك الحُجة نظرية تُعرف بـ "الأفضلية النسبية". إن الفكرة الأساسية وراء هذه النظرية أن تخصص كل دولة في إنتاج السلعة التي تتميز بها: كأن تخصص فرنسا في إنتاج القهوة، وإسكتلندا في صناعة المشروبات الغازية، وإيطاليا في إنتاج الملابس والمملكة العربية السعودية في النفط؛ لذا ينبغي أن تنتج كل دولة السلع التي تتقن صنعها بامتياز، وتنخرط في تجارتها مع الآخرين، ويسهل فهم الفكرة بشكل أكبر عندما نتحدث عن "الأفضلية المطلقة". لنفترض أنني متميزة في صناعة أطواق الكلاب، وأنت تتميز في صناعة حبال مقاود الكلاب - هذا يعني بطبيعة الحال أن لدي أفضلية مطلقة في صناعة الأطواق، وأنت لديك أفضلية مطلقة في صناعة حبال المقاود، ومن هذا المنطلق، ينبغي أن أتخصص وأقضي كل وقتي في صناعة الأطواق، وينبغي عليك أن تفعل المثل مع صناعة حبال المقاود، ثم بعد ذلك، ننخرط في صفقات تجارية مع بعضنا البعض. لكن، ماذا إن كنت متميزة في صناعة الشئئين معًا؟ لعل هذه الفكرة لا تتوافق مع الأعراف التقليدية، ولكن حتى في مثل هذه الحالة، من الأفضل التخصص والتجارة في شيء واحد فقط".

"ماذا؟ أنا لا أفهم ما تقصدينه بالضبط".

"هذه هي الفكرة الأساسية وراء نظرية الأفضلية النسبية، وقد ضربت "إيملي أوستر" - وهي أستاذة اقتصاد بجامعة براون - مثالاً رائعاً عليها: أخبرتنا كيف تقرر هي وزوجها تقسيم مهمات المنزل بينهما، وأنها أفضل من زوجها في القيام بمعظم المهمات تقريبًا، خاصةً طهي الطعام وغسل الأطباق، لكن مع ذلك، فإنها أفضل من زوجها بفارق شاسع في

الطهي - لنقل إنها أفضل بمقدار عشر مرات - وأفضل منه بفارق ضئيل فقط في غسل الأطباق - لنفترض أنها أفضل بمقدار مرتين - في هذه الحالة، يمكن اعتبار إيملي أن لديها أفضلية نسبية في الطهي، ولدى زوجها أفضلية نسبية في غسل الأطباق،<sup>5</sup> وبالنظر من جانب تحقيق الكفاءة، من غير المنطقي أن يشترك الزوجان بالتساوي في إنجاز مهام الطهي وغسل الأطباق؛ ينبغي على الزوجة أن تخصص كامل وقتها لطهي الطعام، وينبغي على الزوج تخصيص كامل وقته لغسل الأطباق.

ينطبق الاستنتاج نفسه على التجارة العالمية؛ فحتى إن كانت هناك دولة ما تتفوق على دولة أخرى في صناعة العديد من الأشياء، فإن تركيز كل دولة منهما على تصنيع شيء واحد فقط تتميز به عن الأخرى سيحقق إنتاجية وكفاءة أعلى، يجب على كل دولة - مثلما يجب على كل فرد أيضًا - أن تخصص في إنتاج ما تجيد وتبرّع في إنتاجه، ومن ثم، تشرع في تجارته ومبادلته مقابل حصولها على ما تحتاج إليه من سلع، إن المضمون الأساسي لما نتحدث عنه هنا هو الفوائد الإنتاجية التي نلها بفضل التخصص؛ يساهم التخصص في زيادة معدلات إنتاجنا، وتفسح لنا التجارة المجال لممارسة التخصص في المقام الأول.

الحجة الثانية لفوائد العولمة تقول إن التجارة العالمية تعمل على توسيع حجم الأسواق، وعندما يزداد حجم الأسواق، تُتاح أمام الشركات فرصة لتوزيع التكاليف الثابتة على إنتاج المزيد من السلع؛ على سبيل المثال: إذا افترضنا أنني أملك مصنعًا في نيوكاسل لتصنيع محركات للقوارب، فبالأكيد، هناك بعض التكاليف الثابتة للإنتاج التي يجب دفعها: مثل تكاليف تصميم المحرك، إن كان - مثلاً - بيع منتجات مصنعي مقتصرًا فقط على سوق شمال شرق إنجلترا، فإن التكاليف الثابتة ستقتنص نسبة كبيرة من إجمالي تكاليف الإنتاج. لكن، إن كانت منتجاتي تُباع في جميع الأسواق الموجودة بأحاء المملكة المتحدة، فهذا يعني أن تكلفة تصميم المحركات ستوزع على عدد أكبر بكثير من الوحدات المنتجة (المحركات)؛ ما يقلل من تكلفة إنتاج كل وحدة، وإن كانت منتجاتي تُباع في جميع أنحاء العالم، فهذا يعني أنه بإمكانني بيع منتجاتي لمزيد من العملاء في أرجاء مختلفة من العالم

دون زيادة تكاليف الإنتاج الثابتة، كأنك يا مونتي تمتلك نظامًا للرش موصل بجسدك، بحيث يمكنك توزيع بولك في المرة الواحدة على مئات الأشجار في الوقت ذاته".

"مع أنه مثال غير ملائم استخدامه في هذا السياق إلى حد ما، ولكنني فهمت الفكرة التي تريد إيصالها".

"ثالثًا، إن العولمة تزيد التنافس بين الشركات؛ مثلًا: شركتي الخاصة بتصنيع محركات القوارب لا تتنافس فقط مع الشركات المحلية - التي قد تعاني سوء الإدارة - إنما تتنافس مع جميع الشركات حول العالم، في الحقيقة، الأمر كله متمحور حول مفهوم يُعرف بالتدمير الإبداعي، من الوارد أن يتبين فيما بعد أن محركات القوارب التي تُصنع في الصين أفضل وأرخص من المحركات التي تُصنع داخل مصنعي في نيوكاسل، مما يؤدي إلى إفلاسي، ولكن في النهاية، كل هذا يصب في مصلحة تحسين الكفاءة والإنتاجية في عالمنا بشكل عام، مما يعود بالاستفادة على الأفراد المستهلكين لمحركات القوارب، في بعض الأحيان، يُشار إلى التدمير الإبداعي على أنه أداة الفرز الخاصة بالنظام الرأسمالي، علاوة على هذا، فهو قوة عظمى تعمل لصالح الجميع، إذ إنها تتخلص من التقنيات والشركات القديمة لتستبدلها بتقنيات وشركات أخرى ذات رؤية حديثة ومتطورة.

أخيرًا، هناك حُجة سياسية يُطلق عليها أحيانًا أطروحة "التجارة الناعمة" وهو مصطلح فرنسي الأصل، وهذه الأطروحة تركز على فكرة معينة، وهي أن التجارة تعمل على تعزيز بعض القيم الليبرالية: كالتسامح، والتعددية، والمعاملة بالمثل، والتعاون،<sup>6</sup> باختصار: لن يضر أصحاب الأعمال التجارية عملاءهم بأي شكل من الأشكال، كانت هذه الحُجة هي الدافع الرئيسي وراء تبني الولايات المتحدة سياسات التجارة الحرة بعد الحرب العالمية الثانية، وأيضًا القوة الدافعة وراء تأسيس الاتحاد الأوروبي، أدلى شومان (وهو وزير خارجية أسبق في فرنسا) في تصريحه الشهير عام 1950 بأن عملية تكامل الاقتصاد الأوروبي الغرض الرئيسي منها "ليس لجعل الحروب - بين الدول الأوروبية - أمرًا لا يمكن تصوره وحسب، بل لجعلها أمرًا مستحيلًا من الناحية المادية في المقام الأول".<sup>7</sup>

"حسنًا، هذا كلام مقنع جدًا، التجارة العالمية الحرة تتيح الفرصة للاقتصادات لتحقيق كفاءة وإنتاجية عالية، كما أنك قلت أيضًا إنها تساهم في جعل عالمنا مكانًا يعمه السلام، لكنك قلت أيضًا إن هناك بعض المعارضين لها..."

"لعل التجارة الحرة تسهم في زيادة حجم النمو الاقتصادي، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن الجميع سيحصلون على نصيب أكبر من الدخل بسبب هذه الزيادة".

"لقد عدنا ثانيةً إلى مبدأ الفائزين والخاسرين، أليس كذلك؟".

"صحيح، من الناحية النظرية، تستطيع الحكومة تعويض الخاسرين حتى ينعم الجميع بحال أفضل، ولكن في الواقع، هذا الأمر لا يحدث في غالب الأحيان".

"ومن هم الخاسرون؟ الأشخاص الذين لا يستفيدون بأي من فوائد التجارة الحرة؟".

"الأشخاص العاملون، خاصةً ذوي المهارات الضعيفة منهم، حيث إنهم يفقدون وظائفهم باستمرار كونهم يعملون في صناعات معرضة دائمًا للمنافسة الأجنبية، كالأشخاص الذين يعملون في مصنع محركات القوارب بنيوكاسل، على سبيل المثال: لنلقِ نظرة على ما حدث في جينسفيل".

"ماذا حدث في جينسفيل؟".

"افتتحت شركة جينرال موتورز مصنعها في مدينة جينسفيل بولاية ويسكونسن الأمريكية عام 1919، وفي عام 2007، ألقى الرئيس باراك أوباما خطابًا ملهمًا في مصنع جينسفيل يتحدث فيه عن قطاع صناع السيارات قائلاً إن هذا المصنع سيصمد ويستمر في عمله على مدار المائة عام المقبلة على الأقل، وفي عام 2008، تم إغلاق المصنع، ويرجع السبب - جزئيًا - في هذا إلى ارتفاع أسعار النفط إلى جانب الحالة الاقتصادية المتدهورة التي عانت منها الولايات المتحدة عقب الأزمة في عام 2007، علاوةً على هذا، دخل المصنع في منافسة شرسة مع مصانع السيارات الموجودة في دول أوروبا ودول الشرق

البعيدة، بسبب إغلاق مصنع السيارات إلى جانب المصنع الآخر الذي كان يوفر له مقاعد للسيارات، وغيره من المصانع التي كانت تمتد المصنع الرئيسي بالموارد، اضطر العاملون إلى العمل في وظائف محلية تقاضوا منها أجرًا أقل من نصف الأجر الأصلي الذي تقاضوه في عملهم بمصنع السيارات، وقد اضطر البعض الآخر من العاملين إلى السفر أسبوعيًا مسافة 435 كيلومترًا للعمل في مصنع آخر تابع للشركة نفسها، وكانوا يتشاركون مع عمال آخرين في استئجار شقة للمكوث بها خلال أيام الأسبوع، أطلق عليهم جميعًا اسم "غجر شركة جينرال موتورز"، من الصعب للغاية على المرء - والمهين له أيضًا - أن يضطر إلى إعادة هيكلة حياته بشكل كامل وهو في منتصف عمره، عندما ذهب بعض من العاملين السابقين في شركة جينرال موتورز للحصول على تدريب جديد في كليتهم المحلية، لم تعرف نسبة كبيرة منهم كيفية تشغيل جهاز الحاسوب، واضطر الكثير منهم للانسحاب من الكلية بعدما اكتشفوا أن المدرسين لا يقبلون الأوراق المكتوبة بخط اليد.

بعد مرور عقد من الزمان، باتت نسبة البطالة في مدينة جينسفيل أقل من أربعة في المائة، ومن الناحية الظاهرية، قد لا يبدو هذا الوضع على درجة عالية من السوء. لكن، الوظائف المتاحة في الواقع لا تدفع أجورًا جيدة لعاملها مما أدى إلى انحدار مستوى المعيشة في المدينة".

"إن هناك فائزون وخاسرون بالفعل، ولكن كيف أدت العولمة إلى تفاقم هذا الوضع؟".

"قبل ازدهار التجارة العالمية، معظم الصفقات التجارية كانت تتم بين الدول ذات الأوضاع الاقتصادية المتشابهة، على سبيل المثال: بين الولايات المتحدة ودول غرب أوروبا، لكن، عندما تبنت الصين سياسة الانفتاح الاقتصادي في ثمانينيات القرن الماضي، نتج عن هذا موجة عملاقة من المنتجات الصينية المستوردة والرخيصة التي اجتاحت الأسواق، كان هذا الوضع رائعًا ومفيدًا بالنسبة للمستهلكين، حيث انخفضت الأسعار الحقيقية (بعد احتساب التضخم) للكثير من السلع، ولكن بالنسبة للعاملين في قطاعات صناعية معينة، نتج عن هذا الوضع آثار مدمرة وقاسية.

لم يقدر خبراء الاقتصاد قوة تأثير تلك الصدمة بشكل دقيق، كما أن شبكة الأمان الاجتماعي في العديد من الدول - مثل الولايات المتحدة - لم تكن كافية وحدها في مواجهة هذا التحدي، ولهذا، شهدنا الكثير من ردود الأفعال العنيفة والناقدة من طرف الجهات السياسية، من الجدير بالذكر أن هذا ليس الجانب الوحيد من القصة؛ ينبغي أن ننظر بتوازن بين الأثر السلبي - بالنسبة للبعض - والأثر الإيجابي الذي خلفته التجارة العالمية على سعر، وجود، واختيار السلع، وعلاوة على هذا، هناك حقيقة مهمة يجب ألا ننساها، وهي أن تحسين القدرة الشرائية للمستهلكين قد يؤدي إلى خلق وظائف جديدة، لكن مع ذلك، معرفة أن الوضع الاقتصادي للعمال بشكل عام سيشهد تحسناً على المدى البعيد بالقياس إلى ما هو عليه، لم تمثل أي عزاء حقيقي بالنسبة للعاملين الذين فقدوا وظائفهم".

"هذا يفسر فعلاً السبب وراء شعور الكثير من الناس بالسخط حيال العولمة، ولكن هل يقتصر الأمر على هذا الجانب فقط أم أن هناك المزيد من السلبيات؟".

"هناك فئة من الناس تجادل بأن العولمة تحفز أرباب العمل على استغلال الفقراء حول العالم؛ تتسم ظروف العمل في الدول النامية بكونها مروعة في غالب الأحيان، وهناك الكثير من الأشخاص يشعرون باستياء شديد حيال التفكير في أن هناك عاملاً إندونيسياً قام بخياطة أحذيتهم الرياضية مقابل ستين سنتاً فقط في الساعة، فمن الواجب علينا بالتأكيد أن ندعم ونصر على أن يحصل أولئك العاملون على أجور كريمة وأن توفر لهم ظروف عمل آدمية، ألا تتفق؟".

"هذا شأن لا جدال فيه، أليس كذلك؟".

"إن الأزمة التي لم تحلها تلك الحجة هي أن إبعاد هذا العامل الإندونيسي عن تلك الوظيفة البشعة قد يخفف من شعورنا بالاستياء، ولكنه قطعاً سيتسبب في تفاقم معاناته، وهذه قضية قد تطرقنا إليها عندما تحدثنا عن انعدام المساواة. لعل تلك الأجور الزهيدة وظروف

العمل المروعة في تلك المصانع أمر فظيع - بالقياس إلى معاييرنا - ولكنها بكل تأكيد خيار أفضل بالنسبة للعمال مقارنةً بالبدائل الأخرى المتاحة".

"لكن، ألا يستطيع ملاك مصانع الأحذية الرياضية دفع أجور أعلى لعمالهم؟".

"السبب الوحيد الذي يشجع الشركات متعددة الجنسيات على افتتاح مصانع لها خارج نطاق نشاطها الأساسي هو العمالة الرخيصة؛ جميع الإجراءات المتطلبة لإنشاء مصانع في دول نامية معقدة على نحو مفرط إلى جانب أنها مكلفة، أجور العاملين المنخفضة هي السبب الوحيد وراء قدرة الدول النامية على التنافس في سوق العمل العالمية، وإذا سلبت ذلك السبب منهم، فإنك بذلك تحرمهم من إمكانياتهم على التطور والنمو".

"هذا لا يزال يشعرني بالاستياء رغم ذلك، ولكنها وجهة نظر ثاقبة يصعب الجدل فيها، هل هناك حجج أخرى معارضة لسياسة العولمة؟".

"في بعض الأحيان، يقدم البعض حججًا - ضعيفة في رأيي - بأن العولمة تتسبب في تدمير كوكبنا".

"ولكن هذه حجة ممتازة بكل تأكيد، كيف لا تشعرين برغبة قوية في حماية كوكبنا؟".

"أرغب في حماية كوكبنا بلا شك، الأمر وما فيه أنني لا أعتقد أن فرض القيود على التجارة العالمية هو الوسيلة الأمثل لحمايته، دعنا الآن نتفقد بعض الحقائق: هناك أقاويل تزعم أن حركة التجارة الحرة ستؤدي إلى حدوث تسابق نحو القاع فيما يخص معايير الحماية البيئية؛ ستتوجه الشركات لافتتاح مصانع في أي مكان ذي تشريعات متراخية لحماية البيئة، إلى جانب أنها ستقاوم أي محاولات لتشديد الإجراءات المتخذة في هذا الشأن، وهذا أمر يستدعي القلق، هناك حزمة من الأدلة القوية ضد شركات عملاقة حول العالم أقدمت على ارتكاب أشياء فظيعة أثرت بالسلب على كوكبنا، بدءًا من استخدام مبيدات

حشرية مدمرة في جزيرتي مارتينيك وغوادلوب، نهايةً بالتسريب النفطي الذي حدث في خليج المكسيك الناجم عن انفجار منصة ديب ووتر هورايزون.

مع ذلك، فإن هذه الأدلة المتاحة لا تدعم بالضرورة صحة النظرية التي تنص على أن التطور الاقتصادي العالمي سيؤدي بنا إلى كارثة بيئية في نهاية المطاف. على سبيل المثال: شهدت الصين استقرارًا وتحسنًا في جودة الهواء منذ منتصف عقد الثمانينيات، وفي تلك الفترة نفسها، شهدت زيادة سريعة في معدلات نموها الاقتصادي وانفتحت على التجارة العالمية بنحو ملموس.<sup>9</sup>

هناك حُجة أخرى - ولكنها قوية - أشارت إلى أن حركة التجارة العالمية بحد ذاتها تزيد نسبة التلوث في الكوكب، حيث إن جميع الأنشطة المستمرة والمتعلقة بنقل البضائع تُعد من المسببات الرئيسية للتلوث بلا أدنى شك. تبين لنا عن طريق إجراء بعض الحسابات أن حركة شحن البضائع مسئولة وحدها عن نسبة تتراوح ما بين ثلاثة وأربعة في المائة من انبعاثات الغازات الدفيئة، استنادًا إلى هذا، ينبغي علينا بالتأكيد أن نهدف إلى إيجاد أفضل وسيلة صديقة للبيئة كي نتمكن من خلالها من نقل البضائع، ولكن أفضل طريقة لإنجاز هذا الهدف هي فرض ضرائب على حركة النقل، وليس حظر حركة التجارة بشكل كامل."

"عادةً، أنا لا أختلف معك في الرأي؛ كونك الشخص الذي يحضر لي طعامي ويعطيني الحلوى ويشترى لي معاطف أنيقة صُنعت في الصين، ولكن قد نضطر هذه المرة إلى أن نتفق على ألا نتفق، إن كنا حقًا مكرثين لحماية كوكبنا، أليس من الواجب علينا قطعًا أن نحاول شراء المنتجات المحلية حتى نخفّض من انبعاث تلك الغازات؟".

"حسنًا، لا بأس بهذا، فأنا يروقني الأمر عندما تقاوم الاقتناع بما أقوله، صحيح أن نسبة انبعاث الغازات الدفيئة تزداد باطراد مع ازدياد النشاط التجاري، ولكن الانفتاح على التجارة العالمية يوفر للدول النامية إمكانية للوصول إلى تقنيات أحدث وأنظف من التي تستخدمها، علاوةً على هذا، ستلعب التكنولوجيا دورًا حيويًا في مساعدتنا على التغلب على ظاهرة التغير المناخي، والتكنولوجيا دائمًا في حاجة ماسة إلى حركة التجارة.



إن معارضة حركة التجارة بحجة حماية البيئة تبدو في نظري نوعًا من النفاق، إلا إن كان هدفك الحقيقي من معارضتها هو إبقاء الفقراء حول العالم في فقر مدقع، من دون شك، يمكن فرض الضرائب على الدول الغنية التي تساهم في تلوث البيئة، وهذا مقبول تمامًا، ولكن حظر التجارة على الدول الفقيرة التي تمثل بالنسبة لها الوسيلة الوحيدة لشق طريقها خارج هذا الفقر المدقع ما هو إلا ظلمٌ بين.

يجدر بي التنويه مجددًا إلى أنني لا أحرص على تجاهل تلك الحجج بأي شكل من الأشكال، على الأرجح، نحن مضطرون لإجراء مفاضلة بين تحقيق النمو الاقتصادي أو حماية البيئة، لكن، لعل التجارة العالمية تجعل من هذه المفاضلة أمرًا سهلًا، إذ إن الدول الغنية ستتمكن من تحمل تكاليف تطبيق معايير بيئية صارمة بفضلها - أضف إلى هذا أن عزل الدول الفقيرة عن التجارة العالمية لن يجدي بأي شيء سوى إبقاء تلك الدول على حالها السيئ، ولذلك، هذه ليست الطريقة المثلى للنظر في تلك المسألة".

"حسنًا، نحن نعود مرارًا وتكرارًا للنقطة نفسها: هناك جوانب إيجابية وأخرى سلبية، ولكنك تعتقدين أن الإيجابيات تتفوق بشكل واضح على السلبيات. إذن، ماذا ينبغي على الدول أن تفعل للحد من آثار السلبيات؟".

"هناك وجهة نظر تحظى باتفاق على نطاق واسع، وهي أنه يجب على الدول أن تشجع التجارة الحرة بشرط أن تبذل كل ما في وسعها لحماية المتضررين".<sup>10</sup>

"وكيف هذا؟".

"هناك قائمة معروفة من التوصيات التي يمكن اتباعها: كمنح العمال تسهيلات للانتقال إلى المناطق حيث تتوافر فرص العمل الجديدة، وتقديم منح للعمال لإعادة التدريب والتأهيل؛ ستتكيف القوى العاملة بسهولة مع التحولات الجديدة في سوق العمل عند امتلاكها مجموعة متنوعة من المهارات وتمتعها بمستوى عالٍ من الجودة ومن التعليم والتدريب، أو يمكننا أن نقترح - بشكل أكثر جرأة وثورية - أنه ينبغي على الأشخاص المستفيدين بشكل

كبير من العولمة المساهمة في إصلاح الأوضاع، عن طريق فرض نسبة عالية من الضرائب عليهم، وعلى النقيض، ينبغي فرض ضرائب منخفضة على الفقراء مما يضمن لنا تعميم مكاسب العولمة بشكل متساوٍ على الجميع، خاصةً أولئك الذين تكبدوا الخسائر جراء هذه الظروف".

"مع أن الهدف الأساسي المرجو من تلك النزهة هو تصحيح خطأ انغلاق آفاقنا الذي وقعنا فيه بكل من نزھاتنا السابقة، إلا أننا لم نتحدث بشكل كافٍ عن التدابير التي يجب أن نتخذها الأمم الفقيرة".

"معك حق، هناك خبير اقتصادي من كوريا الجنوبية يدعى ها - جون تشان 11 انتقد العولمة بصيغتها المناهضة للقيود والتدابير الحمائية انتقاداً لاذعاً؛ يزعم تشان أن الدول الغنية التي تشجع أقرانها الفقيرة على الانفتاح الاقتصادي، هي الدول نفسها التي نهضت باقتصادها من خلال سياسات معاكسة لهذا، إن المعتقد الشائع في الوقت الحالي هو أن السياسات الحمائية تجعل من الشركات كيانات كسولة وتقلل من نشاطها التجاري، ولكن تشان يشير إلى أن تطبيق هذه السياسات بشكل إستراتيجي أمر ضروري للغاية لتطور اقتصادات الدول النامية، إن لم تستطع الصناعات المحلية الناشئة تطوير قدراتها الإنتاجية - التي هي بحاجة ماسة إليها - في المقام الأول، فلن تتمكن أبداً من تحقيق نمو كافٍ يجعلها قادرة على التنافس بالسوق على المدى البعيد.

قامت كوريا - وهي البلد الأم لتشان - بحماية صناعاتها النامية خلال عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، واعتمدت الحكومة الصينية الإستراتيجية نفسها؛ ما دفعها إلى تحقيق ازدهار منقطع النظير، إلى جانب هذا، فإن الإستراتيجية المعروفة بالخطة الصينية التصنيعية 2025 تستغل الإعانات المالية الحكومية، والتعريف الجمركية والقوانين التنظيمية بغرض هيكلة وتطوير الاقتصاد الصيني،<sup>12</sup> إن الحكومة الصينية تسعى بجهد لتقويض منافسيها الأجانب، على سبيل المثال: تم حظر خدمات جوجل

وواتساب من الدخول إلى السوق الصينية، مما أفسح المجال لهم لتطوير منافسهم الخاص المعروف بوي شات.

العقبة الثانية التي تقف في وجه الدول الفقيرة هي مفهوم التعويضات، كما ذكرت آنفًا، يدعم معظم خبراء الاقتصاد سياسة التجارة الحرة، كما أنهم متصالحون مع فكرة أنه ينتج عنها تقسيم الناس إلى فئة فائزة وأخرى خاسرة، ويشيرون إلى أنها سياسة يمكن أن تنتفع منها جميع الأطراف ما دما نقدم تعويضات ملائمة للخاسرين.

لكن، لعل هذا ينطبق على الفقراء القاطنين في البلدان الغنية فقط، إذ يمكن تقديم التعويضات لهم من خلال سياسة دولة الرفاهية، على النقيض، فإن الدعم الذي تقدمه سياسة دولة الرفاهية في البلدان الفقيرة ضئيل أو منعدم تمامًا، وهنا يكمن التحدي الأكبر، دائمًا ما يتمحور النقاش عن تأثيرات التجارة الحرة حول فئة الفائزين في الدول الفقيرة والخاسرين في الدول الغنية، ولكن هذا يغفل حقيقة وجود خاسرين في الدول الفقيرة أيضًا؛ على سبيل المثال: ربما تمنى الكثير لو أنهم لا يعملون في شركة محلية لصناعة المشروبات عندما اقتحمت منتجات شركة كوكاكولا أسواقهم المحلية".

"إذن ما الجواب القاطع عن الأسئلة المطروحة حول هذا الشأن؟ هل قدوم معطفي من مكان بعيد كالصين، على متن سفينة حاويات ضخمة بحجم مدينة صغيرة، أمر إيجابي أم سلبي؟".

"إن اكتشاف التأثير الحقيقي لحركة التجارة الحرة أمر معقد بلا شك؛ يمكن أن تدر علينا التجارة الدولية الكثير من المنافع والفوائد: مثل إفساح المجال أمام الشركات المنتجة للتخصص وتصنيع السلع بتكاليف أرخص من خلال استغلال إستراتيجية اقتصادات الحجم، كما أن المنافسة في السوق قد تجبر الشركات على تحسين كفاءتها، علاوة على ذلك، فهي تعزز من انتشار الابتكار وتساهم في توفير تكنولوجيا حديثة للبلدان النامية، إن التجارة الدولية قوة هائلة تم استخدامها لما هو في صالح الشعوب، وعلى المدى البعيد، يمكن أن تؤدي إلى ازدهار مستويات الرفاهية للدول، لكن، من الجوانب السلبية: أن الناس

لا يستطيعون تأجيل دفع التزاماتهم المالية إلى المدى البعيد انتظارًا لأن تتجلى تلك الفوائد على أرض الواقع، كما أن إغلاق المصانع أو انهيار قطاعات صناعية بأكملها يمكن أن ينتج عنه العواقب المدمرة والمستمرة للمدى البعيد وتؤثر بشكل حاد على الأفراد والمجتمعات".

"حسنًا، شكرًا على التوضيح، ألم يحن وقت عودتنا إلى المنزل؟".

"أجل، نحن نوشك على العودة، لم يتبق سوى بعض الأمور البسيطة التي سنناقشها سريعًا، حتى الآن يا مونتي، لم نتحدث سوى عن التجارة الخاصة بالسلع والخدمات، وهو ما يخطر عادةً في خلد الأشخاص عند الحديث عن العولمة، ولكن حري بنا أيضًا ألا نغفل شيئين مهمين عند تناول موضوع العولمة: حركة الأموال، وحركة السكان عبر الحدود، ولنبدأ بحركة الأموال، إن تدفق جميع تلك السلع والخدمات بين الدول، يعني بدوره تدفق الأموال عبر الحدود إلى اقتصاداتها. في عام 2020، كان هناك عجز في الميزان التجاري للمملكة المتحدة بلغ قرابة 3.5% من نسبة ناتجها المحلي الإجمالي".13

"عذرًا، هذا لا يعنيني بشيء، إن واصلت الحديث على هذا المنوال، فقد أضطر لتوجيه انتباهي نحو تلك اللعبة من الدجاج المقلي، فهي تبدو شهية للغاية".

"إياك وفعل هذا! حسنًا، سأتناول الموضوع بإيجاز وسرعة، إن وجود عجز في الميزان التجاري يعني أن المملكة المتحدة قد أنفقت مالا أكثر على استيراد السلع من الخارج مقارنةً بما أنفقته بقية بلدان العالم على استيراد سلعا بنسبة 3.5% من الناتج المحلي الإجمالي للدولة".

"وما الأشياء التي تدرج تحت مصطلح الإنفاق؟".

"سؤال وجيه، إن ميزان الحساب التجاري الحالي يعكس الفارق الموجود بين كمية صادراتنا وكمية وارداتنا (فيما يخص الخدمات والسلع)، إن كانت الدولة تعاني عجزًا في الميزان التجاري، فهذا يعني أنها تستورد سلعا من الدول الخارجية بنسبة أكبر مما تصدر

إليها، إذا كنت من محبي الدقة المتناهية، فينبغي عليك أن تعلم أن الميزان التجاري يتضمن أيضًا قيمة المدفوعات العابرة بين حدود البلدان فيما يتعلق بالاستثمارات الخارجية، مثل تحصيل عوائد الأرباح، أو مدفوعات الفوائد، إلى جانب التحويلات الخاصة بالأموال التي يرسلها العمال المغتربون إلى أوطانهم، وأخيرًا، التحويلات التي تتم بشكل رسمي مثل المساعدات الرسمية، ولكن جميع ما سبق ذكره لا يشكل سوى جزء ضئيل من ميزان الحساب التجاري، عند جمع قيمة تلك التدفقات الواردة والصادرة، فإننا نحصل على قيمة رصيد الميزان التجاري للبلد، إذا قامت دولة ما بتصدير سلع وخدمات بقيمة خمسين مليار جنيه إسترليني، واستوردت سلعًا وخدمات بقيمة مئة مليار جنيه إسترليني، فيحق للجهات التي تعاملت مع تلك الدولة المطالبة بأي شيء لسداد الخمسين مليارًا المتبقية من القيمة التي استوردتها، يمكن سداد قيمة هذا العجز من خلال المدخرات أو الاقتراض أو بيع بعض من أصول الدولة، باختصار: إن الدولة التي تستهلك سلعًا بوتيرة أكبر مما تنتج، سيتحتم عليها سد الفجوة الموجودة بين قيمتي الاستهلاك والإنتاج بطريقة أو بأخرى؛ على سبيل المثال: إن كانت المملكة المتحدة تعاني وجود عجز في ميزان حسابها التجاري، فهذا يعني أن الدول الأجنبية تمتلك أصولًا بريطانية تتراكم نسبتها على نحو متزايد".

"يخالجني شعور بأن هذا أمر ينبغي لنا القلق بشأنه".

"يختلف الأمر بحسب حالة كل دولة؛ من المحتمل أن تستورد دولة ما كميات ضخمة من السلع والخدمات بغرض بناء وتطوير قاعدة صناعية خاصة بها، مما يتسبب في وجود عجز كبير في ميزانها التجاري يدفعها للجوء إلى الاقتراض حتى تتمكن من سد هذه الفجوة، يمكن اعتبار هذا شيئًا مفيدًا بشرط أن يرفع معدلات إنتاج الدولة على المدى البعيد، وبالتالي يزيد قدرتها على سداد الديون، وهناك بعض الدول التي تميل إلى منح قروض لدول أخرى تتمتع بوجود مؤشرات قوية على نموها في المستقبل، وهذا يصف بشكل شبه دقيق ما حدث مع الولايات المتحدة خلال بدايات نموها الاقتصادي، لكن، إذا كان هناك بلد ما يستورد السلع بمعدل أكبر مما ينتج من دون أن يشارك في أي استثمار قد يساعده على تحسين إنتاجيته في المستقبل، فقد يواجه مشكلة عصيبة. بالنسبة للدول أو الأفراد على

حد سواء، فإن الاقتراض - أو بيع الأصول، أو السحب من المدخرات - بغرض تمويل استثمار مجدٍ يمكن أن يكون شيئًا ذا منفعة، ولكن الاقتراض بهدف إنفاق المال على مدار قصير دون أن تسعى لتحسين الدخل في المستقبل ما هو إلا تأجيل وتراكم للمعاناة والأعباء التي ستتحملها فيما بعد لا محالة؛ في النهاية سيحين الموعد حيث يتعين عليك سداد الدين. بهذا يا مونتي، نكون قد انتهينا من الحديث عن الجانب المالي للتجارة الدولية، لننتقل الآن للحديث عن الجانب المتعلق بالناس."

"أفترض أنك لا تقصدين بهذا الاتجار الحقيقي بالبشر، كما هو الحال في العبودية، أليس كذلك؟".

"أنا لا أقصد هذا يا مونتي، بل أتحدث عن هجرة السكان، دائمًا ما يتحدث الاقتصاديون بإسهاب وحماسة عن فوائد التجارة الحرة فيما يخص السلع والخدمات فقط، ولكن ماذا بخصوص الناس وحرية انتقالهم؟ لقد رأينا مقاومة بينة وشديدة فيما يخص حرية الانتقال بين البلدان بغرض العمل، بقي الاتحاد الأوروبي متمسكًا بالتزامه بما يسمى "الحريات الأربع": حرية نقل السلع، والخدمات، ورأس المال، والعمالة، لكن، تلك الحريات مقتصرة فقط على الدول الأعضاء بالاتحاد الأوروبي؛ لا يسمح بتأثًا - باستثناء بعض الحالات النادرة - بانتقال عاملين جدد من دول خارجية إلى الاتحاد الأوروبي، لكن، حتى حرية انتقال العمالة في نطاق الاتحاد الأوروبي نتجت عنها مشكلات كبيرة، ولا سيما في المملكة المتحدة حيث كانت أحد الدوافع الرئيسية وراء التصويت لصالح البريكسيت.

الإشكالية هي أن الهجرة ستتسبب على المدى القصير في إحداث تأثيرات سلبية على نسبة العمالة والأجور، خاصةً بالنسبة لمن يعانون فقرًا مدقعًا. مع دخول العاملين الجدد إلى سوق العمل في البلد، ستزداد نسبة العمالة المتوافرة مما يمنح الشركات وأرباب العمل اليد العليا للتفاوض، وهذا يعني قطعًا أنهم سيخفضون أجورهم.

علاوة على هذا، يشير الاقتصاديون إلى أن الأمر لا يقتصر على هذا الجانب فحسب، حيث ستمتلك الشركات دافعًا للتوسع والاستثمار كونها تتمتع بوجود عمالة تحصل على أجور

زهيدة، مما يؤدي بدوره إلى ارتفاع نسبة الطلب على العمالة، وبالتالي، سيتعين عليهم رفع الأجور من جديد، بمعنى آخر: من المحتمل بالفعل وجود تأثيرات سلبية قصيرة المدى بسبب الهجرة - علمًا أن "قصيرة المدى" تعني إمكانية استمرارها لسنوات أو حتى عقود - لكن، على المدى البعيد، من المفترض ألا يسوء وضع العمال المحليين أو يُمس بأي شكل من الأشكال، نظرًا لوجود مقاومة ومعارضة من قبل الجموع حول هذا الشأن، فإن العمالة لم تخضع بشكل عام للعولمة وبقيت حركة انتقالها لا تتجاوز حدود كل دولة، وذلك يرجع إلى أسباب سياسية، وثقافية، ولغوية.

حسنًا يا مونتي، أعتقد أننا انتهينا، حان وقت عودتنا إلى المنزل."

"إذن، ما الخلاصة لجميع ما سبق؟"

"على المدى البعيد، ينبغي أن تؤدي بنا التجارة العالمية إلى الطريق نحو النمو الاقتصادي، واستيراد السلع الرخيصة مما يجعل المستهلكين يتمتعون بالثراء - إذ إن انخفاض أسعار السلع يعتبر في جوهره زيادة في نسبة الدخل لدى الأفراد - مما يتسبب في ارتفاع الطلب على السلع الاستهلاكية، وبالتالي زيادة الطلب على العمالة في قطاعات أخرى من الاقتصاد، لكن، هذه التغيرات الإيجابية لن تأتينا على طبق من ذهب. عندما يتحدث الاقتصاديون عن العراقيل الاقتصادية، وتكاليف الانتقال، ونزوح الموظفين، فهم في الغالب يجهلون كم المعاناة الحقيقية التي يتكبدها الأشخاص الخاسرون خلال عملية التغيير، عندما يفصل شخص ما عن العمل لأن هناك بديلًا له في فيتنام يمكنه القيام بالوظيفة نفسها وبأجر أقل، فإن إخباره بأن وطنه بصفة عامة سينعم بالرخاء في المستقبل ليس بعزاء له، إذ إنه سيظل فقيرًا، وعلى الأرجح، سيبقى على هذه الحال إلى الأبد، تحفز الأسواق الشركات - من خلال المنافسة مع بعضها البعض - إلى تحقيق نسب عالية من الكفاءة، ولذلك، فإن الشركات المتراخية التي تفتقر إلى عنصر الكفاءة ستفقد جميع عملائها وتضطر إلى إعلان إفلاسها في النهاية، وهذا هو جوهر مفهوم التدمير الإبداعي. من الجدير بالذكر أيضًا أن التجارة العالمية تعزز تلك العملية بشكل ملموس، حيث إنها تعمل على توسيع الأسواق وزيادة حدة

التنافس بين الشركات، هناك عبارة ربما قد صرح بها مارك توين - فهي واحدة من تلك المقولات التي لم تُثبت صحتها بعد - صاغها بكلمات استطاعت جلب الكثير من تعاطفنا، حيث قال: "إنني مؤيد لفكرة التقدم، ولكن التغيير هو ما لا أحبه".

بدأت عندما مونتي تترنج قليلاً، لذلك، انحنيت وحملته، ومن دون أن يتفوه بأي شكوى، انغمس بين ذراعي وراح يهدر بلطف أثناء ما كنت أحمله في طريقنا إلى العودة.



## النزهة ١٧: نزهة أخيرة إلى باحة دار العبادة

**الموضوع** المتناول أثناء تنزهنا: الاقتصاد مجال صعب، خاصةً لأنه يتناول قضايا معقدة، في بعض الأحيان، يخطئ الاقتصاد في دراسة وتحليل الظواهر، ولكن مع ذلك، فهو أفضل أداة لدينا لفهم طبيعة المجتمعات الحديثة، ومع أن الإجابات التي يقدمها لنا لا تتسم بالصحة طوال الوقت، فإن التساؤلات التي يثيرها ذات أهمية بالغة، فالأسواق وسيلة فعالة بشكل مذهل تعمل على تلبية معظم احتياجاتنا، ولكنها بعيدة كل البعد عن الكمال، ومع أنها توفر لنا العديد من ضروريات المعيشة الأساسية، إلا أنها لن تفيدنا في منح العديد من الأشياء غير المادية التي تجعل من حياتنا مغزى يستحق العيش من أجله.

"هل ما يتساقط الآن هو ثلج حقيقي؟".

ترددت في ذهني فكرة، وهي أن آخذ مونتي ونذهب - ربما ليس لمسافة طويلة - إلى محل في نهاية الشارع لشراء بعض الحليب.

نظر الفيلسوف إلى الخارج نحو الشارع، ثم قال: "إن هذا الثلج لا يتراكم على الأرض، إنه مثل الرذاذ غير أنه ثلج، هو رذاذ ثلجي".

"إن الطقس بارد للغاية على أن أترك مونتي مربوطًا وهو ينتظرني خارج محل ويتروز، على كل حال، لن أفعل هذا، فهناك عصابات منتشرة تختطف الكلاب في الفترة الحالية".

قال الفيلسوف: "صحيح، لقد سمعت بهذا، لكن، كنتُ أتعلم التفكير في هذا الموضوع، واستنتجت أنه كلب عجوز، وحتى الآن كنا محظوظين كوننا ندفع تكاليف رعاية بيطرية زهيدة، ولكن هذا سيتغير عما قريب".

"ماذا تقول؟".

قال الفيلسوف: "لعلنا يمكننا استغلال ظاهرة اختطاف الكلاب المنتشرة حاليًا في صالحنا".

"أنت تقترح أن..."

قال: "بالضبط. اربطيه لينتظرك بالخارج، وخذي وقتك في التسوق بالمحل، وبعدما تخرجين، لن تجديه وستصرخين قائلة: "يا إلهي! إلى أين اختفيت يا مونتي؟". فكري جيدًا في الأمر، لقد قضينا مع مونتي أجمل سنواته، وأفضل سنوات إنتاجية له فيما يتعلق بكم المتعة والبهجة التي قدمها لنا، لذلك، حان الوقت للاستثمار في ممتلكاتنا، أو على الأقل، توفير بعض النفقات وادخارها بشكل غير ربحي، علاوة على ذلك، لنفترض أنه خُطف من قبل العصابات المختطفة للكلاب، كل ما سيفعلونه به هو بيعه إلى عائلة ما، ربما واحدة لديها أطفال، وبهذا سيعيش مونتي مع جيل جديد بالكامل ليتعرف عليهم ويتلقى الحب منهم، أو لعلهم يبيعونه إلى سيدة عجوز، كأرملة لرجل كان يتمتع بثناء فاحش تعاني الوحدة وترغب في وجود ضُحبة تؤنسها، ستدلل مونتي كل الدلال، وتطعمه ما لذ وطاب من الحلويات المعدة له من قبل طاهٍ محترف يعمل خصيصًا لخدمته، وبما أنهم قادرون على تحمل تكاليف الفدية الباهظة لعصابة الكلاب، فضلًا عن أجر الطاهي، فهم بكل تأكيد قادرون على تحمل تكاليف الرعاية البطرطية لمونتي خلال سنواته التي سيعاني فيها وهن صحته، ستستفيد جميع الأطراف من هذا الوضع بلا شك".

"أولاً، إن كلمة بطرطية ليست كلمة صحيحة، ثانيًا، هو سمعك وأنت تقول هذا أيها الوحش قاسي القلب! سأخذه ونخرج في نزهة، ولكن ليس إلى محل ويتروز، فلتشتري الحليب الذي تريده بنفسك".

في هذه اللحظة، جاء مونتي إلى المطبخ سيرًا في خطوات خفيفة وسلسة، وبدأ يتناوب النظر إلى كل منا وتعتليه نظرة تتساءل عن السبب وراء هذه الأجواء المفعممة بالتوتر.

عرضت عليه بحماس وبهجة: "ما رأيك بأن نشرع في واحدة من نزهاتنا؟".

لم يبدُ عليه أي مظهر من مظاهر التلهف الشغوف.

فقلت له: "هيا لنذهب، فكلانا بحاجة إلى بعض الهواء الطلق".

كان الطقس بالخارج منعشًا بالفعل وبيعت على الحيوية، فقلت: "لنتوجه إلى باحة دار العبادة".

عنيت دير رجل الدين جون البديعة التي شُيّدت في القرن الثامن عشر، وهي موجودة في هامبستيد، إنها واحدة من أفضل البقاع في لندن للجلوس والتأمل، وقد اعتدنا الذهاب إليها يوميًا فيما مضى بعدما نوصل الأطفال إلى المدرسة الابتدائية، عندما كنا جميعًا أصغر سنًا بكثير مقارنةً بما نحن عليه الآن.

"حسنًا، هذا جيد، أنا أحب ذاك المكان، لكن، هل يمكنك حملي في طريقنا بسبب أرجلي المتعبة؟".

"بالتأكيد".

انحنيت والتقطته، ثم دسسته تحت معطفي كي أحميه من رذاذ الثلج المتساقط، وبعدها انطلقنا في نزهتنا. تبعد الكنيسة بمسافة تستغرق عشر دقائق فقط، وبمجرد أن تدخل وتمر بين أبواب باحتها، فإنك تخرج عن نطاق الزمان لعالمنا، وتختفي مدينة لندن من أمامك لتجد نفسك ضائعًا وسط فضائها الأخضر البديع الذي يعتبر مهرّبًا خلابًا للكثيرين، حتى في منتصف فصل الشتاء القاتم والكئيب، وضعت مونتني أرضًا بعدما وصلنا، وأخذ يشم المكان من حوله ويقضي حاجته، وبعدها حملته مجددًا ووضعته ليستقر على ركبتني وأنا جالسة على مقعدي المفضل بكامل أرجاء مدينة لندن الذي يطل على مقبرة جون كونستابل من جهة، ومن الجهة الأخرى، يطل على مدينة لندن المزدهمة بنشاطها التجاري وفوضاها المتقدمة.

"أعتقد أن هذه نزهتنا الأخيرة للحديث عن الاقتصاد يا صديقي".

"لا بأس بهذا، طالما أنك لن تطلبي مني تلخيص كل ما سبق شرحه فيما مضى".

"لا عليك، سأتولى أنا هذه المهمة، بقدر ما أستطيع، أحد الأشياء التي أردت توضيحها أن الاقتصاد أمر ذو أهمية عظمى ويتسم بالتعقيد المفرط على نحو جنوني، فعندما يظهر لك أي مفهوم اقتصادي بمظهر البساطة أو الوضوح، فهناك احتمال قوي بأنك أسأت فهمه، هناك اقتباس شهير عن هنري لويس مينكن يقول فيه: 'إن لكل سؤال معقد إجابة مباشرة وبسيطة، ولكنها خاطئة'".

"هممم...".

"يتعامل الاقتصاد مع مستويين مختلفين من التعقيد، المستوى الأول: تعقيد العقل البشري الذي يعتبر أكثر شيء معقد البنية في هذا الكون، ثانيًا: التعقيد الناتج عن تفاعل ملايين العقول البشرية مع بعضها البعض داخل منظومة السوق، لذلك، جميع الإجابات المقدمة هنا ليست قاطعة، وإنما مؤقتة ومشروطة ببعض التحفظات والمعايير المختلفة، ولكني مع ذلك، آمل أن تكون تلك النزعات منحتك مرجعًا لينير لك خلال رحلتك للتأمل في التساؤلات الاقتصادية".

"أجل، أجل، لقد حدث هذا بالفعل، فلتدخلني في صلب الموضوع".

"حسنًا. على عكس الفيلسوف، أنا من أنصار منظومة السوق الحرة، وهي عبارة عن وسيلة تتيح للأفراد التبادل الحر للسلع والخدمات، ولكني لست من أنصارها المتطرفين الذي يدعمونها بشكل أعمى؛ إن الأسواق لا تعمل على أكمل وجه إلا عندما تصدر الدولة القوانين والتشريعات لتنظيمها وتتصرف كوسيط نزيه بين الأطراف، لكن مع ذلك، عندما تعمل المنظومة على النحو المطلوب، فإنها تسمى نموذجًا للجمال الرفيع، أحدث التخصص والابتكار زيادات هائلة في معدلات الإنتاج، وكلاهما يقوم بشكل أساسي على وجود الأسواق؛ لا يمكننا مزاوله التخصص إلا عند وجود وسيلة نتمكن من خلالها من التبادل

التجاري كي نحصل على السلع الأخرى التي نحتاج إليها في مقابل ما نصنعه، على سبيل المثال: ما الفائدة التي ستقع على صانع الدبابيس من احتفاظه بـ4,800 دبوس لنفسه؟".

"علاوة على هذا، فالابتكار لن يكون شيئاً مجدياً إلا عندما تتمكن من بيع اختراعك للآخرين كي تحصل على المال وتستطيع شراء ما تحتاج إليه؛ من سيبدل جهوداً كبيرة من أجل تصميم محمصة خبز بغرض الاستخدام الشخصي فحسب؟".

"يعزى الفضل إلى كل من الابتكار، والتخصص، والأسواق في زيادة ثروة البشرية ورفاهيتها بشكل لم يشهد العالم مثيلاً له على مر التاريخ، وهذا ما ساعدنا على الهروب من فخ مالتوس الذي هو عبارة عن دوامة مميتة من الفقر والجوع والوباء كانت ستنتج عن انفجار النمو السكاني في ظروف مختلفة.

تقريباً، إن وجود جميع الأشياء التي تمدنا بالراحة والمتعة في مجتمعاتنا الحديثة ما هو إلا نتاج عمل منظومة السوق: كمحامص الخبز وغيرها من الأجهزة المنزلية التي تحمينا من عناء المشقة، إلى جانب أجهزة التلفاز والهواتف ومشغلات ألعاب الفيديو التي توفر لنا وسائل الترفيه والتسلية كي لا نشعر بالملل، من المستحيل تصور وجود هذه الأشياء بيننا من دون هذه الشبكة السحرية من التفاعلات البشرية الحرة التي تيسرها وتنظمها السوق.

هناك بُعد أخلاقي أيضاً لهذه المنظومة، بُعد لا يقتصر فقط على محاربة العوز والجوع؛ هناك بعض الأشخاص الذين ينظرون إلى السوق على أنها رمز يجسد الحرية الشخصية كونها منظومة تحرص على تقديس حرية الاختيار لكل فرد، من دون وجود سلطة مركزية تملي عليك ما يجب بيعه أو شراؤه أو إنتاجه، هناك بعض من مؤيدي منظومة السوق الحرة مثل فرايدمان وهايك يزعمون أن هناك صلة وثيقة بين حرية الاختيار للمستهلكين وحريتهم السياسية العامة، وأن العنصرين جزءان لا يتجزآن من بعضهما البعض".

"يخالجني شعور بأنك وصلت لمرحلة حيث ستقرعين الطبول وتسيرين ذهاباً وإياباً في مسيرة تمجيداً لمنظومة السوق!".

"كان هذا تشجيعًا وتأبيدًا مبالغًا فيه قليلًا من طرفي، أعتذر لهذا! بالتأكيد، لا تخلو المنظومة من العيوب؛ إن الأسواق تترك بعض الفئات في المجتمع دون أن تلبي احتياجاتهم أو تقدم لهم دعمًا، فكما قلنا مرارًا وتكرارًا، هناك..."

"فائزون وخاسرون".

"بالضبط، وهؤلاء الخاسرون ينبغي أن تُمد لهم يد العون وألا يتركوا لتحمل المشقات والمعاناة من شدة الفقر، بغض النظر عما يعتقده فرايدمان وهايك، لا توجد بالضرورة صلة بين الحرية الاقتصادية والحرية السياسية، وهذا أمر ينبغي أن يكون فرايدمان على علم به، إذ إنه كان في الماضي يعمل مستشارًا للنظام الديكتاتوري العنيف الذي ترأسه الجنيرال بينوشيه في دولة تشيلي، وبهذا، فإن الحقوق السياسية للأفراد لا تأتي من تلقاء نفسها بالتزامن مع الحريات الاقتصادية، بل ينبغي النضال من أجل الحصول عليها، لكن مع ذلك، فالأمران بالفعل يميلان إلى التلاقي معًا، وهذه حقيقة لا غبار عليها.

لكن، هناك أمر آخر أود أن أختتم به: حتى الأشخاص مثلي الذين يؤيدون منظومة السوق وعلى وعي تام بالأمور التي تتقن الأسواق تحقيقها - النمو الاقتصادي، والأمن المالي، والتقدم التكنولوجي - مع كونها ذات أهمية قصوى بلا شك، إلا أنها ليست أهم شيء في الحياة، بل هي بعيدة كل البعد عن كونها أهم شيء في حياتنا؛ إن كثيرًا من الجوانب التي نقدرها في حياتنا لا تمت بصلة تمامًا إلى شبكة الاقتصاد والتجارة: مثل الصداقة، الحب، الجمال، الإيمان، العطف والإحسان، هناك أشياء مثل الحب الذي يكنه الإنسان لكلب صغير..."

"والحب الذي يكنه كلب صغير للإنسان!".

"شكرًا لك يا مونتي، أين توقفت؟".

"كنت تتحدثين عن مقدار حبك لي".

"صحيح، أنا أحبك للغاية، وهذا الحب لا يمكن لأي شيء تقديره؛ بما في ذلك الأسواق".

"أنتِ تدركين أن هذا ما كان يحاول الفيلسوف إيصاله لك، أليس كذلك؟".

"ماذا؟".

"إن كل هذه الترهات التي تفوه بها الفيلسوف في المطبخ، عن تركي خارج محل ويترون، كي تأخذني عصابات خطف الكلاب ما هو إلا تعبير منه عن هذه المشاعر نفسها، ولكن بطريقته الخاصة؛ حتى يظهر لك مدى سخافة التفكير بذاك المنطق حيالي، إنني كلب صغير وعجوز، أي بمعنى آخر: اعتباري مجرد نثریات أو سلعة مثل الحليب".

"هممم، لعلك محق".

"بل أنتِ على يقين أنني محق".

قبلت الجزء العلوي من رأسه البيضاء، ثم اقترحت: "أتظن أنك قادر على السير نحو سفح التلة حتى نعود أدراجنا؟".

"لنرَ كيف ستجري الأمور، لكن إذا شعرت بالتعب، هل ستحمليني؟".

"دائمًا وأبدًا".

# مصادر

## مقدمة

Heilbroner, R.L., 2011. *The Worldly Philosophers: The Lives, Times .1  
and Ideas of the Great Economic Thinkers*. Simon and Schuster

## النزهة 1: محمصة الخبز

Thwaites, T., 2011. *The Toaster Project: Or a Heroic Attempt to Build .1  
a Simple Electric Appliance from Scratch*. Chronicle Books  
L.E., 1958. *I, pencil* (Vol. 8, No. 12, pp. 32-7). Freeman .2

## النزهة 2: الجزء 1: نبذة تشمل تقريبًا تاريخ كل شيء

Weber, M., 2002. *The Protestant Ethic and the "Spirit" of Capitalism .1  
and Other Writings*. Trans. and ed. Baehr, P.R. and Wells, G.C.  
.Penguin Books

## النزهة 3: الجزء 2: موقف كارل ماركس من الثورة التي لم تحدث

Singer, P., 2018. *Marx: A Very Short Introduction*. Oxford University .1  
.Press

DiMaggio, P. ed., 2003. *The twenty-first-century firm: changing .2  
economic organization in international perspective*. Princeton  
.University Press



Marshall, A., 2009. Principles of economics: unabridged eighth .3  
edition. Cosimo, Inc

[https://www.core-econ.org/the-economy/book/text/08.html#great-](https://www.core-econ.org/the-economy/book/text/08.html#great-economistsalfred-marshall) .4  
economistsalfred-marshall

في خطاب تم كتابته إلى "إيه إل باولي" مذكورة على الموقع أعلاه

Taleb, N.N., 2005. *Fooled by randomness: The hidden role of chance* .5  
*in life and in the markets* (Vol. 1). Random House Trade Paperbacks

#### النزهة 4: الأسواق: من المسؤول عن إمداد مدينة لندن بالخبز؟

Rogers, B., 2015. The social costs of Uber. *U. Chi. L. Rev. Dialogue*, .1  
82, p.85

Garber, P.M., 1990. Famous first bubbles. *Journal of Economic* .2  
*Perspectives*, 4(2), pp.35-54

Friedman, M. and Friedman, R.D., 1990. *Free to choose*. Free to .3  
Choose Enterprise

Stone, B., 2013. *The Everything Store: Jeff Bezos and the Age of* .4  
*Amazon*. Random House

#### النزهة 5: سلوك الأسرة: لا يمكنك دائمًا الحصول على ما تريد لكن إن حاولت بجد فسوف...

Hyman, D.A., 2010. Convicts and convictions: some lessons from .1  
transportation for health reform. *U. Pa. L. Rev.*, 159, p.1999

Keynes, J.M., 2010. "Economic possibilities for our grandchildren". In .2  
*Essays in persuasion* (pp. 321-32). Palgrave Macmillan

[https://www.npr.org/sections/money/2015/07/](https://www.npr.org/sections/money/2015/07/24/426017148/episode-641-why-we-work-so-much) .3

24/426017148/episode-641-why-we-work-so-much

Juliet Schor: Why do we work so hard? .4

<https://www.youtube.com/watch?v=FrIhloNEwT8>

## النزهة 6: الشركات: الاحتكار، واحتكار القلة، والتواطؤ، والتنافس

<https://www.economist.com/books-and-arts/2004/08/05/what-an-art> .1

Smith, A., 1937. *The wealth of nations* [1776] (Vol. 1 1937). na. - .2

.Book IV, Chapter VIII, p. 145, para. c27

As of 2020: <https://en.wikipedia.org/wiki/Starbucks> .3

Epstein, E.J., 1982. Have you ever tried to sell a diamond? *Atlantic* .4

*Monthly*, 23,p.363

[https://www.investopedia.com/financial-edge/0912/the-cost-of-](https://www.investopedia.com/financial-edge/0912/the-cost-of-making-an-iphone.aspx) .5

[making-an-iphone.aspx](https://www.investopedia.com/financial-edge/0912/the-cost-of-making-an-iphone.aspx)

ضع في اعتبارك أن هذه هي التكلفة الحدية، أي تكلفة صنع جهاز آيفون واحد فقط ولا يشمل تكاليف الثريات الأخرى والثوابت مثل تكلفة التطوير المستمر، تم تحويل سعر التكلفة من دولار أمريكي إلى جنيه إسترليني باستخدام متوسط سعر الصرف لعام 2019

[https://guide.iacrc.org/case-example-of-collusivebidding-by-](https://guide.iacrc.org/case-example-of-collusivebidding-by-contractors-2) .6

[contractors-2](https://guide.iacrc.org/case-example-of-collusivebidding-by-contractors-2)

Thiel, P.A. and Masters, B., 2014. *Zero to one: Notes on start-ups, or* .7

*how to build the future*. Currenc

## النزهة 7: الفائزون والخاسرون: الرأسمالية،

## والأسواق وعدم المساواة

1. بالنسبة لمثال حوض الحمام، لا يمثل معدل صرف الماء إنفاقك فقط، بل أي شيء قد

يأكل من قيمة أصولك

- Okun, A.M. 1975. Equality and Efficiency: The Big Tradeoff. 2.  
Washington DC, Brookings Institution
3. كل تلك الأرقام جرى تعديلها عن تلك التي وضعها أرثر أوكن في الأصل
- Milanović, B., 2012. Global income inequality by the nubers: in 4.  
(history and now. *World Bank Policy Research Working Paper* (6259
- Philippon, T. and Reshef, A., 2012. Wages and human capital in the 5.  
US finance industry: 1909-2006. *The Quarterly Journal of*  
*Economics*, 127(4), pp.1551-1609
- .Scheidel, W., 2018. *The great leveler*. Princeton University Press 6
- [https://www.lse.ac.uk/Events/2020/06/202006151600/how-much-](https://www.lse.ac.uk/Events/2020/06/202006151600/how-much-tax) 7  
tax

## النزعة 8: فشل منظومة السوق: المؤثرات الخارجية، والسلع العامة والموارد المشتركة

- <https://www.bbc.co.uk/news/stories-54992051> 1
- <https://www.bbc.co.uk/programmes/m000ph42> 2
- <https://www.bbc.co.uk/news/28942485> 3
- Boldrin, M. and Levine, D.K., 2008. Against intellectual monopoly. 4.  
Cambridge University Press
- Hardin, G., 1968. The tragedy of the commons: the population 5.  
problem has no technical solution; it requires a fundamental extension  
in morality. *Science*, 162(3859), pp.1243-8

تجدر الإشارة إلى أن هذا المفهوم أنشأه ويليام فورستر لويدي، الذي ضرب عليه مثال  
مشكلة الرعي غير المنظم في الأراضي المشتركة في بريطانيا العظمى، طور هاردين هذه

الفكرة وطبقها على مفهوم الاكتظاظ السكاني البشري. وقال إن الاكتظاظ السكاني في الطبيعة يتم تنظيمه ذاتيًا، إن اعتمد الآباء على أنفسهم فقط، فإن عدد الأطفال الذين ينجبونهم لن يشكل أهمية للمجتمع بنظرة أوسع، فهم إن لم يتمكنوا من إطعام أطفالهم فسوف يموتون، وبالتالي فإن النظام سوف ينظم نفسه من تلقاء نفسه، وقال إن رفاهية الشعوب ستؤدي إلى مأساة المشاعات، وإذا عرف الآباء أن الدولة ستوفر لهم ذلك، فسوف يتكاثرون بشكل مبالغ فيه، وسيؤدي ذلك إلى كارثة مالتوسية.

### النزعة 9: السوق والمعلومات:

لَمْ لَمْ يعد شراب ريد بول يجعلك بأجنحة؟

1. <https://www.ft.com/content/bb03ba1c-add3-4440-9bf2-2a65566aef4a>

2a65566aef4a

2. Akerlof, G.A., 1978. The market for "lemons": Quality uncertainty and the market mechanism. In *Uncertainty in Economics* (pp. 235-51).

.Academic Press

3. Dropped in 2020: <https://www.bbc.co.uk/news/business-53881214>

4. <https://www.bbc.co.uk/news/newsbeat-29550003>

5. [https://aeon.co/essays/why-the-hidden-internetcan-t-be-a-libertarian-](https://aeon.co/essays/why-the-hidden-internetcan-t-be-a-libertarian-paradise)

[paradise](https://aeon.co/essays/why-the-hidden-internetcan-t-be-a-libertarian-paradise)

6. [https://www.coindesk.com/markets/2013/12/03/users-track-100-](https://www.coindesk.com/markets/2013/12/03/users-track-100-million-in-stolen-bitcoin-after-sheep-marketplace-hack)

[/million-in-stolen-bitcoin-after-sheep-marketplace-hack](https://www.coindesk.com/markets/2013/12/03/users-track-100-million-in-stolen-bitcoin-after-sheep-marketplace-hack)

7. [https://www.ft.com/content/380082b8-687c-11dda4e5-](https://www.ft.com/content/380082b8-687c-11dda4e5-0000779fd18c)

0000779fd18c

8. Tversky, A. and Kahneman, D., 1981. "The framing of decisions and

.the psychology of choice". *Science*, 211(4481), 453-8

- Gneezy, U. and List, J.A., 2006. "Putting behavioral economics to work: Testing for gift exchange in labor markets using field experiments". *Econometrica*, 74(5), 1365-84
- Thaler, R.H., 2016. Behavioral economics: Past, present, and future. *American Economic Review*, 106(7), 1577-1600

النزهة 10: الناتج المحلي الإجمالي:  
ليس كل ما هو قابل للعد ذا قيمة

1. <https://data.worldbank.org/indicator/NY.GDP.MKTP.CD>
2. <https://data.worldbank.org/indicator/NY.GDP.PCAP.CD>
3. ملاحظة: لتسهيل عملية المقارنة، عُدلت هذه الأرقام لتتناسب مع تغيرات الأسعار مع مرور الوقت (التضخم) واختلافات الأسعار بين البلدان؛ حيث تم قياسها بالسعر الدولي للدولار بأسعار عام 2011
4. <https://www.jfklibrary.org/learn/about-jfk/the-kennedy-family/robert-f-kennedy/robert-f-kennedy-speeches/remarks-at-the-university-of-kansas-march-18-1968>
5. <https://www.economist.com/finance-and-economics/2014/05/31/sex-drugs-and-gdp>
6. Coyle, D., 2015. *GDP*. Princeton University Press
7. Measured in current US\$. See: [https://data.worldbank.org/indicator/NY.GDP.PCAP.CD?name\\_desc=false](https://data.worldbank.org/indicator/NY.GDP.PCAP.CD?name_desc=false)
8. <https://www.oecdbetterlifeindex.org>

النزهة 11: النمو الاقتصادي: كيف يمكننا جعل العالم مكانًا أفضل لعائلات مثل الجاكوتيرا والشاودري؟

https://ourworldindata.org/grapher/maddison-data-gdp-per-capita-in-1  
.2011us?tab=chart&year=1950&country=OWID\_WRL

ويستند هذا إلى الناتج المحلي الإجمالي للفرد بعد تعديله وضبطه وفقًا لتغيرات الأسعار مع مرور الوقت (التضخم) وتم قياسها بالسعر الدولي للدولار بأسعار عام 2011

https://www.gapminder.org/dollar-street/families/ gacotera 1

2. هذه المعادلة تُقدر أن كل شخص بالغ يمكنه استهلاك سلع وخدمات تبلغ قيمتها حوالي 194 دولارًا أمريكيًا كل شهر، ويتضمن ذلك الأشياء التي يشتريها بالإضافة إلى أنه يضع في الحسبان الأشياء التي ينتجونها بأنفسهم (مثل الطعام)

https://www.gapminder.org/dollar-street/families/ chowdhury 3

<https://www.worldbank.org/en/topic/measuringpoverty> 4

Robert Barro Economic Growth & Prosperity: https:// 5

www.youtube.com/watch?v=z5yUUfZqp88

Jones, C.I., 2016. "The facts of economic growth". In *Handbook of macroeconomics* (Vol. 2, pp. 3-69). Elsevier. (They credit Abramovitz  
(.with this description p. 9

Diamond, J., 1997. *Guns, Germs and Steel: The Fates of Human Societies*. (p.186). Vintage

North, D.C., 1991. *Institutions, ideology, and economic performance*. 8  
*Cato J.*, 11, p.477. 10

https://www.doingbusiness.org/en/data/doingbusiness-score 9

.Krugman, P., 2021. Opinion. The New York Times. 25 May 2021 10

Gordon, R.J., 2016. *The Rise and Fall of American Growth*. Princeton 11  
.University Press

## النزهة 12: العمل المتواصل دون الترفيه عن نفسك يجعل منك شخصاً مملاً

1. <https://ourworldindata.org/working-more-than-ever>
2. Gordon, R J., 2016. *The Rise and Fall of American Growth*. Princeton University Press
3. [https://www.ilo.org/washington/news/WCMS\\_767753/ lang-- en/index.htm](https://www.ilo.org/washington/news/WCMS_767753/lang-en/index.htm)
4. <https://www.soas.ac.uk/cccac/events/cotton-sector-incentral-asia-2005/file49842.pdf>
5. <https://www.cato.org/economic-development-bulletin/case-against-child-labor-prohibitions>
6. Chang, H.J., 2015. *Economics: the user's guide*. Bloomsbury Publishing USA
7. De Neve, J.E. and Ward, G., 2017. "Does work make you happy? evidence from the world happiness report". *Harvard Business Review*, 4, pp. 1-7
8. See Card & Krueger for the counterargument: Card, D. and Krueger, A.B., 1993. Minimum wages and employment: A case study of the fast food industry in New Jersey and Pennsylvania
9. <https://www.bls.gov/news.release/union2.nr0.htm>
10. <https://www.history.com/this-day-in-history/fords-assembly-line-starts-rolling>
11. Krueger, A.B., Cramer, J. and Cho, D., 2014. "Are the longterm unemployed on the margins of the labor market?" *Brookings Papers on Economic Activity*, 2014(1), 229-99

- https://data.oecd.org/social/exp/public-unemployment-spending.htm .12
- https://www.economist.com/special-report/2021/04/08/the-case-for-danish-welfare .13
- Heilbroner, R.L. and Milberg, W., 2012. *The Making of Economic Society*. Pearson Education Company .14
15. غالبًا ما تنسب المقولة بشكل خاطئ إلى مارك توين
- Gordon, R.J., 2016. *The Rise and Fall of American Growth*. Princeton University Press .16

النزهة 13: الجزء 1: الجانب النظري من الأسواق المالية: لماذا من الضروري أن نحب العاملين بالمصارف؟

- https://www.rollingstone.com/politics/politics-news/the-great-american-bubble-machine-195229 .1
- Kay, J., 2016. *Other People's Money: Masters of the Universe or Servants of the People?* London: Profile Books Ltd .2
- With thanks to The Escape Artist for that metaphor: .3
- https://theescapeartist.me/2020/12/06/the-ice-sculpture-the-turkey-and-the-rollercoaster .4
- As of 1 January 2022 .4
5. عادةً ما يكون التنويع فعالاً. غير أنه في الأزمة المالية التي وقعت عام 2008، اتضح أن المخاطر لم تكن متنوعة بل مترابطة.
6. فكر في الأمر من وجهة نظر البنك، عندما يقرضونك المال مقابل رهن عقاري، فإنك تعد بمنحهم تدفّقاً شهرياً من المال طوال مدة استمرار الرهن العقاري، على سبيل المثال، 1000 جنيه إسترليني شهرياً مدة 25 عاماً، بالنسبة للبنك، فإن هذه الدفعات التي يتوقعها منك يعدها أحد أصوله.



7. كلمة "جامدة" تعني أصلًا لا يمكن تحويله إلى مال بسهولة أو بسرعة.

النزهة 13: الجزء 2: الأسواق المالية على أرض الواقع: ما الدوافع التي تؤدي لانهيائها؟ وكيف يمكنك تحقيق الثراء بوتيرة سريعة؟

1. <https://baselinescenario.com/financial-crisis-for-beginners>

أنصح بشدة بقراءة هذه السلسلة من المقالات لكل من يريد أن يفهم كيف ساءت الأمور هكذا.

1. Bebhuk, L.A., Cohen, A. and Spamann, H., 2010. "The wages of failure: Executive compensation at Bear Stearns and Lehman 2000-2008". *Yale J. on Reg.*, 27, 257

2. كما أن هذا لا يضع في الاعتبار أية عمولات أو رسوم قد تسدها على استثماراتك، وهو ما قد يحدث تغييرًا جوهريًا.

3. <https://theescapeartist.me/2016/01/21/the-3-numbers-that-can-make-you-a-millionaire>

4. <https://investor.vanguard.com/investing/how-to-invest/impact-of-costs>

الرسوم التي تدفعها على استثماراتك من المهم وضعها في الاعتبار، هب أنك استثمرت 100.000 جنيه إسترليني، إن حقق لك استثمارك عائدات بنسبة 6% سنويًا على مدار الـ 25 عامًا التالية، ولم تدفع أي تكاليف أو رسوم، فسينتهي بك الأمر بنحو 430,000 جنيه إسترليني، لكن إن كنت تدفع رسومًا بنسبة 2%، فبعد 25 عامًا سيكون لديك نحو 260 ألف جنيه إسترليني، فروق بسيطة في الدفع، لكن قد تحدث فروقات عظيمة بسبب التكاليف المركبة.

النزهة 14: المال

- Radford, R.A., 1945. "The economic organisation of a POW camp". 1  
*Economica*, 12(48), 189-201
- <https://www.britannica.com/event/Great-Depression> .2
- <https://www.ons.gov.uk/economy/governmentpublicsectorandtaxes/publicspending/bulletins/ukgovernmentdebtanddeficitforeurostatmaast/march2021> .3
- Taleb, N.N., 2021. Bitcoin, Currencies and Fragility .4  
[https://www.researchgate.net/publication/353065461\\_Bitcoin\\_Currencies\\_and\\_Fragility](https://www.researchgate.net/publication/353065461_Bitcoin_Currencies_and_Fragility)
- النزهة 15: الجزء 1: الكساد والركود، وما يمكن أن تفعله الحكومات للتصدي لآثارهما:  
السياسة المالية
- <https://www.marketplace.org/2019/06/05/economics-helped-spur-tiananmen-square-protests> .1
- <https://www.bbc.co.uk/news/business-52273988> .2
- <https://obr.uk/forecasts-in-depth/brief-guides-and-explainers/public-finance> .3
- <https://www.bbc.co.uk/news/business-52663523> .4
- <https://www.economist.com/finance-and-economics/2002/01/17/remember-fiscal-policy> .5
- النزهة 15: الجزء 2: الكساد والركود، وما يمكن أن تفعله الحكومات للتصدي لآثارهما:  
السياسة النقدية

<https://www.bankofengland.co.uk/monetary-policy> .1

<https://www.bankofengland.co.uk/monetary-policy> .2

- McLeay, M., Radia, A. and Thomas, R., 2014. "Money creation in the .3  
modern economy". *Bank of England Quarterly Bulletin*, p. Q1  
[https://saylordotorg.github.io/text\\_macro-economics-theory-through- .4  
applications/s15-01-the-quantity-theory-of-money.html](https://saylordotorg.github.io/text_macro-economics-theory-through-applications/s15-01-the-quantity-theory-of-money.html)  
[https://www.bankofengland.co.uk/-/media/boe/files/news/2012/july/th .5  
e-distributional-effects-of-asset- purchases-paper](https://www.bankofengland.co.uk/-/media/boe/files/news/2012/july/the-distributional-effects-of-asset-purchases-paper)  
[https://www.johnkay.com/2016/09/10/essay-on-modern-monetary- .6  
policy-pt-3-the-folly-of-negative-rates](https://www.johnkay.com/2016/09/10/essay-on-modern-monetary-policy-pt-3-the-folly-of-negative-rates)  
Kelton, S., 2020. *The Deficit Myth: Modern Monetary Theory and .7  
.How to Build a Better Economy*. PublicAffairs  
Murphy, R., 2020. Book Review: "The Deficit Myth: Modern .8  
Monetary Theory and the Birth of the People's Economy". *Quarterly  
Journal of Austrian Economics*, 23(2), 232-51.  
<https://doi.org/10.35297/qjae.010069>

## النزعة 16: العولمة: لماذا تسهم التجارة العالمية في زيادة رخائنا (باستثناء البعض)؟

- Lanchester, J., 2021. "Gargantuanisation". *London Review of Books*. 1  
.22 April 2021  
<https://ourworldindata.org/trade-and-globalization> .2  
[https://www.economist.com/by-invitation/2021/06/25/donald- .3  
boudreaux-and-douglas-irwin-on-free-trade-tips-from-1846](https://www.economist.com/by-invitation/2021/06/25/donald-boudreaux-and-douglas-irwin-on-free-trade-tips-from-1846)  
4. التغريدة الكاملة للرئيس ترامب في الساعة 11:04 صباحًا، 15 أغسطس 2018:  
"بلدنا بنيت لبناته من التعريفات الجمركية، والتعريفات الجمركية الآن تقودنا إلى  
صفقات تجارية جديدة وعظيمة، على عكس الصفقات التجارية الفظيعة وغير

العادلة التي ورثتها بصفتي رئيسكم. لا ينبغي السماح للدول الأخرى بالقدوم ها هنا وسرقة ثروة الولايات المتحدة العظيمة. لم يعد ذلك مسموحًا!"

<https://www.economist.com/economics-a-to-z/c#node-21529435> .5

بمعنى أن هذه هي المنطقة التي يكون هو فيها أقل سوءًا نسبيًا. لدى مجلة ذا ايكونوميست مثال جميل بالأرقام في حال لم يقنعك هذا

Movsesian, M.L., 2017. "Markets and morals: The limits of Doux .1  
.Commerce". *Wm. & Mary Bus. L. Rev.*, 9, 449

[https://www.economist.com/finance-and- .2  
economics/2016/12/08/economic-integration-and-the-four-freedoms](https://www.economist.com/finance-and-economics/2016/12/08/economic-integration-and-the-four-freedoms)

Goldstein, A., 2017. *Janesville: An American Story*. Simon and .3  
.Schuster

[https://web.worldbank.org/archive/website01072/Globalization/WEB/ .4  
PDF/ASSESS-4.PDF](https://web.worldbank.org/archive/website01072/Globalization/WEB/PDF/ASSESS-4.PDF)

[https://www.economist.com/open-future/2018/05/04/a-healthy-re- .5  
examination-of-free-trades-benefits-and-shocks](https://www.economist.com/open-future/2018/05/04/a-healthy-re-examination-of-free-trades-benefits-and-shocks)

Chang, H.J., 2015. *Economics: the user's guide*. Bloomsbury .6  
.Publishing USA

[https://www.economist.com/finance-and- .7  
economics/2017/09/23/china-sets-its-sights-on-dominating-sunrise-  
industries](https://www.economist.com/finance-and-economics/2017/09/23/china-sets-its-sights-on-dominating-sunrise-industries)

<https://data.worldbank.org> .8

## شكر وتقدير

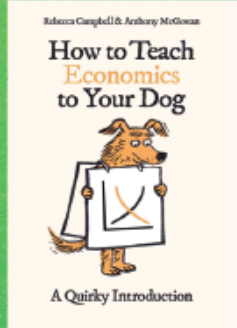
نشكر محررنا الرائع سام كارتز، الذي تحلى بالصبر والدقة المتناهية، وكذلك فريق Oneworld المتميز، بما في ذلك ريدا فاكواس، هولي نوكس، ماتيلدا وارنر، بول ناش، لورا ماكفارلين، آن بيهان، بن سامرز، مارك راشر، لوسي كوبر، جوليان بال وفرانشيسكا داوس.

وأيضًا نشكر تشارلي كامبل، الذي أتم الصفقة.

كما تتقدم ريبيكا بالشكر للبروفيسور ساندي بيبر من مدرسة لندن للاقتصاد (LSE) على دعمه وإلهامه وتشجيعه لها على مر السنين.

## الغلاف الخلفي





معالجة مشوقة لبعض التساؤلات الكبرى المطروحة في مجال الاقتصاد بطريقة ميسرة يسهل استيعابها من قبل العامة (ومن قبل الكلاب أيضا). إن موتني مجرد كلب وليس فذاً في الأمور المالية، مع ذلك، لا يزال الاقتصاد بشكل نمط حياته اليومية.

على مدار سبعة عشر نزهة، تناقش الدكتورة ريبكا كامبل بعض المفاهيم الاقتصادية وتعمق في كيفية تطبيقها على حياتنا بالنسبة للبشر والكلاب على حد سواء. لا يحتوي هذا الكتاب على أي رسوم بيانية، أو جداول (لأن موتني لا يستطيع قراءتها) وبكل تأكيد، لن تعثر هنا على تفاضل أو تكامل.

يتعامل هذا الكتاب مع طبيعة السؤال المعقد الذي يُطرح حول الماهية الحقيقية للاقتصاد. هل هو علم يغلب عليه الطابع الرياضي كالفيزياء، أم هو بحث أخلاقي وفلسفي في كيفية إدارة المجتمعات للموارد الشحيحة؟

نلتقي خلال رحلتنا ببعض المفكرين العظماء مثل آدم سميث وتوماس بيكيتي وغيرهما، كما أننا سنناقش بعض الأسئلة مثل: ما الذي يعنيه التيسير الكمي بالضبط؟ ولماذا تتمتع بعض الدول بثراء اقتصادي أكبر من غيرها؟





1. [الغلاف](#)
2. [الغلاف الامامي](#)
3. [حقوق الطبع والنشر](#)
4. [إشادات النقاد بهذا الكتاب](#)
5. [إهداء](#)
6. [مقدمة](#)
7. [النزهة ١: محمصة الخبز](#)
8. [النزهة ٢: الجزء ١: نبذة تشمل تقريبًا تاريخ كل شيء](#)
9. [النزهة ٢: الجزء ٢: الآباء المؤسسون](#)
10. [النزهة ٣: الجزء ١: الثورة الصناعية](#)
11. [النزهة ٣: الجزء ٢: موقف كارل ماركس من الثورة التي لم تحدث](#)
12. [النزهة ٤: الأسواق: من المسئول عن إمداد مدينة لندن بالخبز؟](#)
13. [النزهة ٥: سلوك الأسرة: لا يمكنك دائمًا الحصول على ما تريد، لكن إن حاولت يجد فسوف...](#)
14. [النزهة ٦: الشركات: الاحتكار، واحتكار القلة، والتواطؤ، والتنافس](#)
15. [النزهة ٧: الفائزون والخاسرون: الرأسمالية والأسواق وعدم المساواة](#)
16. [النزهة ٨: فشل منظومة السوق: التأثيرات الخارجية، والسلع العامة، والموارد](#)
17. [النزهة ٩: السوق والمعلومات: لمَ لم يعد شراب ريد بول يجعلك بأجنحة؟](#)
18. [النزهة ١٠: الناتج المحلي الإجمالي: ليس كل ما هو قابل للعد ذا قيمة](#)
19. [النزهة ١١: النمو الاقتصادي: كيف يمكننا جعل العالم مكانًا أفضل لعائلات مثل الجاكوتيرا والشاودري؟](#)
20. [النزهة ١٢: العمل المتواصل دون الترفيه عن نفسك يجعلك شخصًا مملًا](#)

21. [النزهة ١٣: الجزء ١: الجانب النظري من الأسواق المالية - لماذا من الضروري أن نحب العاملين بالمصارف؟](#)
22. [النزهة ١٣: الجزء الثاني: الأسواق المالية...](#)
23. [النزهة ١٤: المال](#)
24. [النزهة ١٥: الجزء ١: الكساد والركود، وما يمكن أن تفعله الحكومات للتصدي لآثارهما: السياسة المالية](#)
25. [النزهة ١٥: الجزء ٢: الكساد والركود، وما يمكن أن تفعله الحكومات للتصدي لآثارهما: السياسة النقدية](#)
26. [النزهة ١٦: العولمة: لماذا تسهم التجارة العالمية في زيادة رخائنا \(باستثناء البعض\)؟](#)
27. [النزهة ١٧: نزهة أخيرة إلى باحة دار العبادة](#)
28. [مصادر](#)
29. [شكر وتقدير](#)
30. [الغلاف الخلفي](#)

## Table of Contents

1	الغلاف الامامي
4	حقوق الطبع والنشر
11	إشادات النقاد بهذا الكتاب
14	إهداء
15	مقدمة
21	النزهة ١: محمصة الخبز
29	النزهة ٢: الجزء ١: نبذة تشمل تقريباً تاريخ كل شيء
44	النزهة ٢: الجزء ٢: الآباء المؤسسون
60	النزهة ٣: الجزء ١: الثورة الصناعية
69	النزهة ٣: الجزء ٢: موقف كارل ماركس من الثورة التي لم تحدث
80	النزهة ٤: الأسواق: من المسئول عن إمداد مدينة لندن بالخبز؟
99	النزهة ٥: سلوك الأسرة: لا يمكنك دائماً الحصول على ما تريد، لكن إن حاولت بجد فسوف...
114	النزهة ٦: الشركات: الاحتكار، واحتكار القلة، والتواطؤ، والتنافس
132	النزهة ٧: الفائزون والخاسرون: الرأسمالية والأسواق وعدم المساواة
154	النزهة ٨: فشل منظومة السوق: المؤثرات الخارجية، والسلع العامة، والموارد المشتركة
174	النزهة ٩: السوق والمعلومات: لِمَ لم يعد شراب ريد بول يجعلك بأجنحة؟
192	النزهة ١٠: الناتج المحلي الإجمالي: ليس كل ما هو قابل للعد ذا قيمة
210	النزهة ١١: النمو الاقتصادي: كيف يمكننا جعل العالم مكاناً أفضل لعائلات مثل الجاكوتيرا والشاودري؟
228	النزهة ١٢: العمل المتواصل دون الترفيه عن نفسك يجعلك شخصاً مملاً
248	النزهة ١٣: الجزء ١: الجانب النظري من الأسواق المالية - لماذا من الضروري أن نحب العاملين بالمصارف؟
263	النزهة ١٣: الجزء الثاني: الأسواق المالية...

279	النزهة ١٤ : المال
304	النزهة ١٥ : الجزء ١ : الكساد والركود، وما يمكن أن تفعله الحكومات للتصدي لآثارهما: السياسة المالية
316	النزهة ١٥ : الجزء ٢ : الكساد والركود، وما يمكن أن تفعله الحكومات للتصدي لآثارهما: السياسة النقدية
328	النزهة ١٦ : العولمة: لماذا تسهم التجارة العالمية في زيادة رخائنا (باستثناء البعض)؟
352	النزهة ١٧ : نزهة أخيرة إلى باحة دار العبادة
359	مصادر
372	شكر وتقدير
373	الغلاف الخلفي